

فريدريك إنجلز



# حالك الطبيعة العنايمة من إنجلز

ترجمة: فخرى لبيب



دار الثقافة الجديدة



فريدريك أنجلز

# حالة الطبقة العاملة في إنجلترا

من المشاهدة الشخصية والمصادر الرسمية (١)

ترجمة: فخرى البريوي

الناشر  
دار الثقافة الجديدة  
٣٣ شارع صبرى أبو علم — القاهرة  
ت : ٧٤٠٤٧١ — ٧٤٢٨٨٠

---

غلاف : محمد عزام

---

حالة الطبقة العامة  
في إنجلترا



رقم الايداع ٤٠٥٨ / ١٩٨٠

مطبعة عابدين  
٩ شت المقادس ٩٠٢٧٧٤

## إلى الطبقات العاملة في بريطانيا العظمى (٢)

### أيها العمال !

إليكم أمدى هملا حاولت فيه أن أضع أمام مواطني الألمان صورة أمينة عن وضعكم ، عن معاناتكم ونضالاتكم ، عن آمالكم ومطامعكم . لقد عشت فيما بينكم ردا من الزمن كافيا لأعرف شيئا ما عن ظروفكم ، ولقد كرست بجدة جل انتباهي للتعرف عليكم ، لقد درست الوثائق الرسمية وغير الرسمية المختلفة ، بقدر ما كان في مقدوري أن أحصل عليها ، ولم أكن راضيا بهذا ، كنت أريد أكثر من مجرد معرفة مجردة عن الموضوع الذي أتناوله ، كنت أود أن أراكم في منازلكم ، أن أعينكم وأنتم تمارسون حياتكم اليومية ، أن أتحدث معكم عن وضعكم ومظلماتكم ، لأشاهد نضالاتكم ضد سيطرة مضطهدين الاجتماعية والسياسية . ولهذا فقد قت : بنيد الصعوبة ومآدب الغداء ، ونبيذ وشبانيا الطبقة الوسطى ، وكرست ساعات فراغى بالكامل تقريبا للاختلاط بالرجال العاملين البسطاء ، ولأني لسعيد وفخور لفعل ما فعلت ، سعيد لأنى بهذا قد حفزت على قضاء ساعات عديدة سعيدة في تحصيل معرفة بحقائق الحياة — ساعات عديدة ، كان من الممكن أن تبدد لولا ذلك ، في حديث دارج ورسميات مملة ، فخور ، لأنى قد نلت بذلك فرصة لإنصاف طبقة من الرجال المضطهدين المفترى عليهم . والذين رغم كل أخطائهم ، وفي ظل كل ظروف أوضاعهم غير المواتية ، يستحوذون على إحترام كل أمرى . عدا تاجر المال الانجليزى ، فخور أيضا ، لأنى بذلك قد وضعت في موقع يمكننى من تجنيب الشعب الانجليزى المهانة المتزايدة والتي نمت في القارة الأوروبية كنتيجة ضرورية للسياسة الانانية بصورة بهيمية والسلوك العام لطبقتكم الوسطى الحاكمة .

كما كان لدى في ذات الوقت فرصة سانحة لمراقبة الطبقات الوسطى، خصوصكم، وسرعان ما وصلت إلى النتيجة، أنكم على صواب، على صواب تماما في عدم توقع أى مساندة مهما كانت منهم، إن مصحليهم تتعارض ومصالحكم على خط مستقيم، رغم أنهم سيحاولون دوما زعم النقيض، والعمل على أن تؤمنوا بأن جل تعاطفهم القلبي مع مصائركم. إن أعمالهم تحدد موقفهم. وآمل أن أكون قد جمعت أكثر من دليل كاف عن حقيقة أن الطبقات الوسطى — مهما كانت أقوالها — لا نلتوى في الواقع شيئا آخر غير ثرائها عن طريق عملكم طالما كان في وسعها أن تبيع ناتجها، وأن تترككم للدول جوعا حالمات تعجز عن تحقيق رخ من تلك التجارة المستترة باللحم الآدمي. ماذا فعلوا ليثبتوا حسن نيتهم الذي جاهرُوا به نحوكم؟ هل أعطوا في أى وقت من الأوقات، أى اهتمام جاد لمظلماتكم؟ هل فعلوا أكثر من دفع نفقات نصف دسسته من اللجان المنتدبة للتحري والاستقصاء، والتي قضى على تقاريرها الضخمه بأن ترقد رقدة أبدية بين أكوام الأوراق المهمة فوق أرفف المكتب الوطنى؟ هل قاموا حتى بقدر ما يمكن، بتجميع كتاب واحد مقروء من كل تلك الكتب الزرقاء الغثة، يمكن لأى أمرئ أن يحصل منه بسهولة عن حالة الغالبية العظمى من البريطانيين الذين ولدوا أحرارا؟ ليسوا هم من يفعل ذلك في الحقيقة، فتلك أشياء لا يحبون خوض الحديث فيها — لقد تركوها لأجنبي لينبئ العالم المنحضر عن الحالة المتردية التي عليكم أن تعيشوها.

أجنبي بالنسبة دلم، وليس كذلك بالنسبة دلكم، كما آمل. فرغم أن إنجليزيتى ليست خالصة، غير أنى آمل، أن تجدوها إنجليزية بسيطة. إن أحدا من العمال في إنجلترا — أو في فرنسا — والشئ بالشئ يذكر، لم يعاملنى قط كأجنبي. ولقد لاحظت بسرور بالغ أنكم متخلصين من تلك اللعنة المدمرة، من التعصب الوطنى والمجرفة للقومية، والتي رغم كل شئ لا تعنى إلا الانانية الشاملة — لقد لاحظت أنكم تتعاطفون مع كل أمرئ وضع قواه بجدية في خدمة تقدم البشرية — إنجليزيا كان أم لم يكن — وتعجبون بكل ما هو عظيم وخير، سواء تربى على تربة بلدكم أم لا — لقد وجدت أنكم أكثر من مجرد رجال إنجليز، أعضاء أسرة واحدة منزلة، لقد وجدت أنكم رجال، أعضاء



في الامرة البشرية العالمية الكبيرة، يعرفون أن - صالحهم وصالح الجنس  
البشرى بأجمعه واحد . وبناء على ذلك ، وباعتبار أنكم أعضاء في هذه العائلة  
من الجنس البشرى ، الواحد الذي لا يتجزأ ، كأدبيين بكل ما تحمله الكلمة من  
إصرار ، مثلكم في ذلك مثلى ، ومثل آخرين عديدين في القارة الاوربية، يحبون  
تقدمكم في كل اتجاه ويتمنون لكم نجاحا عابجا - استمروا إذن ؛ كما فعلتم حتى  
الآن، إن كثيرا من البقايا يجب إخضاعها ، كونوا صابرين ، كونوا غير هيابين -  
فنجاحكم مؤكد ، وإن تضيق أى خطوة تخطونها في مسيرتكم نحو الامام ، أنها  
خطوة من أجل قضيتنا المشتركة ، قضية الإنسانية .

بارمن ( رينان بروسيا )

١٥ مارس ١٨٤٥

كتبها انجلز بالانجليزية

ونشرت بالطبعة الألمانية الأولى

عن وضع الطبقة العاملة في انجلترا

ليبريج ، ١٨٤٥

فردريك انجلز

طبعت طبقا لنص الكتاب



## تقديم للطبعة الألمانية الأولى

إن الكتاب الذى أقدم له بالصفحات التالية يعالج موضوعا كنت أنوى فى الأصل أن أتناوله فى فصل واحد من عمل أكثر شمولا يتناول التاريخ الاجتماعى لإنجلترا . على أن أهمية ذلك الموضوع سرعان ما حتمت على تقصيه منفردا .

إن وضع الطبقة العاملة هو القاعدة الحقيقية ونقطة التحول لكل الحركات الاجتماعية فى الحاضر، لأنه الذروة العليا والأكثر إفصاحاً عن البؤس الاجتماعى الموجود فى عصرنا . إن شيوعية الطبقة العاملة الفرنسية والألمانية هى نواتجها المباشرة ، كما أن مذهب فورييه والاشتراكية الإنجليزية ، كذا شيوعية البورجوازية الألمانية المشتقة هى نواتجها غير المباشرة . إن معرفة أوضاع البروليتاريا ضرورية للغاية ، حتى يكون فى الوسع توفير أرض صلبة للنظريات الاشتراكية ، هذا من ناحية ، ولإصدار أحكام عن حقها فى التواجد ، من ناحية أخرى ، ولوضع نهاية لكل الأحلام العاطفية والأوهام ، ما لها وما عليها . غير أن أوضاع البروليتاريا تتواجد فى شكلها الكلاسيكى ، فى شكلها الكامل ، فقط فى الامبراطورية البريطانية ، وعلى الخصوص فى إنجلترا ذاتها . فضلا عن ذلك ، فإنه فى إنجلترا وحدها قد جمعت بصورة تامة كل المادة اللازمة ، وتم تدوينها بواسطة تحقيقات رسمية ، على نحو يوفر بشكل دائم ما يلزم لآى دارس لتقديم عرض مستفيض للموضوع .



لقد واثقتى للفرصة مدة واحد وعشرين شهرا لا أعرف بالبروليتاريا الانجليزية، كدحها، أحزانها وأفراحها، لأراها عن كثب، من خلال الملاحظة الشخصية والمخاطبة الشخصية، وفي ذات الوقت، أكل ملاحظاتي مستعينا بالمصادر الرسمية الضرورية. إن كل ما رأيته، وسمعته وقرأته قد تم بحثه في هذا الكتاب. إننى مستعد، ليس فقط لرؤية وجهات نظرى تهاجم فى كثير من الأجزاء، بل أيضا الحقائق التى أوردتها، خاصة عندما يصل الكتاب إلى أيدي الانجليز. إننى أعرف جيدا بالمثل؛ أنه ربما يثبت خطأى هنا أو هناك فى بعض التفاصيل التى لا أهمية لها، شئ ما — حتى بالنسبة للرجل الانجليزى — لا يمكن تجنبه نظرا لطبيعة الموضوع الشاملة وإفراضاته بعيدة المدى، حيث أنه حتى فى إنجلترا لا يوجد مؤلف واحد، مثل مؤلفى، يتناول كل المهام. غير أننى — دون لحظة تردد واحدة — أنحدى البورجوازية الانجليزية، أن تثبت أننى قد ارتكبت جرم عدم الدقة ولو حتى فى مثال واحد، لآى نتيجة أوضحت بها وجهة نظرى ككل، وأن تثبت ذلك بالبيانات الرسمية، كبياناتى.

إن وصف الشكل الكلاسيكى، الذى اتخذته ظروف حياة البروليتاريا فى بريطانيا هام جداً، وخاصة من أجل ألمانيا، وعلى وجه الدقة فى اللحظة الراهنة. إن الاشتراكية والشيوعية الألمانية، قد انبعشت أكثر من غيرها؛ من إقتراضات نظرية، إننا معشر الألمان المهتمين بالعلوم النظرية، ما يزال نعرف القليل جداً عن العالم الحقيقى، وتسوقنا العلاقات الواقعية مباشرة، إلى معالجة هذه الحقيقة السيئة، بالإجراءات الإصلاحية. وعلى أية حال فإن أحداً من أبطال تبرير تلك الإصلاحات لم يبلغ الشيوعية، ماعداً من سلك طريق التحلل الفيورباخى للفكر الهيجل. إن الأوضاع الحقيقة لحياة البروليتاريا معروفة فيما بيننا بقدر ضئيل للغاية، حتى أن حسن النية التى تعالج به خطأ، بورجوازيتنا اليوم، المشكلة الاجتماعية وبتجمعات تنهض بالطبقات العاملة، يبدأ دائماً من أشد الأحكام سخفاً وبعداً عن الصواب فيما يخص أوضاع العمال. إننا معشر الألمان نحتاج إلى معرفة الحقائق التى تخص تلك المشكلة أكثر من غيرنا. وفى حين أن أحوال معيشة البروليتاريا الألمانية لم تتخذ للشكل الكلاسيكى الذى

اتخذته في إنجلترا ، فإن لدينا مع ذلك ، نفس النظام الاجتماعي عند القاع ، والذي سيصل إن أجلا أو عاجلا إلى نفس الدرجة من الحدة التي بلغها بالفعل عبر البحر الشبالي ، إن لم يمد ذكاء الأمة السبيل أمام اختيار تدابير قادرة على أن تعطى أسس جديدة لكل النظام الاجتماعي . إن العمل الجذرية والتي كانت تتيحها في إنجلترا تعاسة وقهر البروليتاريا ، إنما هي كائنة أيضا في ألمانيا ، ولا بد أن تؤدي في المدى الطويل إلى نفس النتائج . وخلال ذلك ، على أية حال ، سوف نستحدثنا الحقيقة الراسخة عن الأوضاع التعسة في إنجلترا إلى أن نرسخ نحن أيضا في ألمانيا حقيقة الأوضاع التعسة ، كما سوف تمهدنا بمعيار يمكننا من قياس مدى اتساعها وحجم الخطر — الذي وضعته في الأضواء اضطرابات سيليسيا وبوهيميا (٢) — الذي يهدد مباشرة طمأنينة ألمانيا وهدوئها من تلك الناحية .

وأخيرا ، فإزالة هنالك ملاحظتان أود أن أضعهما : أولا ، إنني قد استخدمت طول الوقت كلمة *Mittelklasse* بالمعنى الانجليزي لكلمة الطبقة الوسطى ( أو الطبقات الوسطى كما يقال دائما على وجه التقريب ) ، مثل الكلمة الفرنسية *bourgeoisie* والتي تعني الطبقة المالكة ، وبمعنى آخر تلك الطبقة المالكة والتي تميز عن تلك التي تدعى بالارستقراطية — الطبقة التي تقبض في فرنسا وإنجلترا على السلطة السياسية بشكل مباشر ، وفي ألمانيا بشكل غير مباشر ، حيث تصور على أنها ممثلة للرأي العام . وبالمثل استخدمت تعبيرات الرجال العاملين ( *Arbeiter* ) والبروليتاريون ، الطبقة العاملة ، طبقة المعدمين ، والبروليتاريا ، كتعبيرات مناظرة لبعضها البعض . ثانياً ، إنني في حالة جل الإقتباسات ، أشرت إلى الحزب الذي ينتمي إليه المواقف ، حيث يحاول الليبراليون في كل مناسبة تقريبا أن يؤكدوا على التعاسة الموجودة في المناطق الريفية وأن يستبعدوا من جدولهم تلك الكائنة في المراكز الصناعية . بينما على نقيض ذلك ، يقر المحافظون بالشقاء السكان بالمراكز الصناعية ، غير أنهم ينكرون أية معرفة عنه في المناطق الزراعية . وانفس السبب ، فضلت على الدوام أن أقدم دليلا من مصادر ليبرالية كلما أعوزتني الوثائق الرسمية التي تصف وضع عمال الصناعة

حتى أهزم البورجوازية الليبرالية بقذف كلماتها في أسنانها . واستشهدت  
بالمحافظين ، أو الميثاقيين ، كسند لي فقط عندما كان في وسعي أن أثبت  
صحتهم من خلال ملاحظة شخصية أو أقنعتني صدق الحقائق المقتضية بسبب  
السمة الشخصية أو الأدبية للبيئات التي استشهدت بها .

ف . انجلز

طبعت طبقا لنص الكتاب

وترجمة عن الألمانية

بارمن ١٥ مارس ١٨٤٥

نشرت بالطبعة الألمانية لوضع

الطبقة العاملة في إنجلترا

لينينج ، ١٨٤٥



## مقدمة:

يبدأ تاريخ البروليتاريا في إنجلترا مع النصف الثاني من القرن الماضي مع اختراع الآلة البخارية وآلة تشغيل القطن . لقد سببت تلك الاختراعات ، كما هو معروف جيداً ، ثورة صناعية ، ثورة غيرت كل المجتمع المدني ، ثورة تبدأ الآن فقط ، معرفة أهميتها التاريخية . إن إنجلترا هي التربة الكلاسيكية لمثل هذا التحول ، الذي كان من أقوى التحولات ، وأكثرها مضياً في سكون ، ولذا ، فإن إنجلترا هي أيضاً الأرض الكلاسيكية ، لنتائجها الأساسية ، البروليتاريا ، إنه في إنجلترا وحدها ، يمكن دراسة البروليتاريا في كل علاقاتها ، ومن جميع الجوانب .

إننا لسنا ، هنا والآن ، بصدد التعرض ، لتاريخ هذه الثورة ، ولا بصدد أهميتها الضخمة بالنسبة للحاضر أو المستقبل . إن مثل هذا التحديد يجب إدخاره لعمل أكثر شمولاً في المستقبل ، يجب بالنسبة للدراسة الحالية ، أن نحدد أنفسنا بالقليل الضروري لفهم الحقائق للنتيجة ، لفهم الحالة الراهنة للبروليتاريا الانجليزية .

كان غزل ونسج المواد الخام ، يتم قبل إدخال الآلة ، في منزل العامل . فتقوم الزوجة والابنة بغزل خيط الغزل الذي يقوم الأب بنسجه ، أو يبيعه ، إن لم ينجز الأب العمل بنفسه . كانت عائلات النساجين تعيش في الريف المجاور للمدن ، وكان في وسعهم الحصول على أجور جيدة إلى حد ما ، حيث كان السوق الوطني يكاد أن يكون السوق الوحيد ، ولم تكن القوة الساحقة للمنافسة والتي جاءت فيما بعد ، يهاجمها قهر الأسواق الأجنبية وإتساع التجارة . تضغط على الأجور ، كان هنالك ، فوق ذلك ، ازدياد دائم في الطلب ، للسوق الوطني ، تمشياً مع

الزيادة البطيئة في السكان وتشغيل كل العمال ، كما كان هناك أيضاً استحالة وجود منافسة شديدة بين العمال وبعضهم البعض ، نتيجة تشتت دورهم في القرى . ولذا كان النساج على الدوام في وضع يمكنه من أن يدخل شيئاً ما <sup>ستاجر قطعة</sup> صغيرة من الأرض ، يقوم على فلاحتها في ساعات فراغه ، كان لديه منها الكثير ، ليختار منها ما يريد ، حيث كان في وسعه أن ينسج وقتما شاء ، وطالما يشاء هو ذلك . حقاً ، لقد كان مزارعاً سيئاً ، دبر شئون أرضه بطريقة قاصرة ، ولم يكن يحصل في الغالب إلا على عصولات هزيلة ، ومع ذلك فإنه لم يكن بروايتاريا ، كان له ركنة في الريف ، حيث يقيم بصفة دائمة ، كان يشغل في المجتمع درجة أعلى من الدرجة التي يشغلها العامل الانجليزي اليوم .

وبهذا نهت العمال عبر وجود مريح إلى حد لا بأس به ، يمارسون حياة وراحة آمنة بكل تقوى واستقامة ، وكان وضعهم المادي أفضل بكثير من خلفائهم ، لم يكونوا في حاجة إلى أن يجهدوا أنفسهم ، لم يكونوا يعملون أكثر مما اختاروا ليعملوه ، بيد أنهم يكسبون قدر حاجتهم . كان لديهم وقت فراغ للعمل الصحي في الحديقة أو الحقل ، العمل الذي كان في حد ذاته استجماماً لهم ، وكان في وسعهم ، بالإضافة إلى ذلك ، أن يشاركوا في عمليات الترويح عن النفس وفي ألعاب جيرانهم ، وكل تلك الألعاب — من باولينج ، كريكييت وكرة قدم . . . الخ ، أسهمت في صحتهم البدنية ومناعتهم . لقد كانوا بشكل عام ، قوماً أقوياء ، أشداء ، وكان يوجد فرق بسيط أو لا يوجد أي فرق واضح ، بين بنيتهم الجسدية وبنية جيرانهم الفلاحين . لقد نما أبنائهم في هراء الريف النقي ، وحتى لو كان في وسعهم أن يساعدوا والديهم في العمل ، فقد كان ذلك لماماً فقط ، لم تكن لديهم مشكلة عمل ، مدته ثمانى أو اثني عشرة ساعة .

ويمكن التمكن بما كانت عليه أخلاق هذه الطبقة وحالتها الفكرية ، كان أفرادها فاقدي الصلة بالمدينة ، إذ لم يدخلوها أبداً ، فقد كانت خيوط الغزل والقماش الذي غزلوه يسلم إلى عملاء منقابين مختصين بدفع الأجور — كانوا معزولين حتى أن الرجال المسنين ، والذين عاشوا كلية قرب المدينة ، لم يذهبوا إلى هناك أبداً ، حتى سلبوا من حرفتهم ، بإدخال الآلة ، وأجبروا على البحث حولهم عن عمل في المدينة — إن النساجين يقفون على الأرضية الأخلاقية والفكرية للفلاحين الملاك

والذين كانوا على ارتباط دائم مباشر بهم من خلال ممتلكاتهم الضئيلة . كانوا يتظرون إلى صاحب ضيعتهم ، أكبر مالك أرض في المنطقة ، على أنه أرفعهم منزلة ، يطلبون منه النصيح ، يضعون أمامه نزاعاتهم الصغيرة لتسويتها ، وينسجون الفضل له ، كما تقتضى مثل هذه العلاقة الأبوية . كانوا قوماً محترمين ، أزواج وآباء صالحين ، يقضون حيواتهم بطريقة أخلاقية ، حيث لم يكن هناك ما يغيرهم كي يكونوا فسقة ، لم تكن هناك حانات ، ولا دور منحة في جوارهم ، وكان صاحب الفندق الذى يطفئون ظمأهم في خاتمة ما بين الحين ، والحين رجلاً محترماً أيضاً ، وغالباً ما يكون مزارعاً مستأجراً كبيراً ، يعتز بنظامه الجيد ، وبيرته الجيدة ، وأوقاته المبكرة . كانوا يبقون أولادهم طوال اليوم بالمنزل ، وينشئونهم على طاعة ومخافة الله ، وظلمت العلاقة الأبوية ، لا بشو بها كدر ، طالما ظل الآباء غير متزوجين . وكان الشباب يشبون في بساطة ريفية شاعرية وألفة مع أقرانهم حتى يتزوجوا ، ولو أن ممارسة الجنس كانت تكاد لا تنقطع قبل الزواج تقريباً ، إلا أن ذلك كان يحدث فقط عندما يكون الالتزام الأخلاقى بالزواج معروفاً لدى الطرفين ، فتعاد الأمور إلى نصابها بعقد قران لاحق . وباختصار ، عاش العمال الصناعيون الانجليز وفكروا خلال ذاك الزمن ، على نفس النمط الذى ما يزال موجوداً فى ألمانيا هنا وهناك ، عاشوا فى عزلة وخلوة ، دون أى نشاط ذهنى ودون تقلبات عنيفة فى وضعهم من الحياة . نادراً ما كان فى وسعهم أن يقرأوا ، وأكثر ندرة أن يكتبوا . يذهبون بانتظام إلى الكنيسة . لم يتحدثوا مطلقاً فى السياسة ، لم يتأمرروا البتة ، لم يفكروا أبداً ، سعداء بالتمارين الرياضية ، مستمعين إلى الإنجيل عندما يقرء فى تبجيل متوارث ، مفرطين فى ميولهم الحسنة نحو الطبقات العليا . غير أنهم كانوا من الناحية الثقافية أمواتاً ، يعيشون فقط ، من أجل مصالحهم الخاصة الجزئية ، من أجل أنوالهم وحدائقهم ، لا يعرفون شيئاً عن الحركة الجبارة والى كانت تعصف بالجنس البشرى خارج أفقهم . كانوا ناعمين بخضرتهم المادنة ، ولولا الثورة الصناعية لما غادروا هذا الوجود مطلقاً ، والذى رغم كونه رومانطيقياً بطريقة مريحة ، إلا أنه لم يكن جديراً بالبشر ، وفى الحقيقة ، فأنهم لم يكونوا بشراً ، كانوا مجرد آلات تعمل فى جهد وعناء فى خدمة القلة الإرسطراطية ، والى وجهت التاريخ هبوطاً حتى ذلك الحين ، وأوصلت الثورة الصناعية هذا الوضع فى بساطة إلى انتهاء المنطق ، بأن جعلت عمال



الآلات خالصين وبسطاء ، آخذة منهم آخر بقايا النشاط المستقل ، وبذا فرضت عليهم أن يفكروا وأن يطالبوا بمكانة جدرة بالرجال . ويحدث في الصناعة الآلية في انجلترا ، وفي حركة المجتمع المدنية بشكل عام ، ما يحدث في الأمور السياسية بفرنسا ، إذ أن دوامة التاريخ ، تجر آخر الطبقات التي ظلت غارقة في لا مبالاة بليدة ، نحو الاهتمامات العالمية للجنس البشرى .

إن أول اختراع تسبب في تغيير جذري في حالة العمال الانجليز كان دولاب الغزل ، اخترعه نساج يدعى د جيمس هارجريفز ، من دستاند هيل ، ، قرب د بلاكبورن ، ، في شمال لانكشاير ، عام ١٧٦٤ . كانت تلك الآلة هي البداية الفجة ، لآلة غزل القطن التي اخترعت فيما بعد ، وكان يتم تحريكها باليد ، وبدلاً من المغزل الواحد ، كما الحال في دولاب الغزل العادي ، كانت تحمل ستة عشر أو ثمانية عشرة مغزلاً ، يشغلها بمهارة عامل واحد ، وغداً من المستطاع بفضل هذا الاختراع ، تسليم خيط غزل أكثر مما كان فيما مضى . ومع أن نساجاً واحداً ، كان يوظف لديه ثلاث غزاليين ، غير أن خيط الغزل لم يكن كاف البتة ، وكان النساج يضطر في غالب الأحيان لانتظاره ، أما الآن فإن خيط الغزل المتوفر ، أكثر مما يمكن نسجه بواسطة العمال الموجودين . إن الطلب على البضائع المنسوجة في إزدیاد بالفعل ، لقد إزداد حتى الآن أكثر ، نتيجة رخص تلك البضائع ، والتي كان رخصها بالتالي ، محصلة للتكلفة المنخفضة لإنتاج خيط الغزل . زاد الاحتياج على النساجين ، وارتفعت أجورهم . فهجر النساج زراعته وأعطى كل وقته للتسبيج ، حيث أصبح في وسعه الآن أن يربح أكثر من منساجه . في ذلك الوقت كان في وسع عائلة مكونة من أربع أشخاص بالغين وطفلين ( والذين أجلسوا للف الخيوط على البكر ) أن يكسبوا من وراء عشر ساعات عمل يومياً ، أربعة جنيهات استرلينية في الأسبوع ، وغالباً أكثر من ذلك ، إن راجت التجارة وإزداد ضغط العمل . وكثيراً ما حدث ، في غالب الأحيان ، أن نساجاً واحداً حصل على جنيهين اثنين بالعمل على منساجه . وبالتدريج إختفت كلفة طبقة النساجين المزارعين ، وأدجمت في طبقة النساجين الصاعدة حديثاً ، والتي تعتمد كلفة على الأجور . ليس لديها عقار مهما كان ، ولا حتى الملكية غير الحقيقية لقطعة أرض ، وهكذا صاروا رجالاً عامليين ، صاروا بروتستانتين وبالإضافة إلى

ذلك تحطمت العلاقة القديمة بين الغزال والنساج ، وهكذا ، فإن خيط الغزل ، كان حتى ذلك الوقت يغزل وينسج تحت سقف واحد طالما كان ذلك مستطاعاً .  
والآن حيث أن آلة الغزل ، مثلها في ذلك مثل المنساج ، تحتاج إلى مساعد قوى ، بدأ الرجال يغزلون ، وحاشيت أسر كاملة على عملية الغزل ، بينما ألقت غيرها جانباً بدولاب الغزل العتيق الذي أبطل استعماله ، وأجبرت على الحياة معتمدة على أجور الآباء ، إن لم تكن لديها دخولا تفي بشراء آلة غزل . وهكذا بدأ الغزل والنسيج ، منذ ذلك الحين ، عملية تقسيم العمل تلك ، تقسيماً محكماً للغاية .

بينما كانت البروليتاريا الصناعية تتطور على هذا النمط ، مع أول آلة ما تزال قاصرة للغاية ، تسببت نفس الآلة في ظهور البروليتاريا الزراعية . كان هناك حتى الآن ، عدد كبير من ملاك الأراضي الصغار ، والفلاحين الملاك ، الذين نبتوا في نفس الركود الذهني ، الذي أبت فيه أجيرانهم النساجين المزارعين . كانوا يفلحون نتفا من الأراضي بنفس النمط القديم القاصر الذي جرى عليه أسلافهم ، وعارضوا كل تغيير بعناد يقسم به أمثال هؤلاء من صنائع العادة ، بعد أن مكثوا ساكنين جيلاً بعد جيل . كان بينهم عديد من صغار الملاك أيضاً ، لم يكونوا كباراً بالمعنى الحالي للكلمة ، بل كانوا أناساً انتقلت إليهم الأرض عن آبائهم ، إما بعقد إيجار موروث ، أو بقوة العرف القديم ، وكانوا حتى الآن يقبضون على تلك الأرض بأحكام ، وكأنها كانت بالفعل ملكهم الخاص . لقد أصاب التيهل عدداً كبيراً من قطع الأرض الصغيرة ، عندما انسحب العمال الصناعيون من الزراعة ، وفوق تلك القطع ، وطدت الطبقة الجديدة من كبار المستأجرين أنفسهم ، كانوا مستأجرين وفق إرادتهم ، وقد إقتنوا خمسين ، مائة ، مائتين أو أكثر من الأكرات ، كانوا عرضة للطرد في نهاية العام ، غير أنهم كانوا قادرين بالفلاحة المحسنة والزراعة الأوسع أن يزيدوا عائد الأرض . كان في وسعهم أن يبيعوا منتجهم بسعر أرخص من الفلاح المالك ، والذي لا يتبقى له شيء غير بيع مزرعته ، إن هي كفت عن القيام ببنقته ، ويحصل على آلة غزل أو منساج ، أو يشتغل كعامل زراعي في خدمة مزارع كبير . إن بطئه الموروث ، وطرق الفلاحة للقاصرة التي خلفها أسلافه ، لم تترك له بديلاً . عندما أجبر على منافسة رجال يديرون أراضيهم طبقاً لقواعد خصيفة بالإضافة إلى المزايا التي تحققها الزراعة على نطاق واسع ، وتوظيف رأس المال في تخمين الثروة .

وفي تلك الاثناء لم تتوقف الحركة الصناعية عند هذا الحد. لقد بدأ رأسماليون أفراد في جميع آلات الغزل في ابنية كبيرة واستخدام قوة الماء في تحريكها ، وبذا أصبحوا في وضع يمكنهم من إنقاص عدد العمال ، وينع خيط الغزل بسعر أرخص من السعر الذي يستطيع الغزاليون الافراد أن يبيعوا به ، ولقد كان يدير هؤلاء ، ماكيناتهم باستخدام اليد ، كانت هناك تحسينات مستمرة في آلة الغزل ، حتى أن الآلات كانت تتقدم باستمرار، ولزم تعديلها أو طرحها جانباً، ورغم أنه كان في وسع الرأسماليين أن يصعدوا ، وذلك باستخدام الماء كقوة محرك حتى مع الآلات القديمة ، إلا أن ذلك كان مستحيلاً بالنسبة للغزال الفرد. واستقبل نظام المصنع ، والذي كانت بدايته قد وضعت توسعاً جديداً في عام ١٧٦٧ ، بواسطة آلة الغزل التي اخترعها د ريتشارد أركرايت ، وهو حلاق من « يريستون » الواقعة شمالي « لانكشاير » . وتعتبر هذه الآلة أهم اختراعات القرن الثامن عشر بعد الآلة البخارية . لقد أعدت منذ البداية كي تعمل بالقوة الميكانيكية المحركة ، وأقيمت على قواعد جديدة تمام الجدة . وفي عام ١٧٨٥ استنبت « صامويل كرومبتون » من « فيرور » ، « لانكشاير » ، آلة غزل القطن ، وذلك بمزج الصفات المميزة ، لكلا من دولاب الغزل ، وآلة الغزل ، وكذا اخترع « أركرايت » آلة التشغيل ، وأطر التجهيز في نفس الوقت تقريباً . وغداً نظام المصنع هو النظام السائد في عمالية غزل القطن . وهيأت تلك الآلات تدريجياً ، عن طريق تعديلات طفيفة ، لغزل الصوف ، وفيما بعد ( في العقد الأول من هذا القرن ) لغزل الكتان أيضاً ، وبذا حلت هنا أيضاً ، محل العمل اليدوي . وحتى حينذاك لم تكن النهاية قد حلت بعد . ففي سني نهاية القرن الماضي ، اخترع د د . كارترايت ، وهو راعي كنيسة ريفية ، المنساج الذي يعمل بالقوة المحركة ، وفرابة عام ١٨٠٤ كان قد تمكن اختراعه إلى حد كبير ، حتى غداً في مقدوره منافسة المنسج اليدوي بنجاح ، وضاعفت الآلة البخارية التي اخترعها د جيمس وات ، عام ١٧٦٤ من أهمية كل تلك الآلات ، حيث استخدمت لتوفير طاقة محرك للغزل منذ عام ١٧٨٥ .

وبهذه الاختراعات ، والتي كان يتم تحسينها منذ ذلك الحين ، من عام إلى عام ، تحقق النصر للعمل الآلي على العمل اليدوي في الفروع الأساسية للصناعة

الإنجليزية ، ويرى تاريخ الأخيرة ، كيف أنه منذ ذلك الوقت وما تلاه ، سادت الآلة ، العمال اليدويين من وضع إلى وضع آخر . وكانت نتائج ذلك ، هبوط سريع في أسعار كل السلع المصنوعة ، ازدهار التجارة والصناعة ، إخضاع كل الأسواق الأجنبية غير المحمية تقريباً وتضاعف رأس المال والثروة القومية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، تضاعفت البروليتاريا في هدوء وبسرعة أكبر ، تدمير كل ملكية الأرض ، وكل ضمان لتشغيل الطبقة العاملة ، إفساد الأخلاق ، الهياج السياسي ، وكل تلك الحقائق التي ينفر منها الإنجليز غاية النفور ، في ظل ظروف مريحة ، والتي علينا أن نضعها في الاعتبار ، في الصفحات التالية . أما وقد رأينا أي تعبير صنعته آلة واحدة قبيحة كدولاب الغزل ، في الحالة الاجتماعية للطبقات الدنيا ، فإنه ليس هناك مبرر للدهشة لما يحدثه نظام كامل يعتمد على بعضه البعض ، آلات تم نهيلها ببراءة ، آلات تتلقى المراد الخام لتنتج بضائع منسوجة .

دعونا نتابع بدقة أكثر ، نوعاً ما ، تطور الصناعة الإنجليزية (\*) في تلك الأثناء ، مبتدئين بصناعة القطن ، ففي سنوات ١٧٧١ — ١٧٧٥ كان يجلب سنوياً إلى إنجلترا ما يقل عن ٥,٠٠٠,٠٠٠ رطل من القطن الخام تقريباً ، وفي عام ١٨٤١ جلب ٥٢٨,٠٠٠,٠٠٠ رطل ، بينما يصل الوارد في عام ١٨٤٤ إلى ٦٠٠,٠٠٠,٠٠٠ رطل على الأقل . وقد صدرت إنجلترا في عام ١٨٣٤ ٥٥٦,٠٠٠,٠٠٠ ياردة من السلع القطنية المنسوجة ، ٧٦,٥٠٠,٠٠٠ رطلاً من غزل القطن ، ومن الملابس التحتية القطنية ما قيمته ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني ، وفي نفس العام كان يعمل في خدمة صناعة القطن أكثر من ٨,٠٠٠,٠٠٠ مغزل

---

(\*) طبقاً لكتاب « بورتر » عن « التقدم والآلة » ، لندن ١٨٣٦ — الجزء الأول ، ١٨٣٨ — الجزء الثاني ، ١٨٤٣ — الجزء الثالث ( بيانات رسمية ) ، ومصادر أخرى ، رسمية في الأساس ، [ إن الخطوط التاريخية للثورة الصناعية ، كما هي واردة أعلاه ، ليست بالضبط في تفصيل معين ، غير أنه لم تكن هنالك في ١٨٤٣ — ٤٤ مصادر متاحة أفضل من ذلك ( أضيفت في الطبعة الألمانية — لعام ١٨٩٢ ) ] .



بآلات الغزل، ١١٠,٠٠٠ قوة محرك و ٢٥٠,٠٠٠ نول يدوى ، ولم تدخل  
المغازل اليدوية في الحسبان ، وطبقاً لإحصاء د ماك كيولوك ، فإن ما يقرب من  
مليون ونصف المليون آدمي ، كان يقوم بهذا النوع من الصناعة بإعالتهم ، والذين  
كان يعمل ٢٢٠,٠٠٠ منهم في المصانع ، التي كانت يستخدم فيها البخار كقوة  
محركة ، قوة تعادل قوة ٣٣,٠٠٠ حصان ، وقوة المياه التي تعادل ١١,٠٠٠  
حصان . أن هذه الأرقام في وقتنا الحالي بعيدة عن الحقيقة ، ويمكن الإدعاء  
باطمئنان ، أن القوة المحركة وعدد الماكينات وعدد العمال في عام ١٨٤٥ يفوق  
تلك الكائنة عام ١٨٣٤ بأكثر من نصفها . إن المركز الرئيسي لهذه الصناعة هو  
لانكشاير ، حيث نشأت ، لقد أحدثت هذه الصناعة ثورة كاملة في هذا الإقليم ،  
محولة إياه من مستنقع خامل تساء فلاحته ، إلى منطقة مزدهرة مزدهرة ، يتضاعف  
عدد سكانها إلى عشرة أمثال ، خلال ثمانين عاماً ، باعثة مـمـدن عملاقة مثل  
« ليفربول » و « مانشستر » واللذان كان يسكنهما ٧٠٠,٠٠٠ نسمة ، والمدن التي  
تجاورها ، « بولتون » وسكانها ٦٠,٠٠٠ ، « روكداال » وسكانها ٧٥,٠٠٠ ،  
« أولدهام » وسكانها ٥٠,٠٠٠ ، « برستون » وسكانها ٦٠,٠٠٠ ، « أشتون »  
و « وستالبيريدج » وسكانها ٤٠,٠٠٠ ، وبوغت قائمة كاملة من المدن الصناعية  
الأخرى ، وكإنما كل ذلك ، قد تم بلهسة سحرية ، إن تاريخ جنوب لانكشاير ،  
يشمل على بعض من أعظم الأعاجيب في الأزمنة الحديثة ، غير أن أحداً لم  
يذكرها على الإطلاق ، وتلك كل المعجزات إنما هي نتاج صناعة القطن . كما إزداد  
أيضاً تعداد « جلاسجو » قلب مركز القطن في « إسكتلندا » ، أما بالنسبة  
« الانكشاير » و « ريفريشاير » ، فقد إزداد من ٣٠,٠٠٠ نسمة إلى ٣٠٠,٠٠٠  
نسمة منذ دخلت الصناعة . وأمدت أسعار الغزل المنخفضة ، صناعة الجوارب  
في « نوتينجهام » و « دربي » بدفعة جديدة ، تلتها دفعة أخرى ، نتجت عن  
تحسين منساج الجوارب الطويلة ، والذي غداً من الممكن بواسطته نسج جوربين  
طويلين في المرة الواحدة ، وغدت صناعة المخزومات أيضاً ، فرعاً هاماً من  
فروع الصناعة ، بعد إختراع آلة المخزومات عام ١٧٧٧ ، وسرعان ما اخترع  
« ليندلي » بعد هذا التاريخ آلة شبكة الرؤوس المديبة ، وفي عام ١٨٠٩ اخترع  
« هيشكوت » آلة شبكة البكر والتي تلاها تبسيط شديد في صنع المخزومات ،  
وارتفع الطلب في تناسب مع انخفاض التكلفة ، حتى أن هذه الصناعة غدت

حالياً تكفل ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ شخصاً . ان المراكز الرئيسية لهذه الصناعة هي  
«توتنجهام» ، «ليستر» ، وغرب إنجلترا ، «ويلتشاير» ، «ديفونشاير» .. الخ .  
وتواجد امتداد مقابل ، في الفروع التي تعتمد على صناعة القطن ، في الصباغة .  
وفي التبييض وطباعة القماش . التبييض باستخدام غاز الكلور بدلا من أوكسجين  
الجو ، الصباغة والطباعة بالتطوير السريع للكيمياء ، والطباعة بعدد من  
الاختراعات الآلية الأكثر ما تكون براءة ، بيد أن تقدما أكبر ، صاحب توسيع  
تلك الفروع ، نتيجة نمو صناعة القطن ، قد رفعها إلى درجة من الازدهار لم  
تعرف من قبل .

وأفصح نفس النشاط عن نفسه في صناعة الصوف ، وهي التي كانت ، حتى  
الآن ، الفرع الغائب للصناعة الانجليزية ، غير أن الكميات التي سبق إنتاجها لم تكن  
شيئاً إذا قورنت بتلك التي تصنع حالياً . ففي عام ١٧٨٢ كان المحصول الكلي  
للصوف خلال السنوات الثلاث السابقة يرقد بلا استخدام لنقص العمال ، وكان  
من الممكن أن يستمر في رقدته تلك ، ما لم تهب الآلات المخترعة حديثاً لنجدته ،  
وتقوم بغزله . إن موادة تلك الماكينات للقيام بعملية غزل الصوف ، قد أنجز  
بنجاح بالغ . ثم بدأ نفس التطور المفاجيء ، والذي رأيناه في مناطق صناعة  
القطن ، بدأ في مناطق صناعة الصوف . ففي عام ١٧٣٨ كان هناك ٧٥٠٠٠  
قطعة من الملابس الصوفية . المنتجة في «الوست ريدبنج» التابعة «ليوركشاير» ،  
وفي عام ١٨١٧ بلغ عدد القطع ٤٩٠٠٠٠ قطعة ، وهكذا كان تمديد الصناعة  
سريعاً ، حتى أن المنتج زاد في عام ١٨٣٤ بمقدار ٤٥٠٠٠٠ قطعة عما كان عليه  
في عام ١٨٢٥ . في عام ١٨٠١ كان قد تم تصنيع ١٠١٠٠٠٠ رطلاً من  
الصوف ( منها ٧٠٠٠٠٠ رطل مستوردة ) ، وفي عام ١٨٣٥ تم تصنيع  
١٨٠٠٠٠٠ رطلاً من الصوف منها ٤٢٠٠٠٠ رطلاً مستوردة .  
وكان المركز الرئيسي لهذه الصناعة في «الوست ريدبنج» التابعة «ليوركشاير» ،  
حيث كان يتم ، وخاصة في «برادفورد» ، تحويل الصوف الانجليزي الطويل  
إلى غزل الجوخ .. الخ ، بينما في مدن أخرى مثل «ليدز» ، «هاليفاكس» ،  
و«درسفيلد» .. الخ كان يحول الصوف القصير إلى غزل النسيج الخشن  
ونسيج الملابس . ثم يأتي الجزء المجاور «لانكشاير» منطقة «روكدال» ،  
حيث تنتج الكثير من الأقمشة الصوفية ، بالإضافة إلى صناعة القطن ، وغرب

إنجلترا والذي يقدم أرقى الملابس . هنا أيضاً يذهب ذوو السكافى أمراً يستحق  
لو صد :

برادفورد	يقطن في ١٨٠١	٢٩٠.٠٠٠	وفي عام ١٨٣١	٧٧٠.٠٠٠ نسمة
هاليفاكس	د	٦٣٠.٠٠٠	د	١١٠.٠٠٠
مدرسفياد	د	١٥٠.٠٠٠	د	٣١٠.٠٠٠
ليدز	د	٥٣٠.٠٠٠	د	١٢٣٠.٠٠٠
وكلوسترديج	د	٥٦٤.٠٠٠	د	٩٨٠.٠٠٠

تعداد لا بد أنه قد زاد منذ عام ١٨٣١ بنسبة لا تقل عن ٢٠ إلى ٢٥ ٪ .  
وفي عام ١٨٣١ استخدمت صناعة غزل الصوف ١٠٣١٣ مصنعاً ، يعمل بها  
٧١٣٠٠ عاملاً ، ولم يكن هذا الرقم الأخير غير جزء صغير من العدد الغفير  
الذي تعوله صناعة الصوف بشكل مباشر أم غير مباشر ، مع إستبعاد كل  
النساجين تقريباً .

وتطور التقدم في صناعة الكتان فيما بعد ، حيث أن طبيعة المادة الخام قد  
جعلت تطبيق آلية الغزل أمر صعب للغاية . لقد بذلت محاولات في الأعوام  
الآخيرة من القرن الماضي في إسكتلنده ، غير أن الفرنسي د جيرارد ، والذي  
أدخل غزل الكتان في عام ١٨١٠ ، كان أول من نجح عملياً في ذلك ، وحتى  
آلات د جيرارد ، بلغت ما تستحقه من أهمية ، أولاً فوق الأرض البريطانية  
بواسطة التحسينات التي أجريت عليها في إنجلترا ، وشمل استخدامها في ليدز ،  
د روندي ، ود بلفاست . . ومنذ ذلك الوقت اتسعت صناعة الكتان الإنجليزية  
في سرعة فقد تم في عام ١٨١٤ إستيراد ٣٠٠٠ طن من الكتان ، وفي عام  
١٨٢٣ قرابة ١٩٠٠٠ طن من الكتان و ٣٤٠٠ طن من القنب . وإرتفعت  
صادرات الكتان الأيرلندي إلى بريطانيا العظمى من ٣٢٠٠٠٠ ياردة في  
عام ١٨٠٠ إلى ٥٣٠٠٠٠٠ عام ١٨٢٥ ، والتي تم إعادة تصدير جزء كبير  
منها . وإرتفعت صادرات السلع الكتانية المنسوجة الإنجليزية والأسكتلندية  
من ٢٤٠٠٠٠٠ ياردة عام ١٨٢٠ إلى ٥١٠٠٠٠٠ ياردة عام ١٨٣٣ .  
وكان عدد مؤسسات غزل الكتان في عام ١٨٣٥ ٢٤٧ مؤسسة توظف ٣٣٠٠٠

عامل ، وكان نصف هذه المؤسسات يقع في جنوب اسكتلندا ، وأكثر من ٦٠ وحدة في الوست ريدبنج ، بيوركشاير ، ، ليدز ، والمناطق المحيطة ، ٢٥ في ، بلانكست ، . ايرلندا والباقي في دورست ، ودولنكشاير ، . إن عملية النسيج تتم في جنوب اسكتلنده وهنا وهناك في انجلترا ، لكنهما تتم بشكل أساسي في ايرلندا وحول الانجليز انبجاءهم إلى صناعة الحرير بنجاح مماثل . كانت المادة الخام التي تم غزلها تستورد من جنوب أوروبا وآسيا ، إن العمل الرئيسي هنا يكمن في الخيوط الدقيقة وحتى عام ١٨٢٤ كان رسم الاستيراد الباهظ ، بمعدل أربع شلنات لرطل المواد الخام ، يعوق بشدة تطور صناعة الحرير الانجليزية بينما كانت الاسواق الانجليزية واسواق المستعمرات محمية لحسابها .

وفي ذلك العام ، خفض الرسم إلى بنس واحد ، وازداد للتو عدد المصانع بصورة كبيرة . لقد ازداد عدد المغازل القارئة في عام واحد من ٧٤٠٠٠ إلى ١٨٠٠٠٠ ورغم أن أزمة ١٨٢٥ التجارية ، أصابت هذا الفرع من الصناعة بالكساد حين حدد غير أن انتاج عام ١٨٢٧ زاد عن أي عام آخر ، إن مهارة الانجليز في الآلات وخبرتهم قد ضمننت لآلات القتل الخاصة بهم ، إحراز التفوق على أجهزة منافسيهم العسرة الاستخدام . كانت الامبراطورية البريطانية في عام ١٨٢٥ تمتلك ٢٦٣ من مصانع القتل التي توظف ٣٠٠٠٠ عاملاً ، وهي تقع أساساً في « ششاير » ، في « ماكسفيلد » ، « كونيوليتون » ، والمناطق المحيطة وفي « مانشستر » و « سومرستشاير » وإلى جوار تلك ، يوجد العديد من المصانع التي تقوم بتشغيل الفضلات والتي كان يصنع منها صنف معين يعرف باسم الحرير المغزول ، والذي كان يمد به الانجليز غيرهم ، حتى نساجو « باريس » و « ليون » ، إن نسيج الحرير المغزول والمغزول كان يجري في « بايسلي » وأماكن أخرى من اسكتلندا ، وفي « سيببتافيالديز » ، « لندن » ، وكذلك أيضاً في « مانشستر » وأماكن أخرى . ورغم ضخامة التقدم الذي أحرزته الصناعة الإنجليزية منذ عام ١٧٦٠ ، فإنها كانت قاصرة على إنتاج حاجيات الملبوسات . لكن ما أن توفر الحافز ، حتى سرى في كل فروع النشاط الصناعي ، ونالت العديد من الاختراعات التي لا علاقة لها كلية بتلك الواردة هنا ، أهمية مضاعفة ، من واقع أنها أنجزت في قلب الحركة الصناعية . غير أنه ما أن ظهرت عملياً الأهمية القصوى للقوة الميكانيكية ، حتى ركزت كل طاقة في محاولة لاستغلال هذه



القوى من كل الانجاعات ، ولاستغلالها لصالح المخترعين الافراد وأصحاب المصانع ، ودعى الطالب ، على الآلات والوقود والادوات ، أعداد كبيرة من العمال وعدد من الحرف إلى مضاعفة نشاطها . لقد أعطت القاطرة التجارية أهمية لحقول الفحم الانجليزية الواسعة أولاً . وبدأت الان ، ولأول مرة ، صناعة الآلات . ومعها نشأ إهتمام جديد بمناجم الحديد التي تمدها بالمادة الخام . إن الإستهلاك المتزايد للصوف نشط تربية الأغنام الإنجليزية ، وكذا دعى تزايد استيراد الصوف ، الكتان والحريز إلى توسيع صناعة النقل البحري البريطاني . وكان أضحها نمو إنتاج الحديد . كانت رواسب حديد التلال الإنجليزية ، قد تم تطويرها حتى الان تطويراً محدوداً ، كان الحديد يصهر دائماً بواسطة فحم الخشب ، والذي غدا بالتدريج أكثر تكلفة ، حيث كانت تتحسن الزراعة ، وتخصص الغابات . كانت بداية إستخدام فحم الكوك في صهر الحديد قد عمل بها في القرن الماضي ، واخترعت في عام ١٧٨٠ طريقة جديدة لتحويل الحديد المنصهر بفحم الكوك إلى حديد مطاوع يمكن إستخدامه ، والذي كان حتى ذلك الحين يحول إلى حديد الزهر فقط . وتقوم هذه الطريقة والتي تعرف باسم «تحريك الحديد الذائب» ، على سحب الكربون الذي إختلط بالحديد أثناء عملية الصهر ، وفتح حقل جديد تمام الجودة أمام إنتاج الحديد الإنجليزي . وبنييت أفران صهر أكبر من سابقتها بخمسين مرة ، وبسطة عملية الصهر بإدخال دفعات حارة ، وبهذا أصبح من الممكن إنتاج حديد رخيص ، حتى أن الحديد من الأشياء التي كانت تصنع من قبل من الحجارة أو الأخشاب قد أصبحت تصنع الان من الحديد .

وشيد «توماس بين» ، الديمقراطي الشهير ، في عام ١٧٨٨ ، أول كوبري حديدي في «يوركشاير» ، والذي لحقه عدد آخر كبير ، حتى أن كل الكباري الان تقريباً ، وخاصة تلك المعدة لحركة السكك الحديدية ، قد شيدت من حديد الزهر ، بينما في لندن ذاتها ، شيد كوبري «سوثرارك» عبر نهر «التيمنس» من هذه المادة . ولستخدمت الأعمدة الحديدية ودعامات الآلات . . . الخ ، في كل مكان ، وفتحت منافذ جديدة لمنتجات الحديد الإنجليزي منذ إدخال غاز الاضاءة وخطوط السكك الحديدية . وأدخلت بالتدريج صناعة المسامير والقلاووظ آلياً . وفي عام ١٧٦٠ اخترع «هانتسمان» ، وهو مواطن من «شيفيلد»

طريقة لسبك الفولاذ ، مما وفر الكثير من العمل ، وصار إنتاج بضائع رخيصة جديدة تمام الجودة عملية سهلة . والآن ، ولأول مرة ، حظت الصناعة المعدنية الإنجليزية بالاهمية ، وذلك عبر نقاوة أكثر البادئة الموضوعة تحت تصرفها ، والادوات الأكثر إتقاناً ، الآلات الجديدة والتقسيم الدقيق للعمل . ونما تعداد سكان ديربيشاير من ٧٣.٠٠٠ في عام ١٨٠١ إلى ٢٠٠.٠٠٠ في عام ١٨٤٤ ، وتعداد شيفيلد من ٤٦.٠٠٠ في عام ١٨٠١ إلى ١١٠.٠٠٠ في عام ١٨٤٤ ، وبلغ استهلاك الفحم في المدينة الأخيرة وحدها ١٥١.٥٠٠ طن في عام ١٨٣٦ . وتم في عام ١٨٠٥ تصدير ٤٣.٠٠٠ طن من منتجات الحديد و ٤٦.٠٠٠ طن من الحديد الخام ، وفي عام ١٨٣٤ ١٦.٢٠٠ طن من منتجات الحديد و ١٠.٧.٠٠٠ طن من الحديد الخام ، وبينما بلغ كل إنتاج الحديد في عام ١٧٤٠ ، ١٧.٠٠٠ طن فقط ، فإنه ارتفع في عام ١٨٤٣ إلى ما يقرب من ٧٠.٠٠٠ طن . وتستهلك عملية صهر الحديد الخام وحدها أكثر من ٣.٠٠٠.٠٠٠ طن من الفحم سنوياً . وبلغت مناجم الفحم في مجرى الستين عاماً الأخيرة أهمية ، بالكاد يمكن تصورها . أن كل الرواسب الانجليزية والاسكتلندية يجري الآن تشغيلها ، وتغل مناجم نورثومبرلاند ، و دونهام ، أكثر من ٥.٠٠٠.٠٠٠ طن سنوياً للشحن ، وتوظف من أربعين إلى ٥.٠٠٠ من الرجال . وطبقاً لـ دورهام كرونيكل ، فإنه كان يتم تشغيل ١٤ منجماً في عام ١٨٥٣ ، ٤٠ منجماً في عام ١٨٠٠ ، ٧٦ منجماً في عام ١٨٣٦ ، ١٣٠ منجماً في عام ١٨٤٣ ، في تلك المقاطعتين ، يضاف إلى ذلك ، أن كل المناجم يتم تشغيلها حالياً ، بهمة أكثر بكثير من ذي قبل . وطبق بالمثل نشاط متزايد في تشغيل القصدير والنحاس والرصاص وإلى جوار إتساع صناعة الزجاج ، نما فرع جديد من الصناعة في إنتاج الفخار ، والذي غدا ماما نتيجة جهود وجوسياه ودجورد ، حوالي عام ١٧٦٣ . لقد أقام هذا المخترع كل صناعة الفخار على أسس علمية ، فقدم ذوقاً أفضل ، وأسس فابوريات د نورت ستافوردشاير ، وهي ناحية تبلغ مساحتها ثمانى أميال إنجليزية مربعة ، كانت فيما سبق صحراء قفراء ، فبذرت الآن بالأعمال والمساكن ، وتقوم على أود أكثر من ٦٠.٠٠٠ من البشر .

وانجذب كل شيء إلى داخل تلك الدراماة الشاملة من النشاط . فأحرزت الزراعة تقدماً مماثلاً . إذ أن الملكية المقارية لم تنتقل فقط ، كما رأينا بالفعل ،

إلى أيدي ملاك وزراع جدد ، بل أن الزراعة قد تشرت أيضاً ، بطريقة أخرى . لقد استخدم كبار الملاك رأس المال في تحسين التربة ، وهدموا الأسوار التي لا لزوم لها ، واستخدموا الصرف والسماد ، وأدوات أفضل ، وطبقوا مناوبة المحاصيل . واقبل عليهم تقدم العلم يعينهم أيضاً ، وطبق ديسير همفري دافى ، استخدام الكيمياء في الزراعة بنجاح ، وأغدق تطور العلم إلى على الزارع الكبير العديد من المزايا . كما أن الطلب على المنتجات الزراعية قد ازداد أيضاً ، نتيجة ازدياد السكان بمثل هذا المعيار ، حتى أنه في المدة ما بين عام ١٧٦٠ ، ١٨٣٤ تم استصلاح ٦٠٨٤٠٠٠٠ أكر من الأراضي البور ، ورغم هذا ، فقد تحولات إنجلترا من بلد مصدر للحبوب ، إلى بلد مستورد للحبوب .

وتطورت إقامة طرق المواصلات بنفس أهمية . . فقد شيدت في إنجلترا وويلز ما بين عام ١٨١٨ وعام ١٨٢٩ ، ١٠.٠٠٠ ميل لإنجليزي من طرق المركبات ، بعرض قدره ٦٠ قدماً ، وهو العرض المقرر قانوناً ، وأعيد على وجه التقريب ، تشييد كل الطرق القديمة على غرار نظام دماك آدم ، الجديد . وفي اسكتلندا ، شيدت مصلحة الأشغال العمومية منذ عام ١٨٠٣ ، حوالي ٩٠٠ ميلاً من طرق المركبات وأكثر من ١٠٠٠ كوبري ، غذا سكان المرتفعات فجأة عن طريقها في مرمى الحضارة ، كان أهل المرتفعات ، بشكل أساسي ، حتى ذلك الحين ، لصياد ومهربيين ، فقدوا الآن مزارعين وعمال بدويين ورغم أن المدارس الكلتية قد لظمت بغرض الحفاظ على اللغة الكلتية ، لكن اللغة والعادات الكلتية - السلتية كانت تختفي سريعاً أمام إقتراب الحضارة الإنجليزية . كذلك في إيرلنده أيضاً ، كانت ترقد فيما بين أقاليم دكورك ، دليريك ، دوكري ، منطقة تفر لا توجد بها طرق متداولة على الإطلاق ، وكان يستفاد منها ، بسبب عدم إمكان الوصول إليها ، كماوى لكل المحرمين ، وملاذا رئيسياً للقومية السلتية - الأيرلندية من جنوب أيرلندا . والآن تشق الطرق العامة هذه المنطقة وبذا وجدت الحضارة من يعترف بها ، حتى في هذه المنطقة الموحشة . إن الامبراطورية البريطانية كلها ، وخاصة إنجلترا ، والتي كان لديها حتى ٦٠ عاماً مضت ، طرقاً سيئة كمثل الطرق التي في فرنسا أو ألمانيا ، قد غدت الآن مغطاة بشبكة من أبداع طرق المركبات ، وتلك الطرق أيضاً ،

قبل كل شيء آخر في إنجلترا تقريبا، هي من عمل المشروع الخاص ، حيث أن ما فعلته الدولة ، في هذا الاتجاه ، قليل للغاية .

قبل عام ١٧٥٥ لم يكن لدى إنجلترا أية قنوات على وجه التقريب ، وفي ذلك العام ، شيدت قناة في دلاكشاير ، تمتد من دسانكي بروك ، إلى دسانت هيلينز . وفي عام ١٧٥٩ شيد د جيمس برندلي ، أول قناة هامة ، قناة ودوق بريدج واتر ، والتي تمتد من مانشستر ، ومناجم الفحم المقاطعة ، إلى مدخل . د مرسى ، ، مرة بقرب د بارتون ، ، من خلال ممر مائي فوق نهر د الايرون . وبهذا الانجاز ، يؤرخ لبناء القنوات في إنجلترا ، وله أعطى د بريندلي ، أول اعتبار . والآن تشيد القنوات . وتعد الانهار لتغدو صالحة للملاحة في كل الاتجاهات . ففي إنجلترا وحدها يوجد ٢٢٠٠ ميل من القنوات ، ٨٠٠ ميلا من الأنهر الصالحة للملاحة . وفي اسكتلندا شقت القناة الكايدونية مباشرة عبر الريف ، وفي إيرلندا شيدت عدة قنوات . وكل تلك الإصلاحات ، متلها في ذلك مثل خطوط السكك الحديدية وطرق المركبات ، من عمل الافراد الخاص والشركات .

لقد شيدت خطوط السكك الحديدية حديثا فقط . وفي عام ١٨٣٠ فتحت أول قناة كبرى ما بين د ليفربول ، و د مانشستر ، ومنذ ذلك الحين ، ربطت كل المدن الكبرى بواسطة السكك الحديدية . د لندن ، د بوشهامبتون ، د بريتون ، د دوفر ، د كولشستر ، د اكسستر ، و د بيرمينجهم-ام ، د بيرمينجهم د بجلوسستر ، د ليفربول ، د لانكستر ، ( طريق د نيوتن ، د وويجان ، د طريق د مانشستر ، د ويوانن ) . كذلك د بليدز ، ( طريق د مانشستر ، د هاليفاكس ، د طريق د ليسستر ، د دربي ، د وشيفيلد ، ) د ليدز ، د بهول ، د ونيوكاسل ، ( طريق يورك ) . كذلك هناك عدد من الطرق الثانوية التي تنشأ أو يقترح انشاؤها ، والتي ستجعل السفر في القريب ، بين د ادينبورج ، و د لندن ، ممكنا خلال يوم واحد .

وكما حول البخار سبل المواصلات في اليابسة ، كذلك أحدث ادخال البخار ثورة في السفر بالبحر وأنزل إلى الماء أول قارب بخارى عام ١٨٠٧ في د الهدسون ، ، في أمريكا الشمالية ، وأنزل أول قارب في الامبراطورية

البريطانية فى عام ١٨١١ فى الكلايد ، . ومنذ ذلك الحين شيد فى انجلترا  
أكثر من ٦٠٠ قارب وفى عام ١٨٣٦ كان أكثر من ٥٠٠ قارب تتردد من وإلى  
الموانئ البريطانية .

ذلك ، فى إختصار ، هو تاريخ التطور الصناعى الانجليزى فى الستين عاما  
الماضية ، تاريخ ليس له نظير فى تواريخ الانسانية . كانت انجلترا منذ ستين ،  
ثمانين عاما مضت ، بلادا تماثل كل بلاد أخرى ، بها مدن صغيرة صناعات قليلة  
ووسيلة وكثافة قليلة ، غير أنها كبيرة نسبياً ، من العاملين بالزراعة وهى اليوم  
بلاد لا تماثلها أى بلاد ، لها عاصمة يقطنها إثنان ونصف مليون من السكان ،  
ومدن صناعية واسعة بها صناعة تمد العالم ، وتنتج كل شىء على وجه التقريب ،  
بواسطة أكثر الآلات تنقيدا ، بها كثافة سكانية مجدة وذكية ، يعمل ثلاثاها  
فى الصناعة والتجارة ، وتتألف من طبقات جد مختلفة ، مشكلة ، فى الحقيقة ،  
مع عادات أخرى واحتياجات أخرى أمة مختلفة عن انجلترا تلك الأيام . ان  
لثورة الصناعية فى انجلترا نفس أهمية الثورة السياسية لفرنسا والثورة الفلسفية  
للألمانيا والفرق بين انجلترا فى عام ١٧٦٠ ، وعام ١٨٤٤ كبير على الأقل ،  
كبر الفرق بين فرنسا فى ظل النظام القديم وأثناء ثورة يوليو . غير أن أقوى  
نتائج هذا التحول الصناعى بأساسا هو البروليتاريا الإنجليزية .

لقد رأينا قبلا كيف دعيت البروليتاريا إلى الوجود بعد ادخال الآلة  
ولاحتاج الاتساع السريع للصناعة إلى الأيدي ، فارتفعت الأجور ، وهاجرت  
أفواج من الرجال العاملين من المناطق الزراعية إلى المدن . وتضاعف السكان  
بصورة هائلة ، واتخذت الزيادة كماً على وجه التقريب مكانها فى صفوف  
البروليتاريا . فضلا عن ذلك ، فإن أيرلندا قد شرعت فى تطور منظم منذ بداية  
القرن الثامن عشر فقط . وهناك أيضا السكان الذى تضاعفوا الآن فى سرعة  
أكثر من أهلهم العنف الانجليزى فى الإضطرابات المبكرة ، وخاصة بعد أن  
بدأ تقدم الصناعة فى جذب كتل من الأيرلنديين نحو انجلترا وهكذا قامت  
مدن الإمبراطورية البريطانية الصناعية والتجارية الكبرى ، والتي ينتمى ثلاثة  
أرباع سكانها على الأقل إلى الطبقة العاملة ، بينما تتكون الطبقة الوسطى الدنيا  
من أصحاب حوانيت صغار ، وعدد قليل جدا من الحرفيين . حيث أن الصناعة



الصاعدة نالت الأهمية الأولى بتحويل الأدوات إلى ماكينات ، حجرات العمل إلى مصانع ، وبالتبعية حوالت الطبقة الوسطى الدنيا الكادحة إلى بروليتاريا كادحة ، وللتجار الكبار السابقين إلى أصحاب مصانع ، بيد أن الطبقة الوسطى الدنيا كانت قد سحقت أيضا على نحو مبكر ، وأختزل السكان إلى العنصرين المتعارضين ، العمال والرأسماليون . لقد حدث ذلك أيضا خارج نطاق الصناعة الحالية ، في مناطق الحرف اليدوية وتجارة التجزئة وصل كبار الرأسماليين والرجال العاملين والذين لامطمح لهم للصعود فوق طبقتهم ، محل المعلمين وصبية الصناعة . واستمر العمل اليدوى بعد أسلوب عمل المصنع ، وطبق تقسيم العمل بدقة ، وأضطر صغار الموظفين الذين عجزوا عن منافسة المؤسسات الكبيرة للمبوط إلى وسط البروليتاريا . وفي نفس الوقت فإن تحطيم نظام العمل اليدوى السابق ، وإختفاء الطبقة الوسطى الدنيا قد حرم العامل ذاته من كل احتمال للصعود إلى الطبقة الوسطى . لقد كان قبلئذ يتطاع دائما إلى تأسيس نفسه على نحو ما ، كعلم صاحب صناعة ، ربما يوظف أجراء وصبية صناعة ، أما الآن ، وقد أزاح أصحاب المصانع ، المعلمين أصحاب المصنع ، عندما صار رأس المال الكبير ضروريا لاستمرار العمل على نحو مستقل ، فإن الطبقة العاملة قد غدت ، ولأول مرة ، طبقة متكاملة مستقرة من السكان ، بينما كانت في الماضى . مجرد مرحلة إنتقال تؤدي إلى البورجوازية . الآن ، لم يعد لمن ولد ليكدح ، أى تطالع آخر غير أن يظل كادحا طوال حياته وغدت البروليتاريا الآن ولأول مرة ، ولهذا السبب ، فى وضع يلزمها بالحركة المستقلة .

وبهذه الوسيلة توحدت كل تلك الكتل الواسعة من العمال والذين يملأون الآن أرجاء الامبراطورية البريطانية ، والذين فرضت أحوالهم الاجتماعية نفسها يوما بعد يوم ، على إنتباه العالم المتحضر . إن وضع الطبقة العاملة الانجليزية هو وضع الاغلبية الكبيرة للشعب الإنجليزي . والسؤال : إلا ما تصير تلك الملايين المعوزة ، هؤلاء الذين يستملكون اليوم ما كسبوه بالامس ، هؤلاء الذين خلقوا عظمة إنجلترا باختراعاتهم وكدهم ، هؤلاء الذين غدوا بمرور كل يوم أكثر وعيا بقوتهم ، ويطالبون ، بالحاج يتزايد يوما بعد يوم ، بنصيبهم من مزايا المجتمع ؟ لقد غدا هذا ، منذ دلائمة الإصلاح ، هو السؤال القومى . وربما اختزلت كل المناقشات البرلمانية التى لها أهمية ما إلى هذا السؤال ، مع أن الطبقة

الوسطى الإنجليزية لا تعترف به حق الان ، ومع أنهم يحاولون تجنب هذا السؤال الكبير ، وأن يقدموا مصالحهم الخاصة على أها المصالح القومية الحقيقية ، إلا أن عملهم هذا عقيم تمام العقم . ومع كل دورة انعقاد برلمانية فإن الطبقة العاملة تكسب أرضا ، إن مصالح الطبقة الوسطى تتضاءل في الأهمية ، ورغم حقيقة أن الطبقة الوسطى هي القائمة ، هي القوة الوحيدة في واقع الأمر في البرلمان ، فإن الدورة الأخيرة لعام ١٨٤٤ ، كانت جدالا متصلا حول موضوعات تمس الطبقة العاملة ، و لائحة معونة الفقراء ، و لائحة المهنع ، و لائحة الاسطوات والاجراء ، وكان د توماس دونكومب ، النائب عن العمال في مجلس العموم هو رجل الدورة البارز ، بينما الطبقة الوسطى الليبرالية بتحركاتها لإبطال د قوانين الفصح ، والطبقة الوسطى الراديكالية بعزمها على رفض الضرائب ، قد لعبت أدوارا مزرية . حق المناقشات حول أيرلندا ، كانت في الأساس مناقشات حول البروليتاريا الأيرلندية ووسائل تقديم العون لها . لقد آن الأوان ، أيضا ، للطبقة الوسطى الإنجليزية لتقدم بعض التنازلات إلى العمال ، الذين لم يعودوا يتوسلون بل يهددون . لأنه ربما خلال زمن قصير يكون الوقت قد فات .

أنه رغم كل هذا ، فإن الطبقة الوسطى الإنجليزية . وخاصة الطبقة الصناعية ، والتي أثرت مباشرة عن طريق إفقار العمال ، تصر على تجاهل هذا الفقر . ان هذه الطبقة ، وهي تحس بنفسها الطبقة الممثلة القوية الأمة ، لن تدخل من طرح لطخة انجلترا الموحدة ، غارية أمام أنظار العالم ، ان تعترف حتى لنفسها بأن العمال في بلاد ، حيث أن أصحاب العقارات ، طبقة أصحاب المصانع يجب أن يتحملوا المسؤولية الأدبية عن هذا البلاء . ومن هنا كانت البسمة المزوية التي يدعيها مثقفو الانجليز ( وهم ، الطبقة الوسطى ، المعروفون وخدم في القارة ) عندما يبدأ أحد الحديث عن وضع الطبقة العاملة ، ومن هنا التجاهل التام للطبقة الوسطى لكل شيء يخص العمال ومن هنا الحققة السخيفة التي يفعلها رجل هذه الطبقة ، داخل البرلمان وخارجه عندما يطرح وضع البروليتاريا المناهضة . ومن هنا الخلاص الآحق من القلق ، والذي ترقده الطبقة الوسطى فوق تربة من الشهد ، والتي يمكن في أي يوم أن تنهار ، ان انهيارها السريع مؤكد تأكد برهان رياضي أو ميكانيكي ، من هنا معجزة ، أن الانجليز ليس

لديهم بعد كتاب عن أحوال عمالهم ، رغم أنهم كانوا يفحصون ويرمون  
الموضع القديم للأمور ، لسنين لا يعرف أحد عددها ، ومن هنا أيضاً السخط  
الشديد العميق لكل الطبقة العاملة ، من د جلاسجو ، إلى د لندن ، ضد  
الآغنياء . الذين نهبوا بانتظام ، وتركوها بلا رحمة لمصيرها ، سخط شديد  
سوف يندلع ، قبلي مضي وقت طويل للغاية ، وقت يكاد يكون في مقدور  
المرء أن يتنبأ به ، في ثورة سوف تثبت الثورة الفرنسية وعام ١٧٩٤ أنهما  
بالنسبة لهما لم يكونا غير لعب أطفال .



## البروليتاريا الصناعية

إن ترتيب دراستنا الأقسام المختلفة للبروليتاريا ، إنما هو ناتج بالطبع عن التاريخ السابق على قيامها ، لقد ارتبط البروليتاريون الأول بالصناعة ، ولدوا بها ، وطبقا لذلك ، فإن هؤلاء الذين عملوا في الصناعة ، في تطوير المواد الخام سوف يسترعون أنباهنا أولا . إن انتاج المواد الخام والوقود للصناعة ، قد نال أهميته فقط ، نتيجة للتغيير الصناعي ، وولدت بروليتاريا جديدة ، هي عمال مناجم الفحم والمعادن . ثم ، وفي المكان الثالث ، أثرت الصناعة على الزراعة ، وفي الرابع ، الوضع في أيرلندا . وطبقا لذلك ، سوف تجد أجزاء البروليتاريا المنتمية الى كل قسم ، مكانها . ولسوف نجد أيضا ، أنه بالاستثناء الممكن للايرلنديين ، فإن درجة ذكاء العمال المختلفين تتناسب مباشرة مع علاقتهم بالصناعة ، فعمال المصنع هم أكثر استنارة بما يخص مصالحهم ، وبدرجة أقل على نحو ما ، عمال المناجم ، أما عمال الزراعة فإنهم لا يكادون البتة . ولسوف نجد نفس الترتيب مرة أخرى بين عمال الصناعة ، سوف نرى كيف أن عمال المصنع ، أكبر أبناء الثورة الصناعية ، قد شكوا منذ البداية وحتى يومنا الحاضر نواة حركة العمل ، وكيف أن الآخرين قد لحقوا بهذه الحركة . بقدر يتناسب فقط ، مع غزو التقدم الآلي لصنعتهم اليدوية . وهكذا سوف نتعلم الدلالة التاريخية للصناعة ، من المثل الذي تقدمه لنا إنجلترا ، من الخطوة المتساوية التي تحافظ عليها حركة العمل مع حركة التطور الصناعي .

ومع ذلك ، فحيث أن كل البروليتاريا الصناعية منغمسة الى حد كبير في الحركة في وقتنا الراهن كما أن هناك الكثير المشترك ، في حال أقسامها المنفصلة ، حيث أنها جميعاً صناعية ، فإننا سنبدأ بفحص حالة البروليتاريا الصناعية ككل



حتى يمكننا فيما بعد أن نلاحظ بصورة أكثر خصوصية ، كل قسم منفصل بصفاته المميزة .

لقد عرضت للبحث بالفعل ، مسألة أن الصناعة تركز الملكية في أيدي القلة . لأنها تحتاج الى رأس مال كبير تؤسس به المؤسسات الضخمة التي تدمر البورجوازية الصغيرة ، والذي به تظم الى خدماتها قوى الطبيعة ، طاردة العمل اليدوي للعامل المستقل ، خارج السوق . إن تقسيم العمل ، واستخدام الماء وخاصة البخار ، واستخدام الآلة هي الأذرع الثلاث الكبيرة ، التي انتهكت بها الصناعة ، منذ منتصف القرن الماضي ، واضعة العالم في حالة من التفكك . لقد خلقت الصناعة الطبقة الوسطى على نطاق ضيق ، وخلقت الطبقة العاملة على نطاق واسع ، ورفعت صفوة الطبقة الوسطى إلى العرش ، ولكن فقط لتبقى بهم بكل تأكيد عندما يحين الوقت . وفي تلك الأثناء ، فهناك حقيقة لا تنكر ، ومن السهل تفسيرها ، وهي أن العديد من صفار الطبقة الوسطى الذين يمتنون الى « الأيام الخوالي الطيبة » قد أبادتهم الصناعة ، وذابوا في الرأسماليين الأغنياء من ناحية والعمال الفقراء من الناحية الأخرى \*

إن اتجاه الصناعة للمركز ، لا يتوقف ، مع ذلك ، عند هذا الحد . إن السكان يتركزون . على نحو طبقي للغاية ، مثلاً يتركز رأس المال ، حيث فنظر ببساطة ، الى الإنسان ، الى العامل في الصناعة ، كجزء من رأس المال ، يدفع له صاحب المصنع فائدة ، تحت اسم الأجور ، في مقابل استخدامه . إن مؤسسة صناعية تحتاج الى عمال عديدين ، يعملون معاً في مبنى واحد ، ويمشون الى جوار بعضهم البعض ، ويشكلون من أنفسهم قرية ، ذلك في حالة مصنع ذي حجم لا بأس به . هؤلاء لهم حاجات ، يلزم لاشباعها ، أناس آخرون ، مستقرين بالقرب منهم ، أصحاب حرف ، صانعي أدوات ، خياطون

---

\* قارن ما يخص هذه النقطة ، مع مقالي « خطوط عريضة لنقد الإقتصاد السياسي » المنشورة في « ديوتش - فرايفر شيفتس » ( انظر ماركس / انجلز ، جيسا جنوسجاب الأول ، المجلد الثاني ، من صفحة ٣٧٩ — ٤٠٤ - الناشر . ) [ ان « المنافسة الحرة » ، في هذا المقال ، هي نقطة البداية ، غير أن الصناعة ، هي مجرد تطبيق للمنافسة الحرة ، والأخيرة فقط ، هي أس الصناعة . ( أضيفت الى الطبعة الألمانية . ) ]

خبازين ، نجارين وبنائين بالحجر . إن سكان القرى وخاصة الجميل الاصغر  
سنا ، قد عودوا أنفسهم على العمل بالمصنع ، انهم يشبهون مهرة في عملهم .  
وعندما يسجز أول مصنع عن تشغيلهم جميعا ، تهبط الأجور ، وتكون النتيجة ،  
وفود أصحاب مصانع جدد . وهكذا تنمو القرية إلى مدينة صغيرة ، والمدينة  
الصغيرة إلى واحدة كبيرة . وكما كبرت المدينة ، كلما كبرت ميزاتها . إنها تقدم  
الطرق ، والسكك الحديدية ، والقنوات ، وتزداد باستمرار فرص اختيار  
العامل الماهر ، كما يصبح من الممكن بناء مؤسسات جديدة أكثر رخصا ، بسبب  
المنافسة بين البنائين والميكانيكيين اللذين هم في متناول اليد ، عنه في مناطق الريف  
النائية ، حيث يلزم إحضار الخشب ، والآلة والبنائين والصناع ، إنها تقدم  
سوقا يتزاحم عليه المقترون ، وإتصال مباشر بالأسواق التي تقدمها بالمادة الخام  
أو تطلب السلع المنتجة . ومن هنا كان النمو السريع الرائع للندن الصناعية الكبرى .  
ويتميز الريف ، من الناحية الأخرى ، بأن الأجور فيه دائما أقل من المدينة ،  
ولذا فإن المدينة والريف في حالة تنافس دائم ، وإن كانت الميزة في جانب المدينة  
اليوم ، فقد تهبط الأجور في الريف ، حتى أنه يصبح من الممكن ، القيام هناك  
باستثمارات أكثر ربحا . غير أن الانجاء إلى مركز الصناعة يستمر بكل قوته ،  
وكل مصنع جديد يبنى في الريف يحمل معه جرثومة مدينة صناعية . ولو كان  
في الإمكان ، استمرار هذه الهجمة المجنونة للصناعة ، بنفس هذا المعدل ، لمدة  
قرن آخر ، لتحول كل حى صناعى في إنجلترا إلى مدينة صناعية كبيرة ،  
ولا تفت « مانشستر » و « ليفربول » و « واربينجتون » ، أو « نيوتون » ، لأنه  
في التجارة أيضا ، تسير مركزة السكان ، بدقة ، على نفس الطريق ، ومن هنا  
يحتكر ميناء أو ميناءين كبيرين مثل « هول » و « ليفربول » ، « بريستول » و « لندن »  
غالبية التجارة البحرية لبريطانيا العظمى .

وحيث أن التجارة والصناعة قد نالتا أكمل تطور لهما ، في هذه المدن  
الكبرى ، فإن تأثيرهما على البروليتاريا يمكن ملاحظته هنا على أبلغ نحو ، هنا تبلغ  
مركزة الملكية أعلى درجة ، هنا تحيط تماما أخلاقيات وعادات الأيام الغابرة الطيبة  
على وجه التقريب ، هنا سارت الأمور بعيدا إلى حد أن الاسم ، « لانجلترا »  
المرحلة القديمة ، لا يعكس أى معنى ، لأن إنجلترا القديمة نفسها ، قد غدت تجمعا

الذاكرة ونقص أجدادنا . ولذا أيضا . تتواجد هنا فقط ، طبقة الفقراء ،  
لان الطبقة الوسطى الدنيا تختفي أكثر وأكثر ، مع كل يوم يمر . وهكذا ،  
صارت الطبقة الأكثر ثباتا فيما سبق ، هي الطبقة الأكثر قلما . إنها تتكون اليوم  
من بقايا ضئيلة لزمان مضى ، وعدد من الناس متاهف على صنع الثروات ،  
للصناعيون ، الميكانيكيون ، \* ، والمضاربون والذين يمكن لواحد منهم أن  
يجمع ثروته ، بينما يفلس التسعة والتسعين ، ويعيش أكثر من نصف التسعة  
والتسعين في فشل دائم التكرار .

خير أن البروليتاريين في تلك المدن هم الاغلبية الانسانية ، أما كيف جرى  
بهم الحال ، وأي تأثير فرضته المدينة الكبيرة عليهم ، فإن هذا ما سنبحثه الآن .

## المدن الكبرى

إن مدينته مثل لندن ، حيث يمكن للمرء أن يتجول لساعات دون أن يصل إلى بداية النهاية ، دون أن يلقى أية بادرة يمكن أن تقود إلى الاستدلال على أن هناك ريف منبسط عن كثب ، إنما هي شيء غريب . هذا النمر كز الهائل ، هذا التكدس لاثنتين ونصف مليون من البشر معا في نقطة واحدة ، قد ضاعف قوة هذين المليونين ونصف إلى مائة ضعف ، قد رفع لندن لتكون العاصمة التجارية للعالم ، التي خلقت الأحواض العملاقة وجمعت آلاف السفن التي تغطي باستمرار نهر التيمس . لأنني لا أعرف شيئا أكثر جلالا من المنظر الذي يقدمه التيمس عند الصعود من البحر إلى كورن لندن . إن كتل المباني ، ومراسي السفن على كلا الجانبين ، وخاصة في داوليش ، فصاعدا ، السفن التي لا حصر لها على كلا الشطرين ، تتزاحم بسبب تراصها وقربها من بعضها البعض ، حتى أنه ، في النهاية ، لا يتبقى غير معبر ضيق في وسط النهر ، يمر تفرق من خلاله مئات السفن البخارية واحدة بعد الأخرى وكل هذا فسيح إلى حد ، مؤثر إلى حد أن المرء لا يستطيع أن يلم شتات نفسه ، بل يتوه في معجزة عظمة انجلترا قبل أن يضع قدما فوق التراب الانجليزي \* .

غير أن التضحيات التي كلفها كل ذلك تغدو ظاهرة فيما بعد . بعد التجوال في شوارع العاصمة يوما أو يومين ، متقدما بصعوبة عبر الاضطراب البشري والصفوف الانهائية للمربات ، بعد زيارة أحياء العاصمة القذرة ، يعرف المرء لأول مرة أن هؤلاء اللندنيين قد أجبروا على التضحية بأفضل صفات طبيعتهم

---

\* ينطبق هذا على زمن الفن الشراعية . إن نهر التيمس الآن عبارة عن مجموعة من السفن التجارية القبيحة السكثية .

البشرية لينجزوا كل أعاجيب الحضارة التي تزحم مدينتهم ، إن مائة طاقة كانت قد استكانت في داخلهم وظلت عاطلة . وأنهم قد كتبوا ، حتى يمكن أقله أن تتطور إلى أقصى درجة ، وإن تتضاعف من خلال وحدتها بأولئك الذين في المدن الأخرى . إن اضطراب الفوارع ذاته فيه شيء تشتمل النفس منه ، شيء تأباه الطبيعة البشرية . إن مئات الآلاف من كل الطبقات والدرجات تراحم بعضها البعض ، أليسوا جميعاً بهماً لديهم نفس الصفات والطاقات ، ولهم نفس الرغبة في أن يكونوا سعداء ؟ وأليس لهم ، في نهاية الأمر ، أن ينشدوا السعادة على نفس الطريق ، وب نفس الأساليب ، أنهم ما زالوا يراحمون بعضهم البعض ، وكأن لا شيء مشترك بينهم ، لا شيء يفعله الواحد منهم مع الآخر ، واتفاقهم الوحيد هو اتفاق ضمنى ، أن يحتفظ كل منهم بناصيته من الرصيف حتى لا يعطل سيول الرحام المقابلة ، بينما لا يحدث لأى منهم أن يشرف الآخر ولو بقدر لحظة . إن اللامبالاة الوحشية ، والتفرد القاسى لكل في مصالحة الخاصه ، هو أكثر تنفيرا وسوءاً ، كلما كثر تراحم هؤلاء الأفراد معا في إطار حين محدود . ومما كبر إدراك المرء بأن هذه العزلة الفردية ، هذا البحث الضيق عن الذات هو المبدأ الأساسى لمجتمعنا ، فإنه لا يوجد فى أى مكان ، هذا القدر من الصفاة الوقحة ، هذا القدر من الشعور بالذات ، كما هو هنا فى زحام المدينة الكبيرة . إن تحال الجنس البشرى إلى أحاديات ، لكل واحدة منها مبدؤها المنفصل وهدفها المنفصل ، إن عالم الذرات ، إنما ينفذ هنا إلى آخر مداء .

ومن هنا يأتى ، أيضاً ، أن الحرب الإجتماعية حرب كل واحد ضد الجميع ، قد أعلنت هنا جهاراً . مثلاً بقول كتاب « ستيرز » الذى صدر حديثاً ، فإن الناس ينظرون إلى بعضهم البعض كأشياء مفيدة فقط ، كل يستغل الآخر ، ونهاية كل ذلك ، أن يطاء الأقوى الأضعف تحت قدمه ، وأن الأقوياء القلة ، الرأسماليين ، يقبضون على كل شيء لأنفسهم ، بينما الضعاف الكثرة ، الفقراء ، لا يكاد يتبقى لهم الوجود المجرد .

وما يصح عن لندن ، يصح عن « مانشستر » ، « بيرمينجهام » ، « إيدز » . ويصح كذلك عن كل المدن الكبرى . لا مبالاة ، وحشية ، وأناية عنسة فى كل مكان ، هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى تعاسة لا توصف ، صراع



اجتماعى فى كل مكان ، منزل كل امرئ فى حالة من الحصار ، السلب المتبادل فى كل مكان تحت حماية القانون ، والى كل يقر علنا وفى وقاحة بأن المرء ينكش أمام نواتج وضعنا الاجتماعى ، كما تعلن عن نفسها هنا فى سفور ، ولا يمكنه إلا أن يعجب ، لأن كل هذا النسيج المهروس ما يزال متماسكا .

وحيث أن رأس المال ، المسيطر ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، على وسائل ضرورات الحياة والانتاج ، هو السلاح الذى يباشر به هذا الصراع الاجتماعى ، فإنه من الواضح أن كل مساوىء مثل هذه الحالة ، لا بد وأن تقع على الفقير . إن أحدا لا يهتم به أدنى اهتمام . إنه وقد القى به فى هذه الدوامة ، عليه أن يناضل قدر استطاعته حتى النهاية . فإن كان سعيدا للغاية لعثوره على عمل ، أى كرمته البورجوازية فأثرت بإستخدامه ، فإن ما ينتظره من أجور يكفيه بالكاد ، للحفاظ على الجسد والروح معا ، فإن لم يستطع العثور على عمل ، فإنه قد يسرق إن لم يخش الشرطة ، أو يموت جوعا ، وفى هذه الحالة ستراعى الشرطة أنه قد فعل ذلك بطريقة هادئة ، لا تضير أحدا . لقد مات خلال إقامتى فى إنجلترا عشرون أو ثلاثون شخصا على الأقل ، من الجوع فقط ، فى ظل أكثر الظروف إثارة للاشمئزاز ، وكان من النادر العثور على مخالفين يملكون الشجاعة ، لينطقوا بالحق الواضح فى هذا الأمر . دع شهادة الشهود واضحة لا لبس فيها بشكل لم يسبق له مثيل ، فإن البورجوازية ، والى ينتخب منها المخلفين ، ستجد على الدوام ، بابا خافيا تهرب خلاله من القرار الخفيف ، قرار الموت جوعا . إن البورجوازية لا تجرؤ فى مثل تلك الأحوال ، على نطق الحقيقة ، لأنها سوف تنطق إدانتها ، غير أن كثيرين قد ماتوا بشكل غير مباشر أكثر بكثير ممن ماتوا بشكل مباشر ، حيث تسببت الحاجة المستمرة للتغذية الصحيحة لمدة طويلة ، فى أمراض قاتلة ، إنها باتتاجها مثل ذاك الوهن ، الذى يمكن لأسبابه أن تظل عديدة الفاعلية ، قد جلبت المرض المبرح والموت . إن العمال الإنجليز يسمون هذا بالقتل الاجتماعى ، ، أنهم يهتمون مجتمعا كله بإقتراف هذه الجريمة بشكل دائم . هل هم مخطئون ؟ .

حقا . إن أفرادا ، هم الذين ماتوا جوعا ، ولكن أى ضمان للعامل بأن دوره إن يمل غدا ؟ من يضمن له عملا ، من يكفل له لو أن سيده ومولاه قد طرده

غدا ، لاى سبب أو بدون سبب ، لإستطاعته النضال مع هؤلاء الذين يعولهم حق يمكنه العثور على شخص آخر د يعطيه خبزا . من يضمن أن الرغبة في العمل كافية للحصول على العمل ، وأن الاستقامة ، وحسن التدبير ، وباقي الفضائل التي توصي بها اليورجوازيه هي حقا طريقه للسعادة ؟ لا أحد . إنه يعرف أن لديه شيئا اليوم ، وأن الأمر لا يتوقف عليه إن كان سيكون لديه شيئا غدا . إنه يعرف أن كل نسمة تهب ، وكل نزوة لمخدومه ، وكل دورة سيئة في الصناعة قد تطوح به القهقري في الدوامة العنيفة التي أنقذ نفسه منها مؤقتا . وأنه من المسير ، وغالبا من المستحيل ، أن يحتفظ برأسه فوق الماء . وهو يعرف ، أنه رغم احتمال حصوله على سبل للحياة اليوم ، فإن احتمال حصوله على سبل غدا ، أمر غير مؤكد على الإطلاق .

وفي تلك الاثناء ، دعنا نتقدم إلى بحث أكثر تفصيلا ، عن الحال التي وضع فيها الصراع الاجتماعي ، الطبقة التي لا تملك . دعنا نرى ما يقدمه المجتمع للعامل مقابل عمله . في صورة مسكن ، ملابس وما كل ، أى نوع من الوجود يتفضل به على هؤلاء الذين أعطوا الكثير لدعم المجتمع ، دعنا أولا نتأمل مسألة المساكن .

إن لكل مدينة، حتى أو أكثر من الأحياء القذرة ، حيث يزدحم العمال معا . حقا أن الفقر يقطن في أzone محتفية بجوار قصور الأغنياء ، غير أنه يخصص له ، عموما ، مكانا بعيدا منفصلا ، حيث يكون في وسعه أن يناضل قدر طاقته ، بعد إبعاده عن مرأى الطبقات السعيدة . إن هذه الأحياء القذرة منظمة بشكل متماثل إلى حد ما ، في كل المدن الكبرى في إنجلترا ، أسوأ المنازل في أسوأ أحياء المدن . غالبا أكواخ من طابق أو طابقين في صفوف طويلة ، ربما بها أقبية تستخدم كمساكن ، وهي على وجه التقريب ، مبنية دائما بطريقة غير منتظمة ، إن هذه المنازل المكونة من ثلاث أو أربع حجرات ومطبخ ، تشكل في طول إنجلترا وعرضها ، باستثناء بعض أجزاء لندن ، المساكن العامة للطبقة العاملة . إن الشوارع عموما غير مهيأة ، وعرة وقذرة . مليئة بفضلات الخضار والحيوان ، لا توجد بها مزاريب ولا بالوعات ، ولكنها مزودة ، بدلا من ذلك ، بالعفن والبرك الآسنة . بالإضافة إلى ذلك ، فإن الطريقة المضطربة السيئة ، لبناء الحى كله ، تعرقل التهوية ، إذ حيث يعيش العديد من البشر هنا ، مزدحمين في حين

محدود ، فإنه يمكن بالفعل ، تصور حال الهواء السائد في أحياء العمال تلك ، فضلاً عن ذلك ، فإن الشوارع تستخدم كمناطق تخفيف ، عندما يتحسن الطقس ، إذ تعد الحبال عبرها ، من منزل إلى آخر ، وتعلق عليها الملابس المبتلة .

دعنا نبحث بعض الأحياء القذرة ، بترتيب متسلسل . تأتي لندن في المقدمة . \* وفي لندن توجد أوكارد سانت جيلز ، الشهيرة ، ولقي توشك الآن ، أن يحترقها أخيراً ، شارطان عريضان . ان سانت جيلز ، تقع في وسط أكثر أجزاء المدينة كثافة بالسكان ، تحيط بها الشوارع العريضة الواسعة ، حيث تراخى حولها حياة لندن الزاهية ، في الجوار المباشر لشارع د أوكسفورد ، شارع ريجنت ، الممتد من ميدان التراقالجار ، والمرفأ . إنها مجموعة غير منتظمة من المنازل العالية المكونة من ثلاث أو أربع طوابق ، شوارعها عوجاء قذرة تعج بحياة تماثل تلك التي تعج بها شوارع المدينة الرئيسية ، باستثناء أن من يرى هنا ، هم فقط أهل الطبقة العاملة . وتقام سوق الخضار في الشارع ، حيث تعترض سلال الخضار والفاكهة الطوار إلى أبعد مدى ، وهي كلها بالطبع رديئة ، ونادراً ما تصلح للاستعمال ، كما يتصاعد منها ، مثلاً يتصاعد من بسطات تجمد السمك ، رائحة بشعة . ان المنازل مسكونة من القبو تحت الأرض إلى غرف الأسطح ، إنها قذرة من الداخل والخارج ، لها مظهر يجعل من العسير على أي من البشر أن يرغب في الحياة بداخلها . غير أن كل هذا ، يعتبر لا شيء ، إذا قورن بالمساكن الموجودة في الدروب والأزقة ، فيما بين الشوارع ، والتي يتم المدخول إليها ، عبر عمارات مغطاة فيما بين المنازل ، والتي تتجاوز فيها القذارة والخرائب الآيلة للسقوط كل وصف . من النادر وجود لوح زجاجي كامل في شباك ، الجدران متداعية ، قوائم الأبواب وأطر النوافذ سائبة ومخطمة ، أبواب من ألواح قديمة مسمره مما ، أو مهدومة كلياً في حي اللصوص هذا ،

---

\* إن الوصف الوارد فيما بعد كان قد تم كتابته بالفعل ، عندما صادقت مقالة في « الأليومينا دماجازين » ( أكتوبر ١٨٤٤ ) تناول أحياء الطبقة العاملة في لندن والتي تتطابق — بالحرف تقريباً في مواضع كثيرة ، وفي كل جزء من السياق العام — مع ما قلته . وكان عنوان المقالة « مساكن الفقراء » ، من مذكرات M.D. ، ( ملحوظة في الطبعة الألمانية ) .

حيث لا حاجة إلى الأبواب ، إذ ليس هناك ما يسرق . أكدياس من الزبالة والرماد ترقد في كل النواحي ، والسوائل القذرة التي أفرغت أمام الأبواب تتجمع في برك نذرة . هنا يعيش أفقر الفقراء ، أسوأ العمال أجراً مع اللصوص وضحايا الدعارة ، مكدمين معاً بلا تمييز . الغالبية إيرلنديين ، أو من أصل إيرلندي ، وهؤلاء الذين لم ينغمسوا بعد ، في دوامة الدمار الخلقى التي تحيط بهم ، يغوصون يومياً إلى الأعماق ، يفقدون يوماً مزيداً من قدرتهم على مقاومة إفساد الأخلاق بتأثير الحاجة والعنف ، والشروع المحيطة .

ليست « سانت جيلز » هي الحي القذر الوحيد في لندن ، فهناك في الشبكة المعتدة بلا حدود ، مئات وآلاف الحوارى والأزقة التي تخطها منازل أردأ من أن يعيش فيها أى أحد ، أى أحد ما يزال في وسعه أن ينفق أى شيء ، مهما كان ، من أجل منزل مناسب للبشر . وإلى جوار منازل الأثرياء الفاخرة يمكن أن يوجد ، في أغلب الأحوال ، مكان يقبع فيه أشد أنواع الفقر مرارة . وهكذا وصفت ، منذ زمن قليل مضى ، منطقة مجاورة لميدان « يورتمان » ، وهو أحد الميادين المحترمة غاية الاحترام ، بأنها مأوى لعدد ضئيل من الإيرلنديين ، اللذين أفسد الفقر والعنف أخلاقهم ، وذلك بمناسبة تحقيق رسمي ، أجراه مأمور للتحقيق الجنائي . وهكذا يمكن أن يوجد أيضاً ، في شوارع مثل « لونج آرك » ، وغيرها ، وهي شوارع محترمة ، رغم أنها ليست على النمط الحديث ، عدد كبير من ساكني الأفييه ، والتي يخرج منها إلى ضوء النهار ، أطفال أصابهم الهزال ونساء رثة الثياب . وتوجد إلى جوار مسرح « درورى لين » مباشرة ، المسرح الثانى في لندن ، بضعة من أسوأ شوارع العاصمة كلها ، شوارع « تشارلزستريت » و « كينج ستريت » و « بارك ستريت » ، حيث يقتصر سكنى منازلها ، من القبو إلى غرف السطح على عائلات فقيرة . لقد كان يعيش في أبرشية « سانت جون » و « سانت مرجريت » ، في عام ١٨٤٠ ، وطبقاً لما جاء في « مجلة جمعية الإحصاء » ، ٥,٣٦٦ عائلة من عائلات العمال ، في ٢٩٤ مسكناً (إن كانت تستحق ذلك الاسم !). الرجال والنساء والأطفال ملقون معاً دون تمييز لسن أو جنس ، ٢٦,٨٢٠ شخصاً تم عدّهم جميعاً ، وثلاثة أرباع تلك العائلات لا يحوزون غير حجرة واحدة . ويعيش في أبرشية « سانت جورج » ، الأرستقراطية و « ميدان هانوفر »

طبقا لنفس المرجع ، ١٩٦٥ ر. عائلة من عائلات العمال ، ما يقرب من ٦٠٠٠ ر. شخصا ، تحت نفس الظروف ، وهنا ، أيضا ، يتكدر معا ، ما يزيد عن ثلثي العدد الاجمالي ، بمعدل أسرة واحدة ، في حجرة واحدة . أما كيف كانت تستغل طبقة ملاك العقارات ، فقر هؤلاء المنكودين بطرق قانونية ، هؤلاء الذين لا يجد لديهم حتى اللصوص ما يسرقونه ، فقد كان يتم كالاتي : إن منازل « دروري اين » ، والتي ذكرت أنفاً تقدم الإيجارات الاسبوعية التالية : ثلاث شلانات لمسكن من قبوين ، أربع شلانات لحجرة واحدة بالطابق الارضى ، أربع شلانات وست بنسات للطابق الثانى ، أربع شلانات للطابق الثالث ، ثلاث شلانات لحجرة فوق السطح ، حتى أن قاطنى « تشارلز ستريت » الجياع ، يدفعون وخدم لملاك المنازل أتاوة سنوية قدرها ٢٠٠ ر. جنيه استرلينى ، وتدفع الـ ٣٦٦ ر. أسرة ، والتي ذكرت أنفاً فى « ويستمينستر » إيجارا سنويا قدره ٢٠٠ ر. جنيه استرلينيا .

ويرقد أكثر الأحياء العمالية إتساعا ، شرقى « الحصن » ، فى « هوايت شابل » و « بشنال جرين » ، حيث تعيش أكبر تجمعات لادن العمالية . دعنا نسمع ما يقول مستر « ج. المستون » ، واعظ « سانت فيليب » « بشنال جرين » عن حال أبرشيته : -

« انها تحتوى على ١٩٤٠٠ منزلا ، تقطنها ٢٧٩٥ أسرة ، أو ما يقرب من ١٢٠٠٠ شخصا . أن الحيز الذى يقطن فوقه هذا العدد الكبير من السكان ، أقل من ٤٠٠ ياردة مربعة ( ١٢٠٠ قدما مربعا ) ، وليس بغريب أن تجد فى هذا الحشد المكتظ ، رجلا وزوجته وأربع أو خمس أطفال ، وأحيانا كلا الجدين ، كل هؤلاء جميعا ، فى غرفة واحدة ، مساحتها من عشرة الى احدى عشرة قدما مربعا ، حيث يأكلون ، ينامون ويعملون ، واننى لاومن بأنه أمام أسقفية لادن أن توجه انتباهها الى هذه الابرشية التى هى أكثر أبرشية أغنى الدهر عليها ، ان أهل « الوست اند » ليعرفون عنها قدرها تبلغ ضآلته ، ضالة القدر الذى يعرفه عنها متوحشو استراليا أو جزر البحر الجنوبي . ولو تعرفنا على هؤلاء التمساء ، من خلال الملاحظة الشخصية ، اذا شاهدناهم أثناء تناولهم



طعامهم القليل ، اذا رأيناهم وقد أضناهم المرض والحاجة للعمل ، فإننا سنبعد كتلة ما ، من العجز والشقاء ، حتى أن أمة كامتنا يجب أن تنجس ، من أن مثل هذه الأمور ممكنة الحدوث . لقد كنت قسيسا قرب « هدرسفيلد » خلال ثلاث سنوات ، كانت فيها المصانع على أسوأ حال ، غير أنى لم أرى بتاتا ، عجزا كاملا كهجز الفقراء في « بنال جرين » . لا يوجد أب عائلة واحدة ، من كل عشر ، في كل الجوار ، لديه ملابس أخرى غير بزة العمل ، وهي بزة سيئة ورتة إلى أقصى حد ، إن كثيرين في الحقيقة ، لا يملكون غطاء لليل ، غير تلك الأسبال ، ولا سرير غير جوال من قش ونشارة ، (١) .

إن الوصف السابق ، يقدم فكرة عن المنظر الداخلى لتلك المساكن . لكن دعونا نتابع واحدا من الموظفين الإنجليز ، اللذين يتجولون أحيانا هناك ، في واحد أو اثنين من منازل العمال تلك .

روت الصحافه ، بمناسبة التحقيق القضائى المنعقد في ١٤ نوفمبر ١٨٤٣ ، بواسطة مستر « كارت » ، قاضى التحقيق في «سوراي» ، عن جثة «آن جالواى» التى تبلغ من العمر ٤٤ عاما ، التفاصيل التالية ، وهى تفاصيل تخص المتوفاة : كانت تعيش في ٣ « هوايت ليون كورت » ، « برمودزى ستريت » ، لندن ، مع زوجها ، وابن فى التاسعة عشر من عمره ، فى حجرة لم ير بها سرير ، أو أى أثاث آخر . كانت ترقد مية بجوار ابنها ، على كومة من الريش ، الذى كان متناثرا فوق جسدها الذى يكاد يكون عاريا ، لم تكن هناك ملادة ولا غطاء فراش . كان الريش ملتصقا بصورة وثيقة بكل الجسد حتى أن الطبيب لم يستطع فحص الجثة قبل تنظيفها ، وحينئذ وجد أنها قد ماتت من الجوع وأن بها جراحا ناجمة عن لدغات الحشرات . كان جزءا من أرضية الحجرة منزوفا وقد استخدمت المائلة كلها ، هذه الفتحة فى الأرضية كمرحاض .

وفى يوم الإثنين ١٥ يناير ١٨٤٤ حضر صبيين أمام مأمور قضائى الشرطة كانا فى حالة جوع شديد ، فسرقا من دكان ، كاره \* لم تكن قد نضجت بعد

والتيهما في الحال . وأحسن المأمور القضائي ، بضرورة تقصى الحالة أبعد من ذلك ، فتلقى من رجل الشرطة التفصيلات التالية :

أن أم الصبيين كانت أرملة جندي سابق ، أصبح فيما بعد من رجال الشرطة وأنها قد عاشت فترة عصيبة للغاية منذ وفاة زوجها ، حتى يمكنها أن تعمل إبنائها التسعة ، إنها تعيش في فقر مدقع ، في ٢ د بولز بلاس ، د كواكر كورت ، د سيبتيفيلدز . وعندما جاءها رجل الشرطة ، وجدها وستة من أبنائها ، مكومين معا ، بالمعنى الحرفي للكلمة ، في حجرة خلفية صغيرة خالية من الأثاث ، ما عدا كرسيين قش قديمين ، ذهبت مقاعدهما ، ومنضدة صغيرة بمساقين مكسورين ، وقدح مكسور وطبق صغير . وبالكاد كان على أرضية الموقد شرارة نار ، وفي أحد الأركان رقت كمية كبيرة من الاسمال للبالية ، كمية تكفي ملء عيدة (مريلة) امرأة ، والتي كانت تستخدمها الأسرة كلها كسرير . أما ملابس الفراش ، فلم يكن لديهم غير الملابس الخفيفة التي يرتدونها أثناء النهار . وأخبرته المرأة الفقيرة ، أنها قد اضطرت الى بيع سريرها في العام الماضي ، حتى تشتري طعاما . أما فرش السرير ، فقد رهنته عند مورد المواد الغذائية من أجل الطعام . فأمر المأمور القضائي ، بأن يصرف للمرأة قدر وافر من تموين صندوق الفقراء .

وفي فبراير ١٨٤٤ وضعت د تيريزا بيشوب ، أرملة في الستين من عمرها وإبنتها المريضة البالغة من العمر ٢٦ عاما ، تحت رحمة المأمور القضائي للشرطة ، في د مارليور وستريت . إنها تعيشان في ٥ د براون ستريت ، د جروسفيلدز سكوير ، في حجرة خلفية ، لا تزيد سمعتها عن سعة مرحاض . ولا يوجد بها قطعة واحدة من الأثاث ، وفي أحد أركانها ترقد بعض الاسمال التي ينام عليها كليهما ، وصندوق يستخدم كصندوق ومقعد . وتكسب الأم القليل من عمل يومى . لقد قال صاحب البيت ، انهما عاشا على هذا النحو منذ مايو ١٨٤٣ ، وأنهما قد باعا ورهنا بالتدريج ، كل ما لديهما ، وأنهما رغم ذلك ، لم يدفعوا أى إيجار . وقد خصص لهما المأمور القضائي مبلغ جنهما واحدا لإسترلينيا ، من صندوق الفقراء .

اننى لا أزعج ، أن كل عمال لندن ، يعيشون في مثل حجرة الأسر الثلاث ، ساقفة الذكر . اننى اعرف جيدا ، أن هنالك عشرة أحسن حالا ، الى حد ما ، في

حين أن واحدا ، قد وط المجتأ مع تماما تحت قدميه ، ليكننى أزعج أن آلاف الكادحين والافاضل من الناس - وهم أكثر جدارة ، وكذا أكثر مدعاة الاحترام من كل أثرياء لندن - ليجدون أنفسهم في وضع غير لائق بالبشر ، وأن كل بروليتارى ، كل فرد ، دون استثناء ، معرض لمصير مماثل دون أدنى خطأ من ناحيته ، وبرغم كل الحمد الذى فى وسعه أن يبذله .

وبرغم كل هذا ، فإن هؤلاء الذين لديهم ، قدر ما من ملاذ ، إنما هم محظوظين ، محظوظين عند مقارنتهم هؤلاء الذين لا مأوى لهم البتة . إن فى لندن ، خمسون ألفا من البشر يستيقظون كل صباح ، لا يدرون أين يضعوا رؤوسهم بالليل وأسعد هذه الكثرة هم أولئك الذين نجحوا فى الاحتفاظ ببئس أو لاثنين حتى المساء ، ليدخل نزل ، كتاك التى تكثر فى المدن الكبرى ، حيث يجدوا سرير أو سريرين ، إن هذه المنازل مملوءة بالأسيرة من القبو حتى غرف السطح ، أربع ، خمس ، ست سرر ، أكثر ما يمكن تكديسه فى حجرة واحدة . وفى كل سرير يكس أربع ، خمس ، ست ، أكثر ما يمكن رصه من البشر ، مرضى وأصحاء ، صغار وكبار ، سكارى وغير سكارى ، رجال ونساء ، تماما كما جاءوا بلا تمييز . ثم يأتى التشاحن ، اللكمات والجراح ، أو أن يتفق زملاء الفراش هؤلاء ، وبذا يصبح الأمر أكثر سوء ، إذ تنظم السرقات ، أو أن تجرى أشياء ترفض اقتنا ، وقد نمت إنسانيا أكثر من أفعالنا أن تسجلها . هؤلاء الذين يعجزون عن الدفع لمثل هذا الملاذ ؟ إنهم يتنامون حيث يجدون مكانا ، فى الطرقات والبواكى وعند النواصى ، حيث لا يزعمهم البوليس والملاك . إن قليلا من الأفراد يجد طريقة إلى الملاجىء التى تدار هنا وهناك ، بواسطة أعمال البر الخاصة ، وينام البعض الآخر على الدكك فى الحدائق قريبا من أسفل نوافذ الملكة فيكتوريا . دعونا نسمع ما تقول التيمس ، اللندنية .

• يظهر من التقرير الوارد بأعمدة صحيفتنا بالأمس ، عن الاجراءات الجارية فى محكمة شرطة د مارليوروستريت ، ، ان هناك فى المتوسط خمسين إنسانا من كل الأعمار ، يتزاحمون معا فى الحدائق كل ليلة ، ليس لهم من مأوى آخر غير حائط قدمه الأشجار ، وبضلع تجاوزت فى جسر النهر . وغالبية هؤلاء من الفتيات

الصغيرات ، اللاتي أغواهن الجنود من الريف ، ليسرحوا في المجتمع بكل هوز  
للغفر المدافع الذي لا صديق له ، وكل تهور الرذيلة المبهكرة .

د إن هذا الأمر فظيع حقا ، الفقراء هناك ، لا بد وأن يكونوا في كل مكان .  
إن الفاقة مستجد طريقها وتنصب صرحها البشع في قلب مدينة كبيره مرفه  
وسط آلاف الحوارى والشوارع الجانبية لعاصمة أهله بالسكان ، لا بد أن يكون  
دائما ، كما نخشى ، كثير من المماناة - كثير يؤذى العين - وكثير يكون في أحقاد .

د أما داخل نطاق الثراء والبهجة والأزياء الحديثة ، وليل الأبهة الملوكية في  
وسانت جيمس ، ، الذي يلتئم مع البهاء الفاخر ، لبيزداثر ، ، على حدود مساكن  
الارستقراطية القديمة والجديدة ، في حى تمسك فيه ، الرقة الحذر للتخطيط ،  
الحديث ، عن إبداع دار واحدة رخيصة للفاقة ، فيبدو ، كما كان ، موقوفاً على  
المتعة المطلقة للثراء ، أما هؤلاء وهناك ، ، فيجب أن تبث الحاجة والجوع  
والمرض والرذيلة وما شابه من فطائع فيما بينهم ، حتى يستنفد البدن بالبدن ،  
والروح بالروح !

إنها حقا لأمر بهمة ! الاستمتاع إلى أقصى الحدود ، حتى أن الاسترخاء  
الجسدى ، والإثارة الذهنية ، أو أكثر متع الحس براءة ، يمكنها أن تغذى شهوة  
الإنسان ، وأن تقوده إلى الاحتكاك المباشر بذاك الشقاء الذى لا شفيع له .  
فالثراء في صالونه المضيئة يضحك - ضحكة طائشة بريئة - على جراج العوز  
المجمولة . السرور يسخر بقسوة ، لكن دون وعى ، من الألم الذى يئن أسفله .  
كل الأشياء المتناقضة تسخر من بعضها البعض - كل المتناقضات ما عدا الرذيلة  
التي تغرى والرذيلة التي يغرى بها .

د لكن دع كى الرجال يتذكرون هذا - أنه من أكثر الدوائر ظرفا لاغنى  
مدينة على أرض الله ، يمكن أن يوجد هناك ، ليلة بعد ليلة ، وشتاء إثر شتاء ،  
غساء - صفار السن - مسنين فى الرذيلة ، ويمانين - وقد نبذهن المجتمع - التفسخ  
من الجوع الشديد ، العفن والمريض . دعهم يتذكرون هذا . وأن يتعلموا ألا

يضعوا النظريات بل يعملوا ، إن هناك مجال كبير للعمل في أيامنا تلك \* .

لقد أشرت إلى المأوى للذين بلا مأوى . إن مثلين يمكن أن يوضحا كيف كان هؤلاء مكتظين أشد الإكتظاظ . إن مأوى للذين بلا مأوى ، قدشيد حديثا في «أوجل ستريت» العلوى ، إنه في وسعه أن يأوى ثلاثة آلاف شخص كل ليلة ، وقد استقبل منذ إفتتاحه في ٢٧ يناير حتى ١٧ مارس ١٨٤٤ ، ٢٧٤٠ شخصا لمدة ليلة أو أكثر ، وكان عدد المتقدمين للإقامة في هذا المأوى في إزدياد ، كذا في ملاجي . «هوايت كروس ستريت» و «وايبنج» . وكانت تطرد كل ليلة جمهرة من اللذين لا مأوى لهم لعدم وجود حجرات ، رغم أن الموسم كان يتقدم على نحو أكثر مواتاة . وفي مأوى آخر ، الملجأ المركزي في «بلاي هوس يارده» كانت تقدم السرر هناك ، بمتوسط ٦٠ سريرا في الليلة ، وقد تم إيواء ٦٠٦٨١ شخصا خلال الثلاثة أشهر الأولى من عام ١٨٤٤ ، كما تم توزيع ٩٦٠١٤١ قطعة من الخبز . ومع ذلك فإن مجلس المديرين قد أعلن ، أن هذه المؤسسة ، قد بدأت تستجيب لضغط الموزين بشكل محدود ، فقط عندما أفتتح «الملجأ الشرقى» أيضا .

دعونا نغادر لندن ، ونتقصى حال المدن الكبرى الأخرى ، في الممالك الثلاث طبقا لترتيبها . دعونا نبدأ أولا «دبلان» ، إنها مدينة ، يماثل جلال سحرها عند الاقتراب منها من ناحية البحر ، سحر لندن ، إن خليج «دبلان» هو أجمل خليج في كل مملكة الجزيرة البريطانية ، حتى أن الأيرلنديين يقارنونه بخليج «نابلس» . إن المدينة تمتلك مغريات كبيرة ، أحيائها الأرستقراطية أفضل ، وهي مخططة في ذوق أفضل من أى مدينة بريطانية أخرى . وعلى أى الأحوال ، تقع أحياء دبلان الأشد فقرا ، عند اجراء عملية مقاصة ، بين أكثر الأحياء التى ترى في العالم بشاعة وقبح منظر . حقا ، ان السجية الأيرلندية ، والنسب تروح فقط ، في ظل بعض الظروف ، الى القذارة ، تتحمل مساهمة جزئية في هذا ، غير أننا ، كما نجد آلاف الأيرلنديين في كل مدينة كبيرة في إنجلترا واسكتلندا ، وكما يغوص بالضرورة ، كل السكان الفقراء بالتدريج ، في نفس القذارة ، فإن بؤس

\* التيمس في ١٢ أكتوبر ١٨٤٣ .



« دبلن » ، ليس شيئاً خاصاً بها ، ليس شيئاً غريباً عن « دبلن » ، ولكنه شيء مشترك ، بين كل المدن الكبرى . أن أحياء « دبلن » الفقيرة ممتدة للغاية ، وهي تفوق في قذارتها ، وعدم صلاحية منازلها للسكنى ، وإهمال الشوارع فيها ، كل وصف . ويمكن تكوين فكرة ما ، عن الطريقة التي يتكدر بها الفقراء معاً هنا ، من حقيقة أنه في عام ١٨١٧ ، وطبقاً لنقرير مفتش دور تشغيل الفقراء \* ، فإن ١,٣١٨ شخصاً يعيشون في « باراك ستريت » ، في ٥٢ منزلاً ، بها ٣٩٠ حجرة ، وأن ١,٩٩٧ شخصاً يعيشون في « شيرش ستريت » ، وقربها ، في ٧١ منزلاً ، بها ٣٩٣ حجرة ، حتى أنه :

« يوجد في هذه الأحياء ، والأحياء المجاورة لها ، حشد من الحواري والأزقة العفنة ، وتلتقي كثير من الأقبية كل ما ينفذ إليه من ضوء عبر الباب ، بينما ينام السكان في الكثير منها فوق الأرض العارية ، رغم أن غالبيتهم يمتلكون سريراً على الأقل ، أما حارة « نيكواسون » ، مثلاً ، فإنها تحتوي على ثمان وعشرين حجرة صغيرة ، يسكنها ١٥١ شخصاً ، يعانون أشد العوز ، ولا يوجد هناك في الحارة كلها غير مريرين وملاءتين . »

إن الفقر الشديد في « دبلن » ، حتى أن مؤسسة خيرية واحدة ، هي واتحاد النسول ، تقوم بإطاعة ٢,٥٠٠ شخصاً يومياً ، أى واحد في المائة من السكان تستقبلهم وتقدم لهم طعام اليوم ثم تطردهم ، عندما يحل الليل .

ويصف دكتور « اليسون » ، وضماً مماثلاً لذلك الموضع في « إدينبورج » ، والتي أكتسبها وضعها الفاخر ، اسم « أثينا الحديثة » ، والتي تتناقض مساكنها الأرستقراطية المثلثة في « المدينة الجديدة » ، تنافساً شديداً مع التماسه العفنة للفقراء في « المدينة القديمة » . ويزعم « اليسون » أن هذه المساكن الممتدة ، إنما هي مساكن قذرة وبشعة ، مثلها في ذلك مثل أسوأ أحياء « دبلن » ، بينما

---

\* اقتبسها الدكتور و. ب. اليسون F.R.S.E. زميل ورئيس سابق الملكية الملكية للطباء ، الخ ، الخ . « ملاحظات عن سبل التصرف مع الفقراء في اسكتلندا » ، وتأثيراتها على الحالة الصحية بالمدن الكبرى ( اينبرج ) ، ١٨٤٠ . والكاتب رجل متدين ، وأحد أعضاء حزب المحافظين ، وهو شقيق المؤرخ ، ( أركيبالد اليسون ) .

ميكرون على د اتحاد التسهل ، أن يساعد قدرأ كبيرا من المحتاجين في د ادينبرج ،  
مثلا يفعل في العاصمة الايرلندية . وهو يزعم عن حق ، أن الفقراء في اسكتلندا  
وخاصة في د ادينبرج ، ود جلاسجو ، أسوأ حالا من أى منطقة أخرى  
في الممالك الثلاثة . ويقرر دكتور دلى ، واعظ الكنيسة القديمة في د ادينبرج ،  
عام ١٨٣٦ ، أمام د وكالة التحقيق الدينى ، أنه : -

د لم ير من قبل مثل هذا الشقاء الذى يراه في أبرشيته ، حيث الناس بلا  
أثاث ، بلا أى شيء ، وحيث يشترك إثنان من المتزوجين في حجرة واحدة ، في  
غالب الأحوال . لقد زار في يوم واحد سبعة منازل ، لم يكن فيها كلاما أى سرير ،  
بل ولم يكن هناك فى بعضها ، حتى كومة قش . وقد نام المسنون ، واللذين  
يبلغون من العمر ثمانين عاما ، فوق الأرض الخشبية ، ناموا جميعا ، وعلى وجه  
التقريب ، بنفسى الملابس التى يرتدونها خلال النهار . لقد وجد فى أحد حجرات  
الاقبية عائلتين قادمتين من فواحي الريف الاسكتلندى ، مات منهم طفلان بعد  
فترة وجيزة من وصولهم إلى المدينة ، وكان الثالث فى طريقة إلى الموت ساعة  
زيارته . كان لكل عائلة كومة قش فذرة ترقد فى أحد الأركان ، وكان القبو  
يأوى ، بالإضافة الى العائلتين ، حماراً . كان أيضا مظلم ، حتى أنه يستحيل تمييز  
شخص من آخر خلال النهار ، وأعلن دكتور دلى ، أن رؤية مثل هذا الشقاء فى  
بلد اسكتلندا ، لأمر كاف ، لادعاء قلب رقد من صخر .

ويتناول دكتور د هـنن ، فى د الجريدة الطبية والجراحية ، الصادرة فى  
د ادينبرج ، حالة عائلة لتلك الحالة . إذ يتضح ، نقلا عن تقرير برلمانى \* ، أن  
مساكن فقراء د ادينبرج ، ، تفتقر إلى سيادة النظافة ، كما يجب أن يكون متوقعا  
فى ظل مثل تلك الظروف . الكتاكت تجم على أعمدة السرير بالليل ، وتشارك

---

\* تقرير إلى وزارة الداخلية من أعضاء لجنة قانون الفقراء ، بخصوص استقصاء الحالة  
الصحية للطبقات العاملة فى بريطانيا العظمى . ملحق بالتقرير ( تذييل ) . وقد قدم التقرير  
إلى كلا من مجلس البرلمان فى يوليو ١٨٤٢ ، 3 Vals. Falio . ( تم جمعه وترتيبه من  
التقارير الطبية التى كتبها ( إدوين شادوبك ) سكرير أعضاء لجنة قانون الفقراء . ( مضاف  
فى النسخة الألمانية ) .

الكلاب والخيول ، الادميين مأواهم ، والنتيجة الطبيعية لذلك ، رائحة كريهة ، فظيعة ، عفنة ، وأسراب من الحشرات . إن البنية السائدة ولا بد ينبرج ، لتساعد هذه الأحوال البشعة أيما مساعدة . إن المدينة القديمة ، مقامة على منحدرى أحد التلال ، الذى يجرى الشارع الرئيسى على قمته . وينحدر من الشارع الرئيسى حديد من الحوارى الضيقة الملتوية ، التى تسمى بالازقة لكثرة دورانها . إن منازل المدن الاسكتلندية ، بشكل عام مكونة من إبنية ذات خمس أو ست طوابق مثما مثل باريس ، وهى فى ذلك تتناقض مع إنجلترا ، حيث يوجد بقدر المستطاع ، منزل منفصل لكل أسرة ، وهكذا يتكشف زحام البشر فوق مساحة محدودة .

« هذه الشوارع » ، كما تقول جريدة انجليزية \* فى مقال عن الحالة الصحية للعمال فى المدن ، غالبا ما تكون ضيقة إلى حد أن المرء يمكن أن يخطو من نافذة منزله إلى نافذة جاره المقابل . بينما المنازل مكونة بشكل مرتفع ، طابق فوق طابق ، حتى أن الضوء نادرا ما ينفذ إلى الحارة أو الزقاق الرافد بينهما . ولا توجد فى هذا الجزء من المدينة ، أى مجارى ، وأى نظام آخر للصرف ، ولا حتى مراحيض خاصة بالمنازل . وبالتالي فإن فضلات ، ونقابات ، وبراز . . . . . شخصا على الأقل ، يلقى بها فى القنوات كل ليلة ، حتى أنه ، رغم كل ما يكنس من الشوارع ، تولد كتلة من القذارة المحففة والروائح العفنة ، التى لا تؤذى فقط البصر والشم ، ولكنها أيضا تهدد ، صحة المواطنين بالخطر إلى أقصى درجة . وما يشير التساؤل ، هو كيف أهملت كل اعتبارات الصحة والأخلاق ، وحتى الاحتشام العادى للغاية ، أهملت تماما فى مثل تلك الأماكن ؟ وعلى العكس ، فإن كل من تعرف على حالة السكان عن كثب ، سوف يشهد المدى البعيد الذى بلغه المرض والشقاء وإنحدار الأخلاق هنا . إن المجتمع فى مثل تلك الأحياء ، قد غاص إلى مستوى يائس منحط إلى حد لا يمكن وصفه . إن منازل الفقراء قدرة بشكل عام ، ومن الواضح أنها لا تنظف أبدا . إنها تتكون فى أغلب الأحوال من حجرة واحدة ، تخضع لاسوأ تهوية ، ومع ذلك ، فهى على الدوام باردة ،

---

\* الأرتيزان « الصنائى » ، فى أكتوبر سنة ١٨٤٣ ، وهى مجلة شهرية .

حيث التوافد محطة أو سيئة التركيب ، وهي أحيانا رطبة ، وتقع تحت مستوى المياه الجوفية على نحو ما ، وهي دائما ما تكون رديئة الاثاث ، وغير مريحة على الإطلاق ، وغالبا ما تستخدم الأسرة كلها ، كومة قش كمرقدها ، وفوق هذه الكومة ينام الرجال والنساء ، الصغار والكبار ، في اختلاط منفرد . ويمكن الحصول على المياه من المضخات العامة فقط ، وتغذى بالطبع ، صعوبة الحصول عليها ، كل القذارة الممكنة .

إن ما يشاهد في مدينتي المرفأين الكبيرين الآخرين ، لا يفضل ما يرى في المدن الأخرى ، د فليفربول ، بكل تجاراتها ، وثروتها ، وأهبتها ، تعامل عمالها بنفس الهمجية . إن أكثر من ٥٠.٠٠٠ من البشر ، يشكلون أربعة أخماس السكان بالتنام ، يعيشون في أقبية ضيقة ، مظلمة ، رطبة ، سيئة التهوية ، يوجد منها بالمدينة ٧,٨٦٢ قبوا . ويوجد الى جوار تلك الأقبية المسكونة ٣,٣٧٠ زقاقا وقد أقيمت المباني على أركانها الأربعة مغطاة مساحات صغيرة ، ولا سبيل إلى دخولها إلا من مدخل واحد ، يمر ضيق مغطى ، وكل هذا كالمسألة قدر للغاية ، وسكانه بالكامل من البروليتاريين . إن لدينا ، عندما يأتي الدور على د مانشستر ، ما يفوق ذلك من حديث عن تلك الأزقة ، وفي د بريستول ، تمت زيارة ٢,٨٠٠ عائلة في وقت واحد ، فوجد أن ٤٦٪ منها يحتل حجرة واحدة ، حجرة واحدة لكل أسرة .

وتسود المدن الصناعية نفس تلك الأوضاع ، بطريقة مطابقة تمام التطابق . ففي د فو تنجهم-ام ، يوجد بشكل كلي ، ١١,٠٠٠ منزلا ، منها ما يتراوح من ٧,٠٠٠ إلى ٨,٠٠٠ منزلا مبنية ظهرا لظهر ، ذات حوائط مشتركة ، حتى يستحيل توافر التهوية من خلالها ، بينما يقوم مرحاض واحد في العادة ، على خدمة عدد من المنازل ولقد وجد خلال إحدى عمليات الاستقصاء التي إنجرت منذ فترة قريبة ، أن العديد من المنازل قد تم بناؤه فوق مجاري ضحلة لا يغطيها إلا ألواح خشب الأرضية . وتجري الأمور على نفس النحو في د ايسينستر ، د دربي ، و د شيفيلد . أما عن د بيرمنجهم-ام ، فإن مقالة د الارتيزان ، المستشهد بها آنفا تقرر : -

وتوجد في الأجزاء الأكثر قدما في المدينة، أحياء عديدة سيئة ، قذرة ومهملة، حلينة بالبرك الآسنة وأكوام الفضلات . الأزقة عديدة في د بيرمينجهام ، ، حق أن عددها يصل إلى ألفي زقاق ، تحوى العدد الأكبر من عمال المدينة . وهي في العادة ضيقة ، موحلة رديئة التهوية ، سيئة الصرف ويحد كل زقاق من ثمانية إلى عشرين منزلا ، وهي عادة يمكن تهويتها من ناحية واحدة ، حيث أن حوائطها الخلفية مشتركة . ويوجد عادة في خلفية كل زقاق ، كومة رماد أو ما شابه ، كومة قذرة إلى حد لا يمكن وصفه . وعلى أى الأحوال ، فإنه يجب ملاحظة أن الأزقة الأكثر جدة يتم بناؤها بطريقة أكثر معقولة ، كما يتم الحفاظ عليها بطريقة أكثر لياقة ، وحتى في الحواري القديمة ، فإن الأكواخ أقل ازدحاما عنها في د مانشستر ، و د ليفربول ، ، وهذا تسلك د بيرمينجهام ، طريقا أقل عفة بكثير عن د وولفرهامبتون ، ، د دودلى ، و د بيلستون ، ، مثلا ، وهي التي تبعد عنها مسافة أميال قليلة فقط ، وذلك حتى أثناء إنتشار وباء ما . إن الأقيية كلاجىء للسكن ، أمر غير معروف أيضا في د بيرمينجهام ، ، رغم أن عددا قليلا من الأقيية يستخدم بطريقة سيئة كحجرات عمل . إن المنازل المفروشة لسكنى البروليتاريا عديدة ، نوعا ما ، ( أكثر من أربعمئة منزل ) وهي أساسا في الأزقة السكائنة في قلب المدينة . إنها كلها على وجه التقريب قذرة بدرجة مقززة ، وكريهة الرائحة ، إنها مأوى للتسولين ، والاصوص ، والصعاليك والمومسات اللذين ياكلون ويشربون ويدخنون وينامون هنا ، دون أى إعتبار للإحتشام أو الراحة في جو لا يحتمله فقط إلا أمثال هؤلاء ، من سقط البشر .

وتشبه د جلاسجو ، ، د أدنبرج ، في كثير من الوجوه ، حياوية نفس الأزقة ، ونفس المنازل العالية وتلاحظ د الارتيزان ، على تلك المدينة : -

د أن الطبقة العاملة ، تشكل هنا ما يقرب من ٧٨٪ من إجمالى سكانها ( حوالى ٣٠٠,٠٠٠ نسمة ) ، وهي تعيش في أجزاء من المدينة تفوق في حقارتها وبؤسها أحط أركان د سانت جيلز ، و د هوايتشابل ، ، خرابات د دبلن ، وأزقة د أدنبرج . هناك العديد من مثل تلك الأماكن في قلب المدينة ، جنوبي الترونجات ، وغرب دالسالت ماركت ، ، في د كالتون ، وبعيدا عن د الهامستريت ومتاهات لا نهاية لها من الطرقات أو المظفات ، والتي يصب فيها ، عند كل



خطوة ثالثة يبا، حوارى وأزقة مغلقة ، تشكلها أكوام عالية من منازل خربة ،  
سيئة بلا مياه . وتقع هذه المنازل ، بالمعنى الحرفى للكلمة ، بالسكان .  
ويحتوى كل طابق ثلاث أو أربع أسر ، ربما يصل عددها إلى عشرين شخصا .  
وفى بعض الحالات يؤجر كل الطابق كأماكن للنوم ، حتى يمكن رص خمسة  
عشرة أو عشرون شخصا ، رأس كل منهم حبال رأس الآخر ، إننى لا أستطيع  
القول ، أنهم يسكنون فى غرفة واحدة . إن هذه الأحياء ، تأوى أفقر وأتفه  
أعضاء المجتمع وأكثرهم خسة ، ويمكن النظر إليهما باعتبار أنهما مصدر كل تلك  
الآوبئة المخيفة التى تبدأ من هنا وتنتشر الدمار فوق ( جلاسجو ) .

دعنا نستمع إلى د ج ك سيمونس ، مفوض الحكومة لإستقصاء حالة  
النساجين اليدويين ، وهو يصف تلك الأجزاء من المدينة \* .

ما قد رأيت الشقاء فى بعض أسوأ أطراره ، هنا وفوق القارة ، لكننى ،  
وحتى زيارتى لأزقة « جلاسجو » ، لم أكن لأصدق ، أنه يمكن أن يوجد لثم ،  
وتعاسة ومرض بهذه الوفرة فى أى بلد متحضر . فى تلك المنازل المفروشة  
المنحطة ، ينام عشرة ، اثنى عشرة ، وأحيانا عشرون شخصا من كلا الجنسين ومن  
كل الأعمار ، وبدرجات مختلفة من العرى ، مكومين معا فوق أرض الحجر ،  
دون أى تمييز . وعادة ما تكون تلك الملاجىء رطبة للغاية وقذرة وآيلة للسقوط  
حتى أن المرء لا يحب وضع حصانه فى واحد منها .

وفى مكان آخر

« تحتوى أزقة « جلاسجو » على عدد من السكان يتراوح ما بين خمسة  
عشر وثلاثين ألفا من البشر ، وتتكون تلك الأجزاء كلبية ، من حوارى ضيقة  
واحواش مربعة ، فى وسط كل منها كومة روث . لقد أثار المظهر الخارجى  
لتلك الأحواش إشمئزاضى ، لكن لم أكن قد تأهبت بعد لما فى الداخل من قذارة

---

\* « الصنع والصناعاتية ، فى الوطن وفى الخارج » ، بقلم ج . ك . سيمونس ، أدنبرج .  
١٨٣٩ ، والكاتب نفسه ، كما يبدو ، إسكتلندى ، إيرلى ، وبالتالي يعارض بهوس كلم  
حركة عمالية مستقلة ، والصفحات المذكورة هنا موجودة فى الصفحة ١١٦ .

وتعاسة . ففي بعض الأماكن التي زرتها ليلا ( كابتن مولر ، مشرف البوليس وسيمونس ) وجدنا طبقة كاملة من البشر عمدة فوق الأرض ، وهي في الغالب مكونة من خمسة عشرة إلى عشرين شخصا ، من الرجال والنساء دون تمييز ، بعضهم يرتدى الملابس ، والبعض الآخر عار . كان فراشهم سبلة قش عطن مخلوط بأسمال . كان هناك القليل من الأثاث أو لم يكن هناك أى أثاث . وكان الشيء الوحيد الذي يمنع هذه الأشياء الغريبة أى بصيص من صلاحية للسكنى ، هو نار موضوعة على أرضية الموقد . إن اللصوصية والدعارة تشكل المكونات الأساسية لحيات هؤلاء السكان . ولا يبدو أن أحدا يأخذ على عاتقه نظافة هذا الإصطبل والأوجبة ، هذه البؤرة من الشر والفساد ، هذه الشبكة من الجريمة والقتل والوباء ، في قلب ثانی مدن المملكة . وامتدت عملية الاستقصاء إلى أحط الأحياء في مدن أخرى . غير أنها لم تسفر عن شيء يعادل نصف هذا السوء ، سواء في الحدة الخلقية أو الفساد الصحي أو الكثافة النسبية للسكان . ولقد أعلن « مجلس النقابة » أن غالبية منازل هذا الجزء ، آيلة للسقوط ، كما أنها غير صالحة للسكن ، غير أنها بدقة تامة ، أكثر المناطق ازدحاما بالسكان ، حيث أنها طبقا للقانون غير مطابقة بأى إيجار .

إن الحى الصناعى الكبير في قلب الجزر البريطانية ، ذلك الإمتداد الأهل بالسكان « لوست يوركشاير » و « سوث لانكشاير » ، بمدنه الصناعية الكبرى ، لم يفرز شيئا إذا قورن بما أفرزته مدن كبرى أخرى . أن حى صناعة الأصواف في « لوست رايدنج » التابعة « ليوركشاير » ، عبارة عن منطقة فاتنة ، إنها ريف أخضر جميل يقع فوق ربوة تزداد إرتفاعاتها وعورة نحو الغرب ، حتى تصل إلى أعلى نقاطها ، عند « سلسلة الجسور » التابعة « لبلارك ستون ادج » ، عند خط تقسيم المياه بين « البحر الأيرلندى » والمحيط الألمانى . إن وديان « أير » ، التي تمتد على جانبيها « ليدز » ، و « وديان الد كالدور » ، التي يجرى خلالها شريط « مانشستر - ليدز » للسكك الحديدية ، لهى من بين أشد الأماكن جاذبية في إنجلترا ، وقد نثرت المصانع والقرى والمدن فيها . في كل منحى . إن المنازل المشيدة من الأحجار غير المصقولة الرمادية اللون ، لتبدو غاية في الإيقان والنظافة ، إذا ما قورنت بمنازل « لانكشاير » المبنية من القرميد الذي اسود لونه ، حتى إنها تمتنع الناظر إليها ، غير أنه عند دخول المدن ذاتها ، فإن

المرء لن يجد فيها ، مما يسر ، إلا القليل . ان د ليدز ، كما تصفها د الارتيزيان ، ،  
وكما تاكد لي عند البحث والنقصى ، ترقد : -

د على منحدر معتدل الميل ، يهبط الى وادى الدائرة . وينساب هذا الجدول  
خلال المدينة لمسافة ميل ونصف تقريباً ، وهو عرضه للفيضانات العنيفة ، أثناء  
ذوبان الجليد أو الأمطار الغزيرة . وتعتبر الاجزاء الغربية وهى الأكثر ارتفاعاً  
فى المدينة ، نظيفة بالنسبة لمثل هذه المدينة الكبرى . غير أن الاحياء الراقدة  
أسفل ، على طول النهر وجدول روافده ، ضيقة وقذرة ، وهى كافية فى ذاتها ،  
أن تختزل حياة السكان وخاصة الاطفال . يضاف الى هذا ، تلك الحالة المقرزة  
التي توجد عليها الاحياء العمالية فى د كيرك جيت ، د مارش لين ، د كروس  
ستريت د ورشمووند رود ، والتي ترجع أساساً الى شوارعها غير الممهدة ،  
الحالية من البالوعات ، وممارها غير المنتظم ، وأزقتها وحوايرها العديدة ،  
وافتهاها الكامل لأغلب وسائل النظافة العادية ، وكل هذا مما ، يقدم تفسيراً  
كافياً للوفيات التي تتجاوز الحد فى تلك المواطن الشقية ، للنعاسة القذرة وينتج  
عن فيضان نهر الد أير ، ( والذي يجب أن يضاف ، مثل كل الانهار الأخرى ،  
إلى خدمة الصناعة ، فهو ينساب فى أحد أطراف المدينة صافياً رقراقاً وينساب  
عند الطرف الآخر غليظاً أسوداً عكراً ، تفوح منه رائحة كل الفضلات الممكنة )  
أن امتلاء المنازل والأقبية بالماء ، إلى حد يجعل ضيقها أمراً ضرورياً . فى مثل  
تلك الاوقات يرتفع الماء أيضاً ، حتى حيث توجد المجارى ، ليفيض منها إلى  
الأقبية \* مولداً ابخرة فاسدة مشبعة للغاية بكبريتيد الايدروجين ، تاركاً وراءه  
بقايا مقرزة ، غاية فى الخطورة على الصحة . ولقد كان الاثر الذى تسبب فيه  
طفح المجارى أثناء فيضانات الربيع عام ١٨٣٩ ضاراً للغاية ، حتى انه طبقاً  
لتقرير مسجل المواليد والوفيات لهذا الجزء من المدينة ، كانت هناك ثلاث  
وفيات مقابل ولادتين ، بينما كان الوضع فى كل الاجزاء الأخرى من  
المدينة ، خلال نفس الشهور الثلاث ، هو ثلاث مواليد ، مقابل وفاتين . كما  
توجد أيضاً أحياء أخرى مكنظة بالسكان ، لا توجد بها أى مجارى

---

\* يجب أن نضع نصب أعيننا أن تلك الأقبية ليست مجرد غرف خزين للنفاية ، لكنها  
مأوى للبشر أيضاً .

أى حال من الأحوال ، أو أن تلك المجارى معدة إعداداً سيئاً إلى حد أنه لا يمكن  
إلتزاع منفعة ما منها . وفى بعض صفوف المنازل ، نادراً ما تجف الأقبية ،  
وتغطى شوارع أحياء معينة بطبقة من الطين اللزج التى تبلغ القدم سمكا . ولقد  
بذل السكان محاولات عديدة الجدوى ، من وقت إلى آخر ، بهدف ترميم تلك  
الشوارع بجراريف ملأى برماد الفحم ، غير أنه رغم كل تلك المحاولات فإن  
الروث يتكوم ، وبرك المياه القذرة التى أفرغت من المنازل ، تملأ كل الحفر ، حتى  
تجففها الريح والشمس (\*) . إن ما يحمله كوخ عادى فى د ليدز ، لا يزيد عن  
خمس ياردات مربعة من الأرض ، وهو يشتمل عادة على قبو ، وغرفة للمعيشة  
وحجرة نوم واحدة . وتلك المساكن المؤجرة ، التى تمتلئ ليل نهار بالبشر ،  
إنما تشكل بالمثل ، نقطة خطيرة ، على أخلاق وصحة السكان .

ويقدم « التقرير الخاص بالحالة الصحية للطبقة العاملة » ، الذى أقتبست  
منه آنفا ، البينة ، على المدى الذى بلغه زحام تلك الأكواخ .

« لقد وجدنا فى د ليدز ، الأخوة والأخوات ، والنزلاء من كلا الجنسين  
يشاركون الوالدين حجرة النوم ، حيث تنجم نتائج ، ترتعد لها مشاعر الإنسان ،  
إن فكر فيها . »

وهكذا أيضاً « برادفورد » التى تبعد عن د ليدز ، سبعة أميال فقط ، عند  
ملتقى عدة وديان ، راقدة فوق شطآن مجرى مائى عفن الرائحة ، أسود بلون  
الفحم ، إنما تغلف خلال أيام الأسبوع بسحابة رمادية من دخان الفحم ، غير  
أنها تعطى ، فى أيام الآحاد اللطيفة ، صورة رائعة ، عندما ترى من المرتفعات  
المحيطة . أما وسطها ، فيوجد به نفس الارهاق والقذارة المكننة فى د ليدز .  
إن الأجزاء القديمة من المدينة ، مبنية فوق جوانب كتل شديدة الانحدار ، وهى  
ضيقة وغير منتظمة . وترقد أكوام الوسخ والانقاض ، فى الأزقة والحوارى  
والعطفات ، كما أن المنازل قذرة وبائسة ، وآيلة للسقوط . ولقد وجدت قرب  
النهر وفى قاع الوادى مباشرة ، العديد منها ، مهجور تماماً ، وقد دفن طابقه

---

( \* ) قارن تقرير « مجلس المدينة » الصادر فى الـ « ستاتستكال جورنال » ، مجلد ٢

الأرض ، حتى منتصفه ، في جانب التل . وعلى العموم فإن الأجزاء الموجودة في قاع الوادي ، والتي تزدحم فيها أكواخ العمال ، بين المصانع المرتفعة ، إنما هي من أقذر الأحياء وأسوأها أبنية في المدينة كلها . أما الأحياء الأكثر جودة من هذه ، كما الحال في مدينة صناعية ، فإن الأكواخ أكثر انتظاما ، وهي مشيدة في صفوف ، إلا أنها تشارك هنا أيضاً ، في كل الشرور الملازمة للطريقة المألوفة في تقديم ملاجئ العمال ، شرور ستوانينا الفرصة للحديث عنها بصورة أكثر خصوصية ، عندما نناقش الوضع في « مانشستر » . ويصبح نفس الأمر بالنسبة للمدن المتبقية من « وست ريدنج » ، وخاصة « بارنسلي » ، « هاليفاكس » . و « هدرسفيلد » . وتعتبر الأخيرة أطرف بكثير من كل المدن الصناعية في « يوركشاير » و « لانكشاير » ، بسبب موقعها الآخاذ ومهارها الحديث ، ورغم ذلك فلمدينة جزئها السيء أيضاً ، ففي أغسطس ١٨٤٤ كتبت لجنة ، عن اجتماع المواطنين لمسح المدينة ، تقريراً تقول فيه :

« تشتهر « هدرسفيلد » ، بوجود شوارع كاملة وعدد كبير من الجوارى والمطبات غير ممهدة وليست مزودة بالباليوعات أو وسائل أخرى للصرف ، حتى أن الفضلات والركام والوسخ من كل نوع ترقد متجمعة لتتفخ وتتفنن ، كما أن المياه الراكة تتجمع في برك في كل مكان تقريباً ، وبالتالي ، لا بد وأن تكون الملاجئ المجاورة رديئة وقذرة ، حتى أن المرض ينشأ في مثل تلك الأماكن ويمهد صحة المدينة كلها . »

إننا إن قطعنا « بلاكستون إدج » ، أو اخترقناها مع إمتداد الخط الحديدي ، فإننا نبدأ في ولوج تلك التربة الفذة ، التي أنجزت عليها الصناعة البريطانية أروع عمل لها ، ومنها أنبعشت كل الحركات العمالية ، أعنى ، جنوب « لانكشاير » بمدينة المركزية « مانشستر » . إننا سنجد مرة أخرى الريف القائم على ربوة يتدرج انحدارها من خط المياه غرباً ، متجه ناحية البحر الأيرلندي ، ووديان « الريبيل » و « الايرويل » و « المرسى » وروافدها الخضراء الساحرة ، ريف كان منذ مائة عام مضى ، مجرد أرض قليلة السكان ، تغطيها المستنقعات بشكل أساسي ، وهي الآن أكثر شريط ريفي في إنجلترا ، إزدحاما بالسكان ، وقد انتشرت فيه المدن والقرى . ففي « لانكشاير » ، وخاصة في « مانشستر » وجدت



الصناعة الإنجائزية نقطة بدايتها ومركزها في وقت واحد . إن عمليات التبادل التي تقوم بها « مانشستر » إنما هي ميزات لكل التقلبات التجارية . إن المهارة الصناعية الحديثة قد بلغت كمالها في « مانشستر » . إن استخدام قوى الطبيعة ، وإحلال الآلة محل العمل اليدوي ( وخاصة النول الذي يعمل بالقوة المحركة ، وآلات الغزل ذاتية الحركة ) ، وتقسيم العمل في صناعة القطن في جنوب « لانكشاير » ، قد بلغ الذروة . ولو عرفنا إن هذه العناصر الثلاث ، هي التي تميز الصناعة الحديثة ، لوجب علينا الإعراف بأن صناعة القطن قد ظلت متقدمة عن كل فروع الصناعة الأخرى ، منذ البداية حتى وقتنا الحالى . إن تأثيرات الصناعة الحديثة على الطبقة العاملة كان لا بد وأن تتطور هنا على نحو أكثر حرية وكالا ، وقدمت البروليتاريا الصناعية نفسها في كامل كمالها البارع ، إن الخطوة التي أدى إليها استخدام طاقة البخار ، الآلة وتقسيم العمل والتي قهرت العامل ، ومحاولات البروليتاريا كي ترتفع فوق هوانها ، يجب أن تبلغ بالمثل ، وبكلى وعى ، أعلى موضع . وحيث أن « مانشستر » هي النموذج الفذ للمدينة الصناعية الحديثة . ولأنى أعرفها بألفه كملك التي أعرف بها مسقط رأسى ، ألفة تفوق الألفة التي أعرفها أغلب قاطنيها الآن ، فإننا سنقف هنا وقفة أطول .

إن المدن المحيطة بـ « مانشستر » تختلف قليلا عن المدينة المركزية ، تختلف بالقدر الذى تخص به مناطق العمال ، فيما عدا أن الطبقة العاملة تشكل ، إن أمكن جزءاً أكبر من السكان . وهذه المدن مدن صناعية بحتة ، وهي تسير كل أعمالها من خلال « مانشستر » ، التي يعتمدون عليها من جميع النواحي ، لذلك فإنها مسكونة فقط ، بالعمال وصغار التجار ، بينما يقطن « مانشستر » عدد كبير للغاية من التجاريين ، وخاصة العاملين بالسمسرة وباعة القطاع « المحترمين » . ومن ثم ، فإنه رغم أن « بولتون » ، « برستون » ، و « بيجان » ، « يورى » ، « روكدال » ، « ميدلتون » ، « هايوود » ، « أولدهام » ، « أشتون » ، « ستاايريدج » ، و « ستوك بورت » . . . إلخ ، بلدان يتراوح سكانها جميعاً من ثلاثين ، إلى أربعين إلى سبعين وتسعين ألفاً ، فإنها ، فى الغالب ، مناطق عمالية بحتة ، نشأت فقط مع نشوء الصناعة ، إنها مكونة من عدد قليل من الشوارع العمومية التي تحدها الحوانيت ، وعدد قليل من الحوانى التي تنثر حولها

حدائق ومنازل أصحاب المصانع كالفيلات . إن المدن ذاتها مشيدة بطريقة سيئة وغير منتظمة ، بها عطفات وحواري وأزقة خلفية عفنة ، تخرج بدخان الفحم ، كأيها بشكل خاص ، ومرجع ذلك أساساً ، إلى الطوب الأحمر الفاتح ، الذي هو المادة العامة للبناء هنا ، وقد غدا أسوداً بفعل الزمن . إن استخدام الآفنية كأماكن سكنية أمر شائع هنا ، إذ يتم بناء هذه الكهوف تحت الأرضية ، أينما كان ذلك مستطاعاً بأي شكل من الأشكال ، حيث يقطن فيها ، قطاع هام للغاية من السكان .

تعتبر « بوانتون » ، التي تقع على بعد إحدى عشر ميلاً شمالي غرب « مانشستر » ، من بين أسوأ تلك المدن بعد « بريستون » و « أولدهام » ، إذ لا يوجد بها ، كما لاحظت على قدر استطاعتي خلال زيارتي المتكررة ، غير شارع رئيسي واحد ، شارع قدر للغاية ، إنه « الليترجيت » ، الذي يستخدم كسوق ، وهو عبارة عن جحر مظلم منفر حتى في ظل أرق الأحوال الجوية ، إذ لو تركنا المصانع جانباً ، فإن جواربه تتكون من منازل واطئة كل منها مكون من طابق أو طابقين . إن الجزء القديم من المدينة بشكل خاص ، هنا كما هو الحال في كل مكان ، بائس وآيل للسقوط . وينساب عبر المدينة جسم سائل داكن اللون ، يترك من يشاهده في حيرة ، إذا ما كان ذاك الذي يراه جدول ماء ، أم خيط من الطفح الراكدة ، الذي يعاون بنهضيه في تلويث الهواء ، والذي كان الهواء بالقطع ، نقياً بدونه .

وهناك أيضاً « ستوك بورت » والتي تقع إلى جانب « ششاير » ، على وادي « المرسى » ، غير إنها ، مع ذلك ، تنتمي إلى الحى الصناعى في « مانشستر » . إنها تقع في واد ضيق على امتداد « المرسى » ، حتى أن الشوارع تنحدر إلى أسفل رهوة حادة الميل من ناحيته ، وتصعد إلى أعلى ، نفس القدر من الانحدار من الناحية الأخرى ، بينما يمر الخط الحديدى المار من « مانشستر » إلى « بريمنجهام » على قنطرة عالية فوق المدينة والوادي كله . وتعرف « ستوك بورت » في المنطقه كلها ، كواحدة من أكثر الجحور قتامة ودخاناً ، وتبدو حقيقة ، مثيرة للاشمئزاز إلى حد بالغ ، خاصة ، إذا ما نظر إليها من عند القنطرة . إلا أن الكواخ والآفنيه التي تقطنها الطبقة العاملة ، والتي تمتد في خطوط طويلة

عبر كل أجزاء المدينة من قاع الوادى حتى قمة الربوة ، تبدو شنيعة إلى حد أبعد من ذلك . اننى لا أتذكر أننى قد رأيت مثل هذا العدد الكبير من الابنية التى تستخدم كمساكن فى أى مدينة أخرى ، كذلك العدد الذى رأيته هنا .

وعلى بعد أميال معدودة شمالى شرق « ستوك بورت » ، تقع « أشتون - أندر - لاين » ، واحدة من أحدث المدن الصناعية فى هذه المنطقة . إنها تقف على تل ، تجري أسفله قناة ونهر « التيم » ، Tame ، وهى مشيدة ، بشكل عام ، على أحدث وأكثر أشكال التصميم نظاما . تمتد فيها خمسة أو ستة شوارع متوازية ، بامتداد الربوة ، تقطعها بزوايا قائمة ، شوارع أخرى ، تمتد إلى أسفل عند الوادى . وبهذه الطريقة أمكن استبعاد المصانع من المدينة الأصلية ، كذلك فإن قرب النهر ويجرى القناة ، لم يستدرجها كلها إلى الوادى حيث تقف هناك متزاحة ، تنفث الدخان الأسود خارج مداخلها . إن « أشتون » مدينة لهذا التنظيم بظهورها الذى تفوق جاذبيته كثيراً ، معظم المدن الصناعية ، فشوارعها عريضة وأكثر نظافة ، وتبدو الأكواخ جديدة ، حراء فاتحة ، تبعث على الراحة . غير أن للنظام الحديث لبناء أكواخ العمال عيوبه ، فلكل شارع زقاقه الخافى المنزوى والذى يقود إليه عمر ممد ضيق ، وهى كلها أقدر من بعضها البعض . ورغم أنى لم أرى أبنية ، عند دخولى ، غير القليل منها ، وهى أبنية يزيد عمرها عن الخمسين عاماً ، غير أنه يوجد ، حتى فى شوارع « أشتون » بيوت تسير نحو الأسوأ ، حيث لم يعد قرميد زوايا المنازل متيناً ، بل أخذ فى التحلل ، وقد تشققت الجدران ولم تعد بمقاومة على الحفاظ على الطلاء الداخلى الكلى الأبيض ، شوارع ، منظرها القذر والذى لوثة الدخان لا يختلف على الإطلاق عن مثيلها من مدن المنطقة ، غير أن ذلك فى « أشتون » ، هو الاستثناء وليس القاعدة .

وتقع « ستالى بريدج » أيضاً على « التيم » ، على بعد ميل واحد ناحيه الشرق . ويجد المسافر من « أشتون » ، حال عبوره التل عند القمه ، على يمينه ويساره حدائق كبيرة جميلة ، بها فى وسطها منازل أشبه بالفيلات الفاخرة ، مشيدة عادة على النمط الإليزابيثى ، وهو بالنسبة للنمط الغوطى ، مثلما تكون الكنيسه الإنجليكانية بالنسبة لآبائوية الرومان الكاثوليك بالضبط . وتكشف « ستالى بريدج » عن نفسها فى الوادى ، على بعد مائه خطوة ، حيث تتناقض

تناقضاً صارخاً مع أكواخ « آشتون » المتواضعة « ترقد » ستالي بريدج ، في  
وهدة ملتوية ضيقة ، أكثر ضيقاً حتى في الوادي القائم عند « ستوك بورت » ،  
وتحتل مجموعات من الأكواخ والمنازل والمصانع غير المنتظمة جانبي تلك  
الوهدة . والأكواخ التي يجدها المرء ، أول ما يدخل ، عتيقة ، آيلة للسقوط  
وقد سخمها الدهان ، ثم يأتي باقي المدينة كلها ، مثلها مثل تلك المنازل الأولى .  
وفي قاع الوادي يرقد عدد قليل من الشوارع ، يقطع أغلبها بعضه البعض ،  
مخطط ، أعلى التل وأسفله ، وبسبب حالة الانحدار تلك ، فإن الطابق الأرضي  
لكل المنازل تقريباً ، نصف مدفون في الأرض . ويمكن رؤية ما ينتج عن مثل  
هذه الطريقة المشوشة في البناء ، من حشود العطفات ، والازقة الخلفية ، والزوايا  
السحيقة ، عندما ينظر المرء بعين طائر ، إلى المدينة حيثما هي ، هنا وهناك ، وهي  
واقفة على قدميه فوق التلال . تضاف إلى ذلك ، القذارة الفظيعة ، والآخر  
المنفر الذي تثيره « ستالي بريدج » ، والذي يمكن تصوره في الحال رغم البيئة  
الجيدة التي تجاورها .

هنالك العديد من تلك المدن الصغيرة - لكل منها خصائصها ، لكن الطبقة  
العامة ، هموماً ، تعيش فيها جميعاً كما تعيش في « مانشستر » . ومن ثم فقد أجملت  
بشكل خاص ، تركيبها المميز لها فقط ، ويمكن ملاحظة ، أن كل المشاهدات  
الأكثر عمومية ، عن حالة العاملين القاطنين في « مانشستر » ، تتطابق تمام التطابق  
مع تلك التي في المدن المحيطة .

ترقد « مانشستر » أسفل المنحدر الجنوبي لسلسلة من التلال ، تمتد من  
« أولدهام » حتى هنا ، وكانت آخر قممها المسماة « كيرسال مور » ، حلقة سباق ،  
وهي في ذات الوقت جبل « مانشستر » المقدس<sup>(٦)</sup> . وترقد « مانشستر » الأصلية  
على الضفة الغربية « لايرويل » ، فيما بين ذاك المجري والمجريين الأصغر منه ،  
مجري « لايرك » ، ومجري « المدلوك » ، والاذان يصبان هنا في « لايرويل » . وترقد  
« سالفورد » على الضفة اليمنى « لايرويل » ، تحدها إنحناءة النهر الحادة ، وتقع  
« بندلترن » شرقاً أبعد مدى من ذلك ، كما ترقد « بروتون » ، العليا والسفلى نحو  
الشمال من « لايرويل » ، كما تقع « شيتام هيل » ، شمالي « لايرك » ، وترقد « هولم » ،  
جنوبي « المدلوك » ، و « كورلتون » ، أبعد مدى نحو الشرق على « المدلوك » ،

وتقع « اردويك » أكثر بعداً من ذلك ، شرقى « مانشستر » ، إلى حد ما . ويطلق على مجموعة المباني كلها ، بشكل عام ، لاسم « مانشستر » ، وهى تشتمل على حوالى . . . . ساكن ، لا أقل من ذلك إن لم يكن أكثر . والمدينة ذاتها ، مشيدة بطريقة خاصة ، حتى أنه يمكن لشخص ما ، أن يقيم فيها لسنوات ، أن يدخل فيها ويخرج منها يومياً ، دون أن يلتقى بحى العمال أو حتى بالعمال أنفسهم ، طالما قصر نفسه على عمله ، أو على نزوات التسلية . ولقد نشأ ذلك أساساً من حقيقة ، أن أحياء العمال مفصولة بشكل حاد عن باقى قطاعات المدينة المحتجرة للطبقة الوسطى ، باتفاق ضمنى لا إرادى ، وبنفس القدر أيضاً ، بقرار صريح إرادى ، وإن لم يفلح ذلك ، تواروا خلف عباءة البر والسماحة . ويوجد فى قلب « مانشستر » سوق تجارى يمتد بعض الشيء ، ربما بلمح طوله نصف ميل وعرضه نفس القدر أيضاً ، ويتكون كله على وجه التقريب ، من مكاتب ومستودعات بضائع . والحق كله تقريباً ، بلا سكان ، موحش ومهجور بالليل ، لا يسير فى حواريه الضيقة إلا الخفراء ورجال الشرطة بفوانيسهم المعلقة ، وتقطع هذا الحى طرق عمومية معينة ، تتركز فوقها حركة المرور الضخمة ، وتحدها الحوانيت المتلائة ، والتي تصطف فى الأدوار الأرضية . والأدوار العلوية من هذه الشوارع ، مشغولة هنا وهناك ، ويتواجد فيها قدر كبير من الحياة حتى ساعة متأخرة من الليل . إن كل « مانشستر » الأصلية ، كل « سالفورد » و « هولم » و جزء كبير من « بندلتون » و « كورلتون » وثلاثى « اردويك » ، ومساحات منفردة فى « شيتهم هيل » و « بروتون » أماكن لا تختلط فيها مساكن العمال بمساكن غيرهم ، إنما تمتد كمحزام حول السوق التجارى ، بعرض قدره ميل ونصف فى المتوسط . وهناك فى الخارج ، فيما بعد هذا الحزام ، تقطن البورجوازية العليا والوسطى ، تعيش البورجوازية الوسطى فى شوارع منتظمة تمتد فى القرب من الأحياء العمالية ، خاصة فى « كورلتون » والأجزاء الدنيا من « شيتهم هيل » . وتعيش البورجوازية العليا فى فيلات متناثرة تحيطها الحدائق فى « كورلتون » و « ارديك » ، أو فوق مرتفعات « شيتهم هيل » ، « بروتون » و « بندلتون » التى تهب عليها نسائم هواء الريف الصحى المنطلق ، فى منازل ناعمة مريحة ، لا يمر بها غير أنوبيس متجه إلى المدينة . كل ربع أو نصف ساعة . إن أروع ما فى هذا الترتيب ، هو أنه فى وسع أفراد هذه الأرستقراطية المالية ، أن



يسلكوا أنصر طريق عبر وسط كل الأحياء العمالية ، إلى حيث أماكن أعمالهم دون أن يروا أنهم في قلب الحزام المتعس الذي يقبع عن يمين وعن شمال . أما الطرق العمومية التي تفضى من البورصة إلى كل الاتجاهات خارج المدينة ، فإنها محدودة ، على كلا الجانبين ، بسلسلة لا تسكاد تنقطع من الحوائيت ، وهى هذا مستقبلية تحت سيطرة البورجوازية الوسطى والدنيا ، والتي تحرص ، من زاوية مصالحها الشخصية ، على مظهر خارجى وقور ونظيف ، وهو مظهر ، فى وسعها ، الحفاظ عليه . حقا ، إن هذه الحوائيت تحمل بعضاً من قرابة الأحياء التي ترقد خلفها ، وهى أكثر ظرفاً فى المناطق التجارية والسكنية ، عنها فى الأماكن التي تحجب فيها مساكن العمال للقدرة ، وإن كانت تساعد فى إخفاء التماسه والقدرة عن أعين الرجال والنساء الميسورين ذوى الأعمار القوية والأعصاب الواهنة ، تلك التماسه والقدرة التي تسكن ثروتهم . وهكذا على سبيل المثال فإن « ديتريجت » والذي يفضى فى الكنيسة القديمة إلى الجنوب مباشرة ، تحده أولاً : المصانع ومستودعات البضائع ، ثم تتلوها ، ثانياً ، المتاجر وحانات الجمعة وعندما يترك المرء الحى التجارى ، متجهاً إلى مدى أبعد نحو الجنوب ، تصبح الحوائيت أقل جاذبية ، وأكثر قذاره ، كما يزداد تواجد مشارب البيرة وقاعات الجن ، حتى يصل إلى الطرف الجنوبي فلا يدع له مظهر الحوائيت أى شك ، فى أن العمال والعمال وحدهم هم زبائن تلك الحوائيت . وهكذا أيضاً ، ينطلق شارع السوق ، من عند البورصة ، متجهاً نحو الجنوب . تبدأ أولاً ، أفضل أنواع الحوائيت المتألقة ، ومعها مكاتب الحسابات ، تماوها مستودعات البضائع ، وعلى الامتداد توجد فنادق « البيكاديللى » ، البالغة الأبهة ومستودعات البضائع ، ثم على الامتداد أكثر بعداً من ذلك ، يوجد طريق لندن ، قرب « مدلوك » حيث المصانع ، وحانات الجمعة ، وحوائيت البورجوازية الأكثر تواضعاً ، والعمال للقاطنين هناك ، ومن هذه النقطة قدما ، تبدأ الحدائق الكبيرة وفيلات التجار وأصحاب المصانع الأكثر ثراء . وبهذه الطريقة يستطيع أى امرئ يعرف « مانشستر » أن يستدل على الأحياء المجاورة ، من خلال منظر الطريق العمومى ، غير أنه نادراً ما يكون المرء فى وضع يمكنه ، وهو على الطريق ، من إدراك حقيقة ما يجرى فى الأحياء العمالية . لأننى أعرف تمام المعرفة أن هذه الطريقة الزائفة شائعه ، بصورة أو أخرى ، فى كل المدن الكبرى ، لأننى أعرف

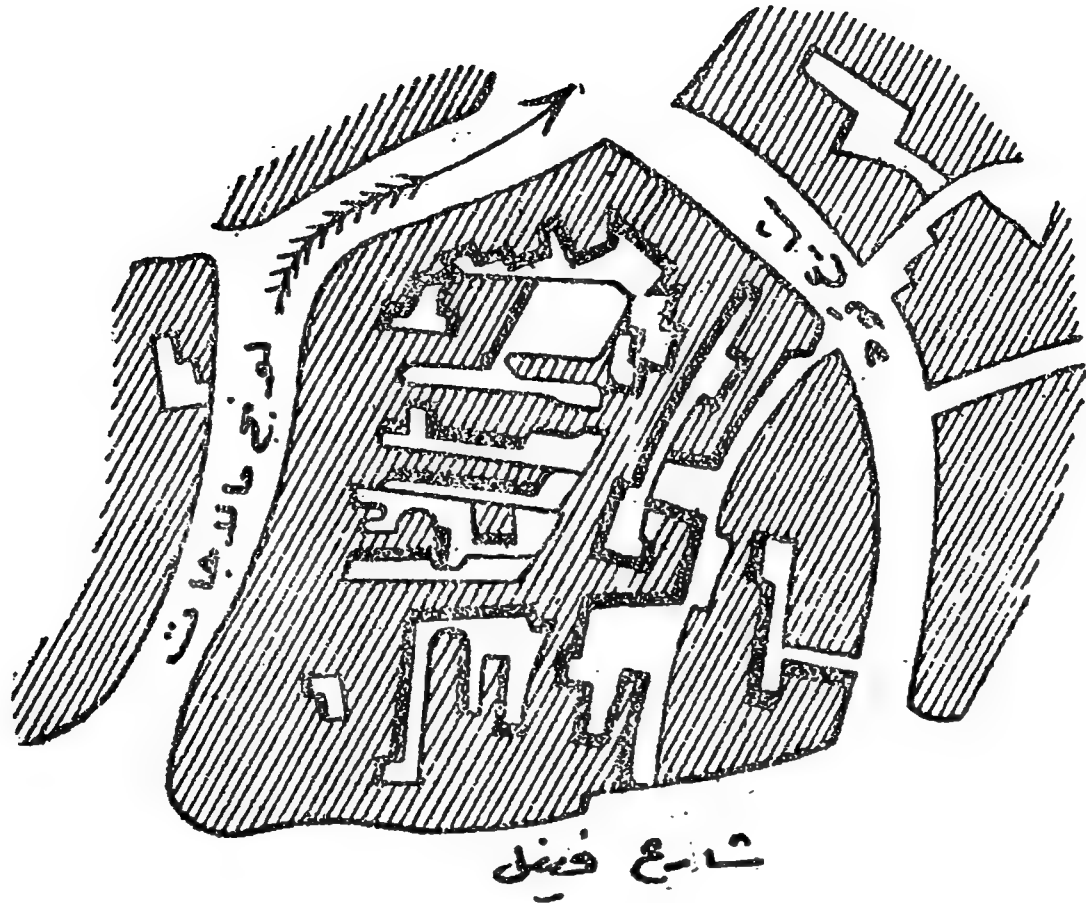
أيضاً أن تجار التجزئة مجبرين بحكم عملهم على وضع أيديهم على الطرق العمومية الكبيرة ، كما أعرف أن عدد المنازل الجيدة ، والواقعة على مثل تلك الطرق في كل مكان ، أكثر عدداً من تلك الرديئة ، وأن ثمن الأرض قربها أكثر من ثمنها في الأحياء النائية ، غير أني في نفس الوقت لم أرى على الإطلاق مثل هذا الحجب المنظم للطبقة العاملة ، بعيداً عن الطرق العمومية ، مثل هذا الإخفاء المذهب لكل ما يمكن أن يسىء إلى مقلة عين وأعصاب البورجوازية ، كما رأيت في «مانشستر» . ومع ذلك فإن «مانشستر» ، لم تنل ، طبقاً لوجهات نظر أخرى ، حظها من الاهتمام لتشييد على أساس خطة ما ، إنها طبقاً للنظم الرسمية ، مجرد نمو قدمته الصدفة ، وهي في ذلك قد تفوقت على أية مدينة أخرى ؛ أننى عندما أتأمل ما يصدر عن الطبقة الوسطى ، في هذا الخصوص ، من تأكيدات حماسية ، مفادها أن الطبقة العاملة تتصرف بطريقة حسنة للغاية ، لا أملك أن أمنع ما تحس به نفسى ، من أن أصحاب المصانع الليبراليين ؛ والكبار ذوى الشهور المستعارة في «مانشستر» ، ليسوا رغم ، كل شيء ، أبرياء من تلك الطريقة التى تراعى الأحاسيس في أعمال البناء والتشييد .

وربما حان لى أن أذكر الآن قبل أن أشرع على الفور في وصف الأحياء العمالية ؛ أن المصانع كلها ، تقع على وجه التقريب ، ملاصقة للأنهار والقنوات التى تتشعب متفرقة في أنحاء المدينة . أولاً وقبل كل شيء ، هناك «المدينة القديمة» ، في «مانشستر» ، وإلى ترقد بين الحد الشمالى للبحى التجارى و «الايرك» . هنا الشوارع ، حتى أفضلها ، ضيق متعرج مثل «تودستريت» ، «لوانج مالاجات» ، «ويث جروف» ، و «شود هيل» ، والمنازل قذرة ، عتيقة ، وآيلة للسقوط ، كما أن بذيان الشوارع الجانبية بشع للغاية -- عندما يتجه المرء متجولاً من «الكنيسة القديمة» ، إلى «لوانج مالاجات» ، فإنه سيلتقى على الفور ، بصف من المنازل العتيقة الطراز ، التى تقع إلى يمينه ، منازل لم يحتفظ أى منها بمستواه الاصلى ، إنها بقايا «مانشستر» ما قبل الصناعة ، والتى تركها سكانها السابقين وذراريمهم إلى أحياء أفضل تشييداً . لقد تركوا تلك المنازل ، التى لم تكن كافية للصلاحيه ، لسكان آخرين من الطبقة العاملة ، تختلط الدماء الأيرلندية . بقوة ، بدمائهم . هنا يحوس المرء في حى عمالى سافر على وجه التقريب ، حتى أن

الحواريات ومشارب البيرة لا توزع نفسها بإظهار أدنى درجات الاهتمام بالانظافة، غير أن كل هذا لا يساوى شيئاً إذا قورن بما فى العطفات والحواري الخلفية، والتي لا يمكن الوصول إليها إلا عبر عمارات مغطاة، والتي لا يمكن أن يمر فيها إثنان من البشر، فى ذات الوقت. أما عن حشر المنازل معاً، بلا نظام، بطرق تتحدى كل خطة منطقية، أما عن الشبكة المعقدة التي يحتشدون فيها واحداً فوق الآخر، بالمعنى الحرفى للحكمة، فإنه لمن العسير أن ينقل المرء أية صورة ذهنية. إنها ليست الابنية التي مازالت تعيش منذ أزمنة مايشستر، القديمة، التي تلام على ذلك، فالارتباك قد بلغ مداه فقط، منذ عهد قريب، عندما رمم كل منحدر خال، ترك طبقاً لطريقة البناء القديمة، وملىء الآخره، حتى لم يعد هناك قدم واحد من الأرض، يمكن شغله.

ولتأكيد بياني فقد رسمت هنا قطاعاً مصغراً لخريطة « مايشستر » — إنه لا يمثل أسوأ بقعة بها، كما أنه لا يمثل عشر المدينة القديمة كلها<sup>(١)</sup> (أنظر الرسم).

إن هذا الرسم يكفي لوصف وتحليل الأسلوب غير المنطقي الذي شيد به الحى كله، وخاصة ذلك الجزء القريب من « الايرك ».



إن الضفة الجنوبية « الايرك » تبدو هنا شديدة الانحدار، بارتفاع يتراوح ما بين خمسة عشر وثلاثين قدماً. وعلى هذا الجانب المنحدر من التل، زرعت

ثلاث صفوف من المنازل ، أسفلها يصعد مباشرة من النهر ، بينما الحوائط الامامية لأعلاها ، تقف عند قمة التل في د لونج مالا جات . . وتقع المصانع على النهر فيما بينها ، وباختصار ، فإن طريقة البناء هنا ، مزدحمة وغير منتظمة كتلك التي في الجزء السفلي من د لونج مالا جات . . ويفضى عدد وافر من الممرات المغطاة ، والتي تقع يمينا وشمالا ، يفضى من الشارع الرئيسى إلى العديد من العطفات ، وذلك الذى يتجه إلى هناك يدخل فى القذارة والوسخ المقزز ، والذى ليس له من نظير . خاصة فى العطفات التى تتجه إلى أسفل ، إلى د الايرك . . والتى تحتوى بالكامل أشد المساكن التى شاهدتها حتى الآن ، بشاعة . فى مدخل واحد من تلك العطفات يوجد مرحاض بلا باب ، لأنه قدر إلى حد أن السكان لا يستطيعون الدخول أو الخروج من العطفة ، إلا بعد المرور عبر برك عفنة من البول الواكدة والبراز . تلك هى أول عطفة على د الايرك ، فوق قنطرة د دوسى ، لمن شاء أن أن يهتم بالنظر داخلها . ويوجد أسفلها ، عند النهر ، عدد كبير من مدايح الجلود التى تملأ كل الجوارب رائحة عفن الحيوان الكريهة . إن السبيل الوحيد لدخول أغاب المنازل الواقعة أسفل قنطرة د دوسى ، هو السلم الضيقة القذرة ، عبورا فوق أكداش من الفضلات والقذارة . أن أول عطفة أسفل قنطرة د دوسى ، والمروفة بعطفة د ألن ، كانت على مثل هذا الحال فى زمن وباء الكوليرا ، حتى أن الشرطة الصحية أمرت بتفريقها ونزعها وتطهيرها بكلوريد الجير . ويقدم الدكتور د كاي ، وصفارهييا لحالة تلك العطفة فى ذاك الوقت (\*) . ويبدو أنه منذ ذاك الحين ، تم هدمها وإعادة بناؤها جزئيا ، إن طابرقنطرة د دوسى ، يرى على الأقل وهو ناظر منها إلى أسفل ، العديد من أطلال الجدران وأكوام الانقاض ، مع بضع منازل جديدة . ومن حسن الحظ أن جدارا يبلغ ارتفاعه طول الرجل ، يحجب المشهد من الكوبرى عن قصار القامة ، وتلك حفة تميز الحى كله . وهناك عند القاع ينساب ، أو بالأحرى ، يركد د الايرك ،

(\*) الحالة الخلقية والصحية للطبقة العاملة التى تعمل فى صناعة القطن فى « مانشستر »

بقلم جيمس ف . كاي طبيب بشرى . الطبعة الثانية ١٨٣٢ .

وبشكل عام فإن الدكتور كاي يخلط ما بين الطبقة العاملة وعمال المصانع ، وما عدا ذلك فهو كتيب رائع .

مجرى ضيق ، أسود بلون الفحم ، عطن الواجهة ، مليء بالانقراض والفضلات  
 التي يرسبها على ضفته اليمنى وهي الأكثر ضخامة . وعندما يحف الطقس ، يستمر  
 متخلفاً عند هذه الضفة ، خيط طويل من البرك الموحلة ، ذات اللون  
 الأخضر المائل للسواد ، والتي تثير أفعى درجات الاشعثاز ، ومن أعماق  
 تلك البرك تصاعد باستمرار فقاعات أبخرة غازية فاسدة ، تفوح منها رائحة غير  
 محتملة ، حتى عند القنطرة ، على ارتفاع أربعين أو خمسين قدماً فوق سطح  
 المجرى . إلا أنه إلى جوار ذلك ، فإن المجرى نفسه محكوم كل بضع خطوات  
 بسدود عالية ، حيث تراكم الاوحال والفضلات في كتل خلفها ، وتتعطن هناك ،  
 وتوجد فوق القنطرة ، مدابغ الجلود ، مطاحن العظام ومعامل غاز الاستصباح  
 والتي تصب مصارفها وفضلاتها في الإيرك ، الذي يتلقى فضلاً عن ذلك ،  
 محتويات المراحيض والمجاري المجاورة . وبذا يمكن لنا أن نتصور في سهولة ،  
 أى نوع من البقايا سيرسب في المجرى . كما ترى أسفل القنطرة على الضفة اليمنى  
 المنحدرة ، أكوام الانقراض والفضلات والقذارة وزباله العففات ، هنا كل  
 منزل محشور خلف الآخر الذى يجاوره ، فلا يبدو للعيان إلا جزء من كل منزل ،  
 وهى كلها سوداء ، يغطيها الدخان ، متداعية ، عتيقة ، وقد تكسر زجاج  
 نوافذها وأطرها ، وخلقية كل ذلك مكونة من أبنية مصانع قديمة تشبه الشكنات .  
 وهناك أسفل الضفة اليمنى ينصب صف طويل من المنازل والمصانع ، كان المنزل  
 الثانى منها أطلالاً بلا سقف ، مكسب بالانقراض ، أما الثالث فنخفض إلى حد أن  
 أسفل طابق فيه لا يمكن سكناه ، فضلاً عن ذلك فانها منازل بلا نوافذ وأبواب .  
 هنا تشتمل الخلفية ، على جبانة الفقراء ، محطة ليفربول وخط «ليدن» الحديدى ،  
 وفي مؤخرة هذا تقع ، «دار تشغيل الفقراء» ، «بستيل قانون الفقراء» ، فى  
 «مانشستر» لها تشبه قلعة ، تطل من أعلى التل ، من خلف جدرانها العالية  
 ومتاريسها ، إلى أسفل ، على حى العمال ، مهددة . وفوق قنطرة «دوسى» ، تزداد  
 الضفة اليسرى انبساطاً والضفة اليمنى انحداراً ، غير أن حالة المساكن على كلا  
 الضفتين تزداد سوءاً لا تحسناً . وهنا ، يضل الشخص الذى يترك الشارع  
 الرئيسى ، «لونج مالاجات» ، وينحرف في سيره إلى اليسار ، إنه يهيم من حارة  
 إلى أخرى ، يدور حول نواحي لا حصر لها ، يمر بلا شىء غير زوايا ضيقة  
 قدرة ، وحوارى ، حتى يفقد بهد قليل من الدقائق ، كل دليل على طريقه ،



ويغدو غير طارف إلى أين يتجه . المنازل في كل مكان مهدمة بالكامل أو حتى منتصفها ، بعضها غير مسكون بالفعل ، وهذا يعنى الكثير هنا ، فنادر ما ترى أرضية خشبية أو حجرية في تلك المنازل ، فهي غالباً محطمة على نسق واحد ، نوافذها وأبوابها غير مناسبة . والقذارة سائدة . في كل مكان أكوام من الانقاض ، والفضلات والزباله ، والمجارى برك راكدة ، وتفوح منها رائحة وحدها ، لأن تجمل الحياة مستحيلة ، في مثل هذا الحى ، على أى إنسان ، على أى قدر من الحضارة . إن إمتداد خط الحديد ، والذى تم إنشاؤه حديثاً ، والذي يجتاز دالايك ، هنا ، قد أزاح بعض تلك العطفات والحوارى ، تاركاً البعض الآخر عار تماماً للعيان . وللحال ظهرت عطفه أسفل قنطرة الخط الحديدى ، تبذ قذارتها وأهوالها كل ما عداها بمراحل ، وذلك فقط ، لأنها كانت حتى تلك اللحظة ، مقطوعة الإ اتصال ، معزولة ، حتى أنه ما كان من الممكن العثور عليها دون قدر كبير من المتاعب . أنا نفسى ما كان فى وسمى أن أكتشفها لولا ما حطمه الخط الحديدى ، رغم اعتقادى بأننى أعرف المنطقة كلها حق المعرفة . إن المرء ليخترق ، أثناء مروره على طول الضفة الوعرة ، بين الخوازيق وحبال الفسيل ، تلك الفوضى من أكوام صغيرة مكونة من طابق واحد ، من حجرة واحدة ، لا يوجد فى أغلبها أية أرضية صناعية ، كما يتجمع المطبخ وغرفة المعيشة والنوم فى حجرة واحدة . ولقد وجدت فى مثل هذه الحفرة التى يكاد يبلغ طولها خمسة أقدام وعرضها ستة أقدام ، سريرين - وبالحما من هياكل أسرة أو أسرة ١ - يملأن ومعهما السلم ومكان المدخنة ، الحجرة بالضبط والتمام . وفى أكوام أخرى عديدة ، لم أجد أى شىء على الإطلاق . بينما يقف الباب مفتوحاً وقد استند السكان إليه . والفضلات والزباله أمام الأبواب فى كل مكان ، حتى أنه لو كانت هناك أية أجزاء من الطرق ممهدة ، لما أمكن رؤيتها ، فقط يمكن للمرء أن يحس بها بقدمه ، هنا أو هناك . أن كل تلك المجموعة من حطائر الحيوان التى يقطنها البشر ، محاطة بالمنازل وأحد المصانع فى ناحيتين ، ويحدها البحر من الناحية الثالثة ، ويوجد ، عدا الدرج الضيق الذى يصعد الضفة ، مدخل ضيق ، يودى بمفرده إلى آخر ، لا يقل ، فى الغالب ، عن تيه المساكن ، سوء بناء وسوء رعاية .

كفى ! فكل جانب دالايك ، مشيد على هذا النحو ، خالي من عقده غير

مخطط من المنازل، على حافة الفقر تقريبا ، تنسق بواطنه غير النظيفة تمام الاتساق مع ما يحيط بها من قذارة خارجية . وكيف يمكن للقوم أن يكونوا نظيفين، دون فرصة حقيقة لإشباع أكثر حاجاتهم عادية وطبيعية ؟ فالمرحوض هنا نادرة إلى حد أنها إما أن تفيض كل يوم ، أو نائية جداً ، حتى أن غالبية السكان لا يمكن أن يستخدمونها ، كيف يمكن للناس أن تغتسل إذا لم يكن في متناول أيديهم غير مياه الـ لايرك ، القدرة ، بينما المضخات وأفابيب المياه موجودة في الأجزاء المحترمة وحدها في المدينة ؟ وفي الحقيقة ، فإنه لا يمكن إلقاء اللوم على عائق عبيد المجتمع الحديث هؤلاء ، إن كانت نظافة مآريهم لا تزيد عن نظافة زرائب الخنازير التي ترى هنا وهناك فيما بينهم . إن الملاك لا يخرجون من تأجير مأوى مثل الأفبية التي تتسع لستة أو سبعة أشخاص ، والتي توجد قرب مرسى السفن أسفل كوبري داسكنلندا ، إن أرضيات تلك الأفبية تقع أسفل أقل منسوب لهر دالايرك ، الذي ينساب على بعد لا يزيد عن ستة أقدام منها ، أو مثل الطابق العلوي في منزل الحسكر الموجود على الشط المقابل أعلى الكوبري مباشرة حيث يقف طابقه الأرضي ، والذي لا يصلح للسكنى بتاتاً ، مجرداً من كل لوازم النوافذ والأبواب ، وهي حالة ليست نادرة على أي حال في تلك المنطقة حيث يستخدم كل الجرار هذا الطابق الأرضي المفتوح كمرحاض لقضاء الحاجة ركمراق آخر .

وإن تركنا دالايرك، واتجهنا مرة أخرى للجانب المواجه من دونج مالاجات إلى وسط المأوى العمالية ، فإننا سنصل إلى حي أكثر جدة إلى حد ما ، حتى يتد من كنيسة دسانت ميشيل ، إلى دويشي جروف ، و دشود هيل ، هنا نظام أفضل نوعاً ما . هنا نجد على الأقل ، بدلاً من فوضى الأبنية ، حواري وأزقة أو عطفات طويلة مستقيمة ، شيدت طبقاً لخطة ما ، وهناك ميدان على الدوام ولكن ، إن كانت المنازل قد بنيت في الحالة السابقة بطريقة عشوائية ، فالحواري والمطقات هنا قد شيدت دون ارتباط ، بحالة مثيلاتها المجاورة . إنها تناسب في هذا الاتجاه مرة وفي ذاك الاتجاه مرة أخرى ، حتى أن المرء أن تجول، يدخل إلى حارة مسدودة كل دقيقتين ، أو يجد نفسه حيث بدأ إذا استدّار عند أحد النواصي ، والشئ المؤكد أن الذي لم يعيش مدة كافية في هذا التيه لن يستطيع أن يجد طريقه خلاله .

إن استخدمت أنا الكلمة ، البتة ، عند الحديث عن هذا الحى ، فإن تهوية تلك الشوارع والمطقات ، قاصرة تماما ، نتيجة لهذا الارتباك ، مثلها في ذلك مثل منطقة دالايرك ، ومع ذلك ، فإن كان من الممكن القول فإن هذا الحى به بعض المزايا ، تفوق تلك التى فى دالايرك ، ، فهى أن المنازل أكثر جدة ، كما توجد ، أحيانا بالوعات فى الشوارع ، كما أن لكل منزل ، من الناحية الأخرى ، قبول يتخذ مسكنا ، وهو شىء يندر وجوده فى حى دالايرك ، ، بسبب أنها أقدم عمرا ، وأن بناء المنازل قد تم بطريقة أكثر إهمالا . أما عن البقى ، عن القذارة ، والانقراض ، وأكوام الزباله ، والبرك فى الشوارع ، فإنها مشتركة بين كلا الحيين ، كما أنه توجد فى الحى الذى نحن بصدد الحديث عنه ، ظاهرة أشد خطورة على نظافة السكان ، ألا وهى أعداد الخنازير الهائلة التى تجوب الحواري تنبش أكوام الزباله ، أو تحتجز فى زرائب ضيقة . هنا ، كما فى أغلب الأحياء العاليه فى مانشستر ، يستأجر عالفو الخنازير العطفات ويبنون زرائب الخنازير فيها ، فى كل عطفة تقريبا ، توجد واحدة أو أكثر من تلك الزرائب ، وفيها يلقي سكان العطفة بكل فضلاتهم وزبالتهم ، حيث تسمن الحلايف ، ويفسد الجو المحاصر تماما ، من الجهات الأربع ، من عفن الحيوانات والخضروات . ولقد تم شق شارع عريض محترم إلى حد واضح عبر هذا الحى ، هو د ميلرزستريت ، ، وقد أخفيت خلفية هذا الشارع إلى حد ما بنجاح ، غير أنه لو قاد حسب الاستطلاع أحد ، ليمر عبر واحد من الممرات العديدة التى تؤدى إلى العطفات . لوجد تلك الزرائب تتكرر كل عشرين خطوة .

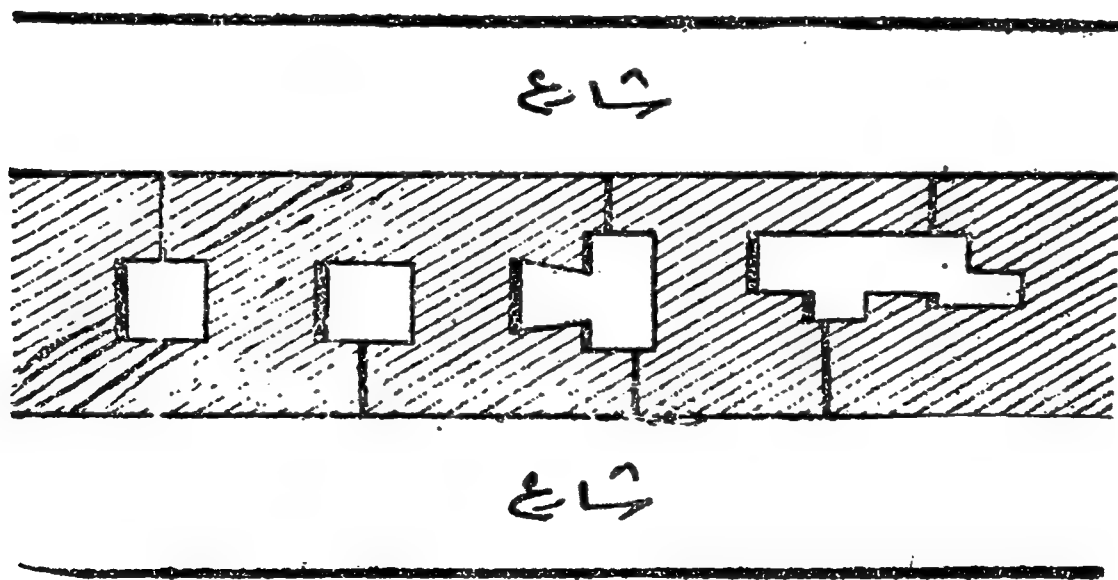
تلك هى حال د المدينة القديمة ، فى د مانشستر ، ، وإنى لأجد نفسى ، عند قراءة ما وصفت مرة أخرى ، مجرأ على الاعتراف ، بأنه بدلا من المبالغة فى الرصف ، فإنى قد نأيت به عن القنامة بقدر كاف ، لنقل إنطباع صادق عن القذارة والخراب والقفور ، عن قصور كل اعتبارات النظافة والتهوية والصحة ، وهى التى تميز بليان هذا الحى المنفرد ، ، والذى يضم من عشرين إلى ثلاثين ألفا من السكان على الأقل . ومثل هذا الحى موجود فى قلب ثانى مدينة فى إنجلترا ، وأول مدينة صناعية فى العالم . وإن شاء أحد أن يرى مدى ضيق الحيز الذى يمكن للإنسان أن يتحرك فيه ، مدى قلة الهواء -- وباله من هواء -- الذى يستطيع أن يتنفسه ، مدى ضحالة الحضارة التى يمكن أن يشارك فيها ، ورغم ذلك

يعيش ، فما عليه إلا أن يرحل إلى هنا . حقاً تلك هي « المدينة القديمة » ، ويهتم أهل « مانشستر » بهذا الأمر الواقع كلما تحدث إليهم أحداً عن الحالة الخيفة لهذا « الجحيم فوق الأرض » . ولكن ما الذي تثبته تلك الحالة ؟ إن كل شيء هنا مثير للفزع المرحلة ، إنما هو حديث النشأة ، ينتمي إلى المرحلة الصناعية . إن المئات من منازل التي تنتمي إلى « مانشستر » القديمة ، قد هجرها سكانها الأصليون ، والمرحلة الصناعية وحدها هي التي حشدتهم بحشود العمال ، فصارت مأواهم الحالى المرحلة الصناعية وحدها ، هي التي بذت كل بقعة بين تلك المنازل القديمة لتكسب غطاء لتلك الكتل التي جذبتها إلى هنا من الأماكن الزراعية ومن أيرلندا ، والمرحلة الصناعية وحدها ، هي التي مكنت ملاك حظائر الماشية تلك ، من تأجيرها للبشر بأسعار عالية ، لتذهب فقر هؤلاء العمال ، لتقوض صحته الآلاف وليثرى الملاك وحدهم . خلال المرحلة الصناعية وحدها ، غدا من الممكن استخدام العامل ، الذي تحرر بالكاد من عبودية الإقطاع ، كمجرد مادة ، مجرد قناع ، غدا عليه أن يحشر نفسه في مأوى سيئة جداً لا تصلح لسكنى أحد ، وأن يتنازع مع ما ينال من أجور يكسبها بالجهد الشاق ، حق الإهمال الشكى حتى الدمار . إن هذه الصناعة قد أدركت ، أنه بدون هؤلاء العمال ، بدون هذا الفقر ، بدون هذه العبودية ، ما كان في وسعها أن تعيش . حقاً ، لقد كان التكبرين الأصلي لهذا الحى رديئاً ، وما كان من الممكن استخلاص شيء جيد منه غير القابل ، ولكن ، هل قام الملاك أو البلدية بعمل أى شيء لتحسينها عند إعادة بنائها ؟ على العكس ، فقد بذت منزل حينما وجدت زاوية أو ركن خال ، وأبنا ظل عمر بلا ضرورة ، تم تشييده ، وارتفعت قيمة الأرض مع ازدهار الصناعة ، وكلما ارتفعت ، كلما زاد جنون أعمال البناء ، دون اعتبار لصحة أو راحة السكان ، باعتبار وحيد ، هو تحقيق أكبر قدر ممكن من الربح ، طبقاً لقاعدة أنه لا يوجد ثقب بالغ السوء ، إذ لابد إن كائنا تمسكنا به من مسكنا ، لأنه لا يستطيع أن يدفع أجر شيء أفضل . وعلى أى الأحوال فتلك هي « المدينة القديمة » وبهذه الصورة تسعد البورجوازية . وبناء على ذلك . دعونا نرى ، المدى الذي تفضل به « المدينة الجديدة » عن تلك « المدينة القديمة » .

تعرف « المدينة الجديدة » أيضاً « بالمدينة الأيرلندية » ، وهي تمتد فوق قاتل طينى خلف « المدينة القديمة » فيما بين « الايرك » وطريق « سان جورج » . هنا

تفتقد كل ملاح المدينة . صفوف متفردة من المنازل أو مجموعات من الشوارع قائمة هنا وهناك ، مثل قرى صغيرة ، فوق التربة الطينية المارية ، الخالية حتى من العشب النامي ، نظام المنازل ، أو بالأحرى العيش ، نظام ردىء ، إنها لا ترمم أبداً ، قلدرية ، ذات أقبية للإقامة ، رطبة ووسخة ، الحارات ليست مهيأة كما لا توجد بها أى مجارى للمياه ، بالإضافة إلى مستعمرات الحلاييف العديدة عند المرفأ ، وهى إما محبوسة فى زرائب أو أقبية ضيقة ، أو تتجول بلا قيود عبر الجيرة . والطين فى الشوارع عميق ، حتى أنه ليمتدثر على السائق أن يتجنب الفوضى فيه حتى المفصل فى كل خطوة يخطوها من غير أشد الأجواء جفافاً . وتتدانى المنازل فى جور « طريق سان جورج » مقربة من بعضها البعض أكثر فأكثر ، حتى تلتصق إلى حارات ، وأزقة مسدودة ، وحارات خلفية ، وعطافات منفصلة ، تزداد إزدحاماً وتداخل أكثر فأكثر ، كلما اقتربت من قلب المدينة . حقاً ، إنها هنا غالباً ما تكون مهيأة أو مزودة بأرصفت مهيأة ومجارى مياه ، غير أن القذارة ونظام المنازل السيء ، وخاصة نظام الأقبية ، يظل كما هو .

ربما لا يكون خارجاً عن الموضوع أن نبدى هنا بعض الملاحظات العامة عن التركيب المعتاد لأحياء العمال فى « مانشستر » . لقد رأينا كيف أن الصدفة المحضة هى التى تكون المنازل بشكل عام . فكل منزل مشيد دون اعتبار لآى منزل آخر ، والمنحدرات الخالية فيما بينها قد سميت بالعطافات . لعدم وجود إسم آخر . وفى الأجزاء الأكثر جدة ، إلى حد ما ، فى نفس الحى ، وفى أحياء أخرى عمالية ، يمكن العثور على ترتيب أكثر نظاماً ، إلى حد ما ، لإبتداء من الأيام الأولى للنشاط الصناعى . لقد قسمت المسافة بين شارعين إلى أقسام أكثر نظاماً عادة بعطافات مربعة .



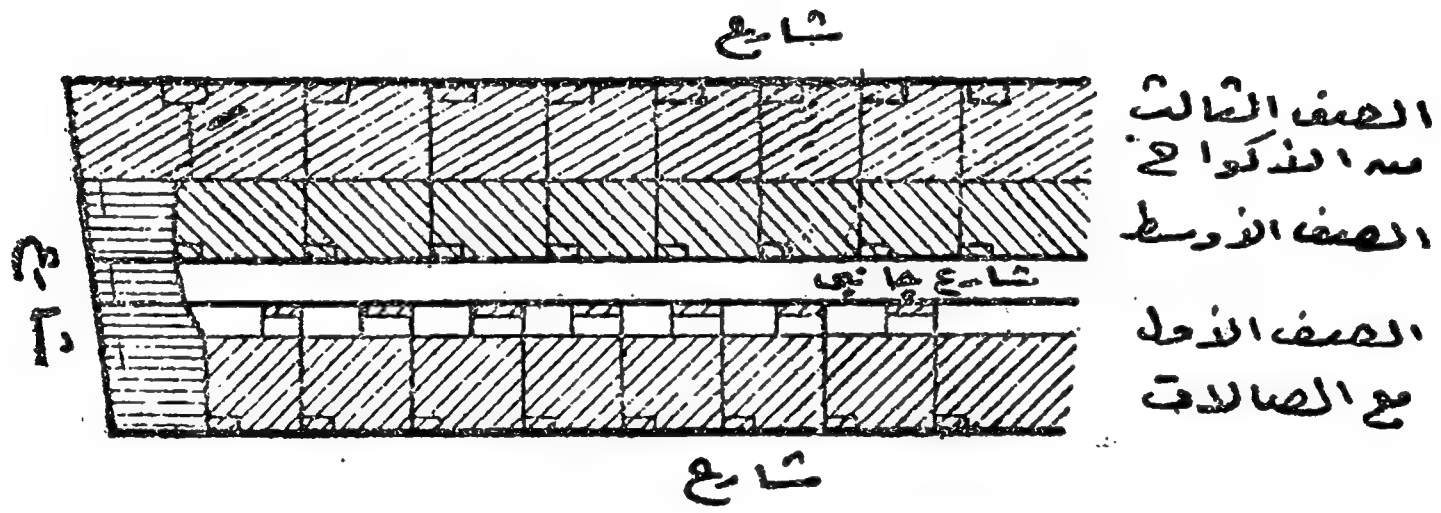


لقد شيدت تلك العطفات ، على هذه الطريقة ، منذ البداية ، وهي تتصل بالشوارع عن طريق عمارات مغطاة ، وبالتالي فإن كان البنيان غير المخطط ضاراً بصحة العمال لهذه عملية التهوية ، فإن تلك الطريقة ، التي غدوا بواسطتها محبوسين داخل عطفات تحيطها الابنية من كل ناحية ، لا شد ضرراً بمراحل . ان الهواء في بساطة لا يستطيع الخروج ، والمخرج الوحيد الذي يصرف من خلاله هواء العطفات المحتجز . هو مداخل المنازل ، وهي تؤدي تلك المهمة فقط طالما كانت مشتملة (\*) . وبالإضافة الى ذلك ؛ فإن المنازل المحيطة بمثل تلك العطفات مبنية عادة ، ظهراً لظفر ، ذات حوائط خلفيه مشتركة ، وتلك الظاهرة وحدها تكفي لحجب أى تهويه كافيه ، ولما كانت الشرطة المكلفه برعاية الشوارع . لا تزج نفسها بالحالة داخل تلك العطفات ، حيث يرقد كل شيء هادئاً حيث ألقى به ، فانه ليس هناك من سبب حتى تجوس في القذارة وأكداس الرماد والقمامة الموجودة هناك . لقد مررت بعطفات ، في « ميلر ستريت » ، ينخفض منسوبها نصف قدم على الأقل عن منسوب الطريق العام ، ولا يوجد بها أى مجارى لتصريف المياه التي تتجمع بها عندما تمطر السماء . ولقد تم حديثاً تبني طريقة أخرى مختلفة للتشيد ، غدت الآن طريقة عامة . أن أكواخ العمال لا تبني عادة بصورة منفردة ، بل يبني منها على الدوام اثني عشر أو عشرين ، ان مقاولاً واحداً . يقوم في وقت واحد ، ببناء شارع أو شارعين . وتلك يتم تنظيمها كالآتي : تشكل واجهة واحدة من الاكواخ على أفضل مستوى ، انها محظوظة حتى انها تحتوى على باب خافي وحوش صغير ، وتلك يطلب فيها أعلى الإيجارات . وتمتد عند مؤخرة تلك الاكواخ حارة ضيقة ، هي الشارع الخافي وقد بنيت نهايتها ، ويوجد به طريق أو ممر مغطى يؤدي الى اتجاه واحد . وتطلب أقل الايجارات في تلك الاكواخ التي تقع على الشارع الخافي ، وتلك

---

(\*) ومع ذلك فإن ليبراليا انجليزيا متفلسفا يصرح ، في « تقرير لجنة تشغيل الأطفال » أن تلك العطفات هي رائحة المجلس البلدى في فن المعمار ، لأنها ، مثل العديد من المنزهات الصغيرة ، تحسن تهويتها ودورة الهواء فيها ! بالتأكيد ، لو كان لكل عطفة مدخلين أو أربع مفتوحة عريضة وتواجه بعضها البعض ، حتى يمكن للهواء أن يصب من خلالها ، إلا أنه لم يكن لها مدخلين على الإطلاق ، ومن النادر مدخل واحد ، وعادة يمر ضيق مغطى فقط .

الأكواخ هي الأكواخ المهمة أكثر من غيرها . أن حوائطها الخلفية مشتركة مع الصف الثالث من الأكواخ التي تطل على الشارع الثاني ، وهي التي يطالب فيها إيجاراً أقل من الصف الأول وأكثر من الصف الثاني وتمتد الشوارع ، إلى حد ما ، على النحو التالي :



وبهذه الطريقة في البناء ، يمكن للصف الأول من الأكواخ أن ينال تهوية جيدة نسبياً ، إذا قورنت بالطريقة السابقة في البناء ، كما أن الصف الثالث لن يكون أكثر سوءاً . أما الصف الأوسط ، من الناحية الأخرى ، فهو ، على الأقل ، على نفس القدر من سوء التهوية السكائن في منازل العطفات ، كما أن الشارع الخلفي في حالة دائمة من القذارة واثارة التقرز التي توجد عليها الشوارع الخلفية . إن المقاولين يفضلون هذه الطريقة لأنها توفر لهم وسائل تهيب العمال ذوي الأجور الأقل ، من خلال إيجارات أعلى لأكواخ الصف الأول والثالث ، أن هذه الأشكال الثلاث المختلفة لبناء الأكواخ موجودة في كل مكان في دمانشستر ، وفي كل جزء من دلائكشاير ، وديوركشاير ، وهي غالباً مختلطة معاً ، ولكنها دائماً مفصولة عن بعضها بقدر يكفي لتحديد العمر النسبي لكل جزء من أجزاء تلك المدن . ويسود النظام الثالث ، ذي الازقة الخلفية . الأحياء العمالية الكبيرة إلى حد كبير ، شرق طريق سان جورج ، وآنكوتس ستريت ، كما أنه النظام الذي يتواجد على نحو غالب ، في الأحياء العمالية الأخرى في دمانشستر وضواحيها .

وتنصب في الحى العريض ، الذي ذكر آنفاً ، متضمناً تحت اسم دأنكوتس أكبر مصانع دمانشستر ، والتي تحدد القنوات ، وأضخم الأبنية التي تتكون

من ستة أو سبعة طوابق ، والتي تشتمل عالياً بداخلها الممشوقة فوق أكواخ العمال  
الواطئة . وعلى ذلك ، فإن سكان الحى ، يتكفون أساساً من عمال المصانع ،  
كما يقطن أسوأ الشوارع عمال النسيج اليدويين . إن أكثر الشوارع قرباً من قلب  
المدينة هو أقدمها ، وبالتالي أردأها ، إنها على أية حال ، شوارع عمدة ومزودة  
بمصارف للمياه . لأننى أضمت إلى تلك الشوارع ، أقرب الشوارع الموازية  
لأولدهام رود ، وجريت أنسكوتس ستريت ، . ونقع ، أبعد من ذلك ،  
نحو الشمال الشرقى ، شوارع عديدة تم تشييدها حديثاً ، هنا تبدو الأكواخ  
مرتبة ونظيفة ، الأبواب والنوافذ جديدة وقد تم دهانها حديثاً ، الحجرات  
الداخلية مطلية حديثاً باللون الأبيض ، الشوارع ذاتها أفضل تهوية ، ومساحات  
الأرض الحالية فيما بين الأبنية أوسع وأكثر . إلا أن هذا القول لا ينطبق إلا  
على أقلية من المنازل فقط ، فى حين أن الأبنية التى تتخذ كماوى ، تتواجد أسفل  
كل كوخ تقريباً ، كما أن العديد من الشوارع غير ممدة ولا توجد بها مجارى  
لصرف المياه ، والأسوأ من كل ذلك ، أن المظهر المنسق إنما هو شيء ظاهرى  
تماماً ، سرعان ما يختفى فى غضون السنوات العشر الأولى . أما عن بناء الأكواخ  
على نحو متفرد فهو لا يقل سوءاً عن خطة تشييد الشوارع ، إن كل تلك  
الأكواخ تبدو فى بدايه الامر متينة ومنسقة . إن جدرانها المصنعة المبنية من  
الآجر مخدع العين ، إذ عندما يمر المرء عبر شارع من الشوارع العمالية حديثة  
البناء ، دون أن يستعيد فى ذهنه الحوارى الخلفية وبناء المنازل ذاتها ، فإنه  
سيميل إلى الموافقة على ادعاء أصحاب الليبراليين ، بأن العمال ، لا يتوفر لهم  
المسكن الطيب فى أى مكان ، مثلما يتوفر فى إنجلترا . غير أنه ، يصبح واضحاً ،  
هذه الفحص عن كذب ، أن جدران تلك الأكواخ رقيقة إلى أقصى حد مستطاع  
وأن الجدران الخارجية ، وجدران الأبنية ، والتي تتحمل وزن الطابق الأرضى  
والسقف ، يبلغ سمكها سمك طوبة واحدة على الأكثر ، والطوب يرقد وقد  
تلامست جوانبه الطويلة | | | | | ، غير أنى قد رأيت الكثير من  
الأكواخ لها نفس الارتفاع ، رأيت بعضها خلال عملية البناء ، كانت حوائطها  
الخارجية بسمك نصف طوبة فقط ، كان الطوب لا يحرص على نجائه ، ولكن  
يهاوله وقد تلامست نهاياته الضيقة ( | | | | ) ، إن الهدف من ذلك هو  
توفير المواد ، غير أن هنالك سبباً آخر لذلك ، أعنى بالتجديد . حقيقة أن

المقاولين لا يملكون الارض أبدا ، ولا يكتسبون استأجرونها ، طبقاً للمعرف  
الإنجليزي ، لمدة ثلاثين ، أربعين ، خمسين أو تسع وتسعين عاماً ، ثم تعود بكل  
ما عليها بعد انقضاء تلك المدة إلى حيازة المالك الأصلي ، الذي لا يدفع شيئاً  
في مقابل ما أدخل عليها من تحسينات . ولذا فإن المستأجر يجري حساباته على  
أساس أن تكون قيمة التحسينات التي يجريها تساوي أقل ما يمكن ساعة انتهاء  
أجل التعاقد . وحيث أن مثل تلك الكواخ تشيد قبل أجل بعشرين أو ثلاثين  
عاماً فقط ، فإنه يمكن بسهولة تصور عدم إقدام المقاولين على اتفاق لا موجب  
له على تلك التحسينات . يضاف إلى ذلك ، أن هؤلاء المقاولين وهم عادة نجارين  
وبنايين أو أصحاب مصانع ، يتفقون القليل أو لا شيء على أعمال الترميم ، وذلك  
جزئياً ، لتجنب انقاص حصيلة أرباحهم ، وجزئياً لأن الإصلاحات سنوول  
مستقبلاً إلى المالك ، بينما تظل شوارع وأكلمها في الغالب خالية ، وتتهاوى  
الكواخ إلى الخراب والفقر ، أثر الازمات التجارية وما يليها من فقدان للعمل  
وبشكل عام ، فإنه يقدر لا كواخ العمال أن تدوم لمدة أربعين عاماً فقط ، في  
المتوسط . ويبدو هذا الأمر غريباً للغاية ، عندما يرى المرء الجدران الجميلة  
المصممة للمنازل حديثة البناء ، والتي تبدو وكأنها تبشر بالبقاء قرنين من الزمان  
إلا أن الحقيقة تظل قائمة ، وهي أن التقدير في الاتفاق الأصلي ، وإهمال كل أعمال  
الترميم ، وبقاء الكواخ خالية لفترات طويلة ، والتغير المستمر للسكان ،  
والإنلاف الذي يقوم به القاطنون خلال السنوات العشر النهائية ، وهم عادة أسر  
أيرلندية ، لا تتردد في استخدام الأجزاء الخشبية من المباني كوقود ، فإن وضع  
كل هذا مما ، تحقق الدمار الكامل للكواخ ، حتى نهاية الأربعين عاماً ، ولذلك  
فإن الانسكوتس . والذي شيد أساساً منذ النمو المفاجيء للصناعة ، خاصة  
خلال القرن الحادي ، يحتوي على عدد كبير من المنازل الخربة ، معظمها ، في  
الحقيقة ، من آخر مراحل الفقر . اننى ان أسهب في الحديث عن كمية رأس المال  
الضائع بالتالى ، أو في الاتفاق الإضافي المحدود على التحسينات الأصلية وعلى  
أعمال الترميم ، والذي كان يكفي للمحافظة على الحي نظيفاً . محترماً ومأهولاً  
لسنوات . يجب على أن تناول حالة المنازل وقاطنيها . وعنا يجب الاعتراف بأنه  
لم تكتشف بعد طريقة الإسكان العمالي أكثر اضراراً وفساداً للآداب في هذه

الطريقة المحسنة . إن العامل يجبر على شغل مثل تلك المواطن الخربة ، لأنه لا يستطيع أن يدفع لإيجار غيرها ، ولأنه لا يجد غيرها في جوار مصنعه ، أو ربما أيضاً لأنها تخص مستخدمة ، الذي يستخدمه فقط بشرط أن يقيم في مثل هذا السكوخ . إن الحساب الخاص بمدة الأربعين عاماً للسكوخ ، ليس دائماً بالطبع دقيق تمام الدقة ، إذ لو كانت المساكن ، في جزء كثيف الابدنية ، من المدينة وكان هناك احتمال حقيقى لوجود سكان ثابتين لها ، بينما إيجار الأرض مرتفع ، فإن المقاولين يفعلون شيئاً ما للحفاظ على الأكواخ مسكونة حتى انقضاء الأربعين عاماً ، وعلى أى حال ، فإنهم لا يفعلون شيئاً أكثر مما لا يمكن تجنبه إطلاقاً ، وتكون المساكن المرممة على هذا النحو ، هى أسوأ المساكن كلها . ومن حين لآخر عندما يهدد وباء ما ، فإن ضمير الشرطة الصحية الغافل ، يتملأ قليلاً على عكس ما اعتاد . فيشن غارات على الأحياء العمالية ، حيث تغلق صفوف كاملة من الأكواخ والاقبية ، كما حدث في حالة عديد من الحارات القريبة من أولدهام رود ، ، غير أن هذا لا يدوم طويلاً ، إذ سرعان ما تجد الأكواخ المدانة سكان جدد ، ويرحب الملاك كثيراً بتأجيرها ، بينما الشرطة الصحية لن تعود مرة أخرى في القريب العاجل . أن تلك النواصى الشمالية والشمالية الشرقية من « بانكستون » ، هى النواصى التى لم تبني البورجوازية لنفسها فيها أية مباني ، إذ أن الرياح الجنوبية والجنوبية الغربية تدفع بدخان كل المصانع إلى هنا طوال عشرة أو إحدى عشر شهراً في العام ، وبذا يصبح في وسع العمال وحدهم أن ينفقوها .

ويقع إلى الجنوب من « جريت أنكوتس ستريت » ، حى عمالى كبير مهنت ، مساحة جبلية جرداء من الأرض ، تحتلها صفوف أومرعات من المنازل غير منتظمة البناء والمتباعدة عن بعضها البعض ، والمساحات الخالية فيما بين الأبنية غير مهيأة ومكونة من الطفلة دون أى عشب ، والتى بالكاد يمكن اجتيازها في الطقس المطر . إن كل الأكواخ قذرة وعتيقة وتعيد المدينة الجديدة ، إلى ذهن المرء . وتشكل المساحة التى يخترقها خط « بيرمينجهام » ، أشد المناطق المبنية كثافاً



وأردأها . هنا ينساب المدلوك ، بمنحنياته التي لاحصر لها عبر الوادي ، ويمائل  
منسوبه في بعض الأماكن منسوب وادي د الايرك ، . ويمتد بطول ضفتي المجرى  
الاسود في لون الفحم ، الراكد الكريمة الرائحة ، حزام عريض من المصانع  
ومساكن العمال ، وتلك الأخيرة كلها في أسوأ حال . والسفينة في الأساس منحدره  
وقد تم تشييد المباني عليها حتى حافة الماء ، كما رأينا آنفا بطول د الايرك ، ،  
بينما تتماثل المنازل في الرداءة ، سواء بنيت ناحية د مانشستر ، أو في د الاردويك ،  
د كورانون ، أو في د هولم ، . غير أن أشد البقع فظاعة ( ولو كان على أن أصف  
بالتفصيل كل البقع المنفصلة عن بعضها البعض . لما انتهيت أبدا ) تقع في ناحية  
د مانشستر ، جنوب غربي د أوكسفورد رود ، مباشرة ، وتعرف باسم  
د إيرلندا الصغرى ، . ففي سحر عميق بعض الشيء ، يقع في واحدة من منحنيات  
نهر د المدلوك ، ، يحيط به من جهاته الأربع مصانع طويلة وأرصعة عالية ،  
تغطيها المباني ، تقف مجموعات من الاكواخ التي تكاد تبلغ المائتي عردا ، والتي  
يقطنها أربعة آلاف من البشر ، جلهم من الايرلنديين . الاكواخ عتيقة ، قذرة ،  
ومن أصغر الانواع ، الشوارع غير ممهدة ، هابط على شكل أخاديد ، خالية في  
بعض أجزاءها من مجاري الصرف وأرصعة الشوارع ، وترقد كتل الفضلات ،  
والنفايات والقذارة المقززة فيما بين البرك الراكدة من جميع النواحي ، وتسمع  
الروائح الكريهة المتصاعدة منها الجو ، كما يثقل الجو ويظلم من دخان عشرات  
مدان المصانع العالية وجمع من النساء والاطفال مهملين الثياب يحترق هنا ، قذر  
كالخزير الذي يتزعزع في الاوحال ، وعلى اكوام القمامة . وفي إيجاز ، فإن كل  
جميع الحبور هذا ، يكون مشهدا بغيضا منفرا ، حتى أنه لا يمكن مناظرته  
بسهولة مع أسوأ عطفات د الايرك ، . والسلالة التي تعيش في تلك الاكواخ  
الخربة ، خلف نوافذ محطمة ، رنقت بالمشمع ، وأبواب وثابة ، وألواح أبواب  
عفنة ، أو في الافنية المظلمة الرطبة ، في قذارة وتن لاحد لها . هذه السلالة لا بد  
وأن تكون قد بلغت أدنى مراحل الإنساية . هذا هو الانطباع ، واتجاه  
التفكير الذي يفرضه المظهر الخارجي لهذا الحي على المفاصل له . ولكن ماذا

يعتقد المرء ، عندما يسمع أنه في كل حظيرة من تلك الحظائر ، التي تتكون من حجرتين على الأكثر ، على حجرة أعلى البناء وقبوة ، يعيش عشرون من البشر في المتوسط ، وأنه يصعب في العادة أن يتاح لكل مائة وعشرين شخصا مرحاض واحد ، وأنه رغم كل عظمات الاطباء ، ورغم الهمة التي غمر بها وباء الكوليرا الشرطه الصحية ، بسبب الحالة في « أيرلندا الصغرى » ، ورغم كل شيء ، فإن عام ١٨٤٤ ، عام النعمة ، كانت الحالة على وجه التقريب . لتلك التي كانت في عام ١٨٣١ ١ ويشهد « دكتور كاي » \* ، بأن الطوابق الاولى وايسر الاقبيه وحدها ، كل منازل هذا الحى ، كانت رطبة ، وأن عددا من الاقبيه ، سبق وامتلا بالانزفة ، قد أفرغ منها الآن ، وعاد يحتله بعض الايرلنديين ، وأنه في أحد الاقبيه ، كانت المياه تسيل على الدوام من ثقب قد سد بالطين ، وكان القبو يرقد أسفل منسوب النهر ، وبذا كان على شاغله ، وهو نساج يدوى أن ينزح المياه من مأواه كل صباح ، ويصبها في الشارع ١

وهناك أسفل ، أبعد من ذلك ، على الضفة اليسرى « المدلوك » ، يقع « هولم » والذي إن تحدثنا عنه كما ينبغي ، فإنه واحد من أحياء العمال الكبيرة ، والذي تكاد حالته تتطابق بالضبط مع حالة « الأنكوتس » ، فالمناطق الكثيفة الابنية رديئة من الأساس ، وتقترب من الدمار ، والمناطق الأقل سكانا وإن كانت ذات تكوين أكثر عصرية ، غير أنها هموما كانت غارقة في القذارة . وعلى الجانب الآخر من « المدلوك » ، في « مانشستر » الحقة ، يقع حى عمالى ثان كبير ، يمتد على جانبي « دينزجيت » حتى الحى التجارى ، وهو في أجزاء معينة منه يناهس « المدينة القديمة » ، خاصة في الجوار المباشر حتى الحى التجارى بين شارعى « كواى » و « بريدج » ، وشارعى « برنيس » و « بيتر » ، حيث تتجاوز الابنية المتراصة ، فى بعض الأماكن ، عطفات « المدينة القديمة » . هنا توجد حوارى طويلة ضيقة ، تجرى بينها عطفات وممرات متقلصة متعرجة ، مداخلها غير منتظمة حتى أن الاستكشاف لتلك المناطق يصطدم بزقاق مسدود ، أو يصل

---

\* دكتور « كاي » المدينة المحلية .

إلى غير ما كان يتوقع ، ما لم يكن طارفا بالضبط وعلى حدة ، لكل عطفة وكل زقاق . وطبقا للدكتور كاي ، فإن أكثر الطبقات فساد أخلاق في كل « مانشستر » ، تعيش في تلك الأحياء المهذمة القذرة ، لأنهم إناس يحترفون السرقة والدعارة ، وبناء على كل المظاهر ، فإن شهادته ما تزال حقيقية ، في وقتنا الراهن ولقد وجدت الشرطة الصحية عندما قامت بحملتها هنا في عام ١٨٣١ ، أن القذرة وافرة وفرتها في « أيرلندا الصغرى » ، أو على طول « الايرك » ( وفي وسعى أن أقرر أنها ليست أفضل كثيرا في أيامنا تلك ) ، ومن ضمن الأمور الأخرى التي وجدتتها ، أنه لا يتوفر غير مرحاض واحد لكل ثلاثمائة وثلاثين شخصا من سكان « شارع البرلمان » ، ولكل ثلاثين منزلا كثيف السكان من منازل « ممر البرلمان » .

وسنجد إن عبرنا « الايرويل » إلى « سالفورد » ، شبه جزيرة كونها النهر ، فوقها مدينة يبلغ تعداد سكانها ثمانية آلاف نسمة ، وهي ، أن تجدنا كما ينبغي ، حتى عمالي واحد كبير يخترقه شارع واحد عريض ، و « سالفورد » كانت يوما ما ، أكثر أهمية من « مانشستر » ، كانت حينئذ هي المدينة القائمة لكل الحى المجاور ، والذي مازالت تمنحه اسمها « سالفورد هندر » . ومن ثم فهي عميقة ، وبالتالي فهي ضارة صحيا للغاية ، قذرة ، وتوجد هنا منطقة خربة ، ترقد في مواجهة « كنيسة مانشستر القديمة » ، وهي في حالة سيئة كحالة « المدينة القديمة » الواقعة على الجانب الآخر من « الإيرويل » . ويرقد بعيدا عن النهر ، الجزء الجديد ، والذي هو على أي حال ، قد تجاوز بالفعل حد الأربعين عاما المقررة لعمر الكوخ ، وبالتالي فهو متهدم بما فيه الكفاية ، لقد شهدت « سالفورد » كلها من حوارى وأزقة ضيقة ، ضيقة إلى حد أنها كانت تذكرني ، بأضيق ما رأيت ، بحوارى «جنوا» الصغيرة . إن متوسط البناء في « سالفورد » طبقا لوجهة النظر تلك لا سوا بكثير من ذلك الذى فى « مانشستر » ، وكذلك الأمر بالنسبة للنظافة . وإن كانت الشرطة فى « مانشستر » تشن من وقت إلى آخر ، كل ست أو عشر سنوات ، غارة على الأحياء العمالية ، وتغلق أسوأ

المساكن ، وتفرغ تنظيف أفذر البقع في الإسطبلات ، الأوجينية ، ، فانها في  
 « سالفورد » كما يبدو . لم تفعل أى شئ على الإطلاق . إن الازقة الجنية  
 وعطافات « شابل ستريت » ، « جرير جيت » ، « جرفل لين » لم تنظف بالقطع  
 منذ بناؤها ، على وجه الإطلاق ، وأخيرا تم إنشاء خط « ليفربول » الحديدى  
 يمر فوق جسر ، عبر وسطها ، ولينج كثيرا من أفذر زواياها ، ولكن  
 ما الجدرى التى عادت من ذلك ؟ إن كل من يعبر الجسر وينظر إلى أسفل ، سبرى  
 الكفاية من القذارة والشقاء ، وإن تحمل أى امرئ مشقة المرور عبر تلك  
 الازقة ، وألقى نظره من خلال الابواب والنوافذ المفتوحة إلى داخل المنازل  
 والأقبية ، ففى وسعه أن يقنع نفسه مجددا مع كل خطوة يخطوها ، أن عمال  
 « سالفورد » يعيشون فى مساكن تستحيل فيها النظافة والراحة . وتوجد نفس  
 الأوضاع بالضبط ، فى المناطق الأكثر بعدا من « سالفورد » ، فى « إيسلنجتون » ،  
 على امتداد « ريچنت رود » ، وخلف سكة « بولتون » الحديدية . إن مساكن  
 العمال فيما بين « أولدفيلد رود » و « كروس لين » ، حيث توجد جمهرة من  
 الازقة والعطافات ، فى أسوأ حال ممكن ، إنها تنافس المدينة القديمة ، فى القذارة  
 والاكتظاظ . لقد وجدت ، فى هذا الحى ، رجلا يبدو فى الستين من عمره على  
 وجه التقريب ، ويعيش فى زريبة للبقر . لقد بنى مدخنة ما لحظيرته المربعة ،  
 التى لا يوجد بها أى نوافذ أو سقف أو أرضية ، لقد أحضر سريرا وعاش  
 هناك ، رغم أن المطر ينفذ من خلال سطحها المتفسخ . هذا الرجل كان متقدم  
 فى العمر وأضعف من أن يمارس عملا منتظما ، كان يعول نفسه بنقل السباح على  
 هربة يد ، وكانت أكوام الروث ترقد إلى جوار قصره !

تلك هى أحياء « مانشستر » العمالية المختلفة ، والى حدث أن رصدتها  
 شخصيا خلال عشرين شهرا . ولوصفنا فى إيجاز ، نتائج جولانا ، فيجب علينا  
 أن نعترف بأن ٣٥٠,٠٠٠ من عمال « مانشستر » وضواحيها يعيشون كلهم على  
 وجه التقريب ، فى أكواخ بائسة ، رطبة وقذرة ، وأن الشوارع التى تحيط بهم  
 فى أسوأ حال من الشقاء والقذارة ، وقد رصدت دون أدنى اعتبار للشوىة ،

الاعتبار الوحيد الذى يحكمها هو ضمان ربح المفاوض . وفى كلمة واحدة ، يجب أن نعترف بأن مساكن العمال فى د مانشستر ، وقد خلت من النظافة والراحة ، وبالتالى إستحالات بها أى حياة أسرية هائلة ، فى مثل تلك المساكن ، لا يحس بالراحة أو المواطنة ، غير سلاطة انحطت ماديا ، سلبت من كل آدميتها ، حققت وردت أخلاقيا وصحيا إلى البهيمية والوحشية ، واست وحدى الذى يقدم هذا التحقيق . فلقد رأينا د الدكتور كاي ، وهو يقدم نفس الوصف بالتام ، ورغم أن فى ذلك الكفاية ، غير أنى إقتبست أيضا كلمات ، ليرالى معروف ، ويقدره أصحاب المصانع كمرجع على القدر ، ومعارض متعصب لكل الحركات العمالية المستقلة\* .

د بينما أرى خلال مساكن العمال فى د المدينة الأيرلندية ، د أنكوتس ، ود أيرلندا الصغرى ، انتابتنى الدهشة فقط ، لأنه فى الإمكان المحافظة على حالة صحية معقولة ، فى مثل تلك المنازل . إن هذه المدن — وهى مدن لإمتدادها وعدد سكانها — قد تم تشييدها دون إكثار على الإطلاق لآى شئ غير النفع المباشر ، للمضارب الذى قام بالبناء . إن نجارا وبناما يتحدان لشراء سلسلة من مواقع الأبنية ( إنهما يستأجراهما لعدد من السنين ) ويخطيانها بما يسمى بالمنازل . إننا نجد فى أحد الأماكن شارعاً بأأكله يتبع أحد الأخاديد ، لأنه بهذه الطريقة يمكن الحصول على أقبية عميقة دون تكاليف حفر ، أقبية لتخزين السلع أو سقطة المتاع ولكن لإستخدامها كمساكن للبشر . إن منزلا واحدا من هذه المنازل لم يفلت من الكوايرا وعموماً ، فإن شوارع تلك الضواحي غير ممهدة ، يوجد الروث فى وسطها فى أكرام أو فى أخاديد ، البيوت مبنية ظهرا لظهر ، دون تهوية ، أو مصارف مياه ، وتنحصر عائلة كاملة ، فى ركن فى قبوة ، أو فى غرفة فوق السطح ، .

ولقد أشرت آنفا إلى النشاط غير العادى الذى أعلمته الشرطة الصحية خلال زيارة الكرايرا ، لقد أمسك ذعر شامل ببورجوازية المدينة ، عندما كان الوباء

---

\* ناسو و . الكبير « رسائل عن لائحة المصنع إلى السيد المحترم رئيس مجلس إدارة النقابة » . ( شارلز بوليت طومسون ) لندن ، ١٨٢٧ ، ص ٢٤ .



يقرب . لقد تذكر الناس مساكن الفقراء خير الصحة ، وانتفضوا أمام اليقين بأن كل من تلك الأحياء الفقيرة سيغدوا مركزا للربا ، ومنه سوف ينشر الدمار في كل النواحي عبر منازل الطبقة المتوسطة . وللحال عيانت « لجنة صحية » افحص تلك الأحياء ، وكتابة تقرير عن حالتها إلى « مجلس المدينة » . وكان « دكتور كاي » شخصيا عضوا في تلك اللجنة ، وقد زار بنفسه ، كل الأحياء المنفصلة للشرطة ، ما عدا واحد ، هو الحادي عشر ، واقتبس استخلاصات من تقاريرها . لقد تم فحص إجمالي ٦,٩٥١ منزلا - بالطبع في « ماشستر » الأصلية وحدها - مع استبعاد « سالفر د » والنواحي الأخرى . منها ٦,٥٦٥ منزلا تحتاج إلى بياض من الداخل على وجه السرعة ، ٩٦٠ منزلا عاطلا من أعمال الترميم ، ٩٢٩ لا توجد بها وسائل صرف كافية ، ١,٤٣٥ رطبة ، ٥٢ سيئة التهوية ، ٢,٢٢١ بدون مراحيض ومن ٦٨٧ شارعاً تم فحصها ، وجد أن ٢٤٨ شارعاً غير ممد ، ٥٣ شارعاً مهدد تهديدا جريئا ، ١١٢ سيئة التهوية ، ٣٥٢ به برك راكدة ، أكوام من الأتقاض والنفايات . . إلخ . كانت مسألة تنظيف مثل ذلك الأسطبل « الأرجنى » قبل وصول الكوليرا ، بالطبع ، أمر خارج عن الموضوع . ولذا فقد تم تنظيف بعض من الزوايا السيئة للغاية وترك الباقي كله كما كان من قبل . لقد اثبتت البقع التي تم تنظيفها ، كما حدث في « أيرلندا الصغرى » ، إن حالة « لاندرة القديمة » تعود كما كانت خلال شهرين . أما عن الوضع الداخلي لتلك المنازل فإن نفس اللجنة تقرر ، أن حالها ، مماثل ذلك الذي لقيناه آنفا في « لندن » ، « أيدنبورج » ، و « مدن أخرى » .

غالباً ما يحدث أن تتكرم عائلة أيرلندية كاملة في سرير واحد ، وغالباً ما يغطى السك كومة من القش القذر أو أغطية من زكائب قديمة ، تغطي السك وقد تكوموا بلا تمييز ، حيث يتماثل الجميع في مهانة الحاجة والعين والشقاء . وغالباً ما وجد المفتشون عائلتين في حجرتين بمنزل واحد ، لأنهم جميعاً ينامون في واحدة ، ويستخدمون الأخرى على المشاع كدبايح وحجرة طعام . وغالباً ما تعيش أكثر من عائلة في قبو واحد رطب ، والذي كان يتكدس معاً ، في سبوة الفاسد ، من اثني عشر إلى ستة عشر شخصاً . وإلى مصادر المرض تلك

يجب أن يضاف ، لانهم كانوا يحتفظون بالحنازير ، كما كانت توجد أشياء مقرزة  
تثير أشد أنواع الاشتزاز .

ويجب أن نضيف أن كثيرا من العائلات ، التي لا تحتل غير غرفة واحدة  
لنفسها ، كانت تستقبل نزلاء مؤقتين أو مقيمين في تلك الحجرة ، وكان مثل  
هؤلاء النزلاء المؤقتين ، من كلا الجنسين ، نادرا ما يشاركون الزوجين نفس  
السرير ، وأنه قد تم الانتقاء طبقا ، للتقرير الخاص بالحالة الصحية للطبقة العاملة ،  
بحالة الرجل الذي ينام هو وزوجته وأخته غير الشقيقة ، ست مرات في  
« مانشستر » ، والمنازل العامة المزججة للنزلاء أيضا ، عديدة للغاية ، ويقدر  
« دكتور كاي » ، عددها في عام ١٨٣١ بـ ٢٠٧ في « مانشستر » الأصلية ، وهي  
لا بد قد زادت كثيرا منذ ذلك الحين . وتستقبل كل منها من عشرين إلى ثلاثين  
ضييفا ، حتى أنها جميعا تأوى من خمسة إلى سبعة آلاف إنسان كل ليلة . ولتلك  
المنازل وسكانها نفس السمة الموجودة في البلدان الأخرى . خمسة إلى سبعة مرافق  
دون أسرة فوق الأرض في كل حجرة ، وعليها ينام أكبر عدد من الأشخاص  
الواردين دون تمييز . اننى لست في حاجة الى تناول الجوانب الأخلاق والصحية  
الذى يسود تلك الجحور . ان كل من تلك المنازل إنما هو يؤر للجريمة ، إنما  
مسرح للإفغال التى تثور ضدها الطبيعة البشرية ، والتي كان من الممكن الاتقاع ،  
لولا ذلك التركيز الجبرى للخطيئة \* .

---

\* ب . حاسكل « شعب الصناعة في إنجلترا : أخلاقياته ، حالته الاجتماعية والصحية ،  
التغييرات التى فجمت عن استخدام الآلة البخارية ، مع بحث تشغيل الأطفال » . « ميات  
جوستيتا » ، ١٨٣٣ — يصور أساساً حالة الطبقة العاملة في « لانكشاير » . المؤلف  
ليبرالى ، غير أنه كتب عن العمال . وهو بناء على ذلك غير متحامل و ، فى وسعه أن يوجه  
الأنظار إلى شروور الوضع الراهن الامور ، وخاصة لنظام المصنع . ومن الناحية الأخرى ،  
فقد كتب من قبل « لجنة تعمري المصانع » وتبنى ، عن مصادر غير أهل للثقة تصريحات  
عديدة نقضها « تقرير اللجنة » . وهذا العمل ، رغم أنه عمل قيم يوجه عام ، إلا أنه  
لا يمكن بالتالى استخدامه إلا بفطنة وإدراك ، خاصة وأن الكاتب ، مثله فى ذلك مثل  
« كاي » قد يخالط كل الطبقة العاملة مع المصانع اليدوية . إن تاريخ تطور البروايتاريا والذى  
ضمن فى مقدمة العمل الحالى ، قد أخذ أساساً من عمل « جاسكل » هذا .

ان «جاسكل» يقدر عدد الاشخاص الذين يعيشون في الالفية في «مانشستر» الأصلية بـ ٢٠,٠٠٠ شخص . وتقدر «الويكلي ديسباتش» عدد «طبقا» للتقارير الرسمية ، بنسبة ١٢٪ من الطبقة العاملة حينذاك . . . ١٧٥,٠٠٠ من العمال وتشكل الـ ١٢٪ منهم ٢١,٠٠٠ من العمال . كما أن عدد قاطني الالفية في الضواحي يناظر على الأقل هذا العدد ، وبالتالي فإن عدد الاشخاص المقيمين في الالفية في «مانشستر» — باستخدام اسمها بمعناه العريض — لا يقل عن أربعين الى خمسين ألفا . انه أكثر بكثير من طاقة مساكن العمال في أكبر المدن والبلدان . ان الطريقة التي تشبع بها الحاجة الى ملاذ أو مأوى ، لتؤثت معيارا ، للطريقة التي تقدم بها كل الاحتياجات الأخرى . ان الخاتمة المأمونة الجانب ، وهي الحقيقة أيضا ، انه لا يمكن أن يسكن في تلك الحجور القدرة الانسانية الشياب سيق التغذية . إن ملابس العمال ، في أغلب الحالات ، في حالة سيئة للغاية إن المادة المستخدمة في صنعها ليست ملائمة تمام الملائمة . فالصوف والكتان قد اختفيا تقريبا من خزانه ثياب كلا الجنسين ، وحل القطن محلهما . القمصان مصنوعة من أقمشة قطنية بيضاء أو ملونة . الأردية النسائية مكونة أساسا من أقمشة قطنية مطبوعة ، ومن النادر رؤية تنورات (ملابس نسائية داخلية) صوفية معلقة على مناشر الغسيل . ويرتدي الرجال أساسا سراويل من أقمشة قطنية وبرية ، أو أقمشة قطنية ثقيلة ، وسترات ومعاطف من نفس النوع ، لقد غدت الأقمشة القطنية البرية الزى الامثل للعمال الذين أطلق عليهم «ذوى السترات القطنية البرية» ، لقد أطلقوا على أنفسهم ذلك الاسم تميزا لهم عن السادة الذين يرتدون الجوخ ، وتستخدم الكلمات الأخيرة ، كتعبير خاص ، تكتنى به الطبقة الوسطى . وعندما قدم «فيرجوس أركوتور» ، القائد الإصلاحى إلى «مانشستر» أثناء تمرد عام ١٨٤٢ ، ظهر ، وسط تصفيق العمال الذى يحسم الأذان ، مرتديا بزة من قماش قطنى وبرى . ان القبعات هي غطاء الرأس العام فى إنجلترا ، حتى للعمال ، قبعات ذات أشكال شديدة التباين ، مستديرة ، عالية ذات حافة عريضة ، ذات حافة ضيقة ، أو بدون حواف — ان الشباب فقط فى المدن الصناعية ، هم الذين يرتدون القلنسوات . ان كل من لا يملك قبعة ، يطوى لنفسه قلنسوة مربعة رخيصة من الورق .

ان كل ثياب الطبقة العاملة ، حتى لو ادعى أنها فى حالة جيدة ، لا تلائم

الطقس الاقليل ، ان الهواء الرطب في انجلترا ، بتغيرات درجة حرارته المفاجئة  
والذى يعتبر أكثر من غير ، سبباً في نزلات البرد هو الذى يجبر الطبقة الوسطى  
كلها على وجه التقريب ، على ارتداء الاقمشة الصوفية فوق الجلد ، حول الجسد ،  
كما ان القمصان والاشحة الصوفية ، تكاد تكون عامة الاستخدام . ان الطبقة  
العامة ليست فقط محرومة من هذه الوقاية ، بل انها تكاد تكون فى أى وقت  
من الارفات فى وضع يمكنها من استخدام فتلة من ثياب صوفية . ورغم أن  
الملابس القطنية ، أسمك وأغلظ وأثقل من الثياب الصوفية ، الا أنها تعطى قدراً  
من الحماية ضد البرد والبلل أقل بكثير ، انها تظل رطبة مدة أطول بسبب سمكها  
وماهية قماشها ، ولأنه ليس فيه شيء من الكثافة المحيكة ، للملابس المصنوعة  
كلية من الصوف . لو حدث مرة واشترى واحد من العمال لنفسه سترة صوفية ،  
حتى يرتديها فى أيام الآحاد ، فلا بد له وأن يحصل عليها من أحد الحوانيت  
الرخيصة ، حيث يجد ثياباً رديئة ، يطلق عليها « تراب الشيطان » ، وهى قد  
صنعت للبيع لا للاستخدام ، اذ انها معرضة للنزق أو البلى خلال أسبوعين ،  
أو عليه أن يشتري من عند تاجر ملابس قديمة ، سترة نصف ملبوسة ، سبق لها  
ورأت أفضل أيامها ، ولا تدوم إلا أسابيع قليلة . فضلاً عن ذلك ، فإن ملابس  
العمال ، فى غالب الأحوال ، فى حالة سيئة ، وهناك الحاجة المتكررة فى الغالب  
لوضع أفضل القطع منها فى دكان المرائى . غير أن الملابس الشائعة ، بين عدد  
كبير منهم ، وخاصة الأيرلنديين ، تتكون كلية من خرق ، ليس فى الإمكان  
إصلاحها فى غالب الأحوال ، أو أنها مرقعة ، حتى أنه لم يعد فى الإمكان تمييز لونها  
الأصلى . ومع ذلك فإن الانجليز والإنجلو أيرلنديين يداومون على عملية الترفيع  
تلك ، وقد رفعوا هذا الفن إلى ذروة جدرة بالاعتبار ، لانهم يضعون الصوف  
أو الخيش على الملابس القطنية الوبرية أو العكس ، فالعملية سواء بالنسبة لهم  
والحقيقة ، فإن المتوطنين الأيرلنديين ، نادراً ما يرقعوا ملابسهم ، إلا فى حالة  
الضرورة القصوى ، عندما تهدد أروبتهم بأن تقايط مرقاً . وعادة ما تبرز  
خرق القميص من نتف السترة أو السروال . لانهم يرددون ، كما يقول « توماس  
كارليل » :

\* توماس كارليل « الميثاقية » ، لندن ١٨٤٠ ، ص ٢٨ .

« بزة من ملاهيل ، يمكن القول أن ارتدائها وخلعها يمثل عملية عسرة ، تتم فقط وقت الاحتفالات ومواسم العام الجارية » .

ولقد أدخل الايرلنديون ، أيضاً ، عادة لم تكن معروفة في انجلترا من قبل ، ألا وهى التجول بأقدام عارية . ففي كل مدينة صناعية ، يرى الآن عديد من الناس ، وخاصة النساء والاطفال ، يتجولون حفاة الاقدام . ويحتذى أفقر الإنجليز ، بالتدريج ، ذلك المثل .

وينطبق على مسألة الغذاء ، ما جاء فى مسألة الكساء . إن العمال يحصلون على ما لا تريده الطبقة المالكة ، لأنه ردىء بالنسبة لهما . وفى المدن الكبرى الانجليزية يمكن الحصول على كل ما هو أفضل ، إلا أن ذلك يكلف مالا ، والعامل الذى عليه أن يحافظ على بيته مفتوحا ببذنين ، لا يستطيع أن يواجه نفقات كثيرة ، يضاف إلى ذلك أنه يتسلم أجره مساء السبت ، لأنه ، رغم ما بدى به من دفع الأجور يوم الجمعة ، فإن ذلك الترتيب الرائع ليس عاما على الإطلاق . وبالتالي فإن العامل يحضر إلى السوق فى الخامسة أو حتى فى السابعة ، فى حين أن المشترين من الطبقة الوسطى لديهم فرصة الاختيار الأولى أثناء الصباح ، عندما يكون السوق مكتظا بالأفضل من كل شيء ، وبذا فعندما يصل العمال ، يكون الأفضل قد اختفى ، وإن ظل منه شيئا ، فالأرجح أنه ليس فى مقدورهم شراؤه ، لأن البطاطس التى يشتريها العمال هزيلة دائما ، والخضروات ذابلة ، والجن قديمة ومن نوع ردىء ، ولحم الخنزير المملح زنخ ، واللحمة عجفاء ، ناشفة ، من أبقار عجوز ، غالبا مريضة أو ربما مات موتا طبيعيا ، وحتى حينئذ فإنها ليست طازجة ، ولا كنها فى الغالب فاسدة . والباءة دائما ، من صغار الباعة الجائلين ، الذين يشترون السلع الدنيا ، وهم الذين فى وسعهم أن يبيعوها بسعر رخيص ، بسبب رداءتها . إن أفقر العمال مجبرين على استخدام حيلة أخرى ، للحصول على الاشياء التى يحتاجونها ببضائهم القليلة . إن شيئا لا يباع يوم الأحد ، وعلى كل المتاجر أن تغلق أبوابها فى الحادية عشر مساء السبت ، وبذا فإن الاشياء التى لا يمكن حفظها حتى يوم الاثنين ، تباع بأى ثمن فيما بين الساعة العاشرة ومنتصف الليل . غير أن تسعة أعشار ما يباع الساعة العاشرة ، لا يصلح للاستخدام فى صباح الأحد ، ومع ذلك فإنها بالتحديد ، الزاد الذى يشكل غذاء



الطبعة الأفقر . فغالباً ما يكون اللحم الذي اشتراه العمال غير صالح للإستعمال ،  
 ولكن ما داموا قد اشتروه ، فعليهم أن يأكلوه . ففي السادس من يناير عام  
 ١٨٤٤ ( إذا لم أكن خطأ خطأ جسيماً ) انعقدت هيئة المحكمة في « مانشستر » .  
 عندما حكم بغرامة مالية على أحد عشرة بائع لحماً ، لأنهم باعوا لحماً فاسداً .  
 كان لدى كل منهم ثورا أو خنزيراً كاملاً ، أو عدد من الأغنام . أو قدرا يتراوح  
 من خمسين إلى ستين رطلاً من اللحم ، والتي تم ضبطها جميعاً وهي في حالة فاسدة .  
 وفي إحدى الحالات أمسك بستة وأربعين أوزة محشوة ، من أوز عيد الميلاد ،  
 لم تباع في « ليفربول » ، فوجت في « مانشستر » ، حيث أحضرت إلى السوق وهي  
 غنمة وكريهة الرائحة . وقد نشرت في حينها ، كل التفاصيل ، والأسماء والغرامات  
 المالية في جريدة « المانشستر جارديان » . وقد نشرت في نفس الصفحة ثلاثة  
 حالات مماثلة ، خلال ستة أسابيع ، من أول يوليو حتى الرابع عشر من أغسطس  
 وطبقاً لما جاء في « الجارديان » ، فإنه قد تم القبض على جزار في « هاى وود » ،  
 لأنه قطع وعرض للبيع خنزيراً ميتاً عفناً ، كان يزن مائتي رطل . وطبقاً لما  
 جاء في عدد ٣١ يوليو فإنه قد تم توقيع غرامة على جزارين ، كان أحدهما قد  
 أدين من قبل بنفس التهمة ، بمبلغ جنيتين استرلينيين ، وثلاث جنيهات إسترلينية  
 وذلك لمرضهما للبيع لحماً فاسداً ، وطبقاً لما جاء في عدد ١ أغسطس فقد تم  
 ضبط ستة وعشرين لحماً خنزيراً ملوح ، عند تاجر في « بواتن » ، حيث تم حرقها علناً ،  
 وغرم التاجر عشرين شلناً . غير أن تلك ، ليست هي كل الحالات ، إنها لا تشكل  
 حتى متوسطاً أميناً لفترة ستة أسابيع ، والتي يمكن بناء عليها تكوين المتوسط  
 العام . إذ توجد مواسم كثيرة ، يأتي في كل عدد من أعداد « الجارديان » شبه  
 الأسبوعية ، ذكر حادثة مماثلة ، وجدت في « مانشستر » ، أو في المناطق المجاورة  
 لها . وعندما يفكر المرء في الحالات العديدة التي لا بد قد أفلتت من الضبط في  
 الأسواق الواسعة التي تمتد بطول واجهة كل شارع رئيسي ، والتي تقع تحت  
 رقابة مفتشى الأسواق الواهية — وإلا فكيف يمكن للمرء أن يفسر الجراءة  
 التي تطرح بها للبيع حيوانات كاملة ؟ . وعندما يضع المرء في الاعتبار عظم  
 الأغراء ، بالنظر إلى الغرامات الضئيلة على نحو غير مفهوم كما ذكر في الحالات  
 السابقة ، وعندما يفكر المرء في الحال الذي وصلت إليه قطعة من اللحم ، حتى  
 جاء المفتشون لضبطها ، فإنه يستحيل على المرء أن يصدق ، أن العمال يحصلون

على لحم جيد ومغذى ، وباعتبار أن هذا هو الأمر العادى غير أن العمال حتى الآن ، يمتثل عليهم ، ويفشهم الشره للمال ، الذى تنهف به الطبقة الوسطى . إن التجار وأصحاب المصانع يفسدون كل أنواع المأكولات بطريقة شنيعة ، ودون أدنى التفات إلى صحة المستهلكين ، لقد أصغينا إلى ما نقوله ، واشتر جارديان ، حول هذا الموضوع ، دعونا نسمع إلى عضو آخر من أعضاء الطبقة الوسطى - إننى أبتجج بشهادة معارضى - دعونا نسمع ، الليفربول مير كيورى ،

« يباع الزبد المفسوش على أنه زبد طازج ، إذ تغطى الأقراص بطبقة من الزبد الطازج ، أو يوضع رطل من الطازج على السطح للمذاق ، بينما المفسوش يباع بعد هذا التذوق ، أو تطلى الكتلة كلها وتباع على أنها طازجة . كما يخلط السكر بالارز المدقوق ، ومواد أخرى رخيصة مفسوشة ، ويباع الكل بالسعر كاملا . كما يخلط أيضاً نفائات منشآت الصبانات ، مع أشياء أخرى وتباع على أنها سكر . ويخلط القهوة المطحونة بالشيكوريا وبعض المواد الرخيصة ، كما يخلط القهوة غير المطحونة بحبوب البن الصناعى . ويفش الكاكاو غالبا بإضافة أثرية بنية اللون ناعمة ، وتعالج ببعض الدسم حتى يمكن أن يلتبس أمرها بسمولة مع الكاكاو الحقيقى . ويخلط الشاى بأوراق الخوخ البرى مع بعض النفائات ، أو تهمص أوراق الشاى المستخدمة فوق صفائح من نحاس ساخن ، حتى تستعيد لونها الطبيعى وتباع على أنها طازجة . ويخلط الفلفل بقشر الجوز المطحون ، ويصنع النبيذ الأحمر مباشرة ( بلا كحول ولا مواد صبغية . . إلخ ) ، وبينما هو سىء السمعة فإن ما يستهلك منه فى إنجلترا وحدها يفوق ما يقدم فى البرتغال ، ويخلط الدخان بمواد مقززة ، من كل الأنواع ، وفى كل الصور الممكنة ، التى ينتج فيها الصنف . »

ويمكننى أن أضيف ، أن عدداً من أكثر تجار الدخان إحتراما فى دمانشستر قد أعلنوا جهاراً فى الصيف الماضى ، أنه لا يمكن لآى شركة تجارية ، أن تواصل العمل دون غش ، بسبب الغش السائد فى الدخان ، وأنه لا يمكن أن يكون ثمن أى سيجار مصنوع من الدخان كلية ، أقل من ثلاث بنسات ، إن أعمال الغش والاحتيال تلك ، ليست قاصرة على مواد الغذاء ، رغم أننى قادر على ذكر العشرات من الحالات الأخرى ، كالدهانة التى تتم بخلاط الدقيق بالجبس والجير .

إن الغش والاحتياـال يمارس في بيع الأشياء من كل نوع — فالفايلات  
والجوارب . . إلخ . تط ثم تمكش بعد أول غسيل ، وتباع الآثمـة الضيقة  
العرض ، على أنها أعرض من حقيقتها ، بما يتراوح من بوصه ونصف إلى ثلاث  
بوصات ، والأواني الفخارية ، مطلية بطبقة ملساء رقيقة إلى حد أنه طلاء  
لا يصلح لشيء ، وهي تشقق على الفور ، ومئات أخرى من أعمال السفالة والهدامة  
تماما كما يحدث في بلدنا . غير أن العمال هم الذين يغالوا نصيب الأسد ، من النواتج  
الآثمـة لأعمال الغش تلك . الأثرياء يخدعون أقل ، لأنه في وسعهم أن يدفعوا  
الأسعار العالية للمتاجر الكبيرة ، التي لها سمعة تخشى عايتها ، والتي ستسوء إلى  
نفسها أكثر مما تسوء إلى زبائنها ، لو أنها إقتنت سلع رديئة أو مغشوشة ، كما  
أن الأغنياء أيضاً مدللين باعتيادهم الطعام الجيد ، وبذا فإنهم يكتشفون الفساد  
منه بأذواقهم الحساسة في سهولة أكثر . أما الفقراء ، العمال ، هؤلاء اللذين يمثل  
فلسين بالنسبة لهم شيئاً هاماً ، هؤلاء اللذين عليهم أن يشتروا أشياء كثيرة بنقود  
قليلة ، هؤلاء اللذين لا يقدرّون على فحص نوعية ما يشترون عن كثب ، وليس  
في إمكانهم أن يفعلوا ذلك في أية حاله أو ظرف ، حيث لم تتح لهم الفرصة  
ليهدبوا ذوقهم ، فإنهم اللذين تقع من نصيبهم كل الماؤن الفاسدة والمسممة ، إنه  
يتوجب عليهم التعامل مع صغار الباعة ، وربما كان عليهم أن يشتروا بالاجل ،  
وهؤلاء الباعة الصغار الذين ليس في مقدورهم أن يبيعوا ، حتى نفس النوعية من  
السلع ، بسعر رخيص مثلما يفعل الباعة الكبار ، وذلك بسبب صغر رأسمالهم  
والضعف النسبية لانفقات تجارتهم ، يتوجب عليهم أن يشتروا ، بوعى ، أو بدون  
وعى ، سلعا فاسدة ، حتى يمكنهم أن يبيعوها بأهـن الأسعار اللازمة ، وحتى  
يمكنهم منافسة الآخرين . وفوق ذلك ، فإن تاجر القطاعى الكبير ، والذي  
يستثمر رأسمال واسع في أعماله ، يتحطم ويتحطم معه سمعته ، إذا تبين من أولته  
لأعمال الغش ، لكن ، أى ضرر يلحق بهقال صغير ، تنحصر زبائنه ، في حدود  
شارع واحد فقط ، إذا ما ثبتت أعمال الغش عليه ؟ إنه إن فقد ثقة زبائنه في  
د آنـكوتس ، فإنه ينتقل إلى د كورلتون ، أو د هولم ، حيث لا يعرفه أحد ،  
وحيث يستمر في الغش كما كان من قبل ، بينما الغرامات القانونية ، تنصب على  
عدد محدود من أعمال الغش ، ما لم تشتمل على إحتيال في الدخل والإيرادات . إن  
العامل الإنجليزى لا يلقى السلب والاحتياـال من النوع وحده ، بل إنه يلقاه بالمثل

في كم البضائع التي يشتريها . إذ يوجد دائماً ، عند التجار الصغار ، أوزان ومكاييل زائفة ، ويمكن قراءة عدد لا يصدقه العقل من الاحكام في مثل تلك المخالعات من تقارير الشرطة . إن الإفتباس من الممانشة جارديان ، يمكن أن يوضح ، إلى أي مدى يسود هذا النوع من الغش في الأحياء الصناعية . إنه يغطي فقط مرحله قصيرة ، وحتى هنا ، فإنني لا أضع يدي على كل الأعداد :

الجارديان في ١٦ يونيو ١٨٤٤ ، « جلسات روكديل » - تغريم أربعة باعة من خمس إلى عشر شلنات لاستخدامهم أوزان خفيفة . « دورات مستوكبورت » ، تغريم بائعين شلن واحد ، أحدهما بسبب وجود سبعة موازين خفيفة وميزان زائف لديه ، وقد حذر كلاهما .

الجارديان في ١٩ يونيو « جلسات روكديل » - تغريم بائع خمسة شلنات ، ومزارعين عشرة شلنات .

الجارديان في ٢٦ يونيو « جلسات آشتون » - تغريم أربعة عشر بائعاً ومزارعاً من شلنين وست بنسات إلى جنيه واحد . « جلسات هايدبتي » - حكم على تسع بائعين ومزارعين بدفع النفقات ، وغرامات قدرها خمس شلنات .

الجارديان في ٩ يوليو « مانشستر » - حكم على ستة عشر بائعاً بدفع النفقات وغرامات لا تزيد عن عشرة شلنات .

الجارديان في ١٣ يوليو « مانشستر » - تغريم تسع باعة من شلنين وستة بنسات إلى عشرين شلناً .

الجارديان في ٢٤ يوليو « روكديل » - تغريم أربعة باعة من عشر إلى عشرين شلناً .

الجارديان في ٢٧ يوليو « بولتون » - حكم على اثني عشر بائعاً وصاحب فندق بدفع النفقات .

الجارديان في ٣ أغسطس « بولتون » - تغريم ثلاث بائعين شلنين وستة بنسات ، وخمس شلنات .

الجارديان في ١ أغسطس « بولتون » — تغريم بائع واحد خمس شلنات.

إن نفس الأسباب ، التي جعلت من الطبقة العاملة ، المسكابين الاساسيين من أعمال غش نوعية السلع ، قد جعلتهم الضحايا الدائمين لأعمال الغش في مسألة الكمية أيضاً .

إن الغذاء المعتاد للعامل الفرد ، يختلف بالطبع طبقاً لراتبه . إن العمال الذين ينالون أجراً أفضل من غيرهم ، وخاصة هؤلاء الذين في وسع كل فرد من أفراد أسرهم أن يتكسب شيئاً ما ، يحصلون على غذاء طيب لمدة تطول بدوام هذه الحالة ، اللحم يومياً ، ولحم الخنزير اسبوعياً ، وتزداد كميات الخبز والبطاطس . وإذا انحدرنا بالتدريج ، فإننا نجد أن الغذاء الحيواني قد تناقص إلى قطعة صغيرة من لحم الخنزير ، مقطعة إلى قطع أصغر ومخلوطة مع البطاطس ، وإذا استمر الهبوط ، اختفت تلك القطعة أيضاً ، وبقي الخبز وحده مع الجبن والحساء والبطاطس ، حتى إذا وصلنا إلى أدنى السلم بين الأيرلنديين ، وجدنا أن البطاطس تشكل الغذاء الوحيد . ويصاحب الغذاء طامة شاي خفيف ، ربما به قليل من السكر واللبن أو المشروبات الروحية . والشاي في إنجلترا ، وكذا في أيرلنده ، كالقهوة في ألمانيا ، شيء لا يمكن الاستغناء عنه . وحينما يختفي الشاي من الاستخدام ، فإن الفقر المر هو الذي يكون سائداً حينذاك . غير أن كل هذا يفترض مسبقاً ، أن يكون لدى العامل عملاً ، فإن لم يكن لديه ما يعمل به البتة ، فهو حينئذ يقع بالكامل تحت رحمة الصدقة ، إنه يأكل ما يعطى له ، ما يستطيع أن يستعديه أو يسرقه . فإن لم يجد أي شيء ، فهو في بساطة ، يتضور جوعاً كما رأينا . إن كمية الطعام تتفاوت بالطبع ، مثلما تتفاوت في النوع ، طبقاً لمعدل الأجور ، حتى أن الجوع يسرد بين العمال ذوى الأجر الهزيل ، رغم اتصاله السهل وانتظامه ، ورغم عدم كبر عدد أفراد الأسرة ، إن عدد هؤلاء الهزيل الأجر الكبير للغاية . إن هذه الطبقة عديدة للغاية ، خاصة في لندن ، حيث ترتفع المنافسة بين العمال بسبب إزدواد عدد السكان ، غير أن نفس الحالة قائمة أيضاً ، في مدن أخرى . وفي مثل تلك الحالات ، تستخدم كل أنواع الحيل ، إن الحاجة إلى الطعام تدفع إلى أكل قشر البطاطس ونفايات الخضروات ،



والخضروات العطنة\* ، وإلى جمع كل ما يحتمل أن يحتوى ذرة واحدة من غذاء ، فى نهم وشراهة . وإن استنفدت أجور الأسبوع قبل نهايته ، فغالباً ما تجد العائلة لنفسها فى أواخر أيامه ، من القوت ، إن وجد ، ما يكفى بالكاد فقط للحفاظ عليها من التضور جوعاً . وبالطبع فإن مثل هذه الطريقة من الحياة ، تولد عديداً من الأمراض التى لا مفر منها . وعندما تظهر تلك الأمراض ، فإن الأب ، ذلك الذى تعتمد الأسرة أساساً على عمله ، والذى يحتاج بشدة إلى التغذية وبسبب ما يعانيه من إجهاد بدنى ، يكون أول من يستسلم . وعندما يعجز الأب كلية ، فإن الشقاء يبلغ ذروته ، وحينئذ ، تكشف بالكامل عن نفسها ، تلك الوحشية التى يتخلى بها المجتمع عن أعضائه ، فى لحظة حاجتهم الشديدة .

ولإجمال الحقائق التى سبق ذكرها فى إيجاز ، فإن المدن الكبرى مسكونة بالعمال أساساً ، حيث يوجد فى أحسن الأحوال برجوازي واحد مقابل كل عامين ، وغالباً ما يكون مقابل ثلاثة ، وهنا وهناك مقابل أربعة ، ولا يجوز هؤلاء العمال أية ملكية خاصة بهم على أى صورة من الصور ، لأنهم يعيشون كاية على الأجور ، والى تذهب دائماً من اليد إلى الفم . والمجتمع الذى يتكون بصورة كلية من جرميات ، لا يدر خاطره من أجلهم ، لأنه يتركهم يرعون أنفسهم وأسرهم ، لكنه لا يمد لهم بالوسائل التى تمكنهم من ذلك بطريقة فعالة ودائمة . وبالتالى فإن كل عامل ، حتى أفضلهم حالاً ، معرض لأن يفقد العمل والطعام ، معرض لأن يموت جوعاً ، وكثيرون هم الذين يهلكون على هذا النحو . إن مساكن العمال فى كل مكان سيئة التخطيط ، رديئة البنيان ، رديئة التهوية ، رطبة وضارة بالصحة ، وهى مستبقة على أسوأ حال . السكان محصورين فى أصغر مساحة ممكنة ، وكل حجرة تشغلها على الأقل عائلة واحدة . إن النظام الداخلى للمساكن مصاب بشتى درجات الفقر ، وصولاً إلى الافتقار الكلى لأشدّ الاثاثات ضرورة . أما ملابس العمال فهى عادة غير كافية ، أما ملابس الكثرة فليست غير هلاهيل . الغذاء بشكل عام ردىء ، وفى الغالب الأعم لا يصلح للاستعمال ، كميته عادة ، أو على الأقل فى بعض الاوقات ، غير كافية ، حتى أن

(\*) ويكلى ديسباتش فى أبريل أو مايو عام ١٨٤٤ ، طبقاً لما جاء فى تقرير أعده دكتور « ستودود سميث » عن حالة الفقراء فى لندن ( ملحوظة من الطبعة الألمانية ) .

الحالات الحادة تؤدي إلى الموت جوعاً . وهكذا فإن الطبقة العاملة في المدن الكبرى ، تقدم معياراً لظروف الحياة ، وهذا المعيار المتدرج في أفضل الحالات هو وجود عمل مؤقت محتمل وشاق وأجوره جيده ، أى أنه من وجهة نظر العمال ، جيد ومحتمل ، وهو في أسوأ الحالات ، حاجة مرة تبلغ حد التشرد والموت جوعاً . أما الحالات المتوسطة فهي أقرب كثيراً إلى الحالة السيئة منها إلى الحالة الأفضل . وهذا التابع لا يخص قطاعات ثابتة ، حتى أنه لا يسع المرء أن يقول ، هذا الجزء من الطبقة موفق في عمله ، كان دائماً هكذا ، وسيظل كذلك . وإن كانت الحالة هكذا هنا وهناك ، إن كان لفروع منفردة من العمل عامة ، ميزة على الفروع الأخرى ، فإن حالة العمال في كل فرع معرضة لتقلبات شديدة ، حتى أن عاملاً واحداً يمكن أن يمر بالسلسلة كلها ، من الراحة النسبية إلى الحاجة القصوى حتى الموت جوعاً ، بينما يمكن لكل عامل إنجائى في غالب الأحوال ، أن يروى حدوده عما أصاب حظه من تغيرات واضحة . دعونا ، إلى حد ما ، نفحص أسباب هذا بطريقة أكثر قرباً .



## المنافسة

لقد رأينا في المقدمة ، كيف أن المنافسة قد خلقت البروليتاريا منذ البداية الأولى للحركة الصناعية ، وذلك بزيادة أجور النساجين ، نتيجة الطلب المتزايد على السلع الصوفية ، وبذا أغرى الفلاحون النساجون بهجرة مزارعهم ، وكسب مزيد من النقود ، وذلك بتكريس أنفسهم لمناسجهم . لقد رأينا كيف أنها أزاحت المزارعين الصغار عن طريق نظام المزارع الكبيرة ، ثم نزلت بهم إلى صفوف البروليتاريا ، وجذبتهم جزئيا إلى المدن ، وكيف أنها حطمت ، فيما بعد ذلك ، البورجوازية الصغيرة ، إلى حد كبير ، ونزلت بأفرادها إلى مراتب البروليتاريا أيضا ، كيف أنها ركزت رأس المال في أيدي القلة ، والسكان في المدن الكبرى ، تلك هي السبل والوسائل التي خلقت المنافسة بواسطة — عندما بلغت دلائها الكاملة وتطورها الحر في الصناعة الحديثة — البروليتاريا ومددتها . إننا سنرصد الآن تأثيرها على الطبقة العاملة التي خلقت بالفعل . وهذه يجب علينا أن نبدأ ، بمتابعة نتائج منافسة عمال افراد مع بعضهم البعض .

المنافسة هي التعبير الاكمل عن معركة الكل ضد الكل ، وهي التي تتحكم في المجتمعات المدنية الحديثة . إن هذه المعركة ، إنما هي معركة من اجل الحياة ، من اجل الوجود ، من اجل كل شيء ، وإن املت الضرورة ، فهي معركة حياة وموت ، إن قتالها لا يكون قاصرا فقط فيما بين طبقات المجتمع المختلفة ، لكن يقوم ايضا بين الاعضاء الافراد لهذه الطبقات . إن كلا منهم يقف في طريق الآخر . وكلا منهم يسمى لإزاحة كل الذين يقفون في طريقه كي يضع نفسه محلا . إن العمال في حالة منافسة دائمة فيما بينهم ، شأنهم في ذلك شأن افراد

البورجوازية فيما بينهم . إن نسيج المنساج الآلى ، ينافس نسيج المنساج اليدوى ونسيج المنساج اليدوى العاقل أو محدود الأجر ينافس ذلك الذى يعمل ، أو الذى يحصل على أجر أفضل ، كل يحاول إزاحة الآخر والحلول محله . غير أن هذه المنافسة الجارية فيما بين العمال وبعضهم البعض ، هى أسوأ ما فى الأوضاع الراهنة ، من زاوية تأثيرها على العامل ، إنها أحد سلاح فى يد البورجوازية ضد البروليتاريا . ومن هنا كان جهد العمال لإحباط هذه المنافسة بتكوين الجمعيات ، ومن هنا كانت الكرامة التى تكسبها البورجوازية تجاه تلك الاتحادات وإبتهاجها قصراً لكل هزيمة تحل بها .

البروليتارى عاجز إن ترك لذاته ، إنه لا يستطيع الحياة يوماً واحداً . لقد حثت البورجوازية إحتكاراً لكل سبل الوجود ، بأوسع ما تعنيه هذه الكلمة من معنى . إن ما يحتاجه البروليتارى ، لا يمكنه الحصول عليه إلا من البورجوازية ، التى تحمى سلطة الدولة إحتكارها . وبناء على ذلك ، فالبروليتارى قانوناً وبحكم الواقع ، عبد البورجوازية ، التى فى مقدورها أن تحكم حياته أو تمتله . إنها تقدم له سبل الحياة ، لكن فقط نظير عمله . إنها تتركه يبدو كأنه يتصرف من منطلق إختيار حر ، يبرم عقداً بحرية ، يوافق دون إكراه ، وكأنه عميل مسئول بالغ سن الرشد والإدراك .

حرية بارعة ، حيث لا يوجد أمام البروليتارى من إختيار غير قبول الشروط التى تقدمها له البورجوازية ، أو التضور جوعاً ، والتجمد حتى الموت ، والنوم عارياً وسط وحوش الغابات ! نظير بارع مقيم طبياً لمشيدة البورجوازية وإن وجد البروليتارى اللاحق ، الذى يقبل التضور جوعاً ، بدلاً من الموافقة على العروض العادلة للبورجوازية « سيديته الطبيعية » \* ، فإنه من السهولة بمكان ، العثور على غيره ليأخذ مكانه ، ففى العالم ما يكفى من البروليتاريين ، وهم ليسوا جميعاً مجانين إلى حد تفضيل الموت على الحياة .

لدينا هنا منافسة العمال بعضهم البعض . إذ لو أعلن كل البروليتاريين إصرارهم على التضور جوعاً بدلاً من العمل لحساب البورجوازية ، فإن الأخيرة لا بد وأن

---

\* تعبير مستعرب عند أصحاب المصانغ الانجليز ( ملحوظة فى الطبعة الانجليزية ) .



تتنازل عن إحتكارها . إلا أن المسألة ليست كذلك — وهى فى الحقيقة مسألة  
مستحيلة إلى حد ما — حتى أن البورجوازية مازالت مفادحة . إن هذه المناغسة بين  
العمال ليس لها إلا حد واحد ، وهو ألا يعمل عامل بأقل مما يحتاجه للبقاء . فإن  
كان عليه أن يتضور جوعاً ، فالأفضل له أن يتضور جوعاً وهو عاطل عن أن  
يقع له ذلك وهو كادح . حتاً إن هذا الحد نسبى ، فإن فرداً ما يحتاج أكثر مما  
يحتاج الآخر . فالإنجليزى ، والذي ما يزال متحضراً بعض الشيء ، يحتاج أكثر  
من الأيرلندى الذى يرتدى الاسمال ، ويأكل البطاطس وينام فى زريبة خنازير .  
غير أن ذلك لا يمنع مناغسة الأيرلندى للإنجليزى ، وإجبار معدل الأجور ، ومعه  
المستوى الحضارى للإنجليزى ، إلى الانخفاض التدريجى إلى مستوى الأيرلندى .  
إن بعض أنواع العمل يحتاج إلى درجة معينة ، من التضرر ، وإلى هذه الأنواع  
من العمل تنقسم كل أشكال المهن الصناعية ، وبالتالي ، فإن مصلحة البورجوازية  
تقتضى فى مثل تلك الأحوال ، أن تكون الأجور عالية بالقدر الذى يمكن العامل  
من المحافظة على نفسه عند المستوى المطلوب .

إن الأيرلندى المهاجر حديثاً ، والذي يحط رحاله فى أول اسطبل ياتماه ، أو  
يلقى به إلى قارعة الطريق بعد أسبوع واحد ، حيث سيدنفق كل شيء على الشراب ،  
ويعجز عن دفع قيمة الإيجار ، هذا الأيرلندى المهاجر سيكون يداً صناعية فقيرة  
وبناء على ذلك فإن تلك اليد الصناعية يجب أن تقال من الأجر ، ما يكفى فقط ، لتكسيها  
من تقديم أبناءها إلى العمل المنتظم وليس أكثر من ذلك ، وإلا ففى وسع هذا  
الأيرلندى أن يواصل الحياة دون حاجة للإعتماد على أجور أبنائه ، وبالتالي يكون  
فى وسعه أن يصنع منهم شيئاً غير العمال . هنا أيضاً ، أقصى وأدنى أجر ، أمر  
نسبى . إذ عندما يعمل كل فرد من أفراد الأسرة ، فإن تقدم العامل الفرد يكون  
بنسبة أقل ، وتعمل البورجوازية على جعل قرص تشغيل النساء والأطفال التى  
يتيحها العمل الصناعى مربحة . ليس متاحاً لكل أسرة بالطبع ، أن يعمل كل  
أفرادها ، ويصبح من هم فى وضع مخالف لذلك فى حالة سيئة ، إن هم اضطروا  
للإستمرار بهذا الحد الأدنى من الأجر والنتاج لعائلة عاملة بكاملها . وبالتالي ،  
فإن الأجور العادية تشكل معدلاً تستمر العائلة التى يعمل كل أفرادها طبقاً له ،  
فى وضع حسن إلى حد ما ، أما العائلة التى تضم عدداً قليلاً من القادرين على العمل  
فإنها تستمر فى وضع سيء إلى حد ما . غير أن كل عامل ، فى أسوأ الأحوال

يفضل التخلي عن الجزئيات المترنة التي كان معتاداً عليها ، عن ألا يعيش على الإطلاق ، يفضل حيازة الخنازير ، عن مأوى بلا سقف ، يفضل إرتداء الاسمال عن السير عار بلا لباس ، يفضل أن يقتصر طعامه على البطاطس عن أن يتضور جوعاً . إنه يقنع نفسه بنصف أجر وأمل في أزمان أفضل ، عن أن يلقي به إلى الشارع ليهلك أمام أنظار العالم ، كما فعل الكثيرون ، الذين لم يكن لديهم أى عمل كان . وبناء عليه ، فإن هذه الجزئية ، هذا الشيء الذي لا يزيد عن لا شيء ، إنما هو أدنى الأجور . وإن حدث وكان هنالك عمال متوفرين في متناول اليد ، أكثر مما يلزم تشغيلهم كما تعتقد البورجوازية ، وإذ بقي في نهاية معركة المنافسة ، عمالاً لا يجدون ما يعملونه ، فما عليهم ببساطة إلا أن يتضوروا جوعاً ، فالبورجوازي لا يحتمل إعطائهم عملاً ، إن لم يكن في مقدوره أن يبيع ناتج عملهم ، بيعاً مربحاً .

من هذه الناحية يتضح ماهي أدنى الأجور . أما أقصى الأجور ، فإن ما يحددها ، هو المنافسة فيما بين البورجوازيين وبعضهم البعض . لأنهم يجب ، كما رأينا ، أن يتنافس كل منهم الآخر أيضاً . فالبورجوازي يستطيع تسمية رأسماله فقط من خلال التجارة والصناعة ، وفي كلا الحالتين هو محتاج إلى العمال . وحتى في حالة استثماره لرأسماله بالفائدة ، فإنه محتاج لهم بطريق غير مباشر ، لأنه بدون صناعة أو تجارة ، لن يدفع أحدهم فائدة عن رأسماله ، لأن أحداً لن يكون في وسعه استخدام هذا الرأسمال . لذا فإن البورجوازي بالتأكيد ، في حاجة إلى العمال ، حتى هذه الحاجة ليست خاصة بحياته المباشرة ، حيث في وسعه عند الحاجة أن يستهلك رأسماله ، لكنه محتاج إليهم كما نحتاج نحن إلى أدلة تجارية ، أو إلى دابة من دواب الحمل — إنه محتاج إليهم كوسيلة للربح . إن البروليتاريا تنتج السلع التي يبيعها البورجوازي فيحقق فائدة . ولذا فعندما يزيد الطلب على تلك السلع ، يوظف كل العمال المتنافسين ، بل ربما كان المزيد منهم أمراً يعود بالفائدة ، وهنا تتهاوى المنافسة بين العمال ، ويبدأ البورجوازيون أنفسهم منافسة بعضهم البعض . إن البورجوازي وهو يبحث عن العمال ، يعرف جيداً أن ربحه يزداد بارتفاع الأسعار ، نتيجة تزايد الطلب على سلعه له ، فيزيد من أجور العمال زياداً طفيفاً ، بدلاً من إفلات كل الربح منه . إنه يرسل الزيد ليحضر الجبن ، فإن حصل على الأخير ، ترك الزبد عن طيب خاطر للعمال . وهكذا يطارد رأسمالي بعد رأسمالي آخر العمال ، وترتفع الأجور ، ولكن إلى الحد الذي تسمح به زيادته

الطلب فقط . ولو حدث أن واحداً من الرأسماليين ضحى رغباً بجزء من ربحه غير العادى ، فوقع فى خيط التضحية بأى جزء من معدل ربحه العادى ، فإنه يحتاج بشدة حتى لا يدفع أزيد من معدل الأجور .

من هذا يمكننا تحديد معدل سرعة الأجور . ففي ظل الأحوال المتوسطة ، عندما لا يكون لدى العمال والرأسماليين سبباً للمنافسة ، وخاصة فيما بينهم ، عندما يكون هناك تقريباً ، العدد الكافى من العمال ، الموجودين فى متناول اليد ، والذين يمكن تشغيلهم فى إنتاج السلع المطلوبة بالضبط ، فإن الأجور تقف فوق مستوى أدنى الأجور بتأليل . ويتوقف المدى الذى يمكن أن ترتفعه عن أدنى الأجور ، على معدل الاحتياجات ، ودرجة تحضر العمال . فإن كان العمال معتادين أكل اللحم عدة مرات فى الأسبوع ، فعلى الرأسماليين أن يعدوا أنفسهم لدفع مرتبات تجعل هذا الطعام شديداً يمكن الحصول عليه ، وليس أقل من ذلك ، لأن العمال لا يناغسون بعضهم البعض وليس لديهم من باعث يقنعهم بذلك الأقل ، كما أنه لمن يكون أكثر من ذلك ، لأن الرأسماليين ، فى غياب المنافسة فيما بينهم ، ليس لديهم الباعث على جذب العمال ، بإعطاء هبات غير عادية .

إن معيار معدل الاحتياجات ، ومعدل تحضر العمال ، قد غدا معقدا للغاية ، بسبب تعقيدات الصناعة الإنجليزية ، وهو مختلف ، تبعاً لاختلاف أنواع العمال كما أشرنا آنفاً . إن معظم المهن الصناعية تحتاج إلى مهارة ونظام خاصين ، ومن أجل تلك الصفات التى تنطوى على درجة معينة من التحضر ، فإن معدل الأجور يجب أن يكون على نحو يجرى العامل باكتساب مثل تلك المهارة ، وأن يخضع نفسه لمثل ذلك النظام . ومن هنا ، فإن معدل أجور العمال الصناعيين أعلى من هؤلاء الذين يعملون فقط ، شيالين أو عمال باليومية ... الخ ، أعلى بوجه خاص من أجور العمال الزراعيين . إنها حقيقة تسهم فيها ، إلى حد ما ، التكلفة الإضافية لاحتياجات الحياة فى المدن . وفى كلمات أخرى ، فإن العامل ، قانوناً وفى الواقع ، عبيد للطبقة القابضة على زمام الملكية ، إنه بصورة حاسمة ، عبيد يباع مثل قطعة من بضاعة ، ترتفع قيمته وتنخفض مثل السلع . فإن زاد الطلب على العمال ، ارتفع سعر العمال ، وإن هبط ، هبطت أسعارهم ، وإن هبط إلى حد كبير ، وصار عدد منهم دون بيع ، لو تركوا كمخزون من البضاعة ، فإنهم ببساطة يتركون للبرالة ،

وبما أنهم لا يقدرّون على الحياة ، اعتماداً على ذلك الوضع ، فإنهم يموتون جوعاً .  
لأننا ، إن تحدثنا بلسان الإقتصاديين ، فإن النفقة المتكبدة لصيانتهم ، لن  
« تستعاد » . إنها نفود مهدرة ، وليس هنالك من رجل يقدم رأسماله ، ليصل  
إلى تلك النهاية ، وإلى هنا ، فإن نظرية « مالتس » عن السكان كانت صائبة تماماً .  
الفرق الوحيد ، إن قورنت بالنظرية القديمة لعبودية الصريحة ، أن عامل اليوم  
يبدو حراً ، لأنه لا يباع دفعة واحدة ، لكنه يباع قطعة قطعة ، أثناء اليوم  
والأسبوع والعام . وحيث لا يوجد مالك واحد يبيعه إلى مالك آخر ، فإنه مجبر  
على أن يبيع نفسه بهذه الطريقة البديلة ، إنه ليس عبداً لشخص بذاته ، لكنه عبد  
للطريقة القابضة على زمام الملكية كلها . الأمر بالنسبة إليه ، ثبات في القاع ، وإن  
كان هذا المظهر في الحرية يمنحه بالضرورة بعضاً من الاستقلال من ناحية ، فإنه في  
الناحية الأخرى يسبب له الضرر ، لأن أحداً لا يضمن له وجوده ، إنه في خطر  
أن تنكر له سيده البورجوازية في أي وقت ، ويترك للدوت جوعاً ، إن لم تجد  
البورجوازية منفعة لها في استخدامه ووجوده . والبورجوازية من ناحية أخرى ،  
أفضل حالاً إلى حد بعيد في ظل النظام الحالي عنه في ظل النظام العبودي القديم ،  
ففي وسعها أن تفصل باختيارها العاملين لديها ، دون التضحية برأسمال المستثمر ،  
وتتجنز عملها بطريقة أرخص بكثير مما لو كان العمل عبودياً ، كما أشار إلى ذلك  
« آدم سميث » مواسياً (\*) .

ومن ثم ، فإن « آدم سميث » بناء على ذلك ، كان مصيباً تماماً في تصريحه :-

« إن الطالب على الرجال ، يشابه ذلك الذي على أي سلعة أخرى ، إنه ينظم

(\*) « آدم سميث » « ثروة الأمم » طبعة ١ . ماك كولوك ، في بلد واحد ، قسم A ،  
صفحة ٣٦ . « لقد قيل ، إن استهلاك العبد ، إنما يتم على حساب سنده ، ولكن استهلاك  
الخادم الحر ، يتم على حسابه الخاص . إن استهلاك الأخير في الحقيقة ، إنما يتم على حساب سيده .  
بنفس القدر الذي كان عليه السيد السابق . أن الأجور التي تدفع إلى العاملين باليومية والخدم  
من كل نوع ، يجب أن تكون بالقدر الذي يمكنهم من استمرار سلالة لأحراء المياومة  
والخدم طبقاً لاحتياج المجتمع بالزيادة أو النقصان ، أو وجود حالة من السكون . ورغم أن  
استهلاك الخادم سيكون بالمثل على حساب سيده ، إلا أنه بشكل عام ، يكافئه أقل بكثير من  
تكلفة العبد ، إن المال المخصص لاستبدال أو ترميم استهلاك العبد ، أن جاز لي القول ، أن  
هو مال يديره عادة ، سيد مهمل أو ملاحظ لا مبالي » .

بالضرورة إنتاج الرجال ، إنه يستعجله إن مضى في بطيء شديد ، ويوقفه إن تقدم في سرعة شديدة .

تماماً ، كما الأمر في حالة أية سلع أخرى ! إذ لو كان هنالك عدد قليل جداً من العمال في متناول اليد ، فإن الأسعار والأجور ترتفع ، ويغدو العمال أكثر يسراً ، فتتكاثر الزيجات ، ويولد المزيد من الأطفال ، ويزداد نمو الحياة ، حتى يضمن عدد كاف من العمال . وإن كان هنالك الكثير جداً منهم في متناول اليد ، فإن الأسعار تهبط ، وترتفع الحاجة للعمل ، والفقر والمجاعة والأمراض التي تلي ذلك ، ويزاح من الطريق « فائض السكان » . ويكون « مالتس » الذي حمل رأى « سميث » سالف الذكر إلى مدى أبعد ، على صواب أيضاً — على طريقته — في إعلان إن هنالك على الدوام فائضاً في السكان ، بأن هنالك على الدوام أناساً كثيرين جداً في العالم . لقد كان مخطئاً فقط ، عندما صرح بأن هنالك في متناول اليد ، أناساً أكثر مما يمكن الإبقاء عليهم بوسائل الوجود المتاحة . إن فائض السكان قد وجد ، بسبب منافسة العمال لبعضهم البعض ، تلك المنافسة التي تفرض على كل عامل بمفرده ، أن يعمل يومياً بأقصى ما يمكن أن تسمح به قوته . إذ لو كان في وسع صاحب مصنع أن يشغل عشرة أيدي تسع ساعات في اليوم ، ففي وسعه أن يشغل تسع عمال إذا اشتغل كل واحد منهم عشر ساعات ، وبذا يمضي العاشر جائعاً . وإذا استطاع صاحب المصنع أن يجبر التسع عمال على العمل يومياً ساعة إضافية بنفس الأجر ، وذلك بتهديدهم بالفصل في وقت لا يوجد فيه طلب كبير على الأيدي العاملة ، فإنه سيطرد اليد العاملة ، وبذا يوفر كثيراً من الأجور ، تلك هي العملية على نطاق ضيق ، وهي التي تمارس في الأمة على نطاق واسع . إن ارتفاع إنتاجية كل يد إلى أعلى قد يسبب منافسة العمال لبعضهم البعض ، وتقسيم العمل ، وإدخال الآلة ، وتطوير قوى الطبيعة ، قد حرم العديد من العمال من الخبز . ثم يزاح هؤلاء العمال الجوعى من السوق . إنهم لا يستطيعون شراء أى شيء ، ولم تعد تطلب كمية السلع الاستهلاكية التي كانوا يحتاجونها من قبل ، وبالتالي لم تعد هنالك حاجة لإنتاجها ، وحينئذ يطردهم العمال الذين كانوا يعملون في إنتاجها ، وكذا يزاحون من السوق أيضاً . هكذا تسير الأمور ، دائماً نفس الدورة القديمة ، أو أنها بالآخرى تسير هكذا ما لم تتدخل عوامل أخرى .



إن إدخال القوى الصناعية التي أشرنا إليها من قبل لزيادة الإنتاج ، تؤدي مع مجرى الزمن ، إلى انخفاض أسعار السلع المنتجة ، وبالتالي إلى زيادة الاستهلاك ، وبذا فإن جزءاً كبيراً من العمال المشردين ، يجد بعد طول معاناة ، عملاً مرة أخرى . وإن حدث بالإضافة إلى ذلك ، أن عملية قهر الأسواق على نحو دائم وسريع ، قد أدت إلى زيادة الطلب على السلع المصنوعة ، كما كان الحال في إنجلترا خلال الستين عاماً الماضية ، فإن الطلب على الأيدي العاملة يزداد ، كما يزداد السكان في تناسب مع ذلك . وبذا بدلاً من التناقص في عدد سكان الإمبراطورية البريطانية فإن العدد قد ازداد ، وبسرعة غير عادية . ومع ذلك ، ورغم إتساع الصناعة ورغم إزدياد الطلب على العمال بشكل عام ، فإنه يوجد طبقاً لاعتراك كل الأحزاب السياسية الرسمية (حزب المحافظين ، حزب الأحرار ، والراديكاليين) فائضاً دائماً أزيد من حاجة السكان ، ذلك إن المنافسة بين العمال أشد دوماً ، من المنافسة لتأمين العمال .

من أين يأتي عدم التطابق هذا ؟ إنه يكمن في طبيعة المنافسة الصناعية ، والأزمات التجارية التي تنبع منها . ففي ظل الإنتاج الحالى غير المنظم ، وتوزيع ضرورات العيش بطريقة غير منظمة ، وهى لا تنتج مباشرة من استهداف المحرص على سد الاحتياجات ، ولكن من استهداف الربح ، في ظل نظام يعمل كل من فيه من أجل نفسه بهدف إثراء نفسه ، فإن الاضطرابات التي لا مفر عنها تنشأ في كل لحظة . مثلاً ، تقوم إنجلترا بمد عدد من البلدان بأكثر السلع تبايناً ، ورغم أن رجل الصناعة يعرف كم يستهلك سنوياً من كل سلعة في كل بلد ، فإنه لا يستطيع معرفة ما هو موجود تحت يده في كل لحظة معينة ، بل والذي يعرفه أقل من ذلك ، هو الكمية التي يصدرها منافسوه إلى هناك . إنه قادر فقط على استنتاج استدلالات بعيدة عن اليقين إلى حد كبير ، من خلال تقلبات الأسعار التي لا تنتهى ، بسبب الكميات الموجودة تحت يده ، واحتياجات اللحظة . يجب أن يركن إلى الحظ عند تصدير سلعة ما . كل شيء يتم بطريقة عشوائية ، عمل قائم على التخمين وتحت رحمة الصدفة على وجه التحديد . إن كل مصدر قدر ما يستطيع عند ورود تقرير موات إلى حد ما ، وقبل مضي كثير وقت يكون مثل هذا السوق قد اكتظ ، فتتقف المبيعات ، وينزل رأس المال خاملاً ، وتهبط الأسعار ،

ولا يصبح لدى الصناعة البريطانية مزيداً من التشنيل لأيديها العاملة . كانت تلك الصدمات قاصرة في بداية التطور الصناعي على فروع منفردة وأسواق منفردة ، إلا أن الميل إلى مركزة المنافسة ، والذي يدفع بالأيدي المطرودة من فرع ما إلى بعض الفروع الأخرى التي يمكن الانتقال إليها في سهرة أكبر ، وتتمثل السلع التي لا يستطيع تصريفها في سوق ما إلى أسواق أخرى ، قد قرب الأزمات الثانوية المنفردة من بعضها البعض بالتدريج ، ووجدنا في أزمة واحدة دورية متكررة . إن مثل تلك الأزمة ، تتكرر مرة كل خمس سنوات ، بعد مرحلة قصيرة من النشاط والإزدهار العام ، ويكتظ السوق الوطني ، مثله في ذلك مثل كل الأسواق الأجنبية ، بالمنتجات الانجليزية التي لا يمكن امتصاصها إلا في بطن فقط ، وتصل الحركة الصناعية إلى ركود في كل فرع تترىباً ، ويستط أصحاب المصانع والتجار الصغار ، الذين لا يستطيعون امتداد تجدد رأسمالهم المستثمر ، ويعطل الكبار منهم أعمالهم أثناء أسوأ موسم ، إنهم يخلتجون مصانعهم ، أو يعملون وقتاً قصيراً ، ربما نصف يوم ، وتهبط الأجور بسبب منافسة التطلين وإتصاص وقت العمل وانتقاد المبيعات الربحة ، وتصبح الحاجة عامة بين العمال ، وتستهلك في سرعة المدخرات المحدودة التي كونها الأفراء ، وتتحمل المؤسسات الخيرية فوق طاقتها ، وتتضاعف معدلات الفقراء مشي وثلاثة ، والعدد ما يزال غير كاف ، ويزداد عدد اللذين يتضورون جوعاً ، ويضغظ الحشد الكلي « لفائض » السكان في أعداد مخيفة ليبرز إلى مقدمة الصورة . وتستمر هذه الحالة لفترة ما ، ويظل هذا « الفائض » قدر ما يستطيع أو يهلك . وتساعد الأعمال الخيرية و « قانون الفقراء » على إطالة البقاء الأولم للكثيرين منهم . ويجد آخرون وسائل محدودة للعيش هنا وهناك ، في بعض أنواع العمل المطروحة للمنافسة في أدنى صورها ، وهي الأكثر بعداً عن الصناعة ، أي قدر زهيد يمكن أن يحافظ به الإنسان ، لزمن ما ، على الجسد والروح معاً ثم تتحسن الأحوال بالتدريج ، وتستهلك أكداً السلع ، ويحول الكساد العام بين رجال التجارة والصناعة من إشباع الأسواق بسرعة شديدة . وأخيراً تبدأ الأسعار في الصعود ، ويتجدد النشاط بوصول تقارير موالية من كل الجهات . إن معظم الأسواق بعيدة ، وهي تطلب المزيد ، وترتفع الأسعار بثبات بينما تصل الصادرات الأولى ، ويمتثل الناس من أجل السلع الأولى ، وتنعش

المبيعات الأولى التجارة أيضاً على نحو أكثر ، والبضائع الرائجة تبشر أيضاً بأسعار أعلى ، وأمام توقع المزيد من الإرتفاع ، يبدأ التجار في الشراء بهدف المضاربة . وهكذا يبدأون في سحب سلع مينة من الاستهلاك ، في الوقت الذي تكون الحاجة إليها على أشدها ، وتفرض المضاربة على الأسعار مزيداً من الإرتفاع ، وذلك بتشويق وحث آخرين على شراء وامتلاك بضائع مستوردة جديدة فوراً . كل هذا تعمل به تقارير إلى إنجلترا ، ويبدأ رجال الصناعة في الإنتاج بعزم ، فتقام مصانع أخرى وتوظف كل الوسائل للاستفادة إلى أقصى حد بتلك اللحظة المواتية . وترتفع المضاربة هنا أيضاً ، باذلة نفس تأثيرها على الأسواق الأجنبية ، رافعة الأسعار ، ساحبة البضائع من الاستهلاك ، مستحثة الصناعة في كلا الطرفين إلى قمة الجهد . ثم يأتي المضاربون المخامرون الذين يعملون برأسمال وهمي ، يعيشون على حسن السمعة ، ويصيدهم الدمار إن لم يبيعوا في سرعة ، إنهم يلتقون بأنفسهم في هذا السباق العام المضطرب من أجل الأرباح ، يضاعفون الاضطراب ، تدفعهم حذتهم الجامحة إلى سوق الأسعار والإنتاج إلى الجنون . إنه صراع مسعور ، يحرق معه حتى أكثرهم دربة وهدوء أعصاب ، السلع تخزل ، تنسج ، تطرق ، وكأن البشرية كلها يجب أن تجهز من جديد ، وكأنه قد تم إكتشاف ألفا مليون من الزبائن الجدد في القمر . ويبدأ المضاربون المزغزون في الخارج ، والذين يجب أن يحصلوا على نفوذ في البيع دفعة واحدة بأقل من سعر السوق ، فحاجتهم ملحة ، ويبيع يتلوه مبيعات أخرى ، وتطلب الأسعار ، ويلقى المضاربون ببضائعهم إلى السوق في ذعر ، ويضطرب السوق ، وتهتز السمعة ، ويتوقف بيت بعد آخر عن الدفع ، وإفلاس يليه إفلاس ، ويتم إكتشاف أن السلع المعروضة أو التي في طريقها للعرض تفوق ثلاث مرات ما يمكن إستهلاكه . وتصل الأنباء إلى إنجلترا ، حيث الإنتاج يسير في تلك الأثناء بأقصى سرعة ، ويمسك الهلع بكل الأيدي ، والإفلاسات في الخارج تسبب إفلاسات أخرى في إنجلترا ، ويسحق الهلع عدداً من البيوت التجارية ، وتلقى في لحظة الجزع بكل الإحتياطات إلى السوق هنا أيضاً ، والإنذار بالخطر ما يزال هائلاً أيضاً . تلك هي بداية الأزمة ، وهي ستأخذ حينئذ نفس المسار الذي سلكته الأزمة التي سبقتها بالضبط ، وتفسح بدورها مكاناً لموسم من الرخاء وهكذا تمضي دائماً — رخاء ، أزمة ، رخاء ، أزمة ، وهذه الدورة الدائمة التي تتحرك فيها الصناعة

الإنجليزية ، كما لاحظنا آنفاً ، تكتمل عادة خلال خمس أو ست سنين في كل مرة .

يتضح من هذا ، أن الصناعة الإنجليزية يجب أن يكون لديها في كل الأوقات ، ما عدا الفترات القصيرة التي يكون فيها الرخاء في قمته ، جيش احتياطي من العمال العاطلين ، حتى يمكنها أن تنتج الكميات الكبيرة من البضائع التي يطلبها السوق في أكثر الشهور حيوية ، ويكبر هذا الجيش الإحتياطي أو يصغر ، طبقاً لما توجهه حالة السوق من توظيف أقسام أكبر أو أقل من أفرادها . وإن قامت المناطق الزراعية وأيرلندة ، والفروع التي تأثرت أقل بالتأثر بالرخاء العام ، بإمداد الصناعة بصورة مؤقتة بعدد من العمال ، في الوقت الذي يبلغ فيه السوق أعلى درجات نشاطه ، فإن هؤلاء ليسوا غير أقلية ، وهم أيضاً ينتمون إلى جيش الإحتياطي مع فارق واحد ، هو أن رخاء اللحظة كان مطلوباً للكشف عن علاقتهم بها . وعندما يدخل هؤلاء في أكثر فروع العمل نشاطاً ، فإن مستخدميهم السابقين يتقاعصون بعض الشيء حتى يخفون من وقع الخسارة ، إنهم يعملون ساعات أطول ويوظفون النساء والعمال الأصغر سناً ، وعندما يعود الجوالون اللذين طردوا عند بداية الأزمة ، يجدون أن أماكنهم قد شغلت وأنهم قد غدوا أزيد مما يلزم — ذلك يحدث في غالب الأحوال على الأقل . هذا الجيش الإحتياطي الذي يشتمل على حشد ضخم خلال الأزمة ، وعلى عدد كبير خلال الفترة التي يمكن إعتبارها كمعدل بين أعلى الرخاء والأزمة ، هو « فائض السكان » في إنجلترا ، وهو الذي يحافظ على جسده وروحه ، بالتسول والسرقة وكنس الشوارع وجمع السباخ ودفع عربات اليد وقيادة الحمير والعمل كبائعة جائلين ، أو يقومون بأعمال وقتية صغيرة . إنه يمكن العثور على حشد من مثل هؤلاء الناس في كل مدينة كبيرة . إن الحيل التي يلجأ إليها هذا « الفائض السكاني » ليوفر لنفسه مأوى ، مسألة تشير الحيرة . إن كناسي تقاطع الشوارع في لندن معروفين في كل أنحاء العالم ، غير أن الشوارع الرئيسية ، وكذا التقاطعات في كل المدن الكبرى ، يتم كنسها بواسطة أناس تعطلوا من أعمال أخرى ، ووظفوا في تلك الوظيفة عن طريق القائمين على « قانون الفقراء » أو سلطات المجالس البلدية المختصة . وأياً كان الأمر ، فقد تم الآن إختراع آلة تجلجل عبر الشوارع ، وبذا سلبت مصدر الدخل هذا من

العاملين . ويمكن رؤية عدد كبير من الناس بعربات صغيرة ، على امتداد الطرق الرئيسية التي تتود إلى المدن والتي تموج بحركة مرور عربات النقل ، يقومون بجمع روث الخيل الطازج مخاطرهم بحياتهم وسط المركبات والحافلات ، وغالباً ما يدفعون شائنين أسبوعياً للسلطات في مقابل هذا الإمتياز . إلا أن هذه المهنة متنوعة في أماكن عدة ، حيث أن قمامة الشارع العادية ، وهي على هذا الحال من الإجداب ، لا يمكن بيعها كسماد . إن هؤلاء الذين في « الفائص » لسعداء ، إن هم تمكنوا من الحصول على عربة يد . وأسعد منهم هؤلاء الذين حظوا بامتلاك حمار إلى جانب العربة . ويجب أن ينال الحمار طعامه أو يعطى قليلاً من الفضلات التي يتم جمعها ، ومع ذلك فإنه لا يجلب إلا الزهيد من المتود . إن غالبية « الفائص » يعتمدون إلى العمل كباعة جائلين . ويمكن رؤية ذلك الحشد الذي يحمل كسريجة وبائعة جائلين في أصيل أيام السبت عندما يخرج كل العمال إلى الشوارع ، حيث يعرض الرجال والنساء والأطفال الأحذية والكورسيئات الدانتيل والمشدات والدوبار والكعك والبرتقال وكل أنواع السلع الصغيرة . كما يرى أمثال هؤلاء الباعة السريجة في أوقات أخرى أيضاً والتفنين عند نواصي الشوارع ، أو متجولين ومعهم الكحك وبيرة الزنجبيل وحشيشة القريص \* . كما توجد أبواب رزق أخرى لمثل هؤلاء الباعة ، كالكبريت وأشياء مثل الشمع الأحمر ومخاليط مسجلة للألأاب النارية البراقة . وهناك آخرون يدعون بالمياومين ، يجوبون الشوارع بحثاً عن أعمال صغيرة ، وينجح الكثيرون منهم في الحصول على عمل ليوم واحد ، كما أن الكثيرين منهم أيضاً ليس لديهم مثل هذا القدر من الحظ .

يقول واعظ الايست الاند الميجل « و . شامينيس » « أن مئات الفقراء يظهرون كل صباح في الشتاء قبل طلوع النهار ، أمام بوابات مرافئ لندن ، على أمل أن يجدوا عملاً لليوم . إنهم يستخدمون فتحة البوابات ، وعندما يستخدم

---

(\*) مشروبات من المياه الغازية ، الأول مصنوع من الماء والسكر وبعض الزنجبيل ، والثاني مصنوع من الماء والسكر والقريص . وهي مشروبات محبوبة للغاية من العمال ، وخاصة الممتنعين عن تعاطي المسكرات ( ملحوظة في الطبعة الألمانية ) .



الأكثر شباباً والأكثر قوة والأفضل معرفة ، فإن المئات يهودون إلى منازلهم  
لللعينة وقد كسرت خيبة الأمل خاطرهم ، (١).

ماذا يبقى لهؤلاء الناس الذين لا يجدون عملاً والذين لن يثوروا ضد المجتمع ،  
غير التسول ؟ ليس في وسع كل امرئ ، بالتأكيد ، أن يتجول ضمن جيش  
الشحاذين الكبير هذا ، إن غالبيتهم من الرجال أقوياء الأجسام ، والذين تخوض  
الشرطة معهم حرباً متصلة . غير أن تسول هؤلاء الرجال يتميز بصفة خاصة .  
إن مثل هذا الرجل ، يتجول عادة هو وأسرته ، يغنى في الشوارع أغنية استعطاف ،  
أو ياجأ إلى الكلمة يخاطب بها أريحية المارة . وما يلفت الأنظار حقيقة ، أن  
هؤلاء المتسولين غالباً ما يرون في الأحياء العمالية ، حتى أنهم يكادوا أن يعيدشوا  
بالكامل على عطايا الفقراء . أو أن تتخذ العائلة موقعاً لها في أحد الشوارع المزدهمة  
وتجعل من منظر عجزها نقط ، دون أن تتفوه بكلمة ، سبيلاً يستجدي عطف الناس  
عليها . وهي تعتمد في مثل تلك الحالة أيضاً ، على تعاطف العمال وحدهم ، هؤلاء  
الذين يعرفون من وائع خبرتهم ، معنى الشعور بالجوع ، كما أنهم معرضين في أية  
لحظة ، لأن يجدوا أنفسهم في نفس الحالة . من هنا كان هذا الوجود الأخرس  
المفرد في غالب الأحيان ، والذي يشير الشفقة إلى أبعد حد ، في مثل تلك الشوارع  
التي يرتادها العمال ، وفي الأوقات التي يمر فيها العمال . إلا أن ذلك غالباً ما يحدث  
في أمسيات السبت ، عندما تتكشف بشكل عام « أسرار » الأحياء العمالية ،  
وتنسحب الطبقة السطحية بعيداً فدر ما تستطيع ، عن ذلك الحى الذى أصابه  
التلوث . أما ذلك الذى يشكل جزء من « الفئاض » ، ويملك من الشجاعة  
والغضب ، ما يكفي لمقاومة المجتمع علناً ، للرد على الرد البورجوازي ، بحرب  
معلنة ضدها ، في مواجهة الحرب الخفية التي تشنها ضده ، فإنه يضى قدماً يسرق  
ويسلب ويقتل ويحرق !

ويرجع من هذا الفئاض السكان في المتوسط ، في إنجلترا وويلز ، مليون  
ونصف المليون ، وذلك طبقاً لما جاء في تقارير « أمناء قانون الفتمراء » ، غير أنه  
لم يتم التحقق من عددهم في اسكتلندا ، وذلك بسبب افتقاد قواعد « قانون الفتمراء »  
أما عن أيرلندا فأنا ستة أوها على حدة . يضاهي إلى ذلك ، أن هذا المليون والنصف

يشتمل فقط على هؤلاء الذين قدموا بالفعل طلب معونة الأبرشية ، وهو لا يتضمن هذا الحشد الضخم الذي يجاهد دون الإلتجاء إلى هذا الملاذ الكريه أتصى حدود الكراهية . ومن ناحية أخرى ، فإن جزء كبيراً من هذا الرقم ينتمى إلى المناطق الزراعية ولا يدخل ضمن المناقشة الحالية . وبالطبع فإن هذا الرقم يرتفع في الأزمات بصورة ماحوظة ، وتبلغ الحاجة أعلى ذراها . ولناخذ مثلاً أزمة عام ١٨٤٢ ، وهي التي كانت أعنف أزمة ، لأنها كانت آخر أزمة ، حيث أن حدة الأزمة تزداد بتكرارها ، والأزمة التالية المتوقعة لها ألا تتأخر عن عام ١٨٤٧ \* ، ستكون على الأرجح أكثر حدة وأطول مدة . خلال تلك الأزمة بلغت ضرائب الفتراء ارتفاعاً لم يعرف من قبل . وفى « ستوك بورت » ، ومدن أخرى ، كان لابد من دفع ثمانى شلنات ضريبة فقراء ، عن كل جنيه مدفوعاً إيجاراً لمنزل ما ، وبذا شكت الضريبة وحدثا أربعين فى المائة من إيجار المنزل ، فضلاً عن ذلك ، فإن شوارع بكاملها وقفت خالية ، حتى أن عدد السكان قد نقص على الأقل عشرون ألف عن المعتاد ، وكان من الممكن قراءة لافتات على أبواب النازل الخالية تقول « ستوك بورت ، للإيجار » . وفى « بولتون » انخفض معدل الإيجارات التي يدفع عنها ضرائب إلى ٢٦.٠٠٠ جنياً استرلينياً ، فى حين أنها كانت تبلغ فى السنوات العادية ، ٨٦.٠٠٠ جنياً استرلينياً . وفى الناحية الأخرى ، إرتفع عدد الفتراء الذين يجب إعالتهم إلى ١٤.٠٠٠ ، أى مايزيد عن ٢٠ ٪ من عدد السكان . وفى « ليدز » ، كان لدى القائمين على « قانون الفتراء » اعتماداً احتياطياً يبلغ ١٠.٠٠٠ جنياً استرلينياً . وقد استهلك هذا المبلغ بالإضافة إلى إعانة قدرها ٧.٠٠٠ جنياً استهلاكاً تاماً قبل أن تبلغ الأزمة ذروتها . وهكذا كان الحال فى كل مكان . كتبت لجنة « الجمعية المعادية لتانون — التمسح » تقريراً فى يناير ١٨٤٣ ، عن حالة المناطق العمالية عام ١٨٤٢ ، من وائى بيانات تفصيلية لأصحاب المصانع ، يؤكد هذا التقرير أن ضريبة الفقراء قد بلغت فى المتوسط ضعف ما كانت عليه عام ١٨٣٩ ، وأن عدد الأشخاص الذين يطلبون معونة قد تضاعف ثلاث مرات ، وحتى خمس مرات منذ ذلك الحين ، وأن حشداً من متدعى الطلبات ، ينتمون إلى طبقة لم يسبق لها أبداً أن التمسست المعونة ، وأن

(\*) وقد جاءت بالفعل عام ١٨٤٧ .

ما تناله الطبقة العاملة حالياً من ضرورات الحياة ، إنما يتل عما كانت تناله فيما بين عامى ١٨٣٤ — ١٨٢٦ ، بما يزيد عن الثلثين ، وأن استهلاك المحم قد نقص بالمقاييس بنسبة ٢ ٪ فى بعض المناطق ، وفى مناطق أخرى تنقص الاستهلاك إلى ٦ ٪ ، وحتى الحرفيين من حدادين وبنائى القرميد وآخرين ، وهم الذين كانوا يجدون على الدوام عملاً متصلاً فى أشد الفترات هبوطاً ، يعانون الآن كثيراً من الحاجة إلى العمل وانخفاض الأجور . إن الأجور الآن فى يناير ١٨٤٣ مازالت تنخفض بالجراد . تلك هى تمارير أصحاب المصانع ! إن العمال الذين يتضورون جوعاً ، العمال الذين تعطلت مصانعهم ، والذين يعجز مستخدموهم عن إعطائهم أى عمل ، يقفون فى الشوارع ، فى كل الأماكن ، ينسولون فرادى أو فى حشود ، تحاصر جيوشهم الأرضية ، يستجدون النارة العون والمساعدة . إنهم لا ينسولون فى مسكنة كما يفعل الشحاذون العاديون ، لكنهم يهددون باعدائهم وحركانهم وكلبانهم أيضاً . كانت تلك هى الحالة التى وصلت إليها الأوضاع فى المناطق الصناعية ، من « ليدستر » إلى « ايدز » ، ومن « مانشستر » إلى « بيرمينغهام » . وفى شهر يونيو قامت الإضرابات هنا وهناك ، كما حدث فى مصانع الفخار فى « ستافورد شاير » . لقد سادت بين العمال أشد أعمال الهياج إثارة للفرع ، ثم اندلع العصيان فى أغسطس فى الأحياء العمالية . وعندما وصلت إلى « مانشستر » فى نوفمبر ١٨٤٢ ، وجدت عند كل ركن من أركان الشوارع حشوداً من العمال العاطلين ، ووجدت أن العديد من المصانع ما تزال تقف عاجلة . وخلال الأشهر التالية ، اختفى المنسكعين المتدمرين وعانت المصانع لذئالها مرة أخرى .

إننى لست فى حاجة لوصف المدى الذى سادت به الحاجة والامانة بين هؤلاء العاطلين خلال تلك الأزمة . إن ضرائب الفقراء غير كافية ، غير كافية إلى حد جد بعيد ، وأعمال البر التى يقوم بها الأغنياء ، إنما هى قطرة مطر فى محيط ، إنها تضيع لحظة ستموطها . إن التسول لا يمكن أن يكفل إلا القليل من بين تلك الحشود . وإن لم يبيع صغار التجار بالنسيئة للعمال فى مثل تلك الأحوال لا طول فترة ممكنة — مع الإقرار بأن يدفعوا بأنفسهم وبحريتهم ما عليهم — وإن لم يساعد العمال بعضهم البعض ، فإن كل أزمة ، ستزج حشداً من هذا القائض عن

طريق الموت جوعاً . وعلى أى حال ، فإن الفترة التى يكون فيها المهبوط على أشده قصيرة ، إنها تدوم فى أسوأ الأحوال عاماً أو عامين أو عامين ونصف ، ومن ثم فإن أغلبهم يخلص منها بحياته بعد حرمان رهيب ، لكن قد أصيب بالمرض بشكل غير مباشر ... الخ . إن كل أزمة تجد لها حشداً من الضحايا كما ترى . لكن كيفما كان الحال ، دعونا أولاً نرجع إلى سبب آخر للإنحطاط الذى يتعرض له العامل الإنجليزى ، سبب دائم المعالية فى إكراه الطبقة كلها على الإنحدار .

## الهجرة الأيرلندية

لقد أشرنا آنفاً عدة مرات ، إلى الهجرة الأيرلندية إلى إنجلترا ، وعلينا الآن أن نتحرى عن قرب أكثر أسباب ونتائج تلك الهجرة .

ما كان من الممكن للصناعة الإنجليزية في إنجلترا ، أن تتوسع هذا التوسع السريع ، ما لم يكن لديها من سكان إيرلندا العديدين والمعوزين احتياطياً تحت الطلب . إن الأيرلنديين ليس لديهم في وطنهم ما يفقدوه ، كما أن لديهم في إنجلترا الكثير الذي يربحونه ، ومن أرقفت الذي غدا معروفاً فيه في إيرلندا ، أن الجانب الشرقي لقنال « سانت جورج » ، يقدم عملاً ثابتاً ويدفع أجراً طيباً للسواعد القوية ، فإن كل عام كان يجلب معه جيوشاً من الأيرلنديين إلى هنا . لقد أحصى ما يزيد عن المليون مهاجر ، وليس هنالك أقل من خمسين ألفاً ما زالوا يحضرون كل عام . إن جميعهم على وجه التقريب ، يدخلون المناطق الصناعية وخاصة المدن الكبرى ، حيث يشكلون هنالك أدنى طبقة من السكان . وهكذا أصبح هنالك ١٢٠,٠٠٠ في لندن ، ٤٠,٠٠٠ في « مانشستر » ، ٣٤,٠٠٠ في « ليفربول » ، ٢٤,٠٠٠ في « بريستول » ، ٤٠,٠٠٠ في « جلاسجو » ، ٢٩,٠٠٠ في « إدينبورج » من الرعايا الأيرلنديين الفقراء \* . لقد شب هؤلاء الأيرلنديين دون تحضر تقريباً ، كما اعتادوا منذ حداثتهم كل صنوف الحرمان ، إنهم خشنين شرسين ومبذرين ، ولقد جلبوا معهم كل عاداتهم الوحشية إلى قلب طبقة من السكان

---

(\*) أرشيبالد أليسون « مبادئ السكان وعلاقتها بسمعة البشر » ، ١٨٤٠ في جزئين ، إن هذا « الأليسون » هو مؤرخ الثورة الفرنسية ، وهو مثل أخيه ، دكتور و . ب . أليسون ، عضو متدين بحزب المحافظين .



الإنجليز ، طبقة لديها في الحقيقة باعاً جزئياً للحرص على التعليم والاخلاق .  
دعونا نسمع « توماس كارليل ، وهو يتحدث في هذا الموضوع » .

« إن السمات المييزية ، الهمجية ، تلك التي تعطى مظهراً زائفاً بالمهارة ، بالقلق واللامعقول ، بالتعاسة والزراية ، تطالعك في كل الطرق العامة والجانبية . إن سائق المركبة الانجليزي ، يضرب « المييزي » بسوطه ، يلعبه بلسانه وهو يمضي مسرعاً ، بينما « المييزي » يمسك بقبعته مستجدياً . إنه اللعنة الموجهة التي يتوجب على هذا البلد أن يكافحها ، إنه هنا في أسماه وضحكته الهمجية ، يقوم بكل الأعمال التي تحتاج لقوة اليد والظهر المجردة ، بأجور قادرة على أن تشتري له البطاطس . إنه يحتاج للملح فقط كهارات ، إنه يأوى طبقاً لإدراكه إلى أي قفص مخصص للخنازير أو صندوق مخصص للكلاب . إنه يبني في المرحاض الخارجي ، ويرتدي بزة من مزق ، الدخول فيها والخروج منها عملية عسيرة ، إنها تستخدم فقط في الأعياد والمواسم ، والرجل الاسكتلندي إن لم يكن في وسعه أن يعمل طبقاً لهذه الشروط ، فإنه لن يجد عملاً . إن الايرلندي غير المتحضر ، يطرد الموانع الاسكتلندي ويأخذ مكانه ، إن ذلك لا يحدث باستخدام القوة ولكن على العكس من ذلك . إنه يقبع هنالك في بؤسه ولا معنوية ، في زيفه وعنفه الخجور ، مثل نواة جاهزة بالفعل للانحطاط والفوضى . وأياً كانت المشقة التي يسبب بها ذلك الذي يتأوم ، فإنه سيجد الآن مثلاً كيفية بقاء الإنسان غارقاً لا سابحاً ، كما سيجد أن حالة الجمهرة الدنيا من العمال الإنجليز تقترب أكثر فأكثر من حالة الايرلنديين ، منافسة إياهم في كل الأسواق ، وأنه أياً كان العمل الذي يمكن أن تنفي به مجرد القوة مع قليل من المهارة ، فإن هذا العمل سينجز ، سينجز ليس طبقاً للسعر الإنجليزي ، ولكن أقرب للسعر للايرلندي ، إنه ما يزال أعلى من ذلك الايرلندي ، أعلى لندرة البطاطس ثلاثين أسبوعاً في العام ، لكنه في كل ساعة ، ومع وصول كل قارب تجاري جديد ، يهبط مقارباً للتساوي مع ذلك الايرلندي .

إننا لو استثنينا مبالغته وإدانتته أحادية الجانب للسمة القومية الايرلندية ، فإن « كارليل » محق تماماً . إن هؤلاء الرجال الايرلنديين المهاجرين إلى إنجلترا من

أجل أربع بنسات ، هؤلاء القادمين على سطح سفينة تجارية ، محمولين في الغالب على ظهرها كقطيع من الماشية ، يدسون أنفسهم في كل مكان . إن أسوأ المساكن تلائمهم تمام الملائمة ، كما أن ملابسهم لا يسبب لهم من المتاعب إلا قليلاً طاماً ما يزال به خيط واحد يمسكه ببعضه البعض ، أما عن الأحذية فلا معرفة لهم بها ، وغداؤهم من البطاطس والبطاطس فقط ، وأي كسب يتجاوز تلك الاحتياجات يقومون بإنفاقه على الشراب ، ماذا تريد مثل هذه السلالة من الأجور العالية ؟ إن الإيرلنديين هم سكان أسوأ الأحياء في كل المدن الكبرى . وإن تميز حتى بقذارة خاصة ودوار خاص ، ففي وسع المستكشف أن يكون على ثقة ، وهو آمن على نحو ما ، من أنه سيلتقي أساساً مع تلك الوجوه الكلتية ، والتي يمكن للمرء أن يعرفها من أول وهلة ، كشيء مختلف عن السحنة السكسونية لابن البلد ، كذا غنائهم الأجنبي الصادر من الحلق ، والذي يتفوق فيه الإيرلندي الحقيقي تفوقاً تاماً . لقد سمعت اللغة الإيرلندية — الكلتية ينطق بها أحياناً في أشد الأجزاء كثافة بالسكان في « مانشستر » . إن غالبية الأسر التي تسكن الأقضية في كل مكان تكاد تكون أسراً إيرلندية . إن الإيرلنديين في إنجلترا ، كما يقول « دكتور كاي » ، قد اكتشفوا أقل الاحتياجات اللازمة للحياة ، وهم بسبيلهم الآن كي يجعلوا النعماء الإنجليز يلون بها . لقد جلبوا معهم القذارة وإدمان الخمر أيضاً . إن افتقاد النظافة ، والذي هو الطابع الثاني للرجل الإيرلندي ، لا يشكل خطراً كبيراً في الريف حيث يتناثر السكان ، لكنه يغدو مرعباً وخطراً للغاية بتركيزه هنا في المدن الكبرى . إن « الميليزي » يحول أمام باب داره هنا إلى مستودع للتهامة والقذارة كما اعتاد أن يفعل في وطنه ، وبهذا تتجمع البرك وأكوام التاذورات التي تشوه منظر الأحياء العمالية وتسمم جوها . إنه يبني زريبة الخنازير في مواجهة حائط المنزل كما كان يفعل في وطنه ، وإن منع من هذا الفعل وضع الخنازير في الحجرة معه . إن هذه الطريقة الجديدة وغير الطبيعية في تربية البهايم في المدن إنما ترجع كلها إلى أصل إيرلندي . إن الإيرلندي يحب خنزيره كما يحب العربي حصانه ، مع فارق واحد هو أنه يبيعه عندما يبلغ من السمنة درجة كافية قرهله للذبح ، وهو فيما عدا ذلك ، ينام ويأكل معه ، يلعب به أبناءه ويمتلونه ويتدحرجون معه في القذارة ، كما يمكن لأي أمرئ أن يشاهد ذلك آلاف المرات في كل المدن الإنجليزية الكبرى . إن القذارة ، وانتاد وسائل الراحة التي تسود منازلهم لمسألة يستحيل وصفها .

إن الأيرلندي غير معتاد على وجود أثاث في مسكنه ، إن كومة قش وقليل من  
الأسمال ، التي لا تصلح للاستخدام على الإطلاق ، تكفي كمرقد ليلي له . إنه  
لا يحتاج لأكثر من قطعة من الخشب ، مقعد مكسور ، صندوق قديم يستخدم  
كمضدة . إنه يجهز مطبخه ، والذي هو في ذات الوقت حجرة النوم والمعيشة ،  
بغلاية شاي وقليل من الأواني والأطباق . وهو إن احتاج إلى وقود ، فإن كل  
ما تحوله يده من مواد قابلة للإشتعال كالكراسي وعمد الأبواب والكراتيش  
الخشبية والأرضيات تجد طريقها إلى المدخنة ، فضلاً عن ذلك ، ما الذي يجعله  
يحتاج إلى مزيد من الحجرات ؟ لم يكن هناك في وطنه ، في كوخه الطيني غير  
حجرة واحدة تؤدي كل الأغراض المنزلية . إن أسرته في إنجلترا لا تحتاج لأكثر  
من حجرة . ولذا فإن عادة حشد العديد من الأشخاص في حجرة واحدة ، تلك  
العادة التي غدت الآن ظاهرة عامة ، إنما هي عادة أدخلتها الهجرة الأيرلندية في  
الأساس . ولما كان من الواجب ألا يكون لهذا الشيطان البائس غير متعة واحدة ،  
فإنه قد عمد إلى إدمان المشروبات الروحية . إن الشراب هو الشيء الوحيد الذي يجعل  
حياة الأيرلندي تستحق أن تحيا ، ولذا فإنه يغرق في الشراب إلى أقصى حدود  
السكر البهيمى . إن الحقوية الجنوية كصفة للأيرلندي ، إن فظاظته التي تضعه في  
مرتبة لا تعمل في مرتبة الهمجي إلا قليلاً ، إن إزدراءه لكل المتع البشرية ، والتي  
تحول فظاظته عن أن يكون أهلاً للمشاركة فيها ، إن قذارته وفقره ، إن كل ذلك  
يشجعه على إدمان الخمر . إن الإغراء شديد وهو عاجز عن مقاومة هذا  
الإغراء . وهكذا ، ما أن يحصل على نقود حتى يتخلص منها أسفل حلقه . ماذا  
يفعل غير ذلك ؟ كيف يمكن للمجتمع أن يلوم ، وهو الذي يدع لنفسه ووحشيته ،  
هو الذي يضعه في مكان يغدو فيه بسبب الحاجة مدمن خمر في أغلب الأحوال ؟

ويصبح على العامل الانجليزي أن يصارع مثل هذا المنافس الذي يقف عند  
أدنى مستوى ممكن في بلد متحضر ، والذي هو لهذا السبب بالتحديد محتاجاً إلى  
أقل الأجور قياساً على غيره ، ولذا ، فليس هنالك ممكن آخر غير هذا ، كما يقول  
« كارليل » . إن أجور العامل الانجليزي مفروض عليها أن تنخفض أكثر فأكثر  
في كل فرع يواجه فيه منافسه الأيرلندي ، وتلك الفروع عديدة . إن كل ما لا يتطلب  
مهارة ، أو لا يتطلب غير القليل منها مقترح أمام الأيرلندي . أما عن العمل الذي

يستلزم مراناً طويلاً ، وممارسة مثابره منتظمة ، فإن الايرلندى القاسق المتقلب  
مدمنى الخمر يقف دونه عند مستوى منخفض للغاية . إذ حتى يصبح الصانع اليدوى  
ميكانيكياً ، عليه أن يتبنى الله حضر الإنجليزى والعادات الإنجليزىة ، عليه أن يغدو  
إنجليزياً من الأساس . إلا أنه ، فى كل الأعمال البسيطة غير الدقيقة ، حيثما كانت  
القوة مطلوبة أكثر فى المهارة ، فإن الايرلندى كالإنجليزى سواء بسواء . وهكذا  
فإن حرفاً معينة ، مثل النسيج اليدوى وبناء القرميد والنشالة والعمل باليومية ،  
هى حرف مكتظة بالاييرلنديين ، ويوجد بين عمال هذه الحرف أعداد يعتد بها من  
الاييرلنديين . إن لضغط مثل هذه السلالة تأثير كبير فى تخفيض الأجور والخط  
من الطبقة العاملة . وحتى لو غدا الايرلنديون الذين شقوا طريقهم إلى حرف أخرى  
أكثر تحضراً ، فإن كثيراً من عاداتهم القديمة سوف تظل عالقة بهم ، ليكون  
لها تأثير محط فعال على زملائهم من الإنجليز الكادحين معهم ، وخاصة إذا وضع  
للتأثير العام فى الاعتبار ، إذ أنهم محاطين بالاييرلنديين . وحيث يتكون ربع أو  
خمس كل مدينة كبيرة من عمال إيرلنديين فى الغالب ، أو من أطفال من أبوين  
ايرلنديين شبوا فى القنطرة الايرلندية ، فإن الدهشة لن تصيب أحداً ، عندما  
تكون العادات والذكاء والحالة الأخلاقية — أى فى إيجاز كل خلق وطباع  
الطبقة العاملة ، متثلة لجزء كبير من الصفات الايرلندية المميزة . ويغدو من السهل ،  
على عكس ذلك ، فهم الكيفية التى سار بها الوضع المحط للعامل الإنجليزى ، والذى  
كان نتيجة تاريخنا الحديث ومتالياته المباشرة إلى مزيد من الخطأ بسبب وجود  
المنافسة الايرلندية .





## النتائج

الآن وقد قمنا بدراسة تفصيلية إلى حد ما ، عن الأوضاع التي تعيش في ظلها الطبقة العاملة الإنجليزية ، فقد حان الوقت لاستخلاص بعض النتائج الأبعد مدى من واقع الحقائق المعروضة ، ثم نقوم فيما بعد ، بمقارنة ما استنتجناه بالحالة الفعلية للأوضاع . دعونا نرى ما آل إليه العمال أنفسهم في ظل الأوضاع المذكورة ، أى نوع من الناس هم ، ما هى أحوالهم الصحية والعقلية والأخلاقية ؟

عندما يوقع فرد واحد ضرراً بدنياً على فرد آخر ، ضرراً يمكن أن يؤدي به إلى الموت ، فإننا نسمى هذا الفعل بالقتل الخطأ ، وعندما يكون المعتدى مدركاً بشكل مسبق إن هذا الضرر سيكون قاتلاً ، فإننا نسمى فعلته تلك بالقتل العمد . ولكن ، عندما يضع المجتمع مئات البزوليتاريين في وضع لا بد وأن يقودهم إلى ميتة مبكرة للغاية وغير طبيعية ميتة تماثل تمام التماثل الموت الناجم عن استخدام العنف ، كذلك التي تنتج عن السيف أو طلقة الرصاص ، عندما يحرم المجتمع الآلاف من ضرورات الحياة ، ويضعهم في ظل أوضاع لا يستطيعون العيش فيها — فإنه يجبرهم ، باستخدام ذراع القانون القوية ، على البقاء في مثل تلك الأحوال التي لا بد وأن تؤدي بهم إلى الموت كنتيجة لها — إن المجتمع يعرف أن تلك الآلاف من الضحايا لا بد هالكة ، ومع ذلك فإنه يسمح ببقاء تلك الأحوال . إن فعلته هذه إنما هى قتل عمد ، إنها مؤكدة تمام التأكد مثل فعلة الفرد الواحد . إنه قتل مستتر خبيث ، قتل عن عمد ، قتل لا قبل للبرء بحماية نفسه في مواجهته حيث لا يظهر على حقيقته ، حيث لا يرى أى أمرىء قاتله ، حيث قتل الضحية يبدو أمراً طبيعياً ، حيث أن الجرم تفريط وإهمال أكثر منه ارتكاب واقتراف .

لكنه يظل قتيلاً عمداً . وعلى الآن أن أثبت أن المجتمع في إنجلترا يتعهد كل يوم وكل ساعة ، أى فرد من أفراد الطبقة العاملة ، بدقة متقنة ، تتصف بأنها قتل اجتماعى عن عمد ، بمعنى أن المجتمع قد وضع العمال تحت ظروف لا يستطيعون في ظلها أن يحافظوا على صحتهم أو أن يعيشوا طويلاً ، أى أنه يقوض القوى الحيوية لهؤلاء العمال جزء فجزء ، وبذا يدفع بهم فى سرعة إلى القبر قبل موعدهم . كما على أن أثبت ، أن المجتمع يدرك مدى خطورة مثل تلك الأوضاع على صحة العمال وحياتهم ، ومع ذلك ، فإنه لا يفعل شيئاً لتحسين مثل تلك الأوضاع . إنه « يعرف » نتائج أفعاله ، وبالتالي يعرف أن تصرفه هذا ليس مجرد قتل خطأ ، لكنه قتل عمد ، وهذا ما سأبرهن عليه عندما إستشهد بالوثائق الرسمية وتقارير البرلمان والحكومة لإثبات إتهامى بالدليل والحجة .

إن حياة طبقة فى ظل الأوضاع التى أجهلناها فيما سبق ، وتزويدها بأهم ضرورات الحياة بطريقتة سيئة ، وعدم قدرتها على التمتع بالصحة والعافية وبلوغ سن متقدم ، لدليل يوضح نفسه بنفسه . مرة أخرى ، دعونا نستعرض الأحوال مع الإشارة بشكل خاص إلى صحة العمال . إن تركيز السكان فى المدن الكبرى يفرض نفسه كعامل غير موات ، إذ أن جو لندن لا يمكن أبداً أن يكون نقياً غنياً بالأكسجين كهواء الريف .

إن مليونين ونصف مليون زوج من الرثات ، إن خمسة آلاف ومائتى نار مشتعلة تزدحم فوق مساحة ثلاثة أو أربعة أميال مربعة ، تستهلك كمية هائلة من الأكسجين لا يمكن أن تحل كمية أخرى محلها إلا فى صعوبة ، حيث أن طريقة

(\*) عندما أنكم هنا ، أوفى أى موضع آخر ، عن المجتمع كمسؤول عام له حقوقه وواجباته ، فإننى أعنى بالتأكيد ، القوة الحاكمة للمجتمع ، الطبقة التى تقبض الآن على زمام السيطرة الاجتماعية والسياسية ، والتى تتحمل بالتالى مسؤولية هؤلاء الذين تحرمهم من المشاركة فى تلك السيطرة . إن هذه الطبقة فى إنجلترا ، كما فى كل البلدان الأخرى المتحضرة ، هى البورجوازية . وإن كان كون هذا المجتمع ، وخاصة البورجوازية ، مكلفة بحماية كل عضو فى المجتمع ، على الأقل فيما يخص بحياته ، وأن يكون منزهاً مثلاً ، إلى أن أخذ لا يموت جوعاً أمر لا أحتاج الآن لإثباته لقرائى الألمان . أما لو أئى كنت أكتب إلى البورجوازية الإنجليزية لإخلاف الحال حينذاك . ( وهكذا الحال فى ألمانيا الآن ، فإن رأسمالينا الألمان ، قد بلغوا المستوى الإنجليزى بالكامل ، على الأقل من هذه الناحية ، فى العام الميلادى ١٨٨٦ ) .

بناء المدن نفسها تحول دون التهوية . إن غاز حمض الكبريتيك الذي يولده الشمس والنار يخال في الشوارع بسبب ثقله النوعي ، ويمر التيار الرئيسي من الهواء فوق أسقف المدينة ، وتفشل رئات السكان في تلقي الكمية اللازمة من الأوكسجين ، والنتيجة إعياء صحي ومعنوي وإنخفاض في الحيوية . لهذا السبب ، فإن قاطني المدن بعيدن إلى حد كبير عن التعرض للوثرات الحادة ، وخاصة الناجمة عن الإلتهاب ، إن قورنوا بسكان الريف الذين يعيشون في جو طليق وطبيعي ، إلا أنهم يعانون أكثر من اللوثرات المزمنة . وإن كانت الحياة داخل المدن ضارة بالصحة في حد ذاتها ، فكم يكون الضرر الناجم عن تأثير الجو الشاذ في الأحياء العمالية كبيراً ، إن كل شيء كما رأينا يتضافر لتسميم الهواء . ربما يكون وضع كومة روث إلى جوار مسكن ما في الريف أمر غير ضار نسبياً ، حيث يدخل الهواء بحرية من جميع النواحي ، غير أن نفس الوضع في مدينة كبرى بين حارات وعائلات شديدة متلاصقة حتى أنها حجت كل حركة للهواء الجوي هو وضع مختلف . إن كل الخضراوات المتعفنة والمواد الحيوانية تبعث بالتأثير غازات ضارة بالصحة ، وإن لم تجد تلك الغازات طريقاً مفتوحاً للهرب ، فإنها تسمم الهواء الجوي بالتحتم . إن للقدارة والبرك الراكدة بناء على ذلك ، أسوأ الأثر على الصحة العامة في الأحياء العمالية بالمدن الكبرى ، لأنها تنتج تلك الغازات التي تولد المرض ، ونفس الأمر أيضاً تفعله الأبخرة الملوثة الصاعدة في جداول المياه . إلا أن هذا ليس كل ما في الأمر على أي حال . إن الطريقة التي يعامل بها المجتمع حشد الفقراء الهائل في أيامنا تلك ، بطريقة مثيرة للشورة ، إنهم يسحبون إلى المدن الكبرى حيث يتنفسون هواء أفقر من هواء الريف إنهم يعزلون في أحياء أسوأ تهوية من أحياء أخرى بسبب الطريقة التي شيدت بها ، إنهم محرومون من كل وسائل النظافة حتى من الماء نفسه ، حيث أن الأنابيب لا توصل إلى المساكن إلا عند دفع ثمنها ، وحيث الأنهار ملوثة إلى حد لا تصلح معه لمثل تلك الأغراض ، إنهم مجبرون على إلقاء كل القمامة والنفايات ، كل الماء القذر ، وفي أغلب كل المجارى والإفرازات المتمززة في الشوارع ، حيث إنهم محرومون من وسائل التخلص منها ، مضطرون إلى إفساد المنطقة التي هم ساكنيها . غير أن هذا ليس بكاف أيضاً . إن كل ما يمكن تصوره من شرور مكس فوق رؤوس الفقراء . إذ لو أن كثافة السكان عالية بشكل عام في المدن الكبرى فإنهم هم على وجه

الخصوص ، الذين يوضعوا في أقل حيز ، إنهم يحبسون بالعشرات في حجرات منفردة ، وكان فساد الهواء الجوي في الشوارع غير كاف ، فيأتي الهواء الذي يتنفسونه في الليل ليكون في حد ذاته كافياً لخنقهم ، إنهم يعطون مساكن رطبة ، جحور الآقية التي لا يوجد ما يحميها من الماء من أسفل ، أو غرف الأسطح التي ترشح من أعلى . إن بيوتهم مشيدة بطريقة تجعل الهواء البارد الرطب لا يجد لنفسه منفذاً للهرب ، إنهم يزودون بهلاهيل أو ملابس رديئة بالية ، وطعام فاسد عسر الهضم ، إنهم معرضون لأشد التغيرات إثارة للحالة العقلية ، لأشد الذبذبات عنفاً بين الأمل والخوف ، إنهم يصطادون كما تصطاد الحيوانات ، كما أنه من غير المسموح لهم أن يحصلوا على راحة البال ومتع الحياة الهادئة . إنهم محرومون من كل المتع ما عدا الإفضاس في الجنس وإدمان الخمر ، إنهم يشغلون يومياً إلى حد الاستهلاك التام لطاقتهم المعنوية والصحية ، وهكذا يدفع بهم دائماً إلى الإفراط الجنوني في المتعتين الموجودتين في متناول أيديهم . وهم إن تغلبوا على كل هذا ، سقطوا ضحايا الحاجة للعمل في أزمة ما ، عندما يؤخذ منهم كل القليل الذي أنعم به عليهم حتى الآن .

كيف يمكن للطبقة الدنيا أن تتمتع بالصحة وتعيش طويلاً ، في ظل مثل هذه الظروف ؟ لما الذي يمكن أن نتوقه غير أخلاق داعرة وسلسلة متصلة من الأوبئة ، وتلف بنية السكان العمال ؟ دعونا نرى كيف تنتصب الحقائق .

إن كون مساكن العمال موجودة في أسوأ أجزاء المدن ، وأنها بالإضافة إلى أوضاع أخرى من حياة هذه الطبقة ، تولد أمراضاً عديدة ، لامر قد ثبتت صحته من جميع النواحي . إن المقالة المقتبسة آنفاً من « الأرتيزان » ، تؤكد في صدق تام ، أن أمراض الرئة لا بد وأن تكون نتيجة حتمية لمثل تلك الأوضاع ، وأن حالات من هذا النوع يكثر وقوعها في الحقيقة بصورة متفاوتة في صفوف هذه الطبقة . إن هواء لندن الفاسد خاصة في الأحياء العمالية ، ليسوفر أعلى درجة مواتية لنمو السل ، كما يقدم المظهر المحموم للأعداد الضخمة من الأشخاص ، الدليل الكاف على ذلك . وإن حدث وتجول أمرىء في الشوارع في الصباح مبكراً إلى حد ما ، ساعة أن تكون الحشود في طريقها إلى العمل ، لأصيب بالدهشة من عدد الأشخاص الذين يبدوون مصدورين تماماً أو نصف مصدورين . إن مانشستر

ذاتها لا يحمل الناس فيها نفس هذا المظهر ، مظهر الاشباح الشاحبة الضامرة  
حنيفة الصدر غائرة العيون ، تلك الاشباح التي يمر بها المرء عند كل خطوة ،  
هؤلاء الواهين ذوى الوجوه المترهلة ، العاجزين عن إبداء الهمة في أبسط تعبير  
لها . لقد عاينت مثل تلك الاعداد المفزعة في لندن فقط ، رغم أن السل يقتل  
سنوياً جموعاً من الضحايا في المدن الصناعية الشمالية . وينافس التيفوس السل ،  
دعك من الحمى القرمزية التي تجلب أشد أنواع الدمار بشاعة إلى صفوف الطبقة  
العامة . إن التقارير الرسمية عن الحالة الصحية للطبقة العامة تنسب التيفوس وهو  
ذلك البلاء السام الانتشار ، إلى الحالة السيئة التي توجد عليها أعمال التهوية  
والصرف والنظافة في المساكن ، تنسبه إلى كل ذلك بشكل مباشر . يؤكد هذا  
التقرير الذي صنعه الأطباء المسؤولون في إنجلترا — وهذا أمر يجب ألا ننساه —  
من واقع شهادة أطباء آخرين ، أن حارة واحدة سيئة التهوية ، وزقاقاً واحداً  
مسدوداً دون صرف ، كاف لتوليد الحمى وهو دائماً ما يولدها ، خاصة إن كان  
السكان مكتظين إكتظاظاً شديداً . إن هذه الحمى تقريباً نفس الخاصة في كل  
مكان ، وهي تتطور في كل حالة تقريباً إلى تيفوس واضح . إنها موجودة في كل  
الأحياء العمالية بالمدن الكبرى والحوضر ، وبشكل فردي في الشوارع رديئة  
التشيد والصيانة ، رغم أنه من الطبيعي أيضاً أن تبحث لها عن ضحايا في أحياء  
أفضل . إنها تنفث الآن في لندن منذ فترة ذات بال ، إن عنفها الذي فاق المعتاد  
عام ١٨٣٧ ، هو سبب هذا التمرير المشار إليه عاليه . إن عدد المرضى ، طبقاً  
للتقرير السنوي للدكتور « سووث وودسميث » ، بمستشفى الحمى بلندن ، عام  
١٨٤٣ كان ١٠٤٦٢ مريضاً ، أي بزيادة قدرها ١٨٤ مريضاً عن أية سنة سابقة .  
لقد تنفث هذا المرض بعنف غير عادي في المناطق الرطبة القذرة في الأحياء الشمالية  
والجنوبية والشرقية . كان العديد من المرضى من العمال القادمين من الريف ،  
هؤلاء الذين كابدوا أقصى درجات العوز أثناء هجرتهم ، والذين ناموا بعد وصولهم  
في الشوارع جوعاً أنصاف عرايا ، وهكذا سقطوا ضحايا الحمى لقد أحضر هؤلاء  
الناس إلى المستشفى في حالة من الضعف جعلت عملية علاجهم تحتاج إلى كميات غير  
عادية من الخور والكونياك ومستحضرات الامونيا والمنعشات ، ولقد مات  
١٦٠٠ ٪ من هؤلاء المرضى . إن هذه الحمى الخبيثة موجودة في « مانشستر » ،  
في أردا الأحياء في « المدينة القديمة » ، و « أتكوتس » ، و « ليتل إيرلندا » ، الخ ،



إنها نادراً ما تهمد ، رغم أن تفشيها هنا أقل مدى مما هو متوقع كما هو الحال في المدن الإنجليزية عامة . إنها من ناحية أخرى ، تتفشى في اسكتلندا وإيرلندا بشدة تتجاوز كل تصور . لقد انتشرت إثر القحط في كلا من « ادنبرج » و « جلاسجو » عام ١٨١٧ ، كما انتشرت بعنف ووضح بعد الأزمة التجارية عام ١٨٢٦ وعام ١٨٣٧ ، بعد أن تكون قد استكانت إلى حد ما في كل مرة ، بعد أن تكون قد تفشت لما يقرب من الثلاث سنين . لقد هاجمت الحمى في « ادنبرج » حوالي ٦٠٠٠ شخصاً خلال وباء ١٨١٧ ، وحوالي ١٠.٠٠٠ شخصاً خلال وباء ١٨٣٧ ، ولم يزداد فقط عدد الأشخاص الذين هاجمتهم ، بل زاد أيضاً عنفها مع كل تكرار لها \* .

إلا أن حدة الوباء في كل المراحل السابقة ، تبدو كمبت أطفال إن قورنت بما سببه من تخريب بعد أزمة عام ١٨٤٢ . لقد أمسكت الحمى بسدس سكان اسكتلندا المعدمين ، وحمل المسؤولون الجوالون العدوى من منطقة إلى أخرى في سرعة مخيفة . إنها لم تصل إلى الطبقات الوسطى والعليا من السكان ، ورغم ذلك ، فقد كانت هنالك حالات من الحمى خلال شهرين أكثر مما كان خلال إثني عشرة سنة سابقة . لقد أمسكت الحمى في « جلاسجو » عام ١٨٤٢ بـ ٣٢.٠٠٠ شخص يمثلون ١٢٪ من السكان ، هلك منهم ٢٢٪ ، بينما لم تتجاوز نسبة الوفيات عادة ٨٪ في كل من « مانشستر » و « ليقربول » . وبلغ المرض أوجاً في اليوم السابع واليوم الخامس عشر ، إذ يصبح المريض عادة في هذا اليوم الأخير أصفر اللون ، وهو ما تنظر إليه ساءاتنا \* كمؤشر على أن سبب المرض يجب البحث عنه في القلق والهياج القلي . واستطلونت أوبئة الحمى تلك إيرلندا أيضاً . فلقد مر عبر مستشفى « دبلن » ، خلال واحد وعشرين شهراً في عامي ١٨١٧ - ١٨١٨ ، ٢٩.٠٠٠ مريضاً بالحمى ، كما أصيب بالحمى في سنة أكثر حداثة ، طبقاً لـ « شريف اليسون » ، ستون ألفاً من الناس . واستقبلت المستشفى في « كورك » خلال عامي ١٨١٧ - ١٨١٨ سبع السكان ، كما استقبلت في « ليمريك » ربع السكان في

(\*) « د. اليسون » ، « تصنيف أمور الفقراء في اسكتلندا » .

(\*\*) « اليسون » ، « القواعد الأساسية للسكان » في المجلد ٢ .

(\*\*\*) « مقالة » للدكتور اليسون ، قرئت أمام « الجمعية البريطانية لتقديم العلم » ، في

أكتوبر عام ١٨٤٤ ، في « يورك » .

نفس المدة الزمنية ، أما في الأحياء السديّة من « ووترفورد » ، فقد أصيب بالحمى في نفس هذا الوقت ، من ١٩ / إلى ٢٠ / من إجمالي السكان \* .

إن المرء عندما يتذكر الظروف التي يعيش العمال في ظلها ، عندما يفكر في مدى إكتظاظ مساكنهم بهم ، كيف يموج كل ركن وكل زاوية بالبشر ، كيف ينالم المرضى والأصحاء في نفس الحجرة ، في نفس السرير ، فإن الشيء الوحيد الذي يثير دهشته ، هو كيف أن مرضاً مدياً كهذه الحمى لا يكون أوسع إنتشاراً مما هو عليه . وعندما يتأمل المرء مدى ضآلة العون الطبي الذي يجده المريض في تناول يده ، وكيف أن العديد منهم دون أي إرشاد طبي كان ، كذلك كيف أنهم جاهلين بالتدابير الوقائية المادية للعناية ، فإن الوفيات تبدو في واقع الأمر قليلة . ويعتبر « دكتور اليسون » ، وهو الذي قام بدراسة موفقة حول هذا المرض ، أن السبب المباشر له ، هو الحاجة وظروف الفقراء النعسة ، كما جاء في التقرير الذي إقتبسنا منه آنفاً . إنه يؤكد أن الحرمان والتقصور في إشباع الضرورات الحيوية هما اللذان يعدان الإطار اللازم للمعدوى ، ويجعلان الوباء رهيباً واسع الإنتشار . إنه يشبث أن مرحلة من الحرمان وأزمة تجارية أو محصول رديء ، قد اتتجا في كل مرة وباء التيفوس في أيرلندا وكندا في اسكتلندا ، وأن حدة الوباء قد حلت على الطبقة العاملة دون غيرها على وجه التفرقة ، إنها حقيقة جديدة بالانتفات ، إذ أن طبقاً لا يفترضه ، فإن غالبية الذين يهاكون بالتيفوس ، إنما هم آباء عائلات ، إنهم بالتحديد أشخاص لا يمكن لهؤلاء الذي يعتمدون عليهم أن يستغنوا عنهم ، كما أن العديد من الأطباء الأيرلنديين الذين انتدس عنهم ، يحملون نفس الاعتقاد .

هنالك صنف آخر من الأمراض ، ينشأ مباشرة عن الطعام أكثر مما ينشأ عن مساكن العمال . إن طعام العامل ، وهو طعام عسر المضم في حد ذاته ، غير مناسب على الإطلاق للأغفال الصغار ، والعامل لا يملك الوسائل أو الوقت ليحلب لأبنائه طعاماً أكثر ملائمة . فضلاً عن ذلك ، فإن عالة إعطاء الأطفال

---

(\*) « د . اليسون » . « تصريف أمور الفقراء في اسكتلندا » ( ملحوظة في الطبعة الألمانية ) .

مشروبات روحية بل وحتى إعطائهم الأفيون ، عادة شائعة للغاية ، وهذان المثيران بالإضافة إلى ظروف الحياة تضر بالنمو الجنائي ، وهي تتسبب في أكثر اعلل تباينا على أعضاء الجهاز الهضمي ، تاركا خلفها آثار تبقى مدى الحياة . إن معدات كل العمال تقريبا ضعيفة نوعا ما . ومع ذلك فهم مجبرون على التثبيت بطعامهم الخاص والذي هو جذر العلة . كيف لهم أن يعرفوا ما يلاموا عليه ؟ وإن عرفوا ، فكيف يمكنهم أن يمارسوا نظاما للطعام أكثر ملائمة ، ما داموا عاجزين عن تبني طريقة مختلفة للحياة ، عاجزين عن نيل تعليم أفضل من التعليم الذي هم عليه ؟ غير أن أمراضا جديدة تنشأ أثناء الطفولة بسبب إختلال الهضم . إن داء الخنازير يكاد أن يكون عاما بين صفوف الطبقة العاملة ، إذ كما أن الوالدين مصابين بداء الخنازير ، فإن أطفالها مصابون أيضا بنفس الداء ، خاصة عندما تفعل المورثات الأصلية فعلها وهي بكامل قوتها وعلى نحو مستمر ، على الاستعداد الوراثي للأطفال . وكساح الأطفال نتيجة ثانية لنقص التغذية الجنائية ، إنه مرض واسع الانتشار جداً بين أطفال الطبقة العاملة . إن تصلب العظام يتأخر ، ويصاب نمو الهيكل العظمي عموما بالقصور ، وتكثر تشوهات الأرجل والعمود الفقري بالإضافة إلى كل مؤثرات الكساح . ما أكثر نزايده هذه الأضرار ، نتيجة ما يتعرض له العمال من تغيرات تحدث في أعتاب التقلبات التي تصيب لصناعة ، إنها الحاجة للعمل والأجور الهزيلة خلال فترة الأزمة ، وهي مسألة لا يلزم الإسهاب فيها . إن النقص المؤقت للطعام الضروري ، والذي يتعرض له كل عامل مرة واحدة على الأقل في مجرى حياته ، إنما يسهم فقط في تكثيف تأثير طعام المعتاد ، ذلك الطعام الذي هو كاف لكنه رديء . إن الأطفال الذين يكادون أن يموتوا جوعا - في نفس الوقت الذين هم فيه أحوج ما يكونون إلى الطعام الوافر المغذي - يصبحون بالضرورة التي لا منر منها ، ضحايا مصابين بداء الخنازير والكساح في أقصى درجاته . وهم عندما يصبحون كذلك ، فإن مظاهر عدة تنم عن المرض . إن الإهمال المحكوم به على الجمهرة العظمى من أطفال الطبقة العاملة ، يترك بهم آثار لا تمحى ، ويجلب معه إضافات سائلة العمال كلها . يضاف إلى ذلك عدم ملائمة الملابس التي ترتديها هذه الطبقة وإستحالة إتخاذ احتياطات لمواجهة البرد وضرورة الكدح طالما تسمح الصحة بذلك ، والحاجة التي تفاقم الذعر عند ظهور

المرض ، والنقص العام الشديد والفريد في كل المساعدات الطبية ، وأن ما لدينا ، إنما هو فكرة تقريبية عن الحالة الصحية للطبقة العاملة الإنجليزية . أما عن الآثار الضارة والخاصة بكل عمل من الأعمال ، كما يسير الآن ، فإنني أن أتناولها هنا .

بجانب كل ذلك ، هنالك مؤثرات أخرى تضعف صحة عدد كبير من العمال ، وأكثرها جميعاً إدمان الشراب . إن كل المخربات الممكنة ، كل عوامل الغواية ، تتضافر معاً لتقود العمال إلى الإدمان ، إذ تكاد الخمر أن تكون المصدر الوحيد للمتعة ، كما تتآمر كل العوامل لتجعل حصوصهم عليها أمراً ميسوراً . إن العامل يعود من عمله متعباً منهكاً ، ليجد منزله خال مما يريح ، رطب قدر منفر ، إنه في حاجة ملحة إلى التسلية ، يجب أن يحصل على شيء ما يجعل العمل أمراً يستحق مشقته ، وذاك حتى يكون مرأى اليوم التالي محتملاً . إن الحالة السوداوية الواهنة المتعبة لجسده وذهنه ، والنابعة من حالته السقيمة خاضعة مما يعانيه من سوء هضم ، تتجاوز في تفاقمها قدرته على التحمل ، إن مرجع ذلك إلى أحوال حياته العامة ، وعدم اليقين من استمراره في العمل ، واعتماده على كل الصدف والفرص ، وعجزه عن أن يفعل فعلاً يكسبه وضماً مؤكداً . إن هيكله الواهي وقد أضعفه الهواء الفاسد والطعام الرديء ، يطالب بعنف بشيء خارجي مثير ، إن حاجته الاجتماعية لا يمكن إشباعها إلا في الحانة ، إنه لا يجد لنفسه على وجه الإطلاق مكاناً آخر غير هذا المكان كي يلقى أصدقاءه . كيف يمكن أن يتوقع منه مقاومة مثل هذا الإغراء ؟ إنه لا مفر من الناحية الأخلاقية والجسدية ، أن يدمن الخمر عدد كبير من العمال في مثل تلك الأحوال . وإلى جانب تلك المؤثرات البدنية الأساسية التي تدفع العمال إلى الإدمان ، هنالك القدوة التي تقدمها كثرة العامة ، إهمال التعليم وانهماكهم في حماية للصغار من الإغراء ، وفي حالات كثيرة ، التأثير المباشر للوالدين المدمنين واللذين يعطيان الخمر لأطفالهما . إن الثقة في نسيان التعاسة وثقل الحياة ساعة أو ساعتين ، ومائة ظرف آخر ، هي من اقوة بمكان ، حتى أنه لا يمكن حقاً لوم العمال على خضوعهم لمثل هذا الضغط الطاغى . لقد كف الإدمان على أن يكون خطيئة يمكن أن يتحمل المخطئ مسؤوليتها . لقد غدا ظاهرة طبيعية ، نتيجة حتمية لا مفر منها لتأثير أوضاع معينة على شيء ما ، شيء لا يملك إرادته

أمام تلك الأوضاع . إن هؤلاء الذين حتموا العامل الى مجرد شيء ما ، لهم الذين عليهم أن يتحملوا المسؤولية . وكما أنه لا مفر من أن تسقط أعداد كبيرة من أعمال فريسة للشراب ، فإنه لا مفر أيضاً من أن تفصح الخمر عن تأثيرها المدمر على أجساد وعقول ضحاياها . إنها توفر كل استعداد ينتج عنه المرض بسبب ظروف العمال الحياتية ، إنها تقوى اضطرابات الرئة والجهاز الهضمي إلى أعلى الدرجات كذا تقوى ظهور وإنتشار وباء التيفوس .

هنالك مصدر آخر من مصادر الضرر البدني الذي يقع على الطبقة العاملة ، ذلك هو استحالة استخدام أطباء مهرة في حالة المرض . حتماً أن بعض المؤسسات الخيرية تسعى جاهدة لتغطية هذا النقص ، فقد استقبلت « دار العجزة » في « مانشستر » مثلاً أو قدمت النصيح والدواء لـ ٢٢.٠٠٠ مريضاً في السنة . لكن ماذا يعني ذلك بالنسبة لمدينة ، يحتاج ثلاثة أرباع سكانها طبقاً لإحصاء « جاسكل »\* ، للمساعدة الطبية سنوياً ؟ أن الأطباء الانجليز يتقاضون أتعاباً عالية ، وليس العمال في وضع يمكنهم من دفع تلك الأتعاب . ومن ثم فإنهم لا يفعلون شيئاً أو يتوجهون مضطرين إلى دجالين زهيدو الأجر ، ويتعاملون علاجاً من نصابين يدعون الطب ، علاجاً يضر أكثر مما يفيد . إن عدداً ضخماً من أمثال هؤلاء الدجالين قد ترعرع في كل مدينة انجليزية . إنهم يحصلون على زبائنهم من بين الفقراء عن طريق الإعلانات والمصقات ، وأساليب أخرى مثل تلك الحيل . وتباع إلى جوار هؤلاء ، كميات ضخمة من أدوية مخترعة لكل علة يتصورها العقل ، « حبوب دواء موريسون » ، « حبوب دواء بار للحياة » ، « حبوب دواء دكتور نينوارينج » ، وآلاف أخرى من حبوب الدواء والخلاصات والبلاسم ، وهي جميعاً لها صفة شفاء كل الأمراض التي يرثها الجسد . إن هذه الأدوية نادراً ما تحتوي على مواد ضارة بالفعل ، إلا أن تناولها دون قيد وبكثرة يؤثر على الجسم تأثيراً ضاراً . ولما كان المشترون الغافلون ، ينصحون على الدوام بأن يأخذوا منها الكثير قدر الإمكان ، فإن أحداً لا تصيبه الدهشة ، عندما يجعلونهم يبتلعون منها كميات كبيرة ، سواء كانوا يحتاجونها أم لا يحتاجون إليها .

(\*) « السكن عاملين في الصناعة » ، الفصل الثامن .



ليس هنالك أى غرابة على الإطلاق ، فى أن تباع صناعة « حبوب بار للحياة » من عشرين إلى خمس وعشرين ألف علبة فى الأسبوع ، من هذه الحبوب النافعة للصحة . إن واحدة منها تعالج الإمساك ، وأخرى تعالج الإسهال ، الحمى ، الضعف ، وكل العمل الممكنة . إن الأعمال الإنجليز يفعلون الآن مثلاً يفعل فلاحونا الألمان فى مواسم معينة ، إنهم يسحبون الدم بالكاسات أو بالادماء . إنهم يهتمون الأدوية المخترعة ، مما يعود عليهم بالضرر ويعود على أصحاب المصانع بالرج الوفير . إن واحداً من أشد تلك الأدوية المخترعة ضرراً هو شراب اسمه « منعش جودفرى للقلب » ، محضر فى الأساس من مخدر هو صبغة الأفيون . إن النساء اللواتى يعملن بالمنازل ، وعليهن رعاية أطفالهن وأطفال الآخرين ، يقمن بإعطاء هؤلاء الأطفال ذلك المشروب كى يناموا الهدوء وكى يتقروا ، كما يعتقد الكثيرون . إنهن يبدأن فى الغالب بإعطاء هذا الدواء للأطفال حديثى الولادة ، ثم يداومن على إعطائه دون أن يعرفن آثار هذا « المريح للقلب » ، حتى يموت الأطفال . إن الكمية التى تعطى للطفل تزداد ، كلما قلت إستجابة جسمه لمفعول الأفيون ، وعندما يكف هذا المنعش عن الفعل ، تعطى لهم صبغة الأفيون بكمية تصل فى غالب الأحوال إلى خمسة عشر أو عشرين نقطة فى كل جرعة . لقد قرر « مأمور تحقيق أسباب الوفيات الجنائية فى « نوتينجهام » أمام « لجنة برلمانية » \* ، أن أحد الصيادلة قد استخدم طبقاً لبيانته هو ، ألف وثلاثمائة وزنة من صبغة الأفيون خلال عام واحد ، فى تحضير « منعش جودفرى للقلب » . إن الآثار التى تظهر على الأطفال الذين يعالجون به ، أمر يمكن التعرف عليه فى الحال . إنهم شاحبون ، واعمنون ، ذابلون ، وهم عادة ما يموتون قبل أن يكملوا عامهم الثانى . إن هذا المنعش يستخدم فى كل المدن الكبرى والأحياء الصناعية فى المملكة ، بحدى واسع للغاية .

---

(\*) تقرير لجنة تقصى تشغيل الصبية والشباب فى المناجم ومناجم الفحم الحجرى ، فى الحرف والصناعات التى يعمل فيها أعداد منهم ، والتى لا تنطوى تحت نصوص « لائحة تنظيم المصانع » التقرير الأول والثانى ، وتقرير « جراينجر » . يذكر التقرير الثانى عادة « كـتقرير لجنة تشغيل الصبية » . ( هذا التقرير هو واحد من أفضل التقارير الرسمية ، إنه يحتوى على حشد من أئمن الحقائق ، ولكن من أكثرها إثارة للفرع أيضاً « أضيفت إلى الطبعة الألمانية » ) . ( التقرير الأول صدر عام ١٨٤١ ، والتقرير الثانى صدر فى ١٨٤٣ )

إن الإضعاف العام لبنيان الطبقة العاملة ، هو نتيجة كل تلك المؤثرات . إن بين العمال قلة من الأقوياء الأصحاء متينو البنيان . إن صناعات المصانع الذين يعملون في حجرات ضيقة ، هم فقط ، الذين سنناقش أمرهم في هذا المجال . إنهم جميعاً يكادوا أن يكونوا ضحايا ناهلين ذابلي البنيان ، هن يلين شاحبين مترهلي الأنسجة ، ماعدا العضلات خاصة تلك التي يستخدمونها في عملهم . إنهم جميعاً يعانون ، على وجه التتريب ، من عسر الهضم ، وبالتالي فهم يعانون على وجه التتريب ، من السوداوية والكمأة وسرعة الغضب والعصبية : إن بنيانهم الواهي عاجز عن متاومة المرض الذي يحل به في كل مناسبة ، ومن هنا فإنهم يعيشون دون أوانهم ويموتون مبكراً . إن إحصائيات الوفيات تقدم في هذا الصدد دليلاً لا يدحض .

يحصل معدل الموت السنوي في إنجلترا كلها وويلز ، طبقاً « لتقرير المسجل العام جراهام » ، إلى أقل من  $\frac{1}{2}$  ٪ . أي يمكن القول ، أن شخصاً يموت كل ثمان من كل خمسة وأربعين شخص \* . كان ذلك هو المتوسط عام ١٨٣٩ — ١٨٤٠ . وانخفضت الوفيات عام ١٨٤٠ — ١٨٤١ بعض الشيء ، وأصبح معدل الموت واحد فقط من كل ست وأربعين . إلا أن حجم الوفيات في المدن الكبرى مختلف تمام الاختلاف . إنني أملك أمامي الجداول الرسمية للوفيات ( المانشستر جارديان ٣١ يوليو ١٨٤٤ ) ، وطبقاً لهذه الجداول فإن معدل - الموت في العديد من المدن الكبرى هو كما يلي : — واحد من كل ٢٢ و ٧٤ في « مانشستر » مشتملة على « كورلتون » و « سالفورد » ، وواحد من كل ٣٠ و ٧٥ إذا استبعدنا « كورلتون » و « سالفورد » . وواحد في كل ٣١ و ٩ في « ليفربول » ، مشتملة على « ويست دربي » ( ضاحية ) ، وواحد من ٢٩ و ٩ إذا استبعدنا « ويست دربي » . بينما المتوسط في كل مناطق « شيشاير » و « لانكشاير » و « يوركشاير » ، مشتملة على مناطق ريفية ، وعدد من المدن الصغيرة كلياً أو جزئياً ، حيث يبلغ المجموع السكان لسكان هذه المناطق مجتمعة ١٧٢ و ٥٠٦ و ٢ شخصاً ، هو وفاة واحدة من كل ٢٩ و ٨ شخصاً — إن العمال في المدن الكبرى قد أسكنوا في أماكن ضارة للغاية .

---

\* التقرير السنوي الخامس للسجل العام لتواريخ الميلاد والوفيات والزيجات .

إن وفيات « برسكوت » في « لانكشاير » توضح الوضع في واحدة من المناطق التي يسكنها العاملون في التعدين . تبدو الحالة الصحية في هذه المنطقة أدنى من تلك الموجودة في المناطق الزراعية . إن العمل في التعدين ليس بأى حال من الأحوال من المهن الصحية ، غير أن هؤلاء المشتغلين في التعدين يعيشون في الريف ، ومعدل الوفيات بينهم واحد من كل ٤٧ و ٤٥ فقط أى قرابة ٢.٥ ٪ ، وبذا فهو أفضل معدل في إنجلترا كلها . إن كل تلك البيانات تستند إلى جداول وفيات عام ١٨٤٣ إلا أن معدل الوفيات في مدن اسكتلندا ما يزال أعلى من ذلك ، إنه واحد من كل ٢٩ — في « أدنبرج » عام ١٨٣٨ — ١٨٣٩ ، وواحد من ٢٢ — في « المدينة القديمة » وحدها عام ١٨٣١ ، كما كان المتوسط في « جلاسجو » طبقاً « لدكتور كوين » \* هو واحد من كل ٣٠ منذ عام ١٨٣٠ ، وواحد من كل ٢٢ إلى ٢٤ في بعض السنوات المفردة . إن هذا النقص الجسيم في الحياة يتمتع على الطبقة العاملة أساساً . إن المتوسط العام يتحسن بسبب الوفيات المحدودة في الطبقات العليا والوسطى ، إن كل الأطراف تشهد على صحة ذلك . إن دكتور « ب . ه . هولاند » يقدم واحدة من أحدث الشهادات . إنه من « مانشستر » ، وهو الذى قام ، في إدار لجنة رسمية ، بدراسة عن « كولتون » — « ميداووك » ، من ضواحي « مانشستر » . لقد قسم كلا من المنازل والشوارع إلى طبقات ثلاث ، وأثبت التنوعات التالية في معدل الوفاة : —

الطبقة الأولى من الشوارع	المنازل	١ — طبقة	الوفيات واحد من كل ٥١
» » » »	»	٢ —	» » » » ٤٥
» » » »	»	٣ —	» » » » ٣٦
» الثانية »	»	١ —	» » » » ٥٥
» » » »	»	٢ —	» » » » ٣٨
» » » »	»	٣ —	» » » » ٢٥

\* الاحصائيات الحيوية ( المختصة بالوفاة والولادة والزواج ) الخاصة بجلاسجو .

## الطبقة الثالثة من الشوارع المنازل ١ — طبقة ناقصة

»	»	»	»	»	٢ —	الوفيات واحد من كل ٢٥
»	»	»	»	»	٣ —	» » » » ٢٥

يتضح من جداول أخرى « لهولاند » أن وفيات « الشوارع » من الطبقة الثانية أعلى بنسبة ١٨ ٪ ، وأن وفيات شوارع الطبقة الثالثة تزيد بنسبة ٦٨ ٪ عن تلك التي من الطبقة الأولى ، وأن وفيات « المنازل » من الطبقة الثانية تزيد بنسبة ٣٨ ٪ ، ومن الطبقة الثالثة تزيد بنسبة ٧٨ ٪ عن تلك التي من الطبقة الأولى ، وأن الوفيات في الشوارع السيئة التي أدخلت عليها تحسينات قد انخفضت بنسبة ٢٥ ٪ ، وهو يختتم بالملاحظة التالية ، والتي تعتبر ملاحظة صريحة للخاتمة بالنسبة لبورجوازي إنجليزى \* : —

« عندما نجد أن معدل الوفيات يصل في بعض الشوارع إلى أربعة أضعاف البعض الآخر ، كما يصل إرتفاعه إلى ضعف كل طبقات الشوارع عند مقارنته بطبقات أخرى ، وعندما نجد بالإضافة إلى ذلك ، أن الوفيات ثابتة الإرتفاع في تلك الشوارع سيئة الحال ، وتكاد تكون ثابتة الانخفاض في تلك الجيدة الحال ، فإننا لا نستطيع تجنب الخاتمة التي تقول ، أن حشوداً من الآدميين أمثالنا ، مئات من جيراننا المباشرين ، يهلكون سنوياً بسبب نقص أكثر الاحتياجات وضوحاً »

إن تقرير « الحالة الصحية للطبقة العاملة » يشتمل على معلومات تثبت نفس الحقيقة . إن متوسط طول عمر الطبقات العليا ، عالية القوم وأصحاب المهن ... إلخ كان ٣٥ عاماً في « ليفربول » عام ١٨٤٠ ، وذلك الذي لرجال الأعمال والحرفيين الأفضل حالاً ٢٢ عاماً ، وذلك الذي للعمال الصناع وعمال اليومية والطبقة الصالحة للعمل بشكل عام ١٥ عاماً فقط . إن التقارير البرلمانية تشمل على حشد من أمثال تلك الحقائق .

\* تقرير لجنة تقصى حالة المدن الكبرى والمناطق الآهلة بالسكان . صدر التقرير الأول عام ١٨٤٤ ، وله ملحق .

إن معدل الموت يظل عالياً إلى هذا الحد ، بسبب الوفيات الكثيفة بين صغار أطفال الطبقة العاملة أساساً . إن الهيكل الرقيق للطفل ، لا عجز من أن يقاوم المؤثرات الضارة ، لهذا التقدر المتدني من الحياة . إن الإهمال الذي كثيراً ما يتعرضون له ، عندما يعمل كلا الوالدين أو يموت أحدهما ، ليشأر لنفسه على الفور ، ولذا فليس من عجب أن يهلك أكثر من ٧٥٪ من أبناء الطبقة العاملة في «مانشستر» ، طبقةً لآخر تقرير إقتبسنا عنه ، قبل سن الخامسة ، بينما ٢٠٪ فقط من أطفال الطبقات العليا ، ٣٤٪ تقريباً من أطفال كل الطبقات في الأمة يموتون دون سن الخامسة \* . إن مقالة «الأرتيزان» ، والتي سبق الإشارة إليها عدة مرات ، تقدم معلومات أدق في هذا الصدد ، وذلك بمقارنة معدل الموت في المدينة ، والناجم عن كل مرض من أمراض الأطفال على حدة ، بمعدل الموت في الريف ، وبذا يثبت بشكل عام ، أن الأوبئة تهلك في «مانشستر» و «ليفربول» ثلاث أضعاف ما تهلك في المناطق الريفية ، وأن المؤثرات على الجهاز العصبي تتضاعف خمس مرات ، وأن اضطرابات المعدة تتضاعف ثلاث مرات ، بينما نسبة الوفيات الناجمة عن أمراض الرئات في المدينة إلى تلك التي في الريف ، هي ١:٢٥ . وتصل الحالات القاتلة للجدرى والحصبة والحمى القرمزية والسعال الديكي بين صغار الأطفال إلى أربعة أضعاف ، أما الماء فوق المخ فتلاث أضعاف ، والتشنجات العصبية عشرة أضعاف . ولتقديم مستند آخر مسلم به ، فإنني أرفق الجدول التالي ، والذي يبين أنه من بين كل ١٠.٠٠٠ شخص يموت ... \*\*

---

\* تقارير لجنة تقصى المصانع ، المجلد الثالث . تقرير «دكتور هاوكينز» عن «لانسكشاير» والذي ورد فيه ذكر «دكتور روبرتون» — رئيس هيئة الإحصاء في «مانشستر»  
 \*\* اقتبسها «دكتور وارد» من «تقرير اللجنة البرلمانية للمصانع» لعام ١٨٣٤ ، في كتابه «تاريخ الطبقات الوسطى والعاملة» . لندن ١٨٣٥ ، الطبعة الثالثة .



أكثر من ١٠٠

٩٠ - ٩٩

٨٠ - ٨٩

٧٠ - ٧٩

٦٠ - ٦٩

٤٠ - ٥٩

٢٠ - ٣٩

٥ - ١٩

تحت خمس  
سنوات

في « روث لاندشاير »

منطقة زراعية صحية

« اسيكس » منطقة زراعية

بها مستنقعات

مدينة « كارليسل » ٩، ١٧ - ١٧٨٧

قبل إدخال المصانع

مدينة « كارليسل » بعد

إدخال المصانع

« بريستون » مدينة صناعية

« لينز » مدينة صناعية

٣

١١٢

٩٣٨

١,٤٢٨

١,١٨٩

١,٢٩٩

١,٢٧٥

٨٩١

٢,٨٦٥

٣

١٧٧

٦٣٠

١,٠١٩

٩٦٣

١,٤٣

١,٥٢٦

١,١١٠

٣, ٥٩

٢٢

١٥٣

٥٣٣

٨٢٦

٩٤٠

١,٢٠١

١,٠٠٦

٩١١

٤,٤٠٨

١

٨٠

٤٥٢

٧٢١

٦١٧

١,١٤٣

١,٢٦١

٩٣٠

٤,٧٣٨

٣

٣٨

٢١٨

٥٣٢

٥٥٣

١,١١٤

١,٣٧٩

١,١٣٦

٤,٩٤٧

٢

٣٩

٢٢٥

٥١٢

٥٩٣

١,١٩٨

١,٢٢٨

٩٢٧

٥,٢٨٦

إن مؤثرات أخرى ، بالإضافة إلى الأمراض المتنوعة ، التي هي النتيجة الحتمية للإهمال والقهر الواقع حالياً على الطبقات الفقيرة ، تعمل على زيادة الوفيات بين الأطفال الصغار . إن على الزوجة ، في كثير من العائلات ، أن تعمل بعيداً عن المنزل ، مثلما يفعل الزوج ، وتكون النتيجة هي الإهمال التام للأطفال ، والذين إما أن تغلق عليهم الأبواب ، أو يعطوا الآخرين للعناية بهم . وبالتالي ، فإن هلاك المئات منهم بسبب مختلف ألوان الحوادث ، أمر لا يشير الدهشة . لا يوجد مكان آخر يدس فيه الأطفال بهذه الكثرة ، لا يوجد مكان آخر يقتل فيه الأطفال بهذه الكثرة ، بالسقوط وبالغرق وبالحرق ، كما يحدث في المدن الإنجليزية الكبرى . إن الوفيات الناجمة عن حروق النار أو الماء الساخن كثيرة بنوع خاص ، إن مثل هذه الوفاة تقع أسبوعياً على وجه التقريب في « مانشستر » خلال شهر الشتاء ، وهي كثيرة للغاية في « لندن » . رغم أن ما ينشر عن ذلك في الصحافة قليل . إن تحت يدي نسخة من « أريكل ديسباتش » الصادرة في ١٥ ديسمبر ١٨٤٤ . وطبتماً لما جاء فيها ، فقد وقعت ست حالات من أمثال تلك الحالات في المدة ما بين أول ديسمبر والسابع منه . إن هؤلاء الأطفال التعساء والذين يهاكون بطريقة بشعة ، إنما هم ضحايا فوضانا الاجتماعية والطبقات القابضة على الملكية ، والتي يهمها المحافظة على تلك الفوضى وإطالة أمدها . إن المرء لفي حيرة ، إن كانت تلك الميته لبشعة العذاب أيضاً ليست نعمة للأطفال ، تنقذهم من حياة طويلة من الكدح والتعاسة ، إنهم أثرياء بالمعاناة ، فقراء في المتعة . هكذا سارت الأمور طويلاً في إنجلترا ، والبورجوازية تقرأ في الصحافة يومياً عن تلك الأمور ولا تزعج نفسها أكثر من ذلك بها . لكنها لا تستطيع أن تشتكي بعد البرامين الرسمية وغير الرسمية التي استشهد بها هنا والتي لا بد معروفة لديها ، إن أنا أتهمتها صراحة بالقتل الاجتماعي العمد . على الطبقة الحاكمة أن تدرك أن تلك الأحوال الخيفة يجب إصلاحها ، وإلا فعليها أن تخضع إدارة المصالح العامة للطبقة العاملة . إن السبيل الأخير غير مرغوب فيه بأي حال من الأحوال ، أما عن المهمة السابقة فهي لا تملك القدرة اللازمة لها طالما ظل التعصب والتعيز البورجوازي معطلا للبورجوازية ، لأنها لو أبدت في النهاية ، بعد هلاك مئات وآلاف الضحايا ، قليلاً من القلق على المستقبل بإجازة «لائحة مباني العاصمة» (١٠) ، والذي سيقيد في ظله اكتظاظ الساكن الذي لا ضابط له ولو إلى درجة طفيفة

على الأقل ، ولأنها لو تباعث بإجراءات لا تلتقي بحال من الأحوال مع مطالب الأمن الصحي العام لبعدها عن مهاجمة جذور الشر ، فإنها لن تستطيع أن تبرىء نفسها من الإتهام . ليس هنالك أمام البورجوازية الإنجليزية إلا إختيار واحد ، إما أن تستمر بحكمها تحت تهمة القتل العمد التي لا تدحض ورغبتها ، وإما أن تتخلى لمصلحة الطبقة العاملة . وهي حتى الآن قد اختارت الطريق الأول .

دعونا نرجع من الحالة الصحية للعمال إلى حالتهم العقلية . إن البورجوازية تدعم عليهم بالقدر الضروري للحياة فقط ، وبالتالي فلا عجب عندما لا تمنحهم من التعليم غير القدر الذي تقتضيه مصالحها فقط ، وهو قدر في الحقيقة ليس بالكثير . إن وسائل التعليم في إنجلترا محجوبة عن الأهالي من كل النواحي . إن مدارس الأيام القليلة ، والتي في متناول الطبقة العاملة ، إنما هي متاحة فقط لأقل القليل ، وهي في ذات الوقت رديئة . إن المدرسين والعمال المهترئين وأناسا آخرين غير مناسبين ، هؤلاء الذين إتجهوا إلى التدريس بغية الحياة فقط ، إنما هم عادة معدومين من المعرفة الأولية الضرورية ، مجردين من التأدب الأخلاقي الذي يحتاجه المدرس تمام الحاجة ، كما أنهم في حل من الرقابة الشعبية . هنا أيضاً تسود المنافسة الحرة ، وكالعادة يكسب الأغنياء من ورائها ، أما الفقراء الذين « ليست » المنافسة حرة بالنسبة لهم ، كما أنهم يفتقدون المعرفة التي تمكنهم من تكوين حكم صائب ، فإنهم يتحملون النتائج الضارة . إن المواظبة على حضور المدارس الإلزامية لم تدم . وهي في المصانع كما سنرى ، إسمية تماماً . إن الوزارة عندما عازمت في دورة ١٩٤٦ على جعل هذا الإلزام الإسمي فعالاً ، عارضت البورجوازية الصناعية هذا التدبير بكل ما لها من قوة ، رغم أن الطبقة العاملة كانت تحبذ صراحة انتظام المدارس الإلزامية . يضاف إلى ذلك ، أن جمهرة من الأطفال تعمل طوال الأسبوع في المصانع أو في المنزل ، وبالتالي لم يكن في وسعها أن تنتظم في المدارس . كما أن المدارس المسائية ، والمفترض أن تمام الأطفال الذين يحملون خلال النهار بها ، كانت مهجورة أيضاً أو كان الذهاب إليها دون فائدة . إنه لكثير جداً ، أن نطلب من عمال صغار يستهلكون أنفسهم إثنتي عشر ساعة في اليوم ، ضرورة الذهاب إلى المدرسة من الثامنة إلى العاشرة مساء . ان الذين حاولوا الذهاب إلى المدرسة قد سقطوا نياماً ، كما يقر بذلك مئات الشهود في « تقرير لجنة تشيخيل الصيفية » . جتما

لقد أنشئت مدارس أيام الآحاد ، إلا أنها أيضاً مزودة بالمدرسين بطريقة شحيحة للغاية . إنها من الممكن أن تكون ذات فائدة ، فقط لهؤلاء الذين تعلموا شيئاً في المدارس النهارية . إن المدة بين يوم الأحد والأحد الذي يليه ، مدة طويلة على طفل جاهل ، حتى يتذكر في جلسته الثانية ما تعلمه في الجلسة الأولى منذ أسبوع مضى . إن « تقرير لجنة تشفييل الصربية » يقدم مئات الأدلة ، كما تعبر اللجنة ذاتها بكل قوة ، عن فكرة أنه لا مدارس اليوم الواحد خلال الأسبوع ، ولا مدارس أيام الآحاد ، تلتقي مع أدنى مستوى من مستويات احتياجات الأمة . إن هذا التقرير ليقدم الدليل ، على أن الجهل متفشى بين الطبقة العاملة الانجليزية على نحو يصعب توقعه في كل من أسبانيا أو إيطاليا . والأمر لا يمكن أن يكون غير ذلك . إذ ليس للبورجوازية غير القليل لتأمله ، والكثير لتخافه من تعليم الطبقة العاملة . إن الحكومة بكل ميزانيتها الهائلة والتي تبلغ ٥٥,٠٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني ، لا يوجد بها غير فقرة واحدة تافهة بمبلغ قدره ٤٠,٠٠٠ جنيه إسترليني للتعليم العام . إن ما يعتمد للتعليم ، لأقل بكثير من ذلك الذي يعتمد لحمل الناس على التعصب للطوائف الدينية ، والذي يضر بقدر ما يفيد على أقل تقدير . وكما يحدث ، فإن « كنيسة الدولة » تدير مدارسها الأهلية الرعوية ، وكذا تدير مختلف الطوائف الدينية مدارسها الخاصة بكل طائفة ، بهدف واحد ، هو المحافظة على أطفال أخوة المذهب في إطار الطائفة ، والعمل على الفوز بروح طفل بائس هنا أو هناك من طائفة دينية أخرى . والنتيجة ، أن الدين وبالتحديد أقل جوانب الدين جدوى ، الجانب الذي يناقش نواحي الخصومة ، هو الذي يستكون الموضوع الرئيسى للتعليم ، وتحمل ذاكرة الأطفال أكثر من طاقتها بعقائد جزئية غير حاسمة ، واختلافات لا هوية ، وبذا توظف الكراهية الطائفية والتعصب بصورة مبكرة للغاية ، وتهمل كل أعمال التشقيف الأخلاقية والذهنية العقلية بطريقة مخجلة . لقد طالبت الطبقة العاملة البرلمان بصورة متكررة ، أن يضع نظاماً صارماً من التعليم العلماني العام ، على أن تترك أمور الدين لتساوسة الطوائف الدينية ، إلا أن وزارة واحدة لم تتأثر بهذا الطلب إلى حد إجازته . إن الوزير هو خادم البورجوازية المطيع ، والبورجوازية نفسها مقسمة إلى عدد لا حصر له من الطوائف الدينية ، وكل طائفة منها على استعداد وهي سعيدة ، أن تمنح العمال هذا التعليم الخطر ، ولها شرط واحد ، هو أن يقبل العمال كعلاج شاف لهم ، العقائد

المعينة الخاصة بالطائفة المعينة . وحيث أن تلك الطوائف ما تزال تتشاجر فيما بينها ، كل تسعى للتفوق على الطوائف الأخرى ، فإن العمال سوف يظلون دون تعليم حالياً . حتماً أن أصحاب المصانع يفاخرون بأنهم قد مكثوا الغالبية من تعلم القراءة ، إلا أن نوعية القراءة تناسب مصدر التعليم ، كما تبرزه « لجنة تشغيل الصبية » على ذلك . إذ طبقاً لهذا التقرير ، يصبح من يعرف أحرف الكتابة قادراً على قراءة ما يكفي لإراحة ضمير أصحاب المصانع ، إن من يمعن التفكير في علم هجاء اللغة الإنجليزية المشوش ، والذي لا يمكن تعلمه أيضاً إلا بعد مرحلة طويلة من التفقه ليتمكن المرء من قراءة واحدة من الآداب ، سوف يدرك على الفور مدى هذا الجهل . إن القليلين جداً من العمال هم الذين يكتبون في سرعة ، والكتابة طبقاً لعلم الهجاء تتجاوز قدرات العديد من « المتعلمين » أيضاً . إن مدارس « كنيسة الدولة » ، لأيام الأحاد ، ومدارس « الكويكرز » وطوائف دينية أخرى ، لا تعلم الكتابة كما اعتد « لأنها وظيفة دنيوية للغاية بالنسبة لمدارس الأحاد » . إن نوعية التعليم الذي يقدم إلى العمال من اتجاهات أخرى ، يمكن الحكم عليه من نموذج أو اثنين مأخوذين من « تقرير لجنة تشغيل الصبية » ، والذي لا يشتمل مع الأسف ، على التشغيل الصناعي الخالص : —

يقول « جرانجر » عضو اللجنة : إن الأطفال الذين قمت بفحصهم في « بير مينجهام » هم بشكل عام مفتقرين إلى أدنى درجة مما يطلق عليه اسم التعليم المفيد . ورغم أن التعليم الديني وحده ، هو الذي يقدم في كل المدارس تقريباً ، فإن الجهل العميق بهذا الموضوع سائد أيضاً — ويقول « هورن » عضو اللجنة ، لقد وجدت المثال ضمن أمثلة أخرى في « وولفرهامبتون » ، إنه عن فتاة في الحادية عشر من عمرها ، إنتظمت في حضور المدارس النهارية ومدارس أيام الأحاد . « إنها لم تسمع عن أى عالم آخر ، لم تسمع عن السماء أو عن أى حياة أخرى » فتى في السابعة عشر من عمره ، لا يعرف أن ضعف اثنين هو أربعة ، كما لا يعرف كم فلسافياً في بنسبين ، حتى بعد أن وضعت النقود في يده . إن أولاداً عديدين لم يسمعوها البتة عن « لندن » أو « ويلينجهول » ، رغم أن الأخيرة لا تبعد أكثر من ساعة عن منازلهم وعلى أقرب صلات بـ « وولفرهامبتون » . عديدون لم يسمعوها البتة . اسم الملكة ، ولا أسماء أخرى « مثل نيلسون » و « ويلينجتون » ، « وبونايرت » .



بل مما كان ملفتاً للنظر ، هو أن هؤلاء الذين لم يسمعوا أبداً عن « سانت يول » ، و « موسى » و « سليمان » ، كانوا على علم تام بحياة وأعمال وشخصية « ديك تيرين » . قاطع الطريق ، وكذا « جاك شيبارد » اللص ومخطم السجون . إن شاباً في السادسة عشر لا يعرف كم يساوي ضعف إثنين ، ولا كم تساوي أربعة فلسات . وآخر في السابعة عشر يؤكد أن أربعة فلسات هي أربعة أنصاف البنس ، وشاب في السابعة عشر أجاب على عدة أسئلة سهلة للغاية بعبارة موجزة ، وهي « أنه لا يعرف شيئاً » \* . إن هؤلاء الأطفال الذين حشوا بالعقائد الدينية مدة أربع أو خمس سنوات ، لا يعرفون في النهاية أكثر مما كانوا يعرفون في البداية . إن طفلاً « إنتظم في الذهاب إلى مدارس أيام الآحاد مدة خمس سنين ، لا يعرف من هو يسوع المسيح ، إلا أنه قد سمع عن هذا الإسم ولم يسمع أبداً عن الحواريين الاثني عشر ، « شمشون » ، « موسى » ، « عيرون » ... الخ\*\* وآخر حضر بانتظام مدارس الآحاد سبع سنوات ، يعرف من كان يسوع المسيح وأنه مات على الصليب فداء عنا ، لكنه لم يسمع أبداً عن « سانت بيتر » أو « سانت يول »\*\*\*

وثالث كان يتردد على عدد مختلف من مدارس أيام الآحاد مدة سبع سنوات ، يستطيع أن يقرأ فقط ، الكتب الخفيفة السهلة ذات الكلمات البسيطة والمقطع الهجائي الواحد ، وهو قد سمع عن الحواريين ، لكنه لا يعرف إن كان « سانت بيتر » شخصية مستقلة أم أنه هو نفسه « سانت جون » الذي لابد أن يكون هو « سانت جون ويسلي »\*\*\*\* وتلقى « هورن » الإجابات التالية من بين ما تلقاه من إجابات أخرى ، عن سؤاله ، عن كان المسيح : « كان آدم » ، « كان حوارياً » . « كان المخلص ابن الله » . وأجابه شاب في السادسة عشر بقوله « كان ملكاً على لندن منذ زمن بعيد » . وفي « شيفيلد » دعا « سيمونس » عضو اللجنة ، أطفال مدارس الآحاد للقراءة بصوت عال ، غير أنهم عجزوا عن أن يقولوا ماذا قرأوا ، وأي نوع من الناس كان الحواريون رغم أنهم كانوا يقرأون للتو عنهم . وبعد

---

\* « تقرير لجنة تشغيل الصبية » ملحق الجزء الثاني ، سؤال ١٨ ، رقم ٢١٦ ، ٢١٧ .

٢٢٦ : ٢٣٣ الخ « هورن »

\*\* شهادة بنفس المرجع السابق صفحة سؤال رقم ٣٩ ، الجزء الأول صفحة ٣٣

\*\*\* نفس المرجع السابق صفحة سؤال رقم ٣٦ ، الجزء الأول صفحة ٤٦

\*\*\*\* نفس المرجع السابق صفحة سؤال رقم ٣٤ ، الجزء الأول صفحة ٥٨

أن سألهم واحداً بعد الآخر عن الحواريين ، دون أن يحصل على إجابة واحدة صحيحة ، صاح واحد منهم صغير السن خبيث النظرات ، في مرح هائل ، « إننى أعرف من هم ياسيدى ، إنهم هؤلاء الذين أصابهم الجذام »\* وجاءت نفس التقارير من « لانكشاير » ومناطق صناعة الفحم .

هذا ما تفعله البورجوازية والدولة لتعليم وتطوير الطبقة العاملة . إلا أن الظروف التى تعيش هذه الطبقة فى ظلها ، تمنعها لحسن الحظ نوعاً من التثقيف العملى ، لا يحل فقط محل ما تحشوه هذه المدارس ، لكنه أيضاً ، يجعل الهوس الدينى المشوش المرتبط به غير ضار ، بل إنه حتى يضع العمال فى طليعة الحركة الوطنية الإنجليزية . إن الحاجة هى أم الاختراع ، وما الذى يفوق الفكر والعمل حتى الآن . إن العامل الإنجليزي الذى يقرأ بالكاد والذى يكتب أقل مما يقرأ ، ليعرف رغم ذلك ، وبصورة جيدة للغاية ، أين تكمن مصلحة ومصلحة الأمة . إنه يعرف أيضاً ، ما هى المصلحة الخاصة للبورجوازية ، وماذا عليه أن يتوقع من تلك البورجوازية . إنه وإن لم يكن قادراً على الكتابة ، إلا أنه قادر على الكلام ، والكلام علناً ، إنه وإن لم يكن يعرف الحساب ، غير أنه قادر رغم ذلك على أن يسوى حسابه مع رجال الإقتصاد السياسى ، بما يكفي ليتعرف على البورجوازية الذى يعمل على إلغاء « قانون القمح » ، وأن يتغلب عليه بالجدل . وإن ظلت الأمور السماوية محتلطة عليه تمام الاختلاط رغم كل جهود الوعاظ ، فإنه يرى الأمور الدنيوية والسياسية والاقتصادية بوضوح أكثر . وسوف تكون لدينا الفرصة مرة أخرى للإشارة إلى هذه النقطة . . ولنتصرف الآن إلى الصفات الأخلاقية لعمالنا .

إن كون التعليم الأخلاقى بلا تأثير أفضل من التدريس الدينى ، مسألة غاية فى الوضوح ، فكلاهما يمتزج بالآخر فى كل المدارس الإنجليزية . إن المبادئ البسيطة بالنسبة لبسطاء البشر وهى التى تنظم علاقات كل إنسان بالآخر ، قد أصبحت غاية فى التعقيد بسبب حالتنا الاجتماعية وحرب كل مناصد الجميع ، وستظل بالضرورة ، عندما تخرج بعقائد غير مفهوم ، يبشر بها فى شكل دينى على صورة

---

\* ملحق تقرير « سيمونس » ، الجزء الأول ، صفحة ٢٢ وما يتلوها .

أحكام عائلية تعسفية ، أمراً غامضاً وغريباً على العامل . إن المدارس لم تقدم تقريباً ، وطبقاً لإغراء كل السلطات وخاصة « لجنة تشغيل النسبية » ، أى عون لأخلاق الطبقة العاملة . إن البورجوازية الإنجليزية بصلافها وأنايتها قصيرة النظر للغاية ، ضيقة الأفق في غباء ، إلى حد أنها لا تتعجب نفسها في تطبيع العمال بآداب اليوم ، تلك الآداب التي قامت هي بترتيبها طبقاً لمصالحها وبهدف حماية نفسها . حتى هذا الإجراء الوقائي ، يشكل للبورجوازية الواهنة الكسولة جهداً كبيراً للغاية . وليسوف يأتى وقت تندم فيه البورجوازية على إهمالها ، إلا أن الوقت حينذاك يكون متأخراً للغاية . غير أنه لا يحق لها ، أن تشتكى من أن العمال لا يعرفون شيئاً عن نظامها الأخلاقي ، وأنهم لا يتصرفون طبقاً له .

وهكذا فإن الطبقة التي بيدما السلطة قد تبنت وتجاهلت العمال أخلاقياً ، وبنفس القدر صحياً وعقلياً . ان الاحتياط الوحيد الذى أعد لهم هو القانون ، يطبق عليهم إن هم أصبحوا مؤذنين للبورجوازية . إنهم يعاملون كما تعامل أغبي الوحوش ، يعالجون بنمط واحد في التعليم ، هو السوط في صورة القوة . بالقاء الرعب في القلب لا بالإقناع . ومن هنا ، فليس هناك ما يثير الدهشة ، إن غدا العمال وحوشاً بالفعل طالما يعاملون هكذا ، أو أن يحافظوا على وجدانهم البشرى إن استطاعوا ، وإن يكون ذلك إلا باحياء أشد الكراهية تأججاً ، وأشد أنواع التمرد الداخلى الذى لا ينقطع ، ضد البورجوازية المسككة بالسلطة . إنهم رجال فقط ، طالما ظلوا يشتغلون بالسخط ضد الطبقة التي تكبرهم . إنهم يصيرون وحوشاً في المحلة التي يميلون فيها إلى الصبر تحت النير والعبودية ، وإلى جعل الحياة محتملة ، في الوقت الذى يتخلون فيه عن بذل كل جهد لتحطيم هذا النير .

هذا إذن هو كل ما فعلته البورجوازية لتعليم البروليتاريا — وعندما نضع في اعتبارنا كل الظروف التي تعيش تلك الطبقة في ظلها ، فإننا لن نفكر في سوءاتها بسبب ما تكنه من حنق ضد الطبقة الحاكمة . إن المران الأخلاقي الذى لا يعطى للعامل في المدرسة ، لا تمدد به أيضاً ظروف حياته الأخرى ، ذلك المران الأخلاقي الذى له على الأقل إعتبار في عيني البورجوازي . إن وضع العامل السكى والظروف التي تحيط به ، تتضمن أقوى عوامل الإغراء على فساد الأخلاق .

إن العامل فقير ، والحياة لا تقدم له أية صورة من صور البهجة ، بل تكاد تنكر عليه كل أنواع المتع . إن عقوبات القانون لم تعد ترعبه ، فلماذا يكبح رغباته ، لماذا يترك للغنى التمتع بحقه المكتسب بحكم المولد ، لماذا لا يمسك لنفسه بجزء منه ؟ أى واحد من المخريات يتوجب على البروليتارى ألا يسرقه ؟ من الممتع والمناسب تماماً لأذن البورجوازي أن تسمع تأكيد « تمديس الملكية » ، إلا أن تمديس الملكية بالنسبة للبروليتارى ، وهو الذى لا يمتلك شيئاً ، يذوى من تلقاء نفسه . إن المال هو إله هذا العالم ، وبأخذ البورجوازي مال البروليتارى ، فإنه يجعل منه ملاحداً من الناحية العملية . فلا عجب إذن ، إن احتفظ البروليتارى بالحاده وكف عن إحترامه قدسية وقوة هذا الإله الأرضى . وإذا ما تكثف فقر البروليتارى إلى حد الافتقار الحقيقى لأبسط ضرورات الحياة ، إلى حد الحاجة والجوع ، فإن الإغراء باحتقار النظام الاجتماعى كله يكتسب قوة . إن البورجوازي يعرف ذلك الأمر أفضل المعرفة . ويلاحظ « سيمونس » \* ، أن الفقر يمارس على العقل نفس التأثير المدمر الذى يمارسه الخمر على البدن . ويشرح « دكتور اليسون » فى دقة تامة إلى القراء أصحاب الملكية ، ماذا يمكن أن تكون نتائج التقهر الاجتماعى على الطبقة العاملة\*\* . إن الحاجة تترك العامل أمام إختيار بين الموت جوعاً فى بطىء ، أو قتل نفسه فى سرعة ، أو أخذ ما يحتاجه حيثما يجده — أى فى إنجليزية واضحة ، أن يسرق . وليس هنالك ما يدعو للدهشة فى أن غالبية العمال تفضل السرقة على الموت جوعاً أو الانتحار .

حتماً ، يوجد بين الطبقة العاملة أعداد على خلق ، لا تسرق حتى وإن تدهور حالها إلى أقصى حد ، وهؤلاء يموتون أو ينتحرون . إن الانتحار الذى كان من قبل امتيازاً تحصل عليه الطبقات العليا ، قد غدا « موضحة » بين العمال الانجليز . إن أعداداً من الفقراء تقتل نفسها تجنباً للشقاء الذى لا ترى منه مهرباً . إلا أن ما يؤثر على العامل الإنجليزى تأثيراً يخط من معنوياته أكثر بكثير من تأثير الفقر ، هو قلقه على وضعه ، هو ضرورة الحياة على أجور تذهب من اليد إلى الفم . إن

\* « الصنائع والصنائية » .

\*\* « المبادئ الأولية للسكان » المجلد الثانى صفحات ١٩٦ ، ١٩٧ .

ذلك في إيجاز هو ما يصنع منه بروليتاريا . إن الفلاحين الأدنى وضعا في ألمانيا هم فقراء في العادة ، وهم غالباً ما يعانون الحاجة ، إلا أنهم على نحو أقل ، تحت رحمة الصدفة . ان لديهم على الأقل ما يؤمنهم . ان البروليتاري الذي لا يملك شيئاً غير يديه ، والذي يستهلك اليوم ما كسبه بالأمس ، والمعرض لكل مصادفة محتملة ، والذي ليس لديه أقل ضمان لكسب ضرورات الحياة المجردة ، والذي يمكن لكل أزمة أو نزوة طارئة من صاحب العمل أن تحرّم من الخبز ، لهو في أشد حالات اللاإنسانية إثارة للإشمئزاز ، أشد الحالات التي يمكن تصورها للبشر . ان المصالح الخاصة للسيد تفرض للعبد معاشه المجرد ، كما أن لدى الغني على الأقل كسرة أرض يعيش عليها ، كل لديه في أسوأ الأحوال ضماناً لحياته ذاتها . إلا أنه على البروليتاري أن يعتمد على نفسه فقط ، ومع ذلك ، فهو ممنوع من استخدام قدراته حتى يكون في وسعه أن يعتمد عليها . إن كل ما يفعله البروليتاري لتحسين وضعه ، لا يزيد عن كونه نقطة في محيط ، إذا ما قورن بقيض الفرض المتغيرة التي يمرض لها ، والتي لا يملك عليها أدنى سلطان . إنه الشيء السلي في كل تراكيب الأحوال المحتملة ، وعليه أن يعتبر نفسه مخلوقاً ، إن هو أنقذ حياته ولو لفترة من الزمن قصيرة ، وبالطبع فإن تلك الأحوال تشكل شخصية وطريقة في الحياة . عليه إما أن يحافظ على رأسه فوق الماء في تلك الدوامة ، أن ينقذ آدميته ، وهو يستطيع أن يفعل ذلك ، إن تمرد \* ضد الطبقة التي تنهبه بلا رحمة ثم تنبذه لمصيره ، الطبقة التي تجتهد للإمساك به في وضعه هذا الذي يفسد أخلاقيات أي من البشر ، أو أن يكف عن صراعه ضد مصيره كإنسان بلا أمل ، ويجاهد كي يربح قدر ما يستطيع ، مستغيداً من أفضل الملاحظات ملائمة . إن الإدخار بالنسبة إليه أمر غير متيسر ، لأنه لا يستطيع في نهاية الأمر ، أن يوفر أكثر مما يوفي حاجته في مواجهة الحياة إلا لفترة من الزمن قصيرة ، بينما لو طرد من العمل ، فلن يكون هذا الطرد لفترة قصيرة من الزمن . إن جميعه ملكية دائمة لنفسه أمر مستحيل ، وإن إنتفت تلك الإستحالة ، فإنه لا بد وأن يكف عن كونه عاملاً ، ولا بد أن يحل آخر محله . ما هو الشيء الأفضل الذي في وسعه أن يفعله

---

\* سنرى فيما بعد ، كيف تمردت الطبقة العاملة ضد البورجوازية في إنجلترا قانوناً عن طريق حق الاتحاد



إذا ما حصل على أجر أعلى غير أن يحيا به حياة جيدة ؟ إن البورجوازية الإنجليزية قد فضحت بشدة ، بسبب الحياة المرفقة التي يحياها العمال عندما تكون الأجور عالية ، ومع ذلك فإن هذا الأمر طبيعي للغاية ، ليس هذا فقط ، بل هو معقول للغاية أيضاً عندما يصدر عنهم ، إذ أنهم يتمتعون بالحياة حين يقدرّون ، بدلاً من حفظ مدخرات ليس لديهم إستخدام دائم لها . وفي النهاية تضع ( البورجوازية ) يدها عليها بعد أن تكون قد تسوست وصدأت . إن ما يقوله « كارليل » عن غزالي القطن ، لينطبق على كل العمال الصناعيين الإنجليز \* « إن لحرقهم طبيعة المقامرة ، إنها الآن واحة الرخاء ، وعمّا قريب تهبط إلى خواء و « وقت مختزل » إنهم يعيشون بها كالمقامرين ، آنأ في إشراف مترف وآنأ في مجاعة . إن السخط الثوري الأسود يلتهمهم ، وفي بساطة ، أبأس المشاعر التي يمكن أن تقطن قلب إنسان . إن التجارة الإنجليزية باتساعها العالمي وتقلباتها المتخبطة ، والجنون « البروتسي » غير المحدود « لبخارها » ، تجعل كل الطرق أمامهم مهمة غير مأمونة ، كل الحياة حيرة ، إن المجتمع والرسوخ والاستمرار في دعة وسلام ، والنعم الأولى للإنسان ، ليست لهم . إن هذا العالم ليس موطنهم ، أنه سجن قذر ، من سوء التدبير الذي لا يبالى بالعواقب ، للعصيان ، للهدم الدفين ، للتحقير ضد أنفسهم وضد كل الناس . إنه عالم مزدهر أخضر ، تمتد فوقه سماء لازوردية أبداً ، العمل والحكومة فيه من صنع الإله . أو عالم قائم محترق ، عالم من أبحرة كبريتات الحديد وزغب القطن وغواية الجن والكدح والسخط الشديد ، عالم من خلق الشيطان وتحت حكمه ؟ »

وفي موضع آخر \*\*\* .

« أن يكون الظلم ، والكفران بالحقيقة والواقع ونظام الحياة هي الشرور الوحيدة تحت الشمس ، وأن يكون الشعور بالظلم هو الألم الوحيد الذي لا يطاق تحت الشمس ، فإن سؤالنا الكبير عن حال هؤلاء العمال سيكون : هل ذلك عدل ؟ وقبل كل شيء ، أي معتقد قد كونه هؤلاء بأنفسهم عن العدل ذاته ؟ إن الكلمات التي يعانونها تتضح من طريقة الإجابة ، كما أن أفعالهم ما تزال أكثر وضوحاً ،

\* « الميثاقية » صفحة ٣٤ وما بعدها .

\*\*\* « الميثاقية » صفحة ٤٠ .

أن الثورة ، والفكاهة الكنيكية الحاكمة ضد الطبقات العليا ، وتناقض احترامهم  
لأوامر رؤسائهم الديويين ، وتناقض إيمانهم بما يعمله لهم رؤساؤهم الروحيين ،  
تزداد أكثر فأكثر ، لتصبح هي الروح العامة للطبقات الدنيا . يمكن لهذه الروح  
أن تلام أو أن تبرر ، لكن يجب أن يعرفها الجميع كما هي كائنة هناك ، ربما يعرف  
الجميع أنها مفجعة ، لكنها ستخدو قاتلة إن لم تتغير .

إن « كارليل » مصيب تماماً فيما له علاقة بالحقائق ، إلا أنه مخطيء فقط في  
انتقاده غضب العمال الجاهل ضد الطبقات الأعلى . إن هذا الغضب ، هذا الانفعال ،  
إنما هو بالأحرى دليل على شعور العمال بحالتهم غير الإنسانية . إنهم يرفضون  
أن ينزل بهم إلى مرتبة الوحوش ، إنهم يؤمنون ، سيحررون أنفسهم من عبودية  
البورجوازية . إن هذا أمر يمكن رؤيته في هؤلاء الذين لا يشاركون في هذا  
الخطط الشديد ، إنهم إما أن ينحنوا في ذلة أمام القدر الذي يغشاهم ، يعيشون على  
قدر ما يستطيعون حياة خاصة محترمة ، لا يشغلون أنفسهم بمجرى الأمور العامة ،  
يساعدون البورجوازية على طرق سلاسل العمال على نحو أكثر أحكاماً ، ويقفون  
عند المستوى الذي كان يقف عنده لغو المثقفين والذي ساد قبل أن تبدأ المرحلة  
الصناعية ، وإما أن يدفع بهم القدر ، فيفقدون قبضتهم الأخلاقية على أنفسهم ،  
كما سبق وفقدوا قبضتهم الاقتصادية ، يعيشون من يوم ليوم ، يشربون ويسقطون  
من الخلاعة ، وهم في كلا الحالتين وحوش . إن هذه الطبقة التي ذكرت أخيراً ،  
إنما تعاون أساساً في « الزيادة السريعة للخطيئة » ، والتي تفزع منها البورجوازية  
أشد الفزع ، بعد أن حركت بنفسها العوامل التي تؤدي إليها .

إن مصدراً آخر من مصادر فساد الأخلاق بين العمال ، هو كونهم محكوم  
عليهم بالعمل . إن النشاط المنتج الاختياري هو قمة المتعة المعروفة لنا ، وبالتالي  
فإن الكدح الإجباري هو أشد عتاب ، قاس ومهين . ليس هنالك أشد بشاعة  
من أن تضطر إلى فعل شيء واحد كل يوم من الصباح إلى المساء ضد إرادتك .  
وكما إزداد إحساس العامل بنفسه ، كلما زادت بالضرورة كراهيته لعمله ، لأنه  
يحس بالقيد ، ويحس بأن هذا العمل لا يحقق له هدفاً . لماذا يعمل ؟ هل يعمل  
حباً في العمل ، هل هنالك حافز طبيعي وراء ذلك ؟ ليس الأمر كذلك أبداً .  
لأنه يعمل من أجل النمود ، من أجل شيء لا علاقة له ، على أي حال ، بالعمل ذاته .

إنه يعمل طويلاً وبطريقة متصلة الرتبة أيضاً ، حتى أن هذا وحده كفيلاً بأن يجعل عمله عذاباً له منذ الأسابيع الأولى ، إن كانت ما تزال لديه أقل بقية من المشاعر الإنسانية . إن تسميم العمل قد ضاعف التأثيرات الوحشية على العمل الإجبارى . إن نشاط العمال فى معظم الفروع يختزل إلى شىء من الممارسة التى لا يعتد بها ، ممارسة آلية خالصة تتكرر دقيقة بعد دقيقة ولا تتغير عاماً بعد عام \* . ما مدى مشاعر الإنسان ، وأى قدرات يمكن أن يحتفظ بها الرجل فى سن الثلاثين ، هذا الرجل الذى يصنع رؤوس الإبر أو صف من عجالات منسنة ، مدة إثنتى عشرة ساعة كل يوم منذ طفولته المبكرة ، ويعيش طوال الوقت فى ظل الظروف المفروضة على البروليتاريا الانجليزية ؟ إن نفس الشىء ما يزال قائماً منذ أدخل البخار . إن كد العمال قد صار أيسر ، وفر الجهد العضلى ، إلا أن العمل ذاته قد غدا بلا مقصد ورتيب إلى أقصى الحدود . إنه لا يقدم أى مجال للنشاط الذهنى ، وهو يشد من انتباه العامل ليحتفظ به بعيداً عن التفكير فى أى شىء سواه . إن العمل يأخذ منه كل وقته ، تاركاً له بالكاد وقتاً للمأكل والنوم ، ولا وقت للتمارين الرياضية فى الهواء الطلق أو الاستمتاع بالطبيعة ، والنذر اليسير للنشاط الذهنى . هكذا يجازى العامل على عمله هذا . كيف يمكن لمثل هذا الجزاء أن ينحدر بالإنسان إلى مستوى البهيمة ؟ مرة أخرى يتوجب على العامل إما أن يستسلم لمصيره ، وأن يصبح عاملاً « طيباً » يلتفت « بإخلاص » إلى مصلحة البورجوازية ، وبذا يصبح على وجه اليقين تقريباً بهيمة ، وإما أن يتمرد ، ويحارب من أجل إنسانيته حتى النهاية ، ولن يكون فى وسعه فعل ذلك إلا أن ناضل ضد البورجوازية .

وعندما تنتج كل تلك الأحوال فساداً خلقياً عريضاً بين العمال ، فإن تأثيراً جديداً يضاف إلى التدمير ، لينشر هذا التحقير على مدى أوسع ، وليحمل إلى أقصى حدوده . ذلك التأثير هو مركزة السكان . إن كتاب البورجوازية الإنجليزية

---

(\*) هل استدعى شيوذاً بورجوازيين ليشهدوا معي أيضاً ؟ لقد إقتصرت على واحد فقط ، واحد يمكن أن يقرأ له الجميع ، أنه ( آدم سميث ) فى ( ثروة الأمم ) . طبعة « ماك كروك » ، المجلدات الأربعة ) ، المجلد الثالث ، الكتاب الخامس : الفصل الثامن ، صفحة ٢٩٧ .

يطالبون بالفتك بالاتجاه اللا أخلاقي للمدن الكبرى . إنهم مثل « جرمياس » الضال ، يغنون المراثي على نمو المدن الكبرى لا على دمارها . إن الشريف « اليسون » يتهم كل شيء تقريباً ، أما دكتور « فوجان » مؤلف « زمن المدن الكبرى » ، فيحمل هذا التأثير قدراً أكبر من المسؤولية . وهذا أمر طبيعي ، حيث أن الطبقة المالكة ذات مصلحة مباشرة للغاية في الأوضاع الأخرى التي تؤدي إلى تحطيم جسد العامل وروحه . إذ لو كان عليهم أن يقرروا بأن « الفقر والقتل والإرهاق والعمل الإجباري هي المؤثرات الأساسية المدمرة » ، لكان عليهم أن يستخلصوا الخاتمة « إذن دعونا نعطي الملكية للفقراء ، ونضمن معاشهم ، ونضع القوانين ضد الإرهاق » ، وذلك أمر لا تجسر البورجوازية على صياغته . إن المدن الكبرى قد نمت بصورة تلقائية . انتقل السكان إليها بحركتهم الخاصة تماماً . والنتيجة أن الصناعة ، والطبقة الوسطى التي تكسب منها وحدها ، قد خلقت المدن منعزلة تمام العزلة ، وغداً مريحاً للغاية للطبقة الحاكمة ، أن ترجع كل الشر إلى هذا المصدر الذي يصعب تجنبه ، حيث أن المدن الكبرى حتماً ، تكفل فقط نمواً مؤكداً وأكثر سرعة للشروط التي وجدت بالفعل عند المنشأ . إن « اليسون » إنساني إلى حد الإقرار بهذا ، إنه ليس صاحب مصنع ليبرالي كريم المحتد ، إنه فقط بورجوازي نصف متطور من حزب المحافظين ، وبالتالي فهو يملك بين الحين والحين عيناً مفتوحة ، في الوقت الذي ما تزال فيه البورجوازية المكتسبة ريشاً مصابة بالعمى الشديد . دعونا نسمع ما يقول \* : —

« إنه في المدن الكبرى ، حيث تنشر الرذيلة إغراءاتها ، وترضى غواياتها ، وتمارس مفاتنها في طيش . حيث يشجع الإثم بأمل ألا يكون هنالك جزاء ، ويروج للتبطل بإعطاء المثل الوافر منه — إنه إلى مثل تلك الأسواق الضخمة من الفساد البشري ، أوت الدناءة والإسراف ، منبثقة من بساطة الحياة الريفية . إنه هنا حيث وجدوا ضحايا يارسون عليهم ظلمهم ، ومغانم تجازيهم عن المخاطر التي لازمتهم . الفضيلة هنا أخضعت للخمول الذي أغرقت فيه . الإثم بلغ رشده لصعوبة احتجازه . إن سار أي إمريء ليلا خلال « سانت جيلز » وحواري

(\*) « المبادئ الأولية للسكان » ، المجلد الثاني ص ٧٦ وما بعدها ، ص ٨٢ ،

« دبان » المكتظة، أو المناطق الأكثر فقراً في « جلاسجو » ، فإنه سيلتقي بالبرهان الكاف على تلك الملاحظات ، إن الدهشة لن تصيبه بعد ذلك لفوضى العادات والمتع الخليلة التي تمارسها الطبقات الدنيا ، إن دهشته سوف تكون لا لأن هناك الكثير جداً ، بل القليل جداً من الجريمة في العالم. إن السبب الأكبر لعفن البشر في مثل تلك المواقع المكتظة ، هو الطبيعة المعادية للنموذج الرديء ، والصعوبة القصوى لتجنب غوايات الرذيلة ، عندما تجلب بشكل وثيق ويومي إلى جوار القطاع الشاب من الناس . إن التجربة تبرهن ، أنه مهما كان تفكيرنا في قوة الفضيلة ، فإن الطبقات الأعلى مدينة بشكل أساسي ، إذ استثنيناها من الإثم الفاحش أو فوضى العادات ، لعزاتها المحنوظة عن مشهد الإغراء، تهاجم نقائصها حينما تتعرض للغوايات، وأنها في أيامنا الراعنة ، تأتي بعدهم في الخضوع لتأثيرها. إنه لمن سوء حظ الفقراء في المدن الكبرى ، أنهم لا يستطيعون الفرار من تلك الإغراءات التي لا تقاوم ، بل إنهم حينما يتجهون ، يلتقون بالصورة الجذابة للرذيلة أو غوايات التمتع بالإثم . لقد أثبتت التجربة استحالة تكتم مغريات الرذيلة عن شباب الفقراء في المدن الكبرى ، والتي تعرضهم للعديد من أسباب الفساد الخلق . إن هذا كله لا يصدر عن أي فجور شاذ أو غير معتاد في شخصية هؤلاء ضحايا الفسق ، لكنه في طبيعة الإغراءات التي يتعرض لها الفقراء ، والتي لا يمكن في الغالب مقاومتها . وعلى الأرجح فإن الأغنياء الذين ينتقدون مساكينهم سوف يخضعون بنفس السرعة كما خضعوا لتأثير أسباب مماثلة ، هنالك درجة معينة من الشقاء ، وجوار معين من الخطيئة ، يندر أن تصمد أمامه الفضيلة ، ولا يستطيع الشباب بوجه خاص ، مقاومته بشكل عام . إن تقديم الشر في مثل تلك الظروف مؤكد في الغالب ، وسريع على وجه التقريب. مثل العدوى الجسدية .

وفي موضع آخر ..

« عندما تضع الطبقات الأعلى ، الطبقات الأدنى ، بأعداد كبيرة في حيز صغير ، تحقيقاً لمنفعتهم ، فإن سريان الإثم يندو سريعاً ولا يمكن تجنبه . إن لوم الطبقات الأدنى ، وقد وضعت بعيداً عن الإهتمام بالتعليم الديني والأخلاقي ، لخضوعها للإغراءات التي تحيط بها إنما هو أكثر صعوبة من لومها على سقوط أفرادها ضحايا لحيث الفسوس » .



كفى ! إن « إديسون » نصف البورجوازي يفشى لنا ، مهما كانت طريقة تعبيره عن نفسه محدودة ، التأثير الخبيث للمدن الكبرى على التطور الأخلاقي للعمال . وهناك بورجوازي آخر ، خالص البورجوازية ، رجل على مزاج « جمعية مناهضة قانون القمح » ، هو « دكتور أندرو أور » ، \* ، يفشى لنا الجانب الآخر . لأنه يخبرنا أن الحياة في المدن الكبرى تيسر الدسائس بين العمال ، وتوفر السيطرة على الغوغاء . إذ لو كان العمال هنا غير متعلمين ( خضوعاً للبورجوازية ) ، فإنهم ربما يرون الأمور من جانب واحد ، من وجهة نظر أنانية شريرة ، وربما بادروا بالسماح للديماجوجيين الخبيثاء بأن يغرروا بهم ، كلا ، ربما غدوا قادرين حتى على النظر إلى الرأسماليين المقدامين الإقتصاديين ، أعظم أصحاب الفضل عليهم ، بعين غيورة عدائية . إن تعليم الخالص وحده يمكن أن يفيد هنا ، وإلا فسيل ذك الإفلاس الوطني والأهـوال الأخرى ، حيث يصعب أن تتم ثورة عمالية . وبورجوازيتنا محتمة تماماً في مخاوفها . إذ لو كانت مركزاً لسكان تحفز وتلهم الطبقة القابضة على الملكية ، فإنها تفرض أيضاً أن يكون العمال أكثر سرعة . سيدبأ العمال في الإحساس بأنفسهم عمرماً كطبقة ، سيدبأون بالإحساس أنه رغم ضعفهم كأفراد فهم يشكلون قوة في إتحادهم ، ويندمون إنفصالهم عن البورجوازية ، وتتطور وجهات نظر خاصة بالعمال تتفق ووضعهم في الحياة ، ويستتيةظ الشعور بالقهر ، ويحتمق العمال شأنًا اجتماعيًا وسياسيًا . إن المدن الكبرى هي مسقط رأس الحركات العمالية ، ففيها بدأ الأعمال أول مابدأوا تأمل حالتهم الخاصة ، والنضال ضدها ، وفيها أعلن عن نفسه أول تضاد بين البروليتاريا والبورجوازية ، ومنها إنبثقت الثورات والميثاقية والإشتراكية . لقد حرلت المدن الكبرى مرض الجسد الإجتماعي الذي ظهر في الريف من حالة مزمنة ، إلى مرض حاد . وبهذا أعلن عن طبيعته الحقيقية ووسائل علاجها . إنه لولا المدن الكبرى وتأثيرها المضاعط على عقل السكان ، لكانت الطبقة العاملة أقل تتدما بكثير مما هي عليه الآن . كما أنها بالإضافة إلى ذلك ، قد حطمت آخر العلاقات

---

\* « دافعة أصحاب المصانع » ، لندن ، ١٨٣٥ صفحة ٤٠٦ وما بعدها ، وسوف تكون لدينا فرصة مزيد من الإشارة إلى هذا الكتاب الشهير .

الابوية بين العمال ومستخدميه ، وهى نتيجة أسهمت الصناعة فيها بقدر كبير ، وذلك بمضاعفة العاملين المعتمدين على مستخدم واحد . والبورجوازية تتحسر على كل ذلك ، وهذا حق ، وهى لما دواعيها الصحيحة على ذلك ، لأن البورجوازية فى ظل الأوضاع القديمة ، كان آمناً بشكل نسبي ، ضد ثورة تنتج عما تصنعه يداها . كان فى وسعه أن يتجبر عليهم ، وينهبهم بما يرضى فؤاده ، ومع ذلك ، فإنه يتلقى من هؤلاء الأغبياء الطاعة والإمتنان والرضى بمنحهم ثمنأزهيداً هو صداقة الراعى ، والى لا تكلفه شيئاً ، وربما بعض المنح التافهة التى تبدو ظاهرياً من باب التضحية الذاتية الخالصة وطيبة قلب فائضة ، فى حين أنها فى الحقيقة لا تمثل عشر ما هو واجب عليه . إنه كبورجوازية فرد ، وضع فى إطار ظروف لم يخلقها هو بنفسه ، وفى وسعه أن يؤدى واجبه جزئياً على الأقل ، لكنه كعضو فى الطبقة الحاكمة ، والى هى من وانع حكماً كحقيقة مجردة مسئولة عن حال الأمة ، لم يفعل شيئاً مما يتضمنه وضوءه ، بل على عكس ذلك نهب الأمة كلها لمصلحته الفردية . وفى ظل العلاقة الابوية التى أخفت عبودية العامل بشكل مصطنع ، فإن هذا الأخير لا بد كان صفراً من الناحية الثقافية ، جاهلاً تماماً بمصلحته الخاصة ، مجرد فرد منزو . إن العامل عندما بعد عن مستخدمه ، عندما اقتنع بأن الرباط الوحيد بين صاحب العمل والشغال هو رباط الربح النقدى ، عندما تهاوى تماماً ذلك الرباط العاطفى والذى لم يصمد لأبسط إختبار ، حرف حينئذ فقط مصالحه وتطور مستقلاً ، وهو حينئذ فقط كف عن أن يكون عبداً للبورجوازية فى أفكاره ، فى مشاعره وطريقة التعبير عن إرادته ، لقد عاونت البورجوازية على نطاق واسع وبقدر كبير ، وفى المدن الكبرى ، على الوصول إلى تلك النهاية .

إن الهجرة الأيرلندية ، والى أشرنا إليها آنفاً ، إنما هى مؤثر آخر له أهمية كبرى فى تشكيل سمة العمال الإنجليز . إنها من ناحية ، كما رأينا ، حطت من مقام العمال الإنجليز ، أبعادتهم عن التحضر ، وفاقت مشقتهم ، لكنها من الناحية الأخرى ، ولهذا السبب ، عممت الهوة بين العمال والبورجوازية ، وعجلت باقتراب الأزمة . إن مسار المرض الاجتماعى الذى تعاني منه إنجلترا ، إنما هو كمسار مرض جسدى ، إنه يتطور طبقاً لقوانين خاصة وله أزمته الخاصة ، كما أن آخره وأعنفه

يقرر مصير المريض . وحيث أن الأمة الإنجليزية لا تستلجع أن تزرع تحت وطأة الأزيمة الأخيرة ، وعليها أن تخرج منها قدما ، تولد مرة أخرى وتجدد قواها ، فإنه يلزم علينا أن نبتجج لكل أمر يعجل من مسار المرض . ولتقدمت الهجرة الإيرلندية ، في هذا الصدد ، إمدادات إضافية ، ومرجع ذلك إلى المزاج الإيرلندي العائلي المتقلب والذي استوردته الهجرة معها إل إنجلترا وإلى الطبقة العاملة الإنجليزية . إن الإيرلنديين والإنجليز لبعضهما البعض ، مثلها الفرنسيين للألمان ، ومزج المزاج الإيرلندي الأكثر ليانا والأسرع هياما والأحد طبعها بذلك الإنجليزي الموزون المتعقل المشابر ، لا بد في المدى الطويل وأن ينتج خيرا لكلا منهما . كان في وسع الأنانية البورجوازية الإنجليزية تقظة أن تحافظ على قبضتها بقوة أكثر على الطبقة العاملة ، لو أن الطبيعة الإيرلندية السخية في الخلق ، التي تحكمها العاطفة أولا ، لم تتخلل وتلطف ما تتصف به الطبيعة الإنجليزية من عقلانية ، ومرجع ذلك جزئياً إلى اختلاط السلالات ، وجزئياً إلى الاتصال الطبيعي للحياة .

وإن نحن وضعنا كل ذلك في الاعتبار ، فإن صيرورة الطبقة العاملة إلى سلالة منفصلة كلية عن البورجوازية ، أمر لا يثير الدهشة ، إن ما هو مشترك بين البورجوازية وغيرها في كل الأمم الأخرى ، لاكثر مما بينها وبين العمال الذين تعيش في وسطهم . إن العمال يتكلمون لهجات أخرى ، ولهم أفكارهم ومثلهم الأخرى ، لهم عادات ومبادئ خلقية أخرى ، دين وسياسات أخرى ، مختلفة عن تلك التي للبورجوازية . وبالتالي فإنه توجد أمتان مختلفتان جذريا . إن عدم تشابههما يماثل الاختلاف الناجم عن السلالات المختلفة . ولقد عرفنا في القارة ، واحدة منهما فقط ، إنها البورجوازية . بينما الأخرى ، الشعب ، البروليتاريا ، هي بالتحديد الأكثر أهمية بكثير لمستقبل القارة\* .

---

\* إن فكرة انقسام المجتمع الإنجليزي إلى أمتين بسبب الصناعة على نطاق واسع ، فكرة تناولها « ديزرائيلي » كما هو معروف ، في روايته « سيبيل » أو « الأمتان » في نفس هذا الوقت تقريبا ( ملاحظة بالطبعة الألمانية لعام ١٨٩٢ ) .

ستكون لدينا الفرصة فيما بعد ، للحديث عن الشخصية العامة للعامل الإنجليزي كما عبر عنها في الجمعيات والمذاب السياسية . وانتأمل هنا نتائج التأثيرات التي ذكرت سابقاً ، حيث أنها تؤثر على الشخصية الخاصة بالعامل . إن العامل ، خلال الحياة العادية ، أكثر إنسانية بكثير من البورجوازي . لقد سبق وذكرت ، حقيقة أن المتسولين قد اعتادوا على قصر توجههم نحو العمال على وجه التقريب ، وأن العمال بشكل عام ، يقدمون أكثر مما تقدمه البورجوازية لإعاشة الفقراء . إن هذه الحقيقة ، والتي يمكن لأي أمرى أن يتحقق منها يومياً ، تتأكد بين حقائق أخرى على لسان «دكتور باركينسون» كاهن «مانشستر» الذي يقول : \*

« إن الفقراء يعطون لبعضهم البعض ، أكثر مما يعطى الأغنياء الفقراء . وأستطيع أن أثبت قولي هذا بشهادة واحد من الأطباء الأكبر منا سناً ، وأكثر مهارة وملاحظة وإنسانية ، إنه «دكتور باردسلي» والذي كثيراً ما أعلن ، أن المجموع السكلي لما يعطيه الفقراء لبعضهم البعض سنوياً ، يفوق ما وهبه الأغنياء في نفس الوقت » .

وتعبر إنسانية العمال عن نفسها باستمرار ، وفي رضا ، بأساليب أخرى أيضاً . لقد جربوا هم أنفسهم أوقات قاسية ، وبالتالي فإنه في وسعهم أن يتأثروا بهؤلاء الذين يعانون المشقة . إن كل أمرى بالنسبة لهم ، إنسان ، بينما ينظر البورجوازي إلى العامل على أنه دون الإنسان . إنهم أكثر إقبالا وتقرباً ومودة ، وأقل شراسة للمال رغم أن حاجتهم إليه أكثر بكثير من حاجة الطبقة القابضة على الملكية . إن النقود بالنسبة إليهم لا تساوي غير قيمة ما نشتره ، في حين أن لها عند البورجوازي قيمة فطرية ، قيمة إله . إنها هي التي تجعل من البورجوازي ذلك الأناي المنحط خطاف المال . إن العامل لا يعرف شيئاً عن تلك المشاعر الخاصة بتبجيل المال ، وبالتالي فهو يقبض عليه بصورة أقل من تلك التي يقبض البورجوازي بها عليه ، ذلك الذي يوجه كل نشاطه لخرص الربح ، والذي يجد

---

\* « عن الوضع ابراهن المقلين في مانشستر » . الخ تعليم الميجل «دكتور باركينسون» كاهن «مانشستر» ، الطبقة الثالثة ، لندن ومانشستر ، ١٨٤١ ، كتيب .

في أكوام حقائب أمواله غاية الحياة وهدفها . لذا فإن العامل أقل تعصباً بكثير ، كما أن عينيه أكثر صفاء عند رؤية الحقائق عن البورجوازي . إنه لا ينظر إلى كل الأمور من خلال منظور الأنانية الشخصية . إن تعليمه الخاطئ قد أنقذه من أعمال المحاباة الدينية . إنه لا يفهم الأسئلة الدينية ، وهو لا يرهق نفسه بها . إنه لا يعرف شيئاً عن التعصب الذي يلزم البورجوازي . وإن حدث وكان لديه أي دين ، فإن هذا الدين بالإسم فقط ، وليس لديه عنه أي تحليل نظري . إنه عملياً يعيش من أجل هذا العالم ، ويحاول جاهداً أن يستقر فيه . إن جميع كتاب البورجوازية يجمعون على هذه النقطة ، أن العمال غير متدينين ولا يترددون على الكنيسة . إن الذين يؤمل فيهم ، هم الإيرانيين وبعض كبار السن وأنصاف البورجوازيين والمشرفين وملاحظي العمال وأمثال ذلك . أما بين الكتلة فتكاد تسود لا مبالاة عامة بالدين ، أو على أقصى تقدير ، بعض آثار إيمان مجرد بالله ، إيمان غير ناضج ، لا يرقى لأكثر من مجرد كلمات ، أو خوف مبهم من الكلمات الكافرة المملحة . . الخ . إن لرجال الدين في كل الطوائف الدينية سمعة سيئة بين العمال ، رغم أنهم قد فقدوا تأثيرهم منذ وقت قريب . وعلى أي حال ، تكفي في وقتنا الحالي صرخة تقول . « إنه قسيس » ليقصى أحد رجال الدين عن منصة اجتماع عام . إن إفتقاد العامل للثقافة الدينية وغيرها ، مثل باقي الأحوال التي يعيش في ظلها ، يساعد في المحافظة عليه أكثر بعداً عن الحرج ، أكثر تحملاً من المذاهب الثابتة الموروثة والأفكار المسبقة ، أكثر حرية من البورجوازي الذي شبع بالتعصب الطبقي الذي صب فيه منذ شبابه المبكر . لا يوجد ما يمكن فعله مع البورجوازي ، إنه محافظ في الأساس ، وإن كان ذا مظهر ليبرالي كاذب . إن مصلحته مقيدة بمصاحبة الطبقة القابضة على الملكية ، إنه خامد بالنسبة لكل حركة نشطة ، إنه يفقد وضعه في طبيعة التطور التاريخي لاجتماعه . إن العمال يأخذون مكانه ، أولاً ، بالادعاء الصحيح ، ثم بالأمر الواقع .

إن كل هذا ، مع الحركة العامة المناسبة للعمال ، والتي سنتناولها فيما بعد ، يشكل الجانب الموات في شخصية هذه الطبقة . أما الجانب غير الموات ، فيمكن تلخيصه في إيجاز تام . إنه نتاج طبيعي للأنانية للعوامل التي سبق ذكرها . إن إدمان الشراب والشذوذ الجنسي والوحشية والاستهانة بحقوق الملكية ، هي



النقاط التي تتهم بها البورجوازية العمال . إن شربهم الخمر بشدة إنما هو أمر متوقع . إن « شريف اليسون » يؤكد ، أن حوالي ثلاثين ألفاً من العمال في « جلاسجو » يسكرون مساء كل سبت ، إن هذا التقدير بالتأكيـد غير مغال فيه . فـلـقـد كان هنالك منزل من بين كل إحدى عشر منزلاً من منازل تلك المدينة عام ١٨٣٠ ، ومنزل من كل عشرة عام ١٨٤٠ ، يدار كخمارة . ولقد دفعت رسوم إنتاج في إسكتلندا عن ٢٠٠٠ ر. ٣٠ ر. ٢ جالون من المشروبات الروحية في عام ١٨٢٣ ، وعن ٦٠٠٠ و ٦٢٠ و ٦ جالون في عام ١٨٣٧ ، وفي إنجلترا عن ١٠٠٠ و ٩٧٦ و ١ جالون في عام ١٨٢٣ ، ٧٠٠٠ و ٨٧٥ و ٧ جالون في عام ١٩٣٧ . إن « قانون البيرة » الصادر عام ١٨٣٠ والذي سهل فتح مشارب للبيرة ( حوانيت كل شئ كان ) والتي رخص لأصحابها ببيع البيرة لشربها في المنازل ، سهل إنتشار الإفراط في الشراب ، حتى أنه يمكن القول ، أنه قد حمل البيرة إلى باب بيت كل إنسان . يوجد في كل شارع تقريباً العديد من أمثال مشارب البيرة تلك ، كما أن منزلاً من كل منزلين أو ثلاثة ، لا بد وأن يكون بصورة مؤكدة حانوتاً من حوانيت « كل شئ كان » . وتوجد إلى جوار تلك ، حوانيت عديدة خفية ، أما كن سرية للشراب لا تحمل ترخيصاً ، معامل تقطير سرية عديدة للغاية ، وهي تنتج كميات كبيرة من المشروبات الروحية ، في بقع منعزلة نادراً ما تزورها الشرطة في المدن الكبرى . ويقدر « جاسكال » عدد تلك المعامل السرية في « مانشستر » وحدها بأكثر من مائة ، تنتج ١٥٦٠٠٠ جالون على الأقل . كما يوجد في « مانشستر » بالإضافة إلى ذلك ، أكثر من ألف مشرب عام يبيع كل أنواع المشروبات الكحولية ، أي أن نسبتها إلى عدد السكان أكثر بكثير من نسبتها في « جلاسجو » . إن نفس الأوضاع كائنة أيضاً في كل المدن الكبرى الأخرى . إن النظر بعين الاعتبار ، بعيداً عن النتائج العادية للإفراط في الشراب ، إلى الرجال والنساء وحتى الأطفال ، والأمهات اللواتي غالباً ما تكون أطفالهن على أذرعهن ، وهم جميعاً يتعاملون في تلك الأماكن مع أكثر ضحايا النظام البورجوازي حيلة ، مع اللصوص والنصابين والعاهرات ، عندما يفكر المرء بأن كثيراً من الأمهات يعطين الجين للأطفال المحمولين على أذرعهن ، فإن الآثار المفسدة للأخلاق بسبب التردد على مثل تلك الأماكن ، أمر لا يمكن إنكاره .

إن الإفراط في الشراب أمر يمكن رؤيته في أشد صورته وحشية ، في

أمسيات السبت ، وخاصة عندما تدفع الأجور ، ويتوقف العمل مبكراً إلى حد ما عن المعتاد ، وعندما تصب كل الطبقة العاملة من أحيائها الفقيرة إلى الشوارع العمومية الرئيسية. لقد كان من النادر ، عند خروجي في «مانشستر» ، في مثل تلك الليلة ، ألا ألتقي بأعداد مترنحة من الناس ، ورؤية آخرين يرقدون في مجاري المياه . ويتكرر نفس المنظر عادة مساء الأحد ، فقط في ضجة أقل . وعندما تنفذ نقود المخمورين فإنهم يتجهون إلى أقرب محل للرهونات ، والتي يوجد منها الكثير في كل مدينة — أكثر من ستين محلاً في «مانشستر» ، وعشرة أو اثني عشر في شارع واحد في «سالفورد» ، هو «شابل ستريت» — ويرهنون أي شيء يملكونه . ويعود عشية السبت فقط ليستعيد كومة الأثاث وملابس أيام الأحاد إن وجدت ، وأدوات المطبخ من دكان الرهونات . أكتفي نقود تتجول كما كانت دون إنقطاع تقريباً ، قبل أن يحل الأربعاء التالي ، حتى يقع في نهاية الأمر حادث ما يجعل استرجاعها النهائي أمراً مستحيلاً ، فتساقط صنفا وراء صنفا في قبضة المرابي ، أو حتى يحين حين ، يرفض فيه المرابي أن يعطى بنسأً واحداً فوق ما أعطاه على تلك الرهينة المستهلكة البالية . عندما يرى المرء مدى الإفراط في الشراب بين العمال في إنجلترا ، فإنه للتو يصدق قول «لورد أشلي» ، \* : — «بأن هذه الطبقة تنفق سنوياً قرابة خمس وعشرين مليوناً من الجنيهات الاسترلينية على المشروبات الروحية المسكرة ، والإساءة إلى الأحوال الخارجية ، والتدمير الخفيف للصحة البدنية والعقلية ، وتخریب كل العلاقات العائلية والذي يمكن بالفعل تخيل ما يتبعه . حقاً لقد قامت جمعيات الإمتناع عن المسكرات بفعل الكثير ، ولكن ماذا تكون آلاف قليلة من الممتنعين عن تعاطي المسكرات بين ملايين العمال ؟ . عندما مر الألب «ماتيو» الداعية الايرلندي للإمتناع عن المسكرات عبر المدن الانجليزية ، فإن من ثلاثين إلى ستين ألف من العمال قبلوا العهد ، غير أن غالبيتهم نقضت هذا العهد مرة أخرى خلال شهر واحد . إن إحصاء الإعداد الهائلة التي قبلت العهد في الثلاث أو الأربع سنوات الأخيرة في «مانشستر» ، ليوضح أن إجمالي الرقم يفوق العدد الكلي لسكان المدينة — ومع ذلك فإن الإفراط في الشراب لا يتناقص على الإطلاق .

---

(\*) ( شريف اليسون ) - ( المبادئ الأولية للسكان ) ، المجلد الثاني (ملحوظة في الطبعة الألمانية ) .

يلي الإفراط في متعة المشروبات الروحية المسكرة ، الإباحية الجنسية ، وهي واحدة من الأخطاء الأساسية للطبقة العاملة الإنجليزية ، غير أن ذلك ناتج أيضاً من منطق لا يرحم ، من ضرورة لا مفر منها ، إنها نابعة من وضع طبقة متروكة لذاتها ، دون أية وسائل تمكنها من إستخدام حريتها الإستخدام المناسب ، إن البورجوازية لم تترك للطبقة العاملة غير هاتين المتعتين ، بينما تحملها العديد من الأعمال والمشاق ، والنتيجة أن العمال يركزون كل طاقتهم على هاتين المتعتين ، مارسونهما إلى آخر مدى ، ويخضعون لهما بأكثر الطرق تسدياً ، حتى يحصلون على شيء ما من حياتهم . ماذا يتبقى لأناس ، إن وضعوا تحت ظروف تلجئهم للبهيمية فقط ، إلا أن يقاوموا أو يستكينوا للبهيمية التامة ؟ وعندما تسهم البورجوازية بالإضافة إلى ذلك ، إسهاماً تاماً في دعم الدعارة ، فإنها تكون حقيقة ، أقل الجميع حقاً في لوم العمال على بهيميتهم الجنسية ، إذ كم واحدة من الـ ٤٠٠٠٠ عامرة اللواتي يملأن شوارع « لندن » \* كل مساء ، تعيش على الفضيلة البورجوازية ! كم واحدة منهن بلغت ما بلغته نتيجة غواية أحد البورجوازيين ، حتى أصبح عليهن أن يقدمن أجسادهن للهارة حتى يستطعن الحياة ؟ .

إن ستطاعت العمال بشكل عام يمكن العودة بها إلى انظماً المطلق العنان للبهيمة ، إلى إنقياد التدبر والاحتياط ، إلى قابلية الإلتواء للتلاءم مع النظام الإجتماعي ، إلى العجز عن تضحية متعة عاجلة بفضيلة آجلة . ولكن هل هذا الأمر مثير للدهشة ؟ عندما تستطيع طبقة أن تشتري بكدها المنهك متعة ضئيلة ، ومن هذه المتع أكثرها حنية فقط . أيتوجب عليها ألا تعطي نفسها لتلك المتع بجنون وبلا تبصر ؟ إنها طبقة لا يزعج أحد نفسه بتعليمها ، طبقة كالكرة تتقاذفها آلاف الصدف ، لا تعرف الأمن في حياتها . أي بواعث لدى تلك الطبقة للإحتياط ، « للوقار » للتضحية بمتعة عاجلة بفضيلة آجلة . إنها حائرة تماماً بسبب التغير الدائم وتبديل الأحوال التي تعيشها البروليتاريا ؟ طبقة تتحمل كل مساوئ المجتمع دون أن تستع بمزاياه ، طبقة لا يظهر المجتمع لها غير مظاهر

---

\* ( شريف أليسون ) ، ( إبادىء الأولية المسكان ) المجلد الثانى ( ملحوظة في الطبقة  
الانانية ) .

العداء البهيمية — من ذا الذى يستطيع أن يطالب مثل تلك الطبقة باحترام هذا النظام الاجتماعى ؟ حتماً ، إن فى ذلك طلب الكثير ! غير أن الطبقة العاملة لا تستطيع النجاة من الترتيب الحالى للمجتمع طالما ظل قائماً ، وإن قاومه العامل الفرد فإن الضرر الأكبر يقع على ذاته .

وهكذا يكاد النظام الاجتماعى أن يجعل الحياة الزوجية مستحيلة . المنزل خال من وسائل الراحة ، ، إنه قذر ، بالكاد يكفي أن يكون مجرد مأوى ليلي ، الحجرات المكتظة تعبق بالعفن والراحة العائلية غير ممكنة . إن الزوج يعمل طوال اليوم ، وربما تعمل الزوجة أيضاً وكبار الصبية . إنهم يعملون فى أماكن مختلفة ، يلتقون فى الليل والأصباح فقط ، وهم تحت إغراء دائم بالشراب . أى حياة أسرية ممكنة تحت مثل تلك الظروف ؟ ومع ذلك فالعامل لا يستطيع الفرار من أسرته ، عليه أن يعيش مع تلك الأسرة .

والنتيجة سلسلة متصلة من المتاعب الأسرية ، والمشاحنات العائلية ، وجلبها مفسد لأخلاق الوالدين والأطفال بالمثل . إن إهمال كل الواجبات العائلية ، وإهمال الأطفال خاصة ، هو أمر شائع بين العمال الإنجليز ، وهو أمر تغذيه بعنف أيضاً نظم المجتمع القائمة . وبعد ذلك ، ينتظر من مثل هؤلاء الأطفال الذين يشبون فى ظل هذا النهج القاسى ، ووسط تلك المؤثرات المفسدة للأخلاق ، أن يكونوا فى النهاية على نياتهم وعلى خلق ! حتماً إنها لمطالب ساذجة ، تلك التى تطالب بها البورجوازية الراضية عن نفسها ، العامل !

إن إزدراء النظام الاجتماعى القائم ، أمر ظاهر للعيان فى أقصى حالاته ، فى الإسماءات الموجهة ضد القانون . وإن زاد تأثير المؤثرات المفسدة لأخلاق العمال قوة ، إن زاد تركيزه عن المعتاد ، فإن العامل بالتأكيد سيغدو مخالفاً للقانون . إن هذا أمر مؤكد تأكد خروج الماء عن السائل فى حالة بخارية عند درجة الحرارة ٨٠ . إن العامل فى ظل المعاملة البورجوازية الوحشية والذى تصير الغير وحشاً ، سيصبح بدقة كالماء ، شىء ما لا إرادة له ، ويغدو بنفس الضرورة معرضاً تمام التعرض لقوانين « الطبيعة » . وعند نقطة محددة تكف الحرية عن الوجود . وبالتالى ، فإنه مع اتساع البروليتاريا ، زادت الجريمة فى إنجلترا ، وغدت الأمة البريطانية أكثر الأمم إجراماً فى العالم . إن جداول الجرائم السنوية

الصادرة عن وزارة الداخلية توضح ، أن زيادة الجريمة في إنجلترا قد تقدمت في سرعة غير معقولة . لقد بلغت عمليات القبض بسبب إساءات جنائية في إنجلترا وويلز وحدهما عام ١٨٠٥ — ٤٦٠٥ ، وعام ١٨١٠ — ٥١٤٦ ، وعام ١٨١٥ — ٧٨٩٨ ، وعام ١٨٢٠ — ١٣٧١٠ ، وعام ١٨٢٥ — ١٤٤٣٧ ، وعام ١٨٣٠ — ١٨١٠٧ ، وعام ١٨٣٥ — ٢٠٧٣١ ، وعام ١٨٤٠ — ٢٧١٨٧ ، وعام ١٨٤١ — ٢٧٧٦٠ وعام ١٨٤٢ — ٣١٣٠٩ . أى أنه يمكن القول، أنها قد زادت سبعة أضعاف في سبعة وثلاثين عاماً . ولقد تمت ٤٤٩٧ عملية قبض من تلك العمليات عام ١٨٤٢ في «لانسشاير» وحدها، أى أكثر من ١٤٪ من إجمالى العمليات ، ٤٠٩٤ في «ميدل سكس» مشتملة على «لندن» ، أى أكثر من ١٣٪ . وبذا فإن منطقتين تشتملان على مدن كبرى بأعداد كبيرة من السكان البروليتاريين ، قد انتجت ١/٤ الكمية الكلية للجريمة ، رغم أن عدد سكانهما يبعد كثيراً عن أن يشكل ١/٤ إجمالى عدد السكان . بالإضافة إلى ذلك، فإن قوائم المجرمين تثبت بشكل مباشر، أن كل المجرمين تقريباً ينشأون من داخل البروايتاريا. إذ لو أخذ المتوسط العام في الاعتبار، فإن من بين كل ١٠٠ مجرم في عام ١٨٤٢ ، يوجد ٣٢ و ٣٥ لا يستطيعون القراءة أو الكتابة ، ٥٨ و ٣٢ يقرأون ويكتبون بطريقة قاصرة، ٦,٧٧ يقرأون ويكتبون بطريقة جيدة ، ٢٢ . قد نالوا قسماً أعلى من التعليم ، بينما لم تحدد درجة تعليم ٢ و ٣٤ . ومع ذلك فإن الجريمة قد زادت في اسكتلندا بمعدل أسرع . إذ لم يكن هنالك في عام ١٨١٩ غير ٨٩ مقبوضاً عليه بإساءات جنائية ، لكن الرقم ارتفع مبكراً في عام ١٨٠٧ إلى ٣١١٦ ، وفي عام ١٨٤٢ إلى ٤١٨٩ . أما في «لانسشاير» حيث استخرج « شريف اليدسون » بنفسه التقرير الرسمى ، فإن عدد السكان قد تضاعف مرة واحدة خلال ثلاثين عاماً، بينما تضاعف الجريمة مرة واحدة خلال خمس سنوات ونصف ، أى بسرعة أكبر من سرعة السكان بست مرات . إن الإساءات في الغالبية العظمى من حالاتها ضد الملكية ، كما هو الحال في البلدان المتحضرة . ومن هنا فإنها قد نشأت في بعض صورها ، عن الحاجة ، حيث أن ما لدى الإنسان ، لا يسرقة . إن نسبة الإساءات ضد الملكية إلى عدد السكان هي ١ : ٧١٤٠ في الأراضى الواطئة ، ١ : ٨٠٤ في فرنسا ، وكانت ١ : ٧٩٩ في إنجلترا في الوقت الذى كتب فيه «جاسكال» أن نسبة الإساءات ضد الأشخاص إلى عدد السكان هي ١ : ٩٠٤ في الأراضى الواطئة ، ١ : ١٧٥٧ في فرنسا ،



١ : ٢٣٣٩٥ في إنجلترا . كما أن نسبة الجرائم بشكل عام إلى عدد السكان في المناطق الزراعية هي ١ : ١٠٤٣ ، ١ : ٨٤٠ في المناطق الصناعية \* . أما عن النسبة في إنجلترا كلها اليوم فهي : ٦٦٠ : \*\* ، رغم أن عشر سنوات قد مرت بالكاد منذ ظهور كتاب « جاسكال » .

إن هذه الحقائق لأكثر من كافية، لتحمل أى امرئ، حتى إن كان بورجوازيًا، على التوقف وتأمل نتائج مثل تلك الأوضاع . إذ لو تضاعف الفساد الأخلاقي بهذا المعدل لفترة أطول قدرها عشرون عاما ( وإن قل ثراء الصناعة الإنجليزية عما قبل ، خلال هذه العشرين عاما ، فإن التضاعف المتزايد سيستمر على نحو أكثر سرعة ) فماذا ستكون النتيجة ؟ إن المجتمع في حالة ظاهرة التحلل بالفعل ، إذ يستحيل أن تلتقط جريدة ، دون أن ترى أشد الأدلة لفتا للانحلال عن تهاوى كل الروابط الاجتماعية . لقد نظرت بطريقة جزافية في كومة من الصحف التي ترقد أمامي ، هناك « المانشستر جارديان » ، عدد أكتوبر عام ١٨٤٤ ، والتي تتناول الأوضاع على مدى ثلاثة أيام . إنها لم تعد تبالي بإعلاء التفاصيل الدقيقة عما يجري في « مانشستر » ، إنها تروى فقط أكثر الحالات إثارة للإهتمام : إن العمال قد أضربوا في أحد المصانع مطالبين بأجور أعلى دون أن يقدموا إنذاراً ، وأن « قاضى الصلاح » قد حكم عليهم بالعودة إلى العمل ، وأن صبيين قد ضبطا متلبسين بالسرقة في « سالفورد » ، وأن تاجراً مفلساً حاول أن يخش زبائنه . وتأتى الأخبار أكثر تفصيلاً من المدن المجاورة : ففي « آشتون » حدثت سرقتان ، وعملية سطو واحدة ، وعملية إنتحار واحدة ، وفي « يورى » سرقة واحدة ، وفي « بولتون » سرقتان واختلاس إيراد ، وفي « لايت » سرقة واحدة ، وفي « أولدهام » إضراب واحد من أجل الأجور ، سرقة واحدة ، خناقة واحدة بين نساء إيرلنديات ، مهاجمة نقابيين لبائع قبعات غير نقابي ، واحدة من النساء يضربها ابنها ، هجمة

---

(\*) ( السكان العاملين في الصناعة في إنجلترا ) ، الفصل العاشر .

(\*\*) إجمالى عدد السكان خمسة عشر مليون تقريباً ، مقسمة بعدد المجرمين المذنبين

( ٢٢٧٣٣ )

واحدة على البوليس وسرقه واحدة للكنيسة ، وفي « ستوك بورت » سخط العما  
على الأجور ، سرقة واحدة ، عملية إختلاس واحدة ، خناقة واحدة ، زوج  
يضرب زوجته ، وفي « وارينجتون » سرقة واحدة وخناقة واحدة ، وفي  
« ويجان » سرقة واحدة وعملية سطو واحدة على الكنيسة . أما أخبار جرائد  
« لندن » فهي أسوأ بكثير ، إنها تزاحم بعضها البعض ، إختلاسات وسرقات وهجمات  
وخناقات عائلية . لقد وقع في يدى عدد من جريدة « التيمس » الصادرة في ١٢  
سبتمبر عام ١٨٤٤ ، وهو يقدم أخبار يوم واحد ، يشتمل على سرقة وهجمة  
موجهة ضد البوليس ، حكم ضد أب يلزمه بأن يعول ابنه غير الشرعى ، أبوان  
يتخيليان عن طفليهما وزوجة تسمم زوجها . وأخبار مماثلة موجودة في كل الصحف  
الإنجليزية . إن الحرب الاجتماعية في هذا البلد ، تسير قدماً إلى الأمام ، إن  
كل واحد يزود عن نفسه ، يقاتل دفاعاً عن نفسه ضد كل القادمين ، إن إضراره  
بالآخرين ، الذى هم خصومه الظاهريين ، أو عدم إضراره بهم ، يقوم على تقدير  
لا يؤمن بصلاح البشر ، يقوم على أساس أى الأمور تعود عليه هو بنفع أكثر .  
لم يعد أى أمرى يصل إلى وفق سلمى مع زميله الإنسان . إن كل الخلافات  
تسوى بالتهديدات ، بالعنف أو فى ساحة المحكمة . وفى إيجاز ، فإن كل واحد  
يرى فى جاره عدواً يجب إزاحته من الطريق ، أو فى أحسن الأحوال ، إداه  
يمكنه إستخدامها لمنفعته الخاصة . وتزداد هذه الحرب ، كما توضح قوائم  
المجرمين ، نمواً وعنفاً واحدة ، وتبدو غير قابلة للصالحه عاماً بعد عام . إن  
الأعداء ينقسمون بالتدريج إلى معسكرين كبيرين — البورجوازية من ناحية  
والعمال من ناحية أخرى . إن هذه الحرب التى يشنها كل واحد ضد الكل ،  
وتشنها البورجوازية ضد البروليتاريا ، لا تثير فينا أية دهشة ، فهي العاقبة  
الوحيدة المنطقية للجوهر الذى تشتمل عليه المنافسة الحرة . غير أن  
ما يمكن أن يثير دهشتنا للغاية ، هو أن تظل البورجوازية هادئة مطمئنة البال  
أمام سحب العاصفة التى تتجمع ، وأن تستطيع قراءة كل تلك الأمور يومياً فى  
الصحف — وإن تقول إصابتها بالسخط على مثل هذه الحالة الاجتماعية ،  
ولكن دون أن تخشى نتائجها ، تخشى انفجاراً عاماً من تلك الأمور التى تعلن  
عن نفسها من يوم إلى يوم كعوارض مرضية فى صورة الجريمة . لكنها

البورجوازية ، إنها لا تستطيع رؤية الحقائق ، وأقل بكثير من رؤيتها للحقائق ،  
تبينها لنتائجها . شيء واحد فقط هو الذي يثير الدهشة ، ذلك أنه في مكنة الآراء  
المسبقة والمتعصبة لهذه الطبقة ، أن تمسك وبمثل هذه الدقة ، بل ربما أقول  
بمثل هذا العمل الجنوني ، طبقه كاملة من البشر . وفي تلك الأثناء فإن نمو  
الامة يشق طريقه سواء كان للبورجوازية أعين أم لم يكن لها ، وستفاجىء  
طبقة القابضين على الملكية يوماً ما ، بأشياء لم تتخيلها في فلسفتها .





## فروع مفردة من الصناعة

### الأيدي العاملة بالمصانع

عندما نتناول الآن الفروع الأكثر أهمية من البروليتاريا الصناعية الانجليزية، فإننا سنبدأ طبقاً للمبدأ الموضوع آنفاً، بعمال المصانع، أي هؤلاء الذين ينضوون تحت لائحة المصنع. وينظم هذا القانون طول يوم العمل في المصانع التي يغزل أو ينسج فيها الصوف والحرير والقطن والكتان باستخدام قوة الماء أو البخار، وتشتمل بناء على ذلك، على أكثر فروع الصناعة الانجليزية أهمية. إن الطبقة التي تشغلها تلك الفروع هي أكثر العمال الانجليز ذكاء ونشاطاً، ولذا فهي أكثر من تبرم به البورجوازية وأكثر من تكرهه. إنها تتمف في مجموعها، وعمال القطن بشكل متميز، على رأس الحركة العمالية مثلهم في ذلك مثل ساداتهم أصحاب المصانع، خاصة هؤلاء الذين من «لانكشاير»، والذين يقدرون أعمال الإثارة البورجوازية.

لقد رأينا في المقدمة آنفاً، كيف أن السكان العاملين في تشييل مواد النسيج، قد سلبوا أولاً من نمط حياتهم السابقة. ولذا فليس هنالك ما يشير الدهشة في أن يكون تقدم الابتكار الآلي في السنوات الأخيرة، قد أثر تأثيراً تاماً على هؤلاء العمال بشكل أكثر عمقاً، وعلى نحو دائم. إن تاريخ صناعة القطن كما يرويها (أور)\*، (باينس)\*\* وآخرون، هو تاريخ

---

(\*) (صناعة القطن في بريطانيا العظمى) بقلم (دكتور أ. أور)، ١٨٣٦.

(\*\*) (تاريخ صناعة القطن في بريطانيا العظمى) بقلم الوجيه (أ. باينس).



التحسينات التي أدخلت من كل اتجاه ، والتي غدا أكثرها مستخدماً بالفعل في  
الفروع الأخرى من الصناعة . أو العمل الآلي كاد أن يخلف العمل اليدوي في كل  
مكان ، وكل الأعمال اليدوية تقريباً تدار بمساعدة البخار أو الماء ، كما يحمل كل  
عام مزيداً من التحسينات .

إن مثل تلك التحسينات يمكن أن تكون مصدر مسرة فقط ، في ظل مجتمع  
التنظيم ، أما في ظل حرب الكل ضد الكل ، فإن أفرادهم الذين يحصلون على  
الفائدة العائدة لأنفسهم ، وبذا يحرمون الغالبية من وسائل ضرورات الحياة .  
إن كل تحسين في الآلة يبعد عمالاً عن العمل ، وكلما كان التقدم أكبر كلما تعاضم  
عدد العاطلين ، وبذا فإن كل تحسين كبير ، يعود على عدد من الأعمال ، بنفس أثر  
اللزامة التجارية . أنه يخلق الحاجة والشفاء والجريمة . ولتأخذ بعض الأمثلة  
القليلة . إن دولاب الغزل وهو أول اختراع بحق ، تم تشغيله بواسطة رجل  
واحد . كان ينتج ستة أضعاف ما تنتجه طارة الغزل في نفس الوقت على الأقل ،  
وهكذا فإن كل دولاب جديد كان يزيح خمسة من الغزاليين بعيداً عن العمل . وآلة  
الغزل ، وهي التي كان إنتاجها أكثر بكثير من دولاب الغزل ، والتي كانت تدار  
مثله بواسطة رجل واحد ، قد ألقت بالمزيد من البشر ، خارج إطار التشغيل .  
وآلة غزل القطن أو الصوف والتي احتاجت إلى عدد أقل من الأيدي متارنة  
بالإنتاج ، كان لها نفس الأثر . وكان كل تحسين في الآلة أو مضاعفة عدد مغازلها  
يقلل عد العمال العاملين أكثر فأكثر . غير أن تلك الزيادة في عدد مغازل الآلة  
كانت كبيرة إلى حد أن جيوشاً كاملة من العمال ألقت بهم تلك الزيادة بعيداً عن  
التشغيل . لقد كان في وسع غزال واحد ومعه صبيان يعملان في لف الختوط أن  
يسير ستمائة مغزلاً ، فأصبح في وسعه الآن أن يدير من ألف وربعمائة مغزل على  
آلتين . وترتب على ذلك طرد غزاليين راشدين ومعهم بعض ممن كانوا يشتغلون  
معهم في لف الخيوط . وحيث أن آلات غزل القطن أو الصوف تعمل ذاتياً  
أدخلت في عدد كبير من مصانع الغزل ، فإن عمل الغزاليين أصبح يؤدي بواسطة  
آلة بصورة كلية . يرقد أمامي الآن كتاب بقلم « جيمس لينش » \* ، وهو واحد

---

\* الحقائق الصعبة في المصانع بقلم عامل من « مانشستر » ، نشرت وأهديت إلى الطبقات  
العامة ، بقلم « ولیم راشلی » عضو البرلمان ، لندن ، أوليفير ، ١٨٤٤ ، ص ٢٨ وما يليها

من قادة الإصلاحين المعروفين في « لانكستر » . لقد عمل الكاتب لسنوات عدة في فروع متعددة من الصناعة ، في المصانع وفي مناجم الفحم ، وأنا أعرفه شخصياً كرجل قدير أمين يوثق به . كما لا يوجد تحت تصرفه بحكم وضعه السياسي ، معلومات تفصيلية شاملة عن المصانع المختلفة جمعها العمال أنفسهم ، وهو يقوم بنشر جداول يتضح منها ، أنه في عام ١٨٤١ تم تشغيل غزاليين على آلات الغزل في ٣٥ مصنعاً ، بعدد يقل ١٠٦٠ عاملاً عن عام ١٨٢٩ ، رغم زيادة عدد المنازل بمقدار ٩٩٢٣٩ مغزلاً في الخمس وثلاثين مصنعاً . وقد ذكر خمس مصانع لم يتم تشغيل غزاليين أياً كانوا بها ، فقط تم استخدام التشغيل الذاتي . لقد زاد عدد المنازل بنسبة ١٠٪ بينما نقص عدد الغزاليين بنسبة ٦٠٪ . ويضيف « ليتش » ، أنه قد تم منذ عام ١٨٤١ إدخال تحسينات عديدة للغاية عن طريق مضاعفة إبطاريات ووسائل أخرى ، حتى أن نصف الأعمال قد طردوا من بعض المصانع المذكورة . لمقد حدث في أحد منها أن ثمانين غزالا كان قد تم تشغيلهم منذ فترة وجيزة مضت لم يتبقى منهم الآن غير عشرين غزالا وطردهم الباقيون ، أو اسندت إليهم أعمال الصببية ومنجرا أجور الصببية . ويروي « ليتش » قصة مماثلة عن « ستوك بورت » ، حيث تم تشغيل ٨٠٠ غزالا عام ١٨٣٤ لم يتبقى منهم عام ١٨٤٣ غير ١٤٠ غزالا رغم أن الصناعة قد زادت إلى حد كبير خلال السنوات الثمانية أو التسعة الأخيرة . إن تحسينات مماثلة قد تم تحقيقها من الطر التشغيل ، ونتج عنها طرد نصف العمال خارج العمل ، ففي أحد المصانع التي استخدمت الأطر المحسنة تم طرد أربعة من الأيدي العاملة من كل ثمانية ، بالإضافة إلى تخفيض صاحب العمل لأجور الأربعة الباقين من ثمانى شلنات إلى سبع . وسارت نفس العملية أيضاً في صناعة المنسج لقد سيطر المنسج الميكانيكي على فرع بعد آخر من فروع المنسج اليدوي . ولما كان إنتاجه يفوق بكثير إنتاج المنسج اليدوي ، إذ يمكن لعامل واحد تشغيل منساجين ، فإنه أبطل عمل كثرة من العمال . وسادت نفس الحالة كل أنواع الصناعة ، غزل الصوف والكتان ، كذا برم الحرير . وأخذ المنسج الميكانيكي في الهيمنة أيضاً على فرع بعد آخر من فروع نسج الصوف والتيل ، ففي « روك دال » وحدها توحد مناسج ميكانيكية في صناعة الفانلات وفروع أخرى من نسج الصوف ، أكثر من المناسج اليدوية . وتجيب لبورجوازية عادة عن هذه الحالة ، بأن التحسينات في

في الآلة تخفض تكلفة الإنتاج وتقدم سلعاً تامة الصنع بأسعار أقل ، وتلك الأسعار المنخفضة تؤدي إلى زيادة الإستهلاك ، مما يؤدي إلى أن يجد العمال العاطلون عما قريب عمالة كاملة في المصانع المنشأة حديثاً . إن البورجوازية على حق إلى حد بعيد ، في أنه تحت ظروف معينة ملائمة للتطور العام للصناعة ، فإن كل تخفيض في سعر السلع التي تكون مواردها الخام رخيصة ، يزيد من الإستهلاك على نحو كبير وتتسبب في بناء مصانع جديدة ، إلا أن كل كلمة وردت في هذا التصريح أكثر من ذلك ، إنما هي أكذوبة . وتجهل البورجوازية حقيقة أن النتائج اللاحقة لانخفاض السعر ، والنتائج اللازمة لبناء مصانع جديدة قد استلزمت منها سنوات إنها تلوذ بالصمت عند المسألة الخاصة بأن كل تحسين في الآلة يلقى بالعمل الحقيقي ، وبكمية القوة المبذولة ، أكثر فأكثر على الآلة ، وبذا يحول عمل الرجال الراشدين إلى مجرد عملية إشراف ، يمكن لامرأة ضعيفة أو حتى لصبي ، أن يؤديها بنفس الكفاءة وبنصف الأجور أو حتى ثلثها ، وبالتالي يزاح الرجال الراشدين أكثر فأكثر بثبات ، ولا يعاد تشغيلهم مع نماء الصناعة . إنها تطمس حقيقة أن فروعا كاملة من الصناعة قد إرتدت ، أو أنها قد تغيرت إلى الحد الذي يلزم معه تعلمها من جديد . وتراعى البورجوازية جيداً ألا تعترف بما تظنن به عادة ، من أن عمل المصنع يجب تعلمه في الحداثة المبكرة ، حتى يمكن تعلمه على الوجه الصحيح ، وذلك كلما أثبتت مسألة منع تشغيل الصبية . إنها لا تذكر حقيقة أن عملية التحسين تسير قدما ، وأنه ما أن ينجح عامل في تكيف نفسه في فرع جديد — إن كان بالفعل قد نجح في ذلك — حتى يؤخذ ذلك منه أيضاً ، ومعه آخر البقايا التي بقيت له لكسب خبزه . إلا أن البورجوازية تظهر بعائد تحسين الآلة . إن لديها فرصة رئيسية لتكديس المال خلال السنوات الأولى ، بينما ما تزال تستخدم العديد من الآلات القديمة ، والتحسين لم يعمم بعد . إنها تستكثر أن يطلب منها ضرورة أن تفتح عينها على النواقص التي تلازم تلك التحسينات .

إنها تجادل في حقيقة أن تحسين الآلة يؤدي إلى خفض الأجور ، بنفس العنف الذي يردد به العمال هذه الحقيقة . إن البورجوازية تصر على أن الأجور الإجمالية للأسبوع قد ارتفعت على نحو ما ، أكثر من أن تكون قد انخفضت .

رغم انخفاض سعر العمل بالقطعة ، وأن حالة العمال قد تحسنت أكثر من أن  
 تكون قد ساءت . من العسير أن تصل إلى عمق المسألة ، حيث أن العمال يتمسكون  
 عادة بسعر العمل بالقطعة . إلا أن الأمر المؤكد هو أن الأجر الأسبوعي قد  
 نقص أيضاً في عديد من فروع العمل ، بسبب تحسين الآلة . إن هؤلاء الذين  
 يدعون بالغزاليين الدقيقين مثلاً ( وهم الذين يعملون على آلات الغزل الرفيع ) ،  
 يتناولون بالفعل أجوراً عالية ، تتراوح من ثلاثين إلى أربعين شلناً في الأسبوع .  
 حيث لديهم رابطة قوية تحافظ على إرتفاع أجورهم ، كما أن حرفتهم تحتاج إلى  
 مران طويل . أما الغزاليين العاديين ، والذين عليهم أن ينافسوا نظراءهم ( وهم  
 هؤلاء الذين لم يتهيأوا بعد للغزل الرفيع ) ، والذين تحطمت رابطتهم بإدخال  
 هذه الآلات ، فإنهم يتناولون أجوراً منخفضة للغاية . لقد أخبرني غزال يعمل  
 على آلة غزل قطن أنه لا يكسب أكثر من أربعة عشر شلناً في الأسبوع ، وهنا  
 يتفق قوله مع ذلك الذي جاء على « ليتش » ، من أن الغزاليين العاديين في مختلف  
 المصانع ، يكسبون أقل من ستة عشر شلناً وست بنسب في الأسبوع . وأن  
 الغزال الذي كان يكسب منذ ثلاث سنوات مضت ، ثلاثين شلناً في الأسبوع ،  
 يحصل الآن بصعوبة على إثني عشر شلناً ونصف ، وأن كسبه في المتوسط خلال  
 العام الماضي لم يزد عن ذلك . أما عن أجور النساء والصبية ، فقد إنخفضت  
 بنسبة أقل ، وربما كان مرجع ذلك ، إلى أنها لم تكن مرتفعة منذ البداية . إنني  
 أعرف عديداً من النساء والأرامل وأطفالهن ، وأعرف أنهن قاسين كثيراً  
 ليكسبن ثمانية أو تسعة شلنات في الأسبوع ، وأنهن وعائلاتهم لا يستطعن  
 الحياة بشكل لائق بهذا القدر من المال . إنها حقيقة يجب أن يعترف بها كل من  
 يعرف سعر الضرورات المجردة للحياة في إنجلترا . إن انخفاض الأجور بشكل  
 عام بسبب إدخال التحسينات على الآلات ، فهو دليل العمال الذي لا خلاف حوله .  
 إن كذب تأكيد البورجوازية ، بأن حالة الطبقة العاملة قد تحسنت بإدخال الآلة ،  
 ليظهر بعنف في كل اجتماع للعمال في المناطق الصناعية . وحتى إن كان الأجر  
 النسبي ، سعر العمل بالقطعة ، هو الذي قد هبط حتماً ، بينما الأجر الكلي ، جملة  
 ما يتم كسبه في الأسبوع ، قد ظل دون تغيير ، فما هي نتيجة ذلك ؟ إن يلتزم  
 العمال بالنظر في سكون ، بينما يملأ أصحاب المصانع أكياسهم من كل تحسين للآلة ،

دون أن تعطى للأيدى العاملة ، أقل قدر من المشاركة في الربح . إن البورجوازي ينسى وهو يحارب العامل أكثر المبادئ المألوفة في « إقتصاده السياسى » . إنه هو الذى يقسم فى أوقات « بمانتس » ، وهو الذى يزعج من قلقه أمام العمال « من أين يمكن للملايين التى زادها السكان فى إنجلترا أن تجد عملاً ، دون التحسينات التى أدخلت على الآلات »\* . وكأن البورجوازي لا يدري جيداً ، أنه بدون الآلة وانتشار الصناعة التى أنتجتها ، لما جاءت تلك الملايين إلى العالم أبداً ، ولما شبت ونمت ! إن الخدمة التى قدمتها الآلة للعمال هى فى بساطة : أنها قد أعادت إلى عتولهم الحاجة إلى إصلاح اجتماعى ، يمكن بواسطته ألا تكون الآلات ضدهم أبعد من ذلك ، ولكنها تكون من أجلهم . دع البورجوازي الحكيم يسأل الناس الذين يكمنسون الشوارع فى « مانشستر » ، أو فى غير هذا المكان « رغم أن ذلك قد غدا الآن من الماضى ، حيث اخترعت وأدخلت الآلات التى تحقق هذا الغرض ) أو يبيعون الملح والكبريت والبرتقال ورباط الأحذية فى الشوارع ، أو حتى يتسولون ، ماذا كانوا من قبل ، وسيرى أن العديد منهم سيجيب : « كنا عاملين بالمصانع طردتهم الآلات من العمل » . إن نتائج تحسين الآلات فى ظل أوضاعنا الاجتماعية الراهنة ، مؤذية فقط للعامل ، وهى فى الغالب ظالمة ، فى أقصى درجاتها . إن كل تقدم جديد يحمل معه بطالة وحاجة ومعاناة . وفى بلد كإنجلترا ، حيث يوجد على الدوام — حتى بدون هذا التقدم — « فائض سكان » ، فإن أسوأ ما يمكن أن يحل بالعامل هو فصله من عمله — إن أى تأثير موهن محبط يقع على العامل ، بنتيجة عدم يقينه من وضعه فى الحياة ، بسبب التقدم الذى لا ينقطع للآلات — والعامل لديه دون هذا التقدم نصيب كاف من التملق وإنعدام الاستقرار — يفتح أمامه للهرب من اليأس طريقتين لا غير : التمرد الداخلى أو الخارجى ضد البورجوازية ، أو السكر والتفاسد العام للآداب . ولقد إعتاد العمال الإنجليز أن يعتصموا بكليهما . إن تاريخ البروليتاريا الإنجليزية يروى لنا عن مئات الهبات ضد الآلات والبورجوازية . ولقد تحدثنا آنفاً عن التحلل الخلقى ، الذى هو فى حد ذاته مجرد صورة أخرى من صور اليأس .

\* ج . سيمونز ( الصنائع والصناعات ) .



أن أسوأ حال ، هو حال هؤلاء العمال الذين يتعين عليهم أن ينافسوا آلة  
تتشق طريقها . إن أسعار السلع التي ينتجونها تكيف نفسها مع سعر السلع النظيرة  
التي تنتجها الآلات . وحيث أن الأخيرة تعمل على نحو أرخص ، فإنه ليس  
لنافسيها من البشر غير أقل الأجور . ويحدث نفس الشيء لكل عامل يعمل  
على آلة قديمة في حالة منافسة مع التحسينات الأخيرة . على من تتمتع المشقة ؟ إن  
صاحب العمل لن يلقى بآلته القديمة ، ولن يحمل الخسارة عليها ، إنه لا يستطيع  
أن يحقق شيئاً من نظام الآلات القديم ، ومن هنا يضيق على العامل الحى ، على  
كبحش الفداء العام للمجتمع . إن أسوأ من يساء إستخدامه من كل العمال الذين  
يتنافسون مع الآلة ، هم نساجو القطن الذين يعملون على المنسج اليدوى . إنهم  
يتناولون أتفه الأجور . إنهم ليسوا في وضع يمكنهم ، في زمن العمالة الكاملة ،  
من كسب أكثر من عشر شلنات في الأسبوع . إن المنسج الآلى يضيف صنفاً  
بعد آخر من أصناف السلع المنسوجة ، ويصبح المنسج اليدوى هو الملاذ الأخير  
للعمال الذين انغلخوا من العمل في فروع أخرى ، حتى أن الحرفة قد غدت  
مكتظة على الدوام . وبالتالي فإن المنسج اليدوى يكون محظوظاً إن هو إستطاع  
أن يكسب — في المواسم التي تمثل المتوسط العام — ست أو سبع شلنات  
أسبوعياً . غير أنه يتوجب عليه أن يجلس إلى المنسج ما بين أربعة عشرة ساعة  
إلى ثمانية عشرة ساعة يومياً كي يحقق هذا القدر من الكسب . كما أن أغلب  
السلع المنسوجة تحتاج أيضاً إلى حجرة نسيج رطبة للمحافظة على لحمة النسيج  
من الانقشاف . وتلك الحجرات التي يعمل بها هؤلاء النساجين هي الدوام بدون  
أرضيات خشبية أو أنها غير مبلطة . ويرجع ذلك جزئياً إلى المحافظة على لحمة  
النسيج ، وجزئياً لفقرهم الذي يمنعهم من الحصول على مساكن أفضل . ولقد  
رأيت الكثير من مآوى أمثال هؤلاء النساجين . إنها دائماً في أقبية في الأزقة .  
والحواري المنحطة في المناطق النائية . وغالباً ما يعيش معاً في كوخ واحد ،  
به حجرة أو اثنتين للعمل وحجرة نوم واحدة كبيرة ، ستة من أمثال هؤلاء  
النساجين الذين يعملون على مناسج يدوية ، كما أن العديد منهم متزوج . ويطغى  
طعامهم على البطاطس تقريباً ، وربما معها وجبة من عصيدة الشعير . إنهم نادراً  
ما يتناولون اللبن ، أما اللحم فهو بالجهد الجهد . إن أعداداً كبيرة منهم إيرلندية ،  
أو في أصل إيرلندي . إن هؤلاء النساجين الفقراء العاملين على المناسج اليدوية

والذين هم أول من يعاني من كل أزمة ، وآخر من يتخلص من آثارها ، يجب أن يخدموا البورجوازية كقبضة يدها في الاجتماعات التي تهاجم نظام المصنع . « أنظر ، هكذا تصرخ البورجوازية في انتصار . » أنظر كيف تموت تلك الكائنات الفقيرة جوعاً ، بينما عمال المصانع يتزعزعون ، ثم أحكم بعدئذ على نظام المصنع . \* وكان نظام المصنع بالتحديد والآلات المنتهية إليه ، لم تكن هي التي طحنت المساجين اليدويين بشكل مخز ، وكأن البورجوازية لا تعرف ذلك كما نعرفه نحن ! إلا أن البرجوازية لها مصالح معرضة للخطر ، وبالتالي فإن كذبة أو إثنتين وقليل من الرياء لا يهم كثيراً .

دعونا نفحص عن قرب أكثر نوعاً ما ، حقيقة أن الآلات تحل أكثر فأكثر محل الرجال . إن العمل الإنساني اللازم في عمليتي الغزل والنسيج ، يتكون أساساً من لفق الخيوط التي إنقضت ، بينما تقوم الآلة بكل ما تبقى . إن هذا العمل لا يحتاج إلى قوة عضلية ، إنه يحتاج فقط إلى أصابع مرنة . وبالتالي فإن الأمر ليس فقط عدم الحاجة إلى الرجال في هذا المضمار ، بل إنه أيضاً قلّة صلاحيتهم له عن النساء والصبية بسبب النمو العضلي الكبير لأيديهم ، وبالتالي يكون من الطبيعي أن يخلفوهن في العمل . لذا فإنه كلما زادت الحاجة إلى استخدام الأذرع ، أمكن تحويل القوة اللازم بذلها إلى البخار أو الماء ، وبالتالي يقل عدد الرجال الذين يلزم تشغيلهم ، وتحل النساء والصبية محلهم . حيث يعملون بأجر أقل وعلى نحو أفضل من الرجال في تلك الفروع \* وتكاد تستحوذ النساء والفتيات كلية على العمل على آلات الغزل في مصانع الغزل ، ولا يوجد وسط آلات الغزل غير رجل واحد ، غزال واحد راشد ( وباستخدام المحركات الذاتية ، يصبح هو أيضاً زائداً عن الحاجة ) ، وعدد من الفاقين لربط الخيوط ،

---

\* أنظر « كتور أور » ( في فلسفة المصانع ) .

\*\* تقرير مفتش المصنع ( ل . هورنر ) ، أكتوبر ١٨٤٤ . إن أوضاع الأجور فاسدة للغاية ، ففي فروع خاصة من صناعة القطن في ( لانكشاير ) ، يوجد هنالك مئات من الشباب ما بين العشرين والثلاثين يشتغلون في عملية المنفق وخلاف ذلك ، وهم لا ينالون أكثر من ٨ أو ٩ شلنات في الأسبوع ، بينما يعمل صبية دون الثالثة عشر تحت نفس السقف ويربحون ٥ شلنات ، وفتيات شبابات من السادسة عشر إلى العشرين ، من ١٠ إلى ١٢ شلناً في الأسبوع .

وهم في الغالب من الصببية والنساء ، وأحياناً من الشبان الذين تتراوح أعمارهم ما بين الثامنة عشر والعشرين عاماً ، وهنا وهناك غزال عجوز مطرود من وظيفة أخرى . وتعمل أساساً في المغازل الآلية ، نساء تتراوح أعمارهن من الخامسة عشر إلى العشرين ، ومعهن قلة من الرجال ، وهؤلاء على أي حال نادراً ما يظلوا بتلك الحرفة بعد سن العشرين . كما تعمل النساء فقط بين آلات التجهيز ، ومعهن هنا أو هناك رجل لتنظيف وسن أطر التشييط وتشغل المصانع إلى جانب كل هؤلاء أعداداً من الصببية لرفع أو إنزال مكبرات الغزل ، وقلة من الرجال كمشرفين ، وميكانيكي ومهندسين لآلات البخار ، ونجارين وشياليين . . . الخ غير أن النساء والأطفال هم من يقومون بالتشغيل الفعلي للمصانع . وهذا ما يذكره أصحاب المصانع .

لقد نشروا في العام الماضي جداول متقنة ، ليثبتوا أن الآلات لا تحل محل الذكور الراشدين من العمال . وطبقاً لهذه الجداول ، فإن أكثر من نصف كل عمال المستخدمين تقريباً ، أي ٥٢ ٪ كانوا إناثاً والباقي ٤٨ ٪ ذكوراً . وأن أكثر من نصف هؤلاء العمال كانوا فوق سن الثامنة عشر ، وإلى هذا الحد فالأمر حسن تماماً ، غير أن أصحاب المصانع حريصين للغاية ، ألا يخبرونا كم في هؤلاء الراشدين كانوا رجالاً وكم منهم كانوا نساء . وتلك هي القضية . بالإضافة إلى ذلك ، فإنهم وبشكل واضح قد عدوا الميكانيكيين والمهندسين والنجارين وكل الرجال الذين يعملون في المصانع على أية صورة من الصور ، بل ربما عدوا الكتبة أيضاً . ومع ذلك فهم لا يملكون الشجاعة لقول الحقيقة كاملة . هذه المنشورات تزخر عادة بالكذب والتماهي في الأخطاء والبيانات الملتوية ، مع إحصاءات عن المتوسطات تعني الكثير بالنسبة للقارئ المتعق ولا تعني شيئاً بالنسبة للقارئ المبتدئ ، مع طمس للحقائق يحمل على أهم النقاط . وبذلك فإن أصحاب المصانع الذين يهمهم الأمر ، لا يثبتون غير العمى الأناني وافتقار الاستقامة . دعونا نأخذ بعض البيانات من حديث تقدم به « اللورد أشلي » ، « الساعات العشر » ، لإعلان مارس ، في ١٥ منه عام ١٨٤٤ في مجلس العموم . إنه يقدم هنا بعض المعلومات عن علاقة جنس العمال بينهم ، وهي معلومات لم يدحضها أصحاب المصانع بعد ، هؤلاء الذين لم تغطي بياناتهم ، كما هي مقتبسة

آناً ، غير جزء من الصناعة الآلية في إنجلترا . فمن بين ١٩٥٦٠ من العاملين بالمصانع في الامبراطورية البريطانية عام ١٨٣١ ، يوجد ١٩٢٨٨٧ ، أى قرابة النصف ، ممن هم دون الثامنة عشر من العمر ، ٢٤٢٢٩٦ من الإناث ، منهم ١١٢٢٩٢ كن أقل من الثامنة عشر من العمر . وبذا يتبقى هناك ٨٠٦٩٥ من العمال الذكور تحت سن الثامنة عشر ، و ٩٦٥٦٩ من العمال الذكور الراشدين ، أى أقل من ربع الرقم الإجمالى . وتشكل الإناث ٥٦٪ من إجمالى العاملين فى مصانع القطن ، ٦٩٪ من العاملين بمصانع الصوف ، ٧٠٪ من العاملين بمصانع الحرير ، ٧٠٪ من العاملين بمصانع الكتان . وتكفى تلك الأرقام لإثبات الحيز الذى يشغله الراشدين من الذكور ، وما عليك إلا أن تدخل أقرب مصنع لترى ما يؤكد تلك الحقيقة ، ومن ثم تأتى معاناة الحاجة . إن تحويل النظام الاجتماعى السائد ، والذى فرض عليهم فرضاً سيئاً يكون له أشد النتائج تدميراً على العمال . إن تشغيل النساء يقود فوراً إلى تفريق الأسرة ، إذ ماذا سيكون مصير الأطفال عندما تقضى الزوجة ما بين إثني عشر إلى ثلاث عشر ساعة يومياً فى المصنع ، وفى نفس الوقت يعمل الزوج هنا أو هناك ؟ إنهم يشبهون كالعشب البرى . إنهم يدفعون إلى مربية مقابل شلناً أو ثمانى عشر بنساً فى الأسبوع . أما كيف يعاملون ، فهو أمر يمكن تخيله . ومن ثم تتضاعف الحوادث التى يسقط الأطفال الأصغار ضحايا لها ، تتضاعف فى أحياء المصانع إلى حد بشع . إن قوائم قاضى تحقيق الوفيات فى « مانشستر » \* خلال تسعة شهور ، توضح أن ٦٩٠ مائة قد وقعت بسبب الحريق ، ٥٦ بسبب الغرق ، ٢٣ بسبب السقوط ، ٧٧ لأسباب أخرى ، أى برقم إجمالى قدره ٢٢٥ \* مائة بسبب الحوادث ، بينما وقع فى « ليفربول » غير الصناعية خلال اثني عشر شهراً ١٤٦ حادثة قاتلة فقط . كما أن حوادث المناجم مستبعدة فى كلتا الحالتين . وحيث أنه لا سلطة لقاضى تحقيق « مانشستر » فى « سالفورد » ، فإن تعداد سكان

(\*) تقرير لجنة تقصى المصانع ، شهادة ( دكتور هاوكينز ) ، ص ٣  
 (\*\*) من بين الحوادث جىء بها عام ١٨٣٤ إلى الملجأ فى ( مانشستر ) ، هنالك مائة نسع وثمانين حالة بسبب الحريق [ لم يذكر عدد الحالات المميتة — ( حذفت هذه الفقرة فى الطبعة الإنجليزية المصرح بها ) ]

المكانين المذكورين يكاد يكون متساوياً إذا ما قورنا ببعضها البعض . إن صحيفة « المانشستر جارديان » تكاد تذكر في كل عدد من أعدادها نبأ ميتة أو أكثر بسبب الحريق . إن ضرورة إرتفاع إحصائية الوفاء بين صغار الأطفال لاشتغال الأمهات لأمر غنى عن البيان . إنه مائل دون أدنى شك في تلك الحقائق البشعة . إن النساء غالباً ما يعدن إلى المصنع بعد الولادة بثلاثة أو أربعة أيام تاركين أطفالهن ، وعليهن أن يسرعن ساعة الغداء إلى منازلهن لإطعام الطفل وتناول شيء ما . أى نوع في الرضاعة ينتظر أن يكون هذا ، أمر واضح أيضاً . إن « اللورد أشلي » يكرر شهادة العديد من النساء للعاملات :

« إن م . ه . ، في العشرين من عمرها ، لديها صبيان ، صغيرهما طفل يرعاه الآخر ، الذى هو أكبر منه قليلاً . إن الأم تذهب إلى المصنع بعد الخامسة صباحاً على وجه التقريب ، وتعود إل المنزل في الثامنة مساء . إن اللبن ينثال من ثديها طوال اليوم ، حتى أن ملابسها تقطر منه بللاً . د ه . و . ، لديها ثلاث أطفال ، إنها تذهب في الساعة الخامسة في صبيحة الإثنين لتعود مساء السبت ، وهناك في المنزل يكون أمامها الكثير لتقوم به من أجل الأطفال ، حتى إنها لا تستطيع أن تأوى إلى فراشها قبل الثالثة صباحاً . وهى غالباً ما تكون قد ابتلت حتى الجلد ، وعليها أن تعمل على هذا النحو مرغمة . » لقد قالت « إن صدرى يؤلمنى أبشع الألم ، وأنا أقطر بللاً من اللبن . »

إن استخدام المنومات لوضع الأطفال في حالة من السكون ، أمر يروج له هذا النظام ائشائن ، وهو قد بلغ حداً كبيراً في أحياء المصانع . ويرى « د . حونس » الموقف المسئول في «مانشستر» أن تلك العادة هى المصدر الرئيسى للميئات العديدة الناجمة عن الإرتعاش . إن تشغيل الزوجة يحل الأسرة تماماً ، وتنتج الحاجة وهذا التحلل في مجتمعتنا الراهن والذى يقوم على الأسرى ، أشد النتائج إفساداً لأخلاق الوالدين والأطفال . إن الأم النى لا وقت لديها للإهتمام بطفلها ولتقديم أكثر مشاعر الحب العادى له خلال سنته الأولى ، والذى نادراً ما يراها بالفعل ، لا يمكنها أن تكون أما حقيقية للطفل ، والذى لا بد وأن ينمو لا مبالياً بها ، يعاملها دون حب كإنسانة غريبة عنه . إن الأطفال الذى يشبون تحت مثل تلك الظروف ، يخربون حياتهم الزوجية تماماً في المستقبل ، إنهم لا يمكن أن



محسوبا بأنهم في دورهم ، في الأسرة التي أقاموها هم أنفسهم ، لقد اعتادوا الوحدة على الدوام ، وهم يسهون بذلك في التفويض العام والقائم بالفعل للأسرة في الطبقة العاملة . إن تحللاً مماثلاً ينجم عن تشغيل البتتين ، إذ عندما يبلغون حداً يكسبون فيه من أسبوع لا أسبوع ، أكثر مما يكفون والديهم ، فإنهم يبدأون في نقد والدين قدرأ محددأ لحساب المأكل والمأوى ويحتفظون بالباقي لأنفسهم . إن ذلك غائباً ما يحدث بين سن الرابعة عشر والخامسة عشر\* . وفي كلمة فإن البتتين يحررون أنفسهم ، وينظرون إلى المنزل الأبوي نظرتهم إلى نزل ، يستبدلونه في الغالب بآخر طبقاً لما يناسبهم .

إن الأسرة ، في أحيان كثيرة ، لا تتحلل تماماً باشتغال الزوجة ، لكنها تتقلب رأساً على عقب . الزوجة تعول الأسرة ، والزوج قابع بالمنزل يرعى الأطفال ، يكتسب الحجرة ويطبخ . إن هذه الحالة كثيراً ما تحدث ، ففي « مانشستر » وحدها أمكن حصر المئات من أمثال هؤلاء الرجال المحكوم عليهم بالاشتغال المنزلية أن تصور السخط الناتج بين العمال لقلب كل العلاقات داخل الأسرة ، بينما تظل الأحوال الاجتماعية الأخرى دون تغيير ، أمر يسير ، يرقد أمامي خطاب من عامل انجليزي اسمه « روبرت بوندر » وعنوانه « أبنية بارون ، وودهاوس ، مورسايد في ليدز » ( ربما بحشت البورجوازية عنه هناك ، ولهذا الغرض كتبت العنوان بدقة ، إن الخطاب مرسل منه إلى « أوستلر »\*\*).

« إنه يروى كيف أن عاملاً آخر كان في رحلة الأقدام ، وعندما بلغ « سانت هيلينز » في « لانكشاير » تفقد صديقاً قديماً هناك .

« لقد وجدته في قبو تعس رطب ، لا يكاد يوجد به أثاث ، وعندما دخل صديقي الفقير ، كان هنالك « جاك » المسكين يجلس إلى جوار النار . فماذا كان يفعل في اعتقادك ؟ كان يجلس يرتق جورب زوجته بالمشق ، ولقد حاول أن

---

(\*) تقرير لجنة تقصى المصائب ، تقرير ( باوز ) عن ( الـيدز ) ، متكرر . تقرير ( توفنيل ) من ( مانشستر ) ص ١٧ . الخ .

(\*\*) ترجم هذا الخطاب من الألمانية إلى الإنجليزية ، دون محاولة تصحيح الهجاء أو لغة ( بوركشاير ) الأصلية .



يخفيه بمجرد أن رأى صديقه القديم عند مدخل الباب . غير أن « جو » ، وهو  
 اسم صديقي ، كان قد رآه بالفعل وقال ، ماذا بحق الشيطان يا « جاك » ؟ اين  
 زوجتك ؟ لماذا ، هل هذا هو عملك ؟ : وخجل « جاك » المسكين وقال « كلا ،  
 إنني أعرف أن هذا ليس في عمل ، إلا أن زوجتي المسكينة في المصنع ، إذ عليها أن  
 تغادر في الخامسة والنصف وأن تعمل في الثامنة مساء ، إنها منهكة إلى حد أنها  
 لا تستطيع أن تفعل شيئاً عندما تعود إلى المنزل ، ولذا على أن أعمل لها كل ما في  
 وسعي عمله ، حيث لا عمل لي ، بل إنني خال من العمل منذ ثلاث سنوات مضت ،  
 وإن يكون هنالك عمل لي طول حياتي ، ثم بكى بكاء مرأ . وعاد « جاك » يتكلم ،  
 « يوجد في الجوار عمل كاف لجماعة النساء والأطفال ، لكن لا عمل على الإطلاق  
 للرجال ، إنه لا يسر عليك أن تجد ألف جنيه في الطريق من أن تجد عملاً للرجال  
 — غير أنني ما كنت أصدق أنك أو أي شخص آخر سيرانى وأنا أصلح جورب  
 زوجتي . إنه عمل سيء ، لكنها لا تكاد تقف على قدميها ، إنني أخشى أن تلزم  
 الفراش ، وحينئذ لا أدرى ماذا سيحل بنا ، إنه لأمر طيب إلى حد ما ، أنها قد  
 غدت رجل البيت وأنا المرأة . إن ذلك عمل سيء يا ( جو ) ، . ثم صرخ في  
 مرارة قائلاً « إنني لم أكن كذلك على الدوام ، ، ( كلا ) قال ( جو ) . ( لكن  
 عندما لم تجد عملاً . لماذا لم تنتقل ؟ ) ، ( سأخبرك يا ( جو ) على قدر ما أستطيع ،  
 لقد كان الأمر سيئاً للغاية . أنت تعرف أنني كنت أعمل كثيراً عندما تزوجت ، كما  
 تعرف أنني لست كسولاً ) ، ( كلا لم تكن كذلك ) ، ( وكان لدينا منزل جيد  
 التأثيث ، ولم تكن ( ماري ) في حاجة للعمل . كان في وسعي أن أعمل من أجلنا  
 نحن الاثنين ، إلا أن العالم إنقلب الآن رأساً على عقب . إن على ( ماري ) أن  
 تعمل ، وعلى أنا أن أقبع بالمنزل ، وعندما تعود المرأة المسكينة إلى المنزل ليلاً ،  
 فإنها تكون منهكة تماماً . وكما تعلم يا ( جو ) فإنه من العسير استخدام المرء في  
 عمل مختلف ) ، ( حقاً يا بني ، إنه لأمر عسير ) . ثم أخذ ( جاك ) في البكاء مرة  
 أخرى ، وتمنى لو أنه لم يتزوج أبداً ، ويولد أبداً ، إلا أنه لم يفكر أبداً عندما  
 تزوج ( ماري ) أنه سيصل إلى ما وصل إليه . وقال ( جاك ) ( إنني غالباً  
 ما أندب هذا ) . والآن فإن جو عندما سمع ذلك كما أخبرني ، أخذ يسب ويلعن  
 المصانع والدادة والحكومة بكل المعينات التي عملها عندما كان في المصنع منذ  
 طفولته ) .

هل في وسع أى أمرىء أن يتصور حالة من جنون الأمور أكثر من تلك الوارد وصفها في هذا الخطاب ؟ ومع ذلك فإن تلك الحالة التى تلغى جنس الرجل وتأخذ من المرأة كل أنوثتها ، غير قادرة على أن تغدق على الرجل أنوثة حقيقية أو على المرأة رجولة حقيقية — إن تلك الحالة التى تحط من قدر كلا الجنسين ومن خلالها الإنسانية بأكثر السبل خزيا ، إنما هى النتيجة النهائية لحضارتنا التى نكيل لها المدح ، إنها الإنجاز النهائى لكل جهود ونضالات مئات الأجيال من أجل تحسين حالاتهم وحالة ذرياتهم ، أنه يتوجب علينا ، إما أن نياس من الجنس البشرى ومن أهدافه وجهوده ، عندما نرى أن كل عملنا وكدحنا إنما يقضى إلى مثل هذا العبث والزراية ، أو أنه يتوجب علينا أن نفر بأن مثل هذا الانقلاب الكلى فى حالة الجنسين ، ما كان من الممكن حدوثه لولا أن الجنسين قد وضعنا منذ البداية فى وضع زائف . ولو كانت هيمنة الزوجة على زوجها ، كمسألة لا مفر منها أنتجها نظام المصنع ، أمر غير إنسانى ، فلا بد وأن يكون القانون الفطرى للزوج على الزوجة غير إنسانى أيضاً . وإن كان فى وسع الزوجة الآن أن تكون لها اليد العليا طبقاً لحقيقة أنها تغطى الجزء الأكبر ، كلا ، بل كل الحياة المشتركة ، فإن النتيجة الحتمية ، أن مجتمع الإمتلاك ذاك مجتمع زائف وغير منطقي ، طالما أن عضو واحد فى الأسرة يباهى فى الغالب بتقديم النصيب الأكبر . وإن كانت أسرة مجتمعنا الحديث تتحلل هكذا ، فإن ذلك التحلل فى الحقيقة يكشف فقط ، عن أن يكون الرباط الذى يربط هذه الأسرة ، لم تكن العواطف العائلية ، لكنها المصالح الخاصة التى تكمن تحت عباءة من الشركة المدعاة فى الممتلكات . وتتواجد نفس العلاقة فى حالة هؤلاء البنين الذى يعولون والديهم العاطلين \* ، عندما لا يدفعون قيمة ما كلهم بشكل مباشر كما أشرنا آنفاً . ولقد شهد دكتور (هاوكينز) فى تقرير (لجنة تقصى المصانع) بأن هذه العلاقة عامة للغاية ، وأنها مخزية فى (مانشستر) فالبنين فى مثل تلك الحالة هم سادة المنزل ، كما كانت الزوجة فى الحالة السابقة ، ويعطى

---

(\*) إلى أى مدى كانت تلك النسوة المتزوجات عديدات أمر يمكن رؤيته من البيان الذى قدمه أحد أصحاب المصانع ، فى ٤١٢ مصنعاً فى « لانسكشاير » تعمل ١٠٧٢١ منهم ، أما أزواج هاته النسوة فلم يكن يعمل فى المصانع غير ٣١٤ منهم ، ٩٢٧ ر ٣ فى غير المصانع ، ٨٢١ عاطلين ، ولم يحدد البيان حالة ٦٥٩ منهم ، أى أن رجلين أن لم يكن ثلاثة رجال من كل مصنع يعيشون على عمل نساءهم .

« لورد أشلي » مثالا عن هذا في حديثه\* : إذ عندما نهر رجل ابنتيه لذهابهما إلى بيت العاهرات ، ردا عليه بأنهما قد ملا الأوامر في هذه المسألة ، قائلتين « عليك المعنة ، إذ علينا نحن أن نعولك » . وعتدا النية على الاحتفاظ بإيراد عملهما لأنفسيهما ، وغادرتا مأوى الأسرة ، وهجرتا والديهما تاركينهما لمصيرهما .

إن النساء غير المتزوجات واللاتي شبهن في المصانع ، لسن بأفضل حال من هؤلاء المتزوجات . إنه لأمر واضح أن الفتاة التي بدأت عملها في مصنع في التاسعة من عمرها ، ليست في وضع يجعلها ملية بالعمل المنزلي ، ومن ثم فإن الإناث العاملات يثبتن أنهن غير مدربات على الإطلاق وغير لائقات لأن تكن مدبرات منازل . إنهن لا يستطعن الحياكة أو الخياطة ، الطبخ أو الغسيل ، غير ملات بأبسط واجبات مدبرة المنزل . وعندما يرزقن بأطفال صغار ، يلزم العناية بهن . فإنهن لا يملكن شبه معرفة في كيفية القيام بذلك . ويعطى « تقرير لجنة تقصى المصانع » العديد من الأمثلة على ذلك . وفيما يلي يعبر دكتور « هاوكينز » مندوب « لانكشاير » عن وجهة نظره\*\*\* :

« إن الفتيات يتزوجن مبكراً ودون ترو ، كما أنه ليس لديهن الوسائل أو الوقت أو الفرصة لتعلم واجبات الحياة المنزلية العادية ، وحتى إن كن على علم بها كلها ، فإنهن لن يجدن الوقت خلال حياتهن الزوجية لممارسة تلك الواجبات . إن الأم تغيب عن طفلها أكثر من إثني عشر ساعة يومياً ، وهي تتركه لرعاية فتاة أو امرأة عجوز كي تقوم على رعايته . ويضاف إلى ذلك أن مساكن عمال المصانع غالباً ما تكون أقبية لا منازل ، لا تحتوى على أوعية للطبخ أو الغسيل ، أو مواد الخياطة والرتق ، لا شيء مما يجعل الحياة مقبولة ومتحضرة ، أو يجعل المأوى المنزلي جذاباً ، لهذا كله ولأسباب أخرى ، خاصة من أجل فرص أفضل في الحياة لصغار الأطفال ، فإنني لا أملك إلا أن أتمنى وآمل ، أن يأتي وقت ما يوصد فيه باب المصانع أمام المرأة المتزوجة ، \*\*\* » .

\* مجلس العموم ، ١٥ مارس ١٨٤٤ .

\*\* تقرير لجنة تقصى المصانع ، ص ٤ .

\*\*\* من أجل مزيد من الأمثلة والبيانات قارن تقرير لجنة تقصى المصانع ، شهادة

« كويل » صفحات ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٧٢ ، ٧٧ ، ٥٠ . شهادة « تونفيل »

صفحات ٩ ، ١٥ ، ٤٥ ، ٥٤ ... إلخ .

إلا أن ذلك هو أدنى الشرور . إن النتائج الأخلاقية لتشغيل النساء بالمصانع لأسوأ من ذلك أيضاً . إن جميع الأشخاص من كلا الجنسين ومن كل الأعمار في حجرة عمل واحدة ، إن الاتصال الذي لا بد منه ، والاكتظاظ في حيز ضيق ، لإناس لم ينحوا أى قدر من التعليم العقلي أو الخلقى ، إن يوفر تطور لائق لشخصية الإنسى : إن صاحب المصنع لا يتدخل ، حتى إن التفت لهذا الأمر على أى نحو ، إلا عندما يقع بالفعل حدث فاضح ، أما الوضع السارى ، أى التأثير الأقل وضوحاً ، لإناس منحل الخلق على من هم أكثر منهم أخلاقية وخاصة هؤلاء الأصغر سناً ، فهو وضع لا يستطيع صاحب المصنع تمييزه ، وبالتالي فإنه لا يستطيع منعه . إلا أن هذا التأثير بالتحديد هو الأكثر خطورة . ويصف كثير من الشهود فى تقرير عام ١٨٢٣ ، المغة المستخدمة فى المصانع ، بأنها لفة فاحشة وبذئية وقذرة . . . . \* . إن نفس العملية التى شاهدناها تجرى آنفاً على نطاق واسع فى المدن الكبرى ، تجرى هنا على نطاق محدود . إن لمركزة السكان نفس التأثير على نفس الأشخاص ، سواء كان هذا التأثير فى مدينة كبيرة أم فى مصنع صغير . وكلما صغر المصنع كلما كان الحشد أكثر قرباً وكلما كان الاتصال أمراً لا مفر منه ، وكلما كانت النتائج وافرة . إن شاهداً من « ليدستر » قال أنه ليفضل أن يدع إبنته تتسول من أن تذهب إلى مصنع ، إنها بوابات حتمية إلى الجحيم ، وأن الغالبية من مرمسات المدينة قد حصن على عمل بالمصانع لينلن الثناء على وضعهن الحالى \* \* . « ولم يتردد آخر من « مانثستر » فى تأكيد أن ثلاثة أرباع التصديّة الذين يعملون فى المصانع وتتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشر والعشرين قد فقدوا عفتهم \* \* \* . ويعبر المندوب « كول » عن ذلك الأمر من وجهة نظره ، بأن أخلاق عمال المصانع إنما هى إلى حد ما ، دون المتوسط الأخلاقى للطبقة العاملة بشكل عام \* \* \* . ويقول دكتور « هاوكينز » : \* \* \* \* .

\* شهادة « كول » صفحات ٣٥ ، ٣٧ وفى أما كن أخرى .

\*\* شهادة « باور » ص ٨ .

\*\*\* شهادة « كول » ص ٥٧ .

\*\*\*\* شهادة « كول » ص ٨٢ .

\*\*\*\*\* تقرير لجنة تقصى المصانع ، ص ٤ ، « هاوكينز » .

« إن تقدير أخلاقيات الجنس أمر لا يمكن تحويله إلى أرقام في الحال ، غير أنني لو وثقت بملاحظاتى الخاصة ، وبالنظرة العامة لهؤلاء الذين تحدثت معهم ، وبالمثل ، بالمضمون الإجمالى للشهادة التى أمددت بها ، فإن مرأى تأثير حياة المصنع على أخلاق جمهرة الفتيات الشابات مثير للكتابة . »

إلى جانب ذلك ، فإن عبودية المصنع ، وهى أمر لا بد منه ، مثلها فى ذلك مثل أى عبودية وإن كانت بدرجة أعلى ، تمنح السيد حق الميلة الأولى . وفى هذه الزاوية أيضاً يتسلط المستخدم على الأفراد والعاملين لديه ويفتنهم . إن النهيد بالطرد يكفى للتغلب على أية مقاومة فى كل تسع حالات من عشر ، إن لم يكن فى كل تسع وتسعين من مائة من الفتيات اللواتى لا يملكن ، بأى حال من الأحوال ، يواعث قوية على الطهر والعفاف . ولو كان السيد على درجة كافية من الدناءة ، والتقرير الرسمى يذكر حالات عديدة مماثلة ، فإن مصنعه يكون بمثابة حريمة . أما حقيقة عدم استخدام الكل من أصحاب المصانع لهذه الإمكانيات ، فإنها على الأقل لا تغير من وضع الفتيات . عندما كانت الصناعة الآلية فى بدايتها ، وعندما كانت غالبية العاملين حديثى عهد دون تعاليم أو اعتباراتفاق المجتمع ، فإنهم ما كانوا يسمحون لأى شىء بالتدخل فى ممارستهم لحقوقهم المكتسبة .

يلزم أولاً لتكوين حكم ضائب عن تأثير عمل المصنع على صحة جنس النساء ، أن نأخذ بعين الاعتبار عمل الصببية ، ثم طبيعة العمل ذاته . إذ منذ بداية الصناعة الآلية إستخدم الصببية فى المصانع ، أولاً وبشكل يكاد يكون خالصاً ، بسبب صغر الماكينات والتى كبر حجمها فيما بعد . وحتى صببية دور تشغيل الفقراء ، كان يتم تشغيلهم زرافات ، كان يتم تأجيرهم لأصحاب المصانع لعدد من السنين كصببية تحت التمرين . كان يتم إيواءهم وإطعامهم وإلباسهم بشكل عام ، وبالطبع كانوا عبيداً بصورة كاملة لسيادتهم الذين كانوا يعاملونهم باستهتار كامل وبطريقة بربرية . ولقد وجدت المعارضة العامة لهذا النظام المثير للشورة ، تعبيراً قويا لها منذ فترة مبكرة من عام ١٧٩٦ ، من دكتور « بر سيفال » و « سير روبرت بيل » ( والد وزير الدولة ، وهو نفسه أحد أصحاب مصانع القطن ) ، حتى أن البرلمان أصدر فى عام ١٨٠٢ « لائحة الصببية تحت التمرين » ، والتى أزيحت (١١) بمقتضاها معظم



الشروع الصارخة . وبالتدريج حلت المنافسة المتزايدة بين العمال الأجرار ، محل نظام الصببية تحت التمرين برمته . لقد أقيمت المصانع في المدن ، وركبت الآلات على نطاق واسع ، وجعلت حركات العمل أكثر تهوية وصحية ، وبالتدريج أيضاً ، توفر عمل للراشدين والشباب ، وتضاءل عدد الصببية إلى حد ما داخل المصانع ، وارتفع السن الذي يبدأون فيه العمل قليلاً ، وغدا الآن عدد المشتغلين من الصببية دون الثامنة أو التاسعة قليل . وفيما بعد كما سنرى ، تدخلت الدولة عدداً من المرات لحمايتهم من شره البورجوازية للمال .

إن إحصائية الوفيات بين أطفال الطبقة العاملة ، وخاصة بين هؤلاء العاملين بالمصانع ، لتبرهن بشكل كاف على عدم صحة الظروف التي يملكون بها في سنى حياتهم الأولى . إن هذه المؤثرات تعمل بالتأكيد ، فيما بين الأطفال الذين يبقون على قيد الحياة ، وإن كان تأثيرها لا يبلغ نفس القدر من القوة كما هو الحال مع هؤلاء الذين يستسلمون . والنتيجة في أفضل الأوضاع هي إستعداد للمرض أو الحد الجزئى من النمو ، مما يتبعه نشاط أقل من المعتاد في بنائه الجسماني . إن أبناء من أبناء عمال المصانع ، في التاسعة من عمره ، نما في ظل الحاجة والحرمان ، وظروف البرد والرطوبة المتغيرة ، دون لباس كاف ، وفي مأوى غير صحية ، لبعيد عن أن تكون له القوة الفعالة لطفل نما في ظل ظروف أكثر صحية . إنه يرسل في سن التاسعة للعمل بالمصنع ست ساعات ونصف ( ثمانى ساعات من قبل ، وإثنى عشر إلى أربعة عشر بل وحتى ستة عشر ساعة في فترة مبكرة عن ذلك ) يومياً حتى سن الثالثة عشر ، ثم إثنى عشر ساعة حتى سن الثامنة عشر . إن المؤثرات القديمة التي يرجع الضعف إليها ما زالت قائمة ، بينما يضاف إليها العمل أيضاً . من غير الممكن إنكار أن طفلاً في التاسعة من عمره حتى وإن كان ابن عامل ، يمكنه الصمود ست ساعات ونصف من العمل اليومى ، دون إستطاعة أى أحد متابعة النتائج السيئة الظاهرة في نموه ، والتي ترجع مباشرة إلى هذا السبب . وعلى أى حال ، فإنه لا يمكن لجو المصنع الرطب الثقيل والذي غالباً ما يكون حاراً ورطباً في ذات الوقت ، أن يمدده بالصحة الجيدة . إنه على أية حال أمر لا يغتفر ، أن يضحى بوقت الصببية الذي يجب أن يخصص فقط لنموهم البدنى والعقلى لحساب



البورجوازية عديمة الإحساس، أن يسحبوا من المدرسة والهواء الطلق ليستنفدوا  
إصالح أصحاب المصانع . إن البورجوازية تقول « إننا إن لم نشغل الصببية في  
المصانع ، فإنهم سيظلون فقط ، تحت أوضاع غير مواتية لنفوسهم » ، وهذا حق  
بشكل عام . لكن ماذا يعني هذا إن لم يكن إقراراً بأن البورجوازية قد وضعت  
أولاً أبناء الأعمال تحت أوضاع غير مواتية ، ثم استغلت تلك الأوضاع السيئة  
إصالحها الخاص ، تستجد بذلك الذي هو خطأها بقدر ما هو خطأ نظام المصنع ،  
تبرر خطيئته اليوم بخطيئة الأمس ؟ وإن لم تكن « لائحة المصنع » قد قيدت  
أيديهم بمعيار ما ، فكيف كان لهذه البورجوازية « الإنسانية » « الخيرة » التي  
شيدت المصانع لمنفعة الطبقة العاملة فقط ، أن ترعى مصالح هؤلاء العمال ؟  
إدعونا نسمع كيف كانوا يتصرفون قبل أن يكون مفتش المصنع في أعينهم .  
إن شهادتهم التي إترفوا بها لتدينهم في تقرير لجنة تقصى المصانع لعام ١٨٢٣ .

إن تقرير اللجنة المفوضة المركزية يروى أن أصحاب المصانع قد بدأوا بتشغيل  
الصببية الذين هم نادراً ما يكونون في سن الخامسة وغالباً في سن السادسة ، وأكثر  
الأحيان في السابعة ، ودائماً في الثامنة والتاسعة . وأن يوم العمل غالباً ما كان  
يدوم أربعة عشر إلى ستة عشر ساعة ، دون وجبات أو فواصل ، وأن أصحاب  
المصانع قد أباحوا للمشرفين جلد الصببية وإساءة معاملتهم ، وغالباً ما كانوا  
هم أنفسهم يشاركون وبشكل فعال في هذا الفعل . وتروى واحدة من الحالات  
عن صاحب مصنع سكتلندي طارد هارباً في السادسة عشر من عمره ، وأجبره على  
العودة جارياً خلفه ، بنفس السرعة التي كان يخب بها حصان السيد ، بينما يضربه  
طوال الوقت بسوط طويل \* . كان من الطبيعي أن تحدث مثل تلك الأمور  
بصورة أقل في المدن الكبرى حيث قاوم العمال بعنف أكثر . إلا أن يوم العمل  
الطويل أيضاً فشل في إشباع شره الرأسماليين . إن هدفهم أن يجعلوا رأس المال  
المستثمر في المباني والآلات يحقق بكل السبل المتاحة أعلى عائد ، وأن يتم  
تشغيله بأكبر قدر ممكن من النشاط . ومن ثم فقد أدخل أصحاب المصانع نظام  
العمل الليلي المشين . لقد استخدم بعضهم مجموعتين من العمال ، كل مجموعة مكونة

---

(\*) شهادته « ستورث » ص ٢٥

من عدد كبير كاف للمليء المصنع بأكمله ، تعمل مجموعة منهما الإثني عشر ساعة المكونة للنهار ، وتعمل الأخرى الإثني عشر ساعة المكونة لليل . إننا لسنا في حاجة لتصوير التأثير الناجم عن فقدان النوم ليلاً بصورة دائمة — والذي لا يمكن تعويضه بأي قدر من النوم خلال النهار — على ابنية الصبية الصغار ، بل وحتى على صحة الشباب الراشدين . إن تهيج الجهاز العصبي مع الاعياء العام والضعف الكلي للبنية ، كانت النتائج التي لا مفر منها ، مع تغذية إغراء شرب الخمر وإطلاق اعنان الإلغماس في الجنس . إن أحد أصحاب المصانع يشهد \* بأن عدد المواليد من الأطفال غير الشرعيين قد تضاعف خلال العامين اللذين نفذ فيهما العمل الليلي في مصنعه ، وأن هذا التدهور الخلقى المتفشى قد أجبره على إلغاء العمل الليلي . غير أن أصحاب مصانع آخرين ، هم أكثر بربرية ، كانوا يطلبون أيدي عديدة للعمل من ثلاثين إلى أربعين ساعة بلا انقطاع ، عدة مرات في الأسبوع ، تاركين إياهم ينامون ساعتين فقط ، حيث لم تكن نوبة الليل كاملة ، وإنما تم حسابها على أساس الإحلال محل جزء من العمال فقط .

إن تقارير اللجنة التي تتعرض لهذه البربرية قد فاقت كل ما كان معروفاً لي في هذا الصدد . إن مثل هذه الفضائح ، لما تروى هنا ، غير موجودة في أي مكان آخر — ومع ذلك فإننا سنرى أن البورجوازية تلجأ إلى الإستشهاد على الدوام بشهادة اللجنة ، وكأنها في صالحها . إن نتائج هذه القسوة قد وضحت في سرعة شديدة . لقد ذكر المندوبون ظهور حشد من العجزة أمامهم . كان من الواضح أن تشوهم إنما قد نشأ عن ساعات العمل الطويلة . إن هذا التشوه أساساً في العمود الفقري والأرجل ، وهو كالتالي كما وصفه « فرانسيس شارب » M. R. C. S « ليدز » \*\* .

« إنني لم أرى على الإطلاق ذلك الانحناء الغريب للأطراف السفلى لعظام الفخذ قبل أن أضل إلى « ليدز » . لقد اعتقدت في البداية أنه كان كساح الأطفال ، إلا أنني سرعان ما غيرت رأي نتيجة حشد المرضى الذين تقدموا إلى المستشفى ، وظهور المرض عند سن يتراوح ما بين الثامنة والرابعة عشر ، وهي

(\*) شهادته « تونفيل » ص ٣٥

(\*\*) شهادته « لودون » ص ١٢٠ ١٣

السن التي لا يتعرض فيها الاطفال إلى مرض الكساح ، كما أن الظرف الذي ظهر فيه المرض أول ما ظهر كان بعد بداية الصبغة عملهم في المصانع . لقد رأيت حوالى المائة على مثل تلك الحال ، وفي وسعى أن أعبر بأقصى حد من التصميم ، عن فكرة أنهم نتاج العمل الشاق . لقد كانوا جميعاً ، بقدر ما أعرف ، صبغة مصانع ، كما عزي جميعهم ما أصابهم من شر إلى هذا السبب . إن عدد حالات إنحناء السلسلة الفقرية التي وقعت تحت ملاحظتي ، والتي كانت ناجمة بشكل واضح عن وقوف طويل الأمد لم تكن لتقل عن ثلاثة آلاف حالة .

وتتماثل مع هذا تمام التماثل شهادة دكتور « هاى » ، والذي عمل طبيباً مدة ثمانية عشر عاماً في مستشفى « ليدز » \* .

« إن تشوهات السلسلة الفقرية كثيرة الى الوقوع للغاية بين الأيدي العاملة بالمصانع . إن بعضها ناجم عن مجرد العمل الشاق ، والبعض الآخر نتيجة تأثير العمل طويلاً ببنيات واهنة أصلاً ، أو أضعفها التغذية الرديء . إن العاهات المرئية تزيد أيضاً عن تلك الأمراض . إن الركب مشنية إلى الداخل ، وغالباً ما تكون أوتار العضلات مرتخية أو واهنة ، وعظام الأرجل الطويلة مشنية . كما أن النهايات الغليظة لتلك العظام الطويلة على وجه الخصوص معرضة للإلتهاء ونامية نمواً غير متناسب . لقد جاء هؤلاء المرضى من المصانع التي كانت تعمل ساعات عمل طويلة .

إن الجراحين « بومونت » و « شارب » من « براذفورد » يحملون نفس الشهادة . إن تقارير « درينك ووتر » و « باور » ودكتور « لورون » تشتمل على العديد من الأمثلة عن مثل تلك التشوهات ، كما تقدم تقارير لـ « توفتل » و « سير دافيد بارى » ، والتي عاجلت تلك النقطة بصورة أقل ، أمثلة مفردة \*\*

---

(\*) شهادة « لودون » ص ١٦

(\*\*) شهادة « درينك ووتر » صفحات ٧٢ ، ٨٠ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠ (شقيقان)

٦٩ (شقيقان) ، ١٥٥ وصفحات أخرى عديدة . شهادة « باور » صفحات ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧

(حالتان) ٦٠ ( ثلاث حالات ) ٦٩ ( حالتان ) وفي « ليدز » صفحات ٤ ، ٧ ( أربع

حالات ) ٨ ( حالات عديدة ) .. الخ .

أما « كويل » و « توفنل » و « هاوكينز » مندوبو « لانكشاير » . فقد أهملوا مسألة النتائج الفسيولوجية الناجمة عن نظام المصنع إهمالاً يكاد أن يكون كلياً ، رغم أن هذه المنطقة تنافس « يوركشاير » في عدد العاجزين . كان من النادر ، وأنا أجتاز « مانشستر » ، ألا ألتقي بثلاث أو أربع من هؤلاء الذين يعانون بداية نفس تشوهات السلاسل الفقرية والأرجل ، كتلك التي تم وصفها . لقد كان في وسعي أن أشاهدهم عن كثب . أنني أعرف شخصاً بالذات ، تتطابق حالته مع ما وصفه دكتور « هاي » آنفاً لقد أصيب بهذه الحالة في مصنع « مستر دوجلاس » في « بندلتون » . إنه منشأة تتمتع بسمعة سيئة لا تحسن عليها بين العمال ، وذلك بسبب فترات العمل الطويلة السابق ذكرها ، والتي تسخر ليلة بعد أخرى ، ومن الواضح عند النظر إلى تلك التشوهات ، أنها كلها تبدو متماثلة تمام التماثل أيّاً كان مصدر تشوهات هؤلاء المقعدين . إن الركب مثنية إلى الداخل والخلف ، الكعوب مشوهة وسميكة . وغالباً ما تمتد السلسلة الفقرية إلى الأمام وإلى جانب . أما قمة هذه التشوهات ، فهي موجودة عند محبي البشر من أصحاب مصانع الحرير ، في منطقة ( ماكسفيلد ) ، والذين يستخدمون أصغر الصبغة قاطبة حتى هؤلاء الذين تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة والسادسة . ولقد عثرت في ملاحق شهادة المندوب ( توفنل ) ، على رواية مدير مصنع ما يدعى ( رابت ) ، كانت شقيقتاه مقعدتان بصورة مخجلة للغاية ، وكان قد قام بإحصاء العاجزين في عدد من الشوارع ، بعضها أنظف وأأنق شوارع ( ماكسفيلد ) . لقد وجد عشرة منهم في ( تاونلي ستريت ) ، خمسة في ( جورج ستريت ) ، أربعة في ( شارلوت ستريت ) ، خمسة عشر في ( ووتر كوتس ) ، ثلاثة في « بانك توب » ، سبعة في « لورد ستريت » ، اثني عشر في « ميل لين » ، اثنين في ( جريت جورج ستريت ) ، اثنين في ( المشغل ) ، واحد في ( جرين بارك ) واثنين في ( بكفورد ستريت ) ، وقد أجمعت عائلاتهم أن هؤلاء المقعدين إنما هم نتاج العمل الشاق في مصانع برم الحرير . ولقد جاء ذكر صبي مقعد إلى حد أنه لا يستطيع صعود السلالم ، وكذا فتيات قد شوّهت منهم الظهور والأرداف .

شهادة سير ( د. باري ) صفحات ٦ ، ٨ ، ١٣ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٤٤ ، ٥٥ ( ثلاث حالات ) .. الخ .

شهادة ( توفنيل ) ص ٥ - ٦ - ١٦ .. الخ .

ولقد نجمت عن هذا العمل الشاق تشوهات أخرى أيضاً ، خاصة تسليح القدم ، وهى تشوهات كثيراً ما لاحظها سير دكتور (بارى) \* وكذا أطباء وجراحو «ليدز» \*\* أما عندما يكون البنيان أقوى ، والطعام أفضل ، وباقي الظروف أكثر مواتاة . وبذا يكون لدى العمال فرصة مقاومة تأثير هذا الاستغلال الهمجى ، فإننا نجد على الأقل ، ألماً فى الظهر والأرداف والأرجل ، كما نجد المفاصل المتورمة ودوالي الأوردة ، والقرحات الدائمة فى الأنفاد وعضلات السيقان . إن هذه الآثار تكاد تكون عامة بين العمال . إن تقارير « ستورت » ، « ما كينتوش » وسير دكتور « بارى » تحتوى على مئات الأمثلة . إنهم يكادون فى الحقيقة ، ألا يعرفوا عاملاً واحداً لم يعانى من هذه التأثيرات ، كما يشهد الأطباء ، فى باقى التقارير ، على صحة تواجد نفس الظاهرة أما التقارير التى تغطى ( اسكتلندا ) ، فإنها تقول بأن يوم العمل الممتد إلى ثلاثة عشر ساعة ، للرجال وللنساء أيضاً ، من سن الثامنة عشر إلى سن الثانية والعشرين ، ينتج تلك النتائج دون شك ، على الأقل فى كل من مصانع غزل الكتان بـ ( دوندى ) و ( دونفر ملين ) وفى مصانع القطن فى ( جلاسجو ) و ( لانارك ) .

إن تفسير تلك التأثيرات ، عل ضوء طبيعة العمل بالمصنع ، الذى هو كما يقول أصحاب المصانع « خفيف للغاية ، أمر سهل ، إذ أنه لهذا السبب بالضبط أكثر أضعافاً من أى عمل آخر . إن ما يقوم به العمال قليل ، لكن عليهم أن يظلوا واقفين طوال الوقت . إن كل من يجلس على حافة النافذة أو على سلة مثلاً يجازى . إن هذا الوضع المنتصب بصورة دائمة ، هذا الضغط الثابت للأجزاء العليا من الجسد على السلسلة الفقرية والأرداف والأرجل . لا بد وأن يؤدى إلى النتائج التى سبق ذكرها ، إن هذا الوقوف ليس جزءاً ضرورياً من العمل ذاته ، فقد أدخلت المقاعد فى ( توتينهام ) ، وكانت النتيجة إختفاء تلك التأثيرات ، وكف العمال عن الاعتراض على طول يوم العمل . إلا أنه فى مصنع يعمل العامل فيه للبورجوازي فقط ، كما أن مصلحته محدودة فى القيام بهذا العمل ، فإن على الأرجح

(\*) تقرير لجنة تقصى المصانع ١٨٣٦ ؛ شهادة سير ( د . بارى ) ص ٢١ حاليان .

(\*\*) تقرير لجنة تقصى المصانع ؛ ١٨٣٦ ؛ شهادة ( لودون ) صفحات ١٣ —

سيستخدم تلك المقاعد بصورة تتجاوز المناسب والمرجح لصاحب المصنع ، وحتى لا يخسر البورجوازي ولو قدر أقل من المادة الخام ، فإنه يتوجب على العامل أن يضحى بقوته وصحته\* . إن الوضع المنتصب لمدد طويلة ، مع الجو الرديء السائد في المصانع ، ينتج بالإضافة إلى التشوهات المذكورة ، إسترخاء واضح في كل النشاطات الحيوية ، وبالتالي تكثر كل أنواع الآثار العامة ، عن الآثار الموضعية . إن جو المصانع ، كقاعدة ، رطب وحار في ذات الوقت ، حار بشكل غير عادي أكثر مما يجب ، وعندما لا تكون التهوية جيدة للغاية ، غير نقية ، ثقيلة وتحتاج إلى الأوكسجين ، مليئة بالغبار ورائحة زيت الآلة الذي يكاد يلطخ الأرضية في كل مكان ويغوص فيها ، فإن الهواء يغدو زنخاً . إن العمال يرتدون ملابس خفيفة بسبب الحرارة ، وهم يصابون بالبرد سريعاً في حالة عدم إنتظام درجة الحرارة ، إن تيار الهواء كريحه بالنسبة لهم ، إن الضعف العام الذي يصيب كل الوظائف تدريجياً ، يقلل الدفء الجسدي : بالتالي يجب أن يحل محله دفيء من الخارج ، ومن ثم فليس هنالك شيء أكثر مناسبة للعامل من الإبقاء على كل الأبواب والنوافذ مغلقة ، وأن يظل في جو مصنعه الدافئ . ثم يأتي التغيير المفاجيء للحرارة عند الخروج إلى الجو البارد والرطب أو شديد الصقيع ، دون وسائل حماية من المطر ، أو إمكانية تغيير الملابس المبتلة بأخرى جافة ، مما يؤدي إلى أمراض البرد على الدوام . ومع كل هذا ، فإن المرء عندما يتأمل ، أن عضلة واحدة من عضلات الجسم لا تستعمل بحق ، ولا تستدعى إلى النشاط بحق ، ربما باستثناء عضلات الأرجل ، وأنه لا شيء مهما كان يمكن أن يعيق الضعف والوهن ، وأن إتجاه كل تلك العوامل يقود إلى الاسترخاء وافتقاد كل تأثير يمكن أن يعطى العضلات قوة ، وللانسجة مرونة وتماسكاً ، وأن العامل محروم منذ شبابه وما يليه من كل هوى في الهواء الطلق ، فإن أحداً لا يندمش البتة لشهادة الأطباء الإجماعية الواردة في تقارير المصانع ، والتي تقول بأنهم قد وجدوا نقصاً هائلاً في القدرة على مقاومة الأمراض ، وإنحطاط النشاط الحيوى ،

---

\* أدخات المقاعد في حجرة الغزل في أحد مصانع «ليدز» أيضاً ، شهادة «دريנק

ووتر» ص ٨٠ .



واسترخاء القوى المعنوية والجسدية بصورة دائمة . دعونا أولاً نستمع إلى دكتور « باري » \* .

« إن التأثيرات غير المواتية لعمل — المصنع على العمال هي ما يلي : ( ١ ) الضرورة التي لا محيص عنها لإرغام جهدهم المعنوي والجسدي على مسايرة الآلة التي تحركها قوة دافعة منتظمة لا تنقطع . ( ٢ ) الاستمرار في وضع منتصب خلال فترات متكررة غير عادية الطول والسرعة . ( ٣ ) اقتقاد النوم نتيجة ساعات العمل الطويلة للغاية ، وألم الأرجل والخلل الجسدي العام . يضاف إلى ذلك ، في غالب الأحيان ، حركات عمل منخفضة مزدحمة ، متربة أو رطبة ، الهواء فيها غير نقي ودرجة الحرارة عالية والعرق لا ينقطع ، ومن ثم ، فإن الصبية على وجه الخصوص ، وباستثناءات قليلة للغاية ، سرعان ما يفقدون نضارة الصبا الوردية ، ويصبحون أكثر شحوباً ونحولاً من الصبية الآخرين ، حتى أن الصبي الذي يعمل في النسيج اليدوي ، والذي يجلس أمام منساجه بأقدامه العارية مستقرة فوق الأرض الطينية ، يحتفظ بمظهر أكثر نضارة ، حيث أنه يخرج ما بين الحين والحين إلى الهواء الطلق لفترة ما . أما الصبي العامل بالمصنع فليس لديه وقت خال ولو للحظة ، غير وقت الوجبات . إنه لا يخرج إلى الهواء الطلق مطلقاً . إلا وهو في طريقه إليهم . إن كل الغزالين الذكور الراشدين شاحبين ، نحيلي الأبدان يعانون تقلب الشهية وسوء الهضم ، وحيث أنهم جميعاً قد تدربوا في المصانع منذ حداثتهم وما تلاها ، كما أنه لا يوجد بينهم ، إلا عدد قليل للغاية من الرجال الرياضيين وطوال القامه ، فإن ذلك يتخذ زريعة تبرر النتيجة التي وصلوا إليها ، بأن تلك الحرفة غير مواتية لنمو بنيان الذكور ، وأن الإناث يتحملن هذا العمل بصورة أفضل من ذلك بكثير ، ( هذا أمر طبيعي للغاية ، غير أننا سنرى أن هن أمراضهن الخاصة أيضاً ) . كما يقول « باور » أيضاً \* .

« في وسعي أن أشهد بأن نظام المصنع في « براد فورد » قد أنتج العديد من

---

\* التقرير العام بقلم سير « د. باري » .

\*\* تقرير « باور » ص ٧٤ .

المقعدين ، وأن تأثير العمل المتصل الطويل واضح على تركيب الجسم ، ليس فقط في صورة تشوه فعلي ، ولكن أيضاً وعلى نحو أكثر عمومية ، في وقف النمو الطبيعي واسترخاء العضلات وضعف الهيكل كله .

وكذا أيضاً « ف . شارب » من « ليدز » . إن الجراح يقول \* :

« عندما انتقلت من « سكاربوروف » إلى « ليدز » ، صدمت بحقيقة أن المنظر العام للأطفال كان أكثر شحوباً ، وأن أنسجتهم هنا . أقل متانة عن تلك في « سكاربوروف » وضواحيها . ورأيت أيضاً العديد من الأطفال كانوا صغاراً بصورة غير مألوفة بالنسبة لأعمارهم . لقد إلتقيت بعدد من الحالات التي لا حصر لها من داء الخنازير ، واضطراب الرئة ، وإصابات غشاء الأمعاء وسوء الهضم . إنني كرجل طبي ، لا أشك في أن كل هذا إنما قد نجم عن عمل المصنع . إنني أو من أن النشاط العصبي للجسد يوهن بالساعات الطويلة ، فينجم عن ذلك كثير من الأمراض . إن سلالة الأيدي العاملة بالمصانع كان لابد وأن تتعرض تماماً وفي سرعة ، لو لم يكن قدوم البشر في الريف مستمر بلا انقطاع .

وكذا أيضاً « بومونت » جراح من « براد فورد » .

« في إعتقادي أن النظام الذي يجرى العمل طبقاً له هنا في المصانع ، يسبب استرخاء معيناً للكائن كله ، مما يقلل مناعة الصديقية ضد الأوبئة والأمراض العارضة إلى أعلى درجة . إنني اعتبر أن غياب كافة نظم التهوية الملائمة والنظافة في المصانع هي بالقطع المصدر الرئيسي لهذا الاستعداد — أو قلة المناعة — لتلك الإصابات المرضية والتي كثيراً ما التقيت بها أثناء عملي » .

ويقدم دكتور « راي » شهادة مماثلة :

« (١) لقد كانت لدى الفرصة لملاحظة تأثيرات نظام المصنع على صحة الصديقية ، في ظل أكثر الظروف هوائية ( في مصانع « وود » ، في « براد فورد » ، وهي

---

\* إن الجراحين في إنجلترا مثقفين علمياً مثل الأطباء ، ونديمهم بشكل عام ، لتدريب طبي مثل التدريب الجراحي ، ولذلك فهم عموماً ولأسباب عديدة مفضلون على الأطباء .

أفضل المصانع تنظيماً بالمنطقة ، وكان دكتور « راي » يعمل بها جراحاً للمصنع ( ٢ ) هذه التأثيرات بالتحتم وإلى حد كبير جداً ضارة ، حتى في ظل تلك الظروف الأكثر مواناة ( ٣ ) عالجت في عام ١٨٤٢ ثلاثة أنحاس كل الصببية المستخدمين في مصانع « وود » ( ٤ ) إن التأثير الأسوأ ليس في سيادة التشوهات ، ولكن في الأبنية الهزيلة والمريضة . ( ٥ ) أن كل ذلك قد تحسن إلى حد كبير منذ تخفيض ساعات عمل الصببية في « وود » إلى عشر ساعات .

إن المندوب دكتور « لودون » نفسه ، وهو الذي نقل عن هؤلاء الشهود يقول :

« ختاماً ، فإنني أعتقد ، أنه قد ثبت في وضوح ، أن تشييل الصببية يتم يومياً لمدة من الزمن غير معقولة وقاسية إلى أقصى حد ، وأن الراشدين أيضاً كان يطلب منهم القيام بقدر معين من العمل ، ينذر أن يستطيع إنسان إحتماله . والنتيجة ، أن العديد من ماتوا قبل الأوان ، وأن آخرين إبتلوا بحياة مشوهة البنيان ، كما أن هنالك خوف مؤكد ، من وجهة النظر الفسيولوجية ، من نسل هزيل ، بسبب التركيب الجسماني المضعف لمن بقي على قيد الحياة » .

وأخيراً دكتور « هاوكينز » ، الذي يتكلم عن « مانشستر » :

« إنني أعتقد أن غالبية المسافرين يصدمون من القامة والهزل والشحوب الذي يظهر للعين شائعاً للغاية ، ولا سيما بين الطبقات العاملة بالمصنع في «مانشستر» . إنني لم أذهب إلى أي مدينة من مدن بريطانيا العظمى أو أوروبا ورأيت فيها انحطاط الهيئة واللون عن المعيار القومي بمثل هذا الوضوح . إن كل الصفات التي تميز الزوجة الإنجليزية مفتقدة بشكل واضح للغاية بين النساء المتزوجات . يجب أن أعترف بأن كل الفتيان والفتيات اللذين أحضروا أمامي من «مانشستر» كانوا مكتئبي المنظر ، غاية في الشحوب . إن التعبير على وجوههم لا يحمل أي قدر من النشاط أو الحيوية والبهجة المعتادة عند الشباب . لقد أخبرني العديد منهم ، إنهم لا يستشعرون أي ميل للهو خارج المنازل أيام السبت والأحد ، بل أنهم يفضلون البقاء في سكوتهم في منازلهم » .

وأضيف على الفور صفحة أخرى من تقرير « هاوكينز » . إن إلتئامها إلى هنا إنما هو نصف إلتئام فقط ، إلا أنه يمكن إقتباسها هنا كما يمكن إقتباسها في أى مكان آخر :

« إن الإفراط والشحط وإفترقاد القدرة على التدبر ، هى الأخطاء الرئيسية لأهل المصنع . وتلك الشرور أمور يمكن تتبعها فى الحال ، فى العادات التى تكونت فى ظل النظام الحالى ، والتى لا بد وأن تنشأ عنه . إن من المعترف به ، بشكل عام ، أن سوء الهضم والاكتئاب والوهن يصيب الطبقة إلى حد كبير للغاية . كما أنه من الطبيعى أن يتلفتم المرء حوله بعد إثنى عشر ساعة من الكدح الممل ، يبحث عن منشط من نوع أو آخر . إلا أنه عند ضائقة الأوضاع المريضة السابق ذكرها إلى الإرهاق المعتاد ، فإن الناس سوف تلجأ فى سرعة وبصورة متكررة إلى المشروبات الروحية . »

إن التقارير نفسها ، رغمًا عن شهادة الأطباء والمندوبين ، تقدم مئات الحالات كأدلة وبراهين . إن مئات الروايات لتشهد على أن العمل الذى يقوم به الشباب يوقف نموهم الطبيعى . ويقدم « كويل » ، بين آخرين ، أوزان ٤٦ شاباً فى سن السابعة عشر ، إنهم جميعاً فى مدراس واحدة من مدراس يوم الأحد ، منهم ٢٦ يعملون فى المصانع يزن الواحد منهم ١٠٤ و ٥ رطلاً فى المتوسط ، و ٢٠ لا يعملون فى المصانع يزن الواحد منهم ١١٧ و ٧ رطلاً فى المتوسط . إن واحداً من أكبر أصحاب المصانع فى «مانشستر» وهو الذى يتزعم المعارضة ضد العمال . وإنى لا أعتد أنه « روبرت هايد جريج » شخصياً ، قد قال فى أحد المناسبات ، أنه لو سارت الأمور على النحو الذى تسير به حالياً ، فإن عمال « لانكشاير » سيصبحون فى القريب العاجل سلالة من الأقزام \* . ويشهد أحد ضباط التجنيد \* ، أن العمال مهيشين إلى حد محدود للخدمة العسكرية ، إنهم يبدوون نحافاً عصبيين ، وغالباً ما كان يرفضهم الجراحون لعدم صلاحيتهم . لقد كان يجد صعوبة فى الحصول على رجال ، أطوالهم خمسة أقدام وثمان بوصات ، كانوا

---

\* هذا البيان غير مأخوذ من التقرير .

\*\* ( توفل ) ص ٥٩ .

عادة خمسة أقدام وست بوصات أو سبع فقط . بينما كانت أطوال معظم المجندين في الملحق الزراعية ، خمسة أقدام وثمان بوصات .

إن الرجال يستهلكون في فترة مبكرة للغاية ، نتيجة الأحوال التي يعيشون ويعملون في ظلها . إن معظمهم يصبح غير صالح للعمل عند سن الأربعين ، وقلة منهم تصمد حتى سن الخامسة والأربعين ، ولا يصمد أحد في الغالب حتى سن الخمسين . إن ذلك لا يرجع فقط ، إلى الضعف العام للبنيان ، لكنه يرجع أيضاً ، وبصورة غالبية للغاية ، إلى عجز الإبصار ، والذي ينتج عن الغزل على آلة الغزل ، حيث يضطر العامل إلى تثبيت نظره على صف طويل في الخيوط الرفيعة المتوازية ، وبذا يجهد الإبصار إجهاداً شديداً .

فمن بين ٦٤٠٠ عاملاً يشتغلون في مصانع عديدة في « هاربور » و « لانارك » ، كان هناك عشرة منهم فقط فوق سن الخامسة والأربعين ، ومن بين ٢٢٠٩٤ عاملاً في مصانع متنوعة في « ستوك بورت » و « مانشستر » ، كان ١٤٣ منهم فقط فوق سن الخامسة والأربعين ، وكان هناك ١٦ شخصاً من هؤلاء الـ ١٣١ قد أبقى عليهم الماهم من حنونة خاصة ، وكان أحدهم يقوم بعمل صبي . إن قائمة من ١٣١ غزالاً لم تكن تشمل على غير سبعة فقط فوق سن الخامسة والأربعين ، ومع ذلك فإن كل الـ ١٣١ قد رفضهم أصحاب المصانع المدين تقدموا للعمل لديهم ، باعتبار أنهم « مسنين للغاية » . إن خمسين من الغزالين المنصولين في « بولن » ، لم يكن بينهم غير اثنين فقط فوق سن الخمسين ، والباقيين لم يكونوا قد تجاوزوا الأربعين في المتوسط ، وكانوا جميعاً بلا وسيلة للعون بسبب كبر سنهم ! ويعترف « مستر آشويرث » ، أحد كبار رجال الصناعة ، في خطاب منه إلى « لورد آشلي » أن الغزالين باقترابهم من سن الأربعين ، يصبحون غير قادرين على تجهيز الكمية المطلوبة من الغزل ، وهذا هو سبب فصلهم « في بعض الأحيان » . إنه يطلق على العمال الذين هم في سن الأربعين إسم « العواجين » \* . ويعبر المدرب عما كنتوش عن رأيه بنفس الطريقة في تقرير عام ١٨٢٣ :

---

\* كلها مأخوذة من خطبة « لورد آشلي » ( جلسة Lower House ١٥ مارس ١٨٤٤ ) ( المخطوطة في الطبعة الألمانية ) .

« رغم أنى كنت معداً لهذه المسألة من الطريقة التى يتم بها تشغيل الصببية ، إلا أنى وجدت أنه من العسير أن أصدق روايات كبار العمال عن أعمارهم ، إنهم بهذا يشيخون بصورة مبكرة للغاية » .

يقول « سميلى » جراح « جلا سجو » ، « والذي كان معالماً للعمال بشكل أساسى » أن أربعين عاماً ، تعتبر سن متقدمة بالنسبة لهم \* . ويمكن العثور على دليل مماثل فى غير هذا المكان \*\* . إن هذه الشيخوخة المبكرة بين العمال فى « مانشستر » ، عامة إلى حد أن كل رجل بلغ سن الأربعين من عمره يكاد يبدو أكبر من ذلك بعشرة أو خمسة عشر عاماً ، بينما الطبقات الموسرة ، رجالاً ونساءً ، تحتفظ بمظهرها الحسن إلى حد كبير ، طالما لم يشغلوا اشرباب إلى حد بعيد .

إن لعمل المصنع تأثير على بنية الأنثى أيضاً ، تأثيراً واضح وغريب . إن التشوهات التى تنتجها ساعات العمل الطويلة ، خطيرة بين النساء على نحو أكثر بكثير . إن العمل فترات طويلة الأمد ، غالباً ما يسبب تشوهات الحوض ، إنها تظهر جزئياً فى صورة وضع شاذ لعظام الأرداف ونموها ، وجزئياً فى صورة تشوه يصيب الجزء السفلى من العمود الفقرى .

يقول دكتور « لودون » : « رغم أنه لم يرد تحت ملاحظتى أى مثل من أمثلة تشوهات الحوض وبعض الإصابات الأخرى ، إلا أن مثل تلك الأمور منتشرة للغاية ، حتى أنه يتوجب على كل طبيب أن ينظر إليها ، على أنها نتائج محتملة لمثل ساعات العمل تلك ، ولقد أكد ذلك أيضاً رجال على أى درجة من ناحية السمعة الطبية » .

إن التعاملات بالمصنع يعانين من نفاس أصعب من غيرهن ، كما أن استعدادهن للإجهاض \*\*\* أكبر ، الأمر الذى يشهد به العديد من أطباء الولادة والقبالات .

---

\* شهادة « ستورت » ص ١٠١

\*\* شهادة « تونفل » صفحات ٣ ، ٩ ، ١٥ ، تقرير « هاوكينز » ص ٤ شهادة

ص ١٤ الخ . الخ .

\*\*\* شهادة . ( هاوكينز ) صفحات ١١ ، ١٣



لأنهن يعانين ، بالإضافة إلى ذلك ، من الضعف العام السائد بين كل العمال ، كذلك فإنهن يستمررن في العمل بالمصنع بعد الحمل حتى ساعة الوضع ، وإلا فقدن أجورهن . كما أنهن يخشين أن يستبدلن سريعاً بأخريات إن تغيبن ، وكثيراً ما يحدث أن تظل النسوة في العمل حتى المساء ، ثم يلدن في صباح اليوم التالي . بل أن حالات الوضع في المصنع بين الآلات ليست بالحالات النادرة تماماً . وإن لم يجد السادة البورجوازيون في ذلك أمراً مخجلاً على وجه الخصوص ، فلربما تعترف زوجاتهم بأن ما يحدث إنما هو جزء من أعمال القسوة ، إنه عمل فاضح من أعمال الهرجسية ، إنه بشكل غير مباشر ، إكراه للمرأة الحامل على العمل اثنتي عشر أو ثلاثة عشر ساعة يومياً ( وكانت أطول من ذلك فيما سبق ) ، حتى اليوم الذي تلد فيه ، وهي في وضع منتصب مع العديد من الإنحناءات . غير أن هذا لا يمثل كل شيء ، إن هؤلاء النسوة يكن ممتنات ويعتبرن أنفسهن مخطوبات ، إن لم يجبرن على إستئناف العمل خلال أسبوعين . إن العديد منهن يعدن إلى العمل لإستئنافه كاملاً ، بعد ثمانية أيام وربما بعد ثلاثة أيام أو أربعة . لقد سمعت ذات مرة أحد أصحاب المصانع يسأل المشرف قائلاً : « هل لم تعد فلانة الفلانية بعد ؟ » ، « كلا » ، « كم مضى عليها منذ كانت نفساء ؟ » « أسبوع » ، « كان يجب عليها أن تعود منذ زمن طويل . إن زميلتها تلك التي هناك ، لم تنتظر غير ثلاثة أيام . إن الخوف من الطرد والفرع من المجاعة يقودانها بالطبع إلى المصنع رغم ضعفها ، متحدية ما تعانيه من ألم . إن مصلحة صاحب العمل لا تتحمل أن تبقى العاملات عنده في منازلهن بسبب المرض ، يجب عليهن ألا يمرضن أبداً ، ألا يغامرن بالرقاد في سكيننة خلال نفاس طويل ، وإلا فعليه أن يوقف آلاته أو يرهق رأسه السامية بإجراء تغيير مؤقت في النظام الذي وضعه للعمل ، إنه قبل أن يفعل ذلك ، يكون قد طرد العاملين لديه ، إن هم بدأوا يمرضون . استمع \* .

« فتاة مريضة مرضاً شديداً ، إنها بالكاد قادرة على تأدية عملها . لماذا لا تطالب إذن بالذهاب إلى منزلها ؟ آه ! إن السيد غريب للغاية ، إذ لو حدث وتغيبننا ربع يوم ، فإننا بذلك نجازف بالطرد طرداً كلياً » .

« يصاب «توماس جاك دورت» — وهو عامل — بحمى خفيفة — ليس في وسعه أن يظل بمنزله أكثر من أربعة أيام . إنه يخشى أن يفقد مكانه . »

هكذا تجرى الأمور في كل المصانع تقريباً . إن تشغيل الفتيات الصغيرات يؤدي زراع الإختلال خلال فترة النمو . إن حرارة المصنع ، في حالة بعضهن ، وخاصة هؤلاء اللاتي يتخذن تغذية أفضل ، تعجل بهذه العملية ، حتى أن بعض الفتيات ينضجن في سن الثالثة عشر والرابعة عشر نضجاً تاماً . إن « روبرتون » الذي استشهدت به آنفاً ( ذكر اسمه في تقرير لجنة تقصى المصانع بصفته طبيب أمراض نساء رفيع الشأن في «مانشستر» ) يروي في جريدة شمال إنجلترا الطبية الجراحية ، أنه رأى فتاة في سن الحادية عشر ، لم تكن امرأة ناضجة فقط بل كانت حاملاً أيضاً . في حين كان من النادر تماماً ، أن تكون هناك امرأة نساء في سن الخامسة عشر في «مانشستر» . إن تأثير دفيء المصانع ، في مثل تلك الحالات ، يماظر تأثير دفيء الطقس الاستوائي . إن ما يحدث في تلك الأجواء ، هو أن النمو المبكر الشاذ يقتصر لنفسه في مقابل الشيخوخة المبكرة والهزال . ومن ناحية أخرى ، فإن نمو بنية الأنثى متأخراً ، يترتب عليه تأخر نضج الأثداء أو عدمه نهائياً\* . كما يظهر الحيض أول ما يظهر في سن السابعة عشر أو الثامنة عشر ، وأحياناً في سن العشرين ، وفي الغالب لا يظهر على الإطلاق\*\*\* . إن الحيض غير المنتظم ، المصحوب بألم شديد وإصابات عديدة وخاصة الأنيميا أمر مأوف تماماً كما تقرر التقارير الطبية بإجماع الآراء .

إن أطفال مثل هؤلاء الأمهات ، وخاصة الأمهات ثلواتي أجبرن على العمل خلال فترة العمل ، لا يمكن أن يكونوا أطفالاً أنوياء . إنهم على نقيض ذلك ، ضائماً ضعفاً شديداً ، وخاصة في «مانشستر» كما وصفهم التقرير . إن «بارى»

\* شهادة سبر «د. بارى» ص ٤٤ .

\*\* شهادة «كوبل» ص ٣٠ .

\*\*\* شهادة دكتور «هاوكينز» ص ١١ ، دكتور «لودون» ص ٥ وسير «د. بارى»

وحده هو الذى يزعم أنهم أصحاء ، غير أنه يقول أيضاً ، أنه لا تكاد تعمل امرأة فى المصانع ، فى « اسكتلندا » حيث يوجد تفتيشه ، كما أن أغاب المصانع هناك موجودة فى الريف ( باستثناء جلاسجو ) ، وهو وضع يسهم كثيراً فى تنشيط الأطفال . إن أطفال العمال فى المناطق المجاورة « لمانشستر » ، يكادوا أن يكونوا أصحاء وردى اللون ، بينما يبدو هؤلاء الذين فى داخل المدينة ، شاحبين ومصابين بداء الخنازير ، غير أن هذا اللون يختفى فجأة فى سن التاسعة ، حيث يرسل الجميع حينذاك إلى المصانع ، وسرعان ما يصبح من المستحيل تمييز أطفال الريف من أطفال المدينة .

يضاف إلى كل هذا ، إن هناك بعض فروع العمل بالمصانع ذات تأثير ضار بوجه خاص . إن الجر فى كثير من حجرات مصانع غزل القطن والكتان ، مليئة بالزغب الذى ينتج إصابات صدرية « وخاصة بين عمال التمشيط والمضم . إن بعض البنيات تستطيع أن تحتمل ، كما أن البعض الآخر لا يحتمل ، غير أن العامل لا يملك خياراً . يجب عليه أن يتوجه ، إلى الحجرة التى يجد فيها عملاً سواء كان صدره سليماً أم غير سليم . إن النتائج العامة لاستنشاق هذا الغبار هى بصق الدماء والعسر ، التنفس كثير المنيط ، آلام الصدر ، السعال والأرق ، وفى إيجاز ، كل أعراض الربو ، منتهية فى أسوأ الأحوال بداء السل\* . إن عملية الغزل الرطب الخيوط الكتان ، والتى تقوم بها البنات والصبيات ، لضارة بالصحة على وجه خاص . إن المياه تتأثر عليهم فى دفقات من الغزل ، حتى أن واجهة ملابسهم تبدل حتى الجلد بصورة دائمة . كما توجد مياه راكدة بشكل دائم فوق الأرضية . إن نفس الحالة . ولكن بدرجة أقل ، موجودة فى حجرات تسوية الخيوط فى مصانع القطن . والنتيجة نجاح دائم لأمراض البرد وإصابات الصدر . أن الصوت الأجش الخشن ، ظاهرة عامة بين كل العمال ، وبشكل خاص بين عمال الغزل الرطب وتسوية الخيوط ، ويعبر « ستورد » و « ماكينتوش » وسير دكتور « بارى » عن وجهة

---

\* قارن « ستورت » صفحات ١٣ ، ٧٠ ، ١٠٩ ، « ماكينتوش » ص ٢٤ الخ ، تقرير ( باور ) عن ( توتينجهام ) ، وفى ( ليدز ) ، ( كورد ) ص ٢٣ الخ ، ( بارى ) ص ١٢ ( خمس حالات فى مصنع واحد ) ، صفحات ١٧ ، ٤٤ ، ٥٢ ، ٦٠ .. الخ ؛ ( لودون ) ص ٣ .

نظرهم ، بأشد العبارات عنفاً بما يخص هذا الوضع غير الصحي لذلك العمل ، والاهتمام الضئيل الذي يبديه غالبية أصحاب المصانع بصحة الفتيات اللاتي يقمن به . هنالك تأثير آخر لغزل الكتان ، وهو تشوه الكتف بصورة غريبة ، وخاصة نتوء لوح الكتف الأيمن ، نتيجة لطبيعة العمل . إن هذا النوع من الغزل ، والغزل على آلة نسيج القطن ، كثيراً ما يسبب أمراض طاسة الركبة ، وهي التي تستخدم في اختبار المغزل أثناء وصل الخيوط التي تقطعت . إن الانحناء على الآلات الواطئة والمنتشرة من هذين الفرعين من العمل ، له بشكل عام ، تأثير يعيق النمو الطبيعي للعمال . إنني لا أتذكر رؤية فتاة واحدة طويلة جيدة البنيان ، في حجرات آلات الغزل بمصانع القطن في «مانشستر» ، حيث كنت أعمل ، كن جميعاً قصيرات مكعبرات ، سيدات التكوين وهن بالقطع مصابات بقبح في نموهن الكلى . إن أطراف العمال تعاني ، فضلاً عن كل تلك الأمراض والتشوهات ، معاناة أخرى أيضاً . إن العمل بين الآلات يسبب العديد من الحوادث الخطيرة بصورة أو أخرى ، وهي ذات تأثير لاحق على العامل يجعله غير صالح كلية للعمل بصورة أو أخرى . إن أكثر الحوادث انتشاراً هو هرس الآلة لفقرة واحدة من الأصبع ، وأقل انتشاراً فقد الأصبع كله ، نصف أو كل اليد أو الزراع ... الخ . ويلى ذلك في غالب الأحوال ، وبسبب إصابات أبسط أيضاً ، مرض التيتانوس الذي يحمل الموت معه . ويوجد إلى جوار الأشخاص المشوهين ، عدد كبير من المعوقين الذين يمكن للمرء أن يراهم يتجولون في «مانشستر» . هذا شخص فقد ذراعه أو جزء منه ، وذلك فقد قدماً ، والثالث فقد نصف رجل ، إن الأمر يبدو وكأنك تعيش في قلب جيش عائد لتوه من حملة حربية . غير أن أكثر الأجزاء خطورة في الآلة ، هو السير الذي ينقل القوة المحركة من المحور إلى الآلات المتفرقة ، خاصة إذا اشتمل على أبازيم ، وهي التي أصبح من النادر استخدامها حالياً ، على أى حال . إن كل من يمسك به السير ، يحمل إلى أعلى في سرعة البرق ، ثم يلقى به إلى أعلى ، إلى السقف ، ثم إلى أسفل على الأرض ، كل ذلك في قوة لا تبقى على عظمة كاملة في جسده ، ثم يعقب ذلك الموت فوراً . وقد نشرت «المانشستر جارديان» فيما بين ١٢ يونيو و ٣ أغسطس ١٨٤٣ ، عن الحوادث الخطيرة التالية ( أما الحوادث الطفيفة فإنها لم تلاحظها ) : ١٢ يونيو ، مات صبي في «مانشستر» من التيتانوس ، الناتج عن عصر يديه بين العجلات .

١٦ يونيو ، أمسكت عجلة بشاب من « سادل ورث » وحملته معها ، مات بعد أن  
حرقته أربابا . ٢٩ يونيو ، شاب يعمل في ورشة ميكانيكية في « جرين اكرز مون »  
سقط تحت حجر المسن ، كسر له ضلعين وأصابه بتهتكات بالغة . ٢٤ يوليو ،  
مات فتاة في ( أولدهام ) ، لقد حملها السير حوالى خمسين مرة ، لقد تحلّمت  
كل عظامها . ٢٧ يوليو ، أمسكت الشفاطة ( الآلة الأولى التى تتلقى القطن الخام )  
بفتاة في ( مانشستر ) ، ماتت بسبب ما أصابها من أضرار ، ٣ أغسطس ، مات  
خراط بوبينات في ( دوكنفيلد ) ، أمسك به سير ، تحلّمت كل ضلوعه . عاجل ملجا  
( مانشستر ) عام ١٨٤٣ ، ٩٦٢ حالة من الجروح والمضاعفات التى سببتها  
الآلات ، بينما بلغ عدد كل الحوادث الأخرى في نطاق منظمة المستشفى ٢٤٢٦  
حالة ، حتى أنه في كل خمسة حوادث ناجمة عن مختلف الأسباب ، هنالك  
حالتين بسبب الآلة . إن الحوادث التى وقعت في ( سالفورد ) ، غير متضمنة هنا ،  
كذا الحالات التى عالجها الجراحون في ممارسات خاصة . وفي مثل تلك الحالات ،  
سواء ظل الضحية بعد الحادثة صالحا للعمل ، أم غير صالح للعمل مستقبلا ، فإن  
المستخدم في أحسن الأحوال ، يدفع أجر الطبيب ، أو ربما في حالات  
استثنائية للغاية ، يقوم بدفع أجر فترة لعلاج ، أما يؤول إليه حال العامل فيما  
بعد ، في حالة عجزه عن العمل ، فهو أمر لا يخص المستخدم .

يقول ( تقرير المصنع ) ، بخصوص هذا الموضوع ، أنه يجب جعل  
المستخدمين مسؤولين عن كل الحالات ، حيث أن الصبية لا يستطيعون  
الإحتراس ، كما أن الراشدين سوف يحتاجون في حدود مصالحهم الخاصة . غير  
أن السادة الذين كتبوا التقرير بورجوازيون ، ولذا فلا بد وأن يناقضوا  
أنفسهم ، ويثيرون فيما بعد ، كل أنواع الهراء ، عن نزق العمال وإدانته هذا  
النزق .

إن الوضع يحدد كما يلي : إن كان الصبية عاجزين عن الإحتراس ، إذن يجب  
منع تشغيل الصبية . وإن كان الراشدون غير مباينين ، إذن لا بد وأنهم مجرد صبية  
زاد نموهم عن النمو المعتاد ، كما وأنهم على مستوى من الذكاء لا يمكنهم من معرفة  
قدر الخطر في مداه الكلى . ومن المعلوم عن هذا غير البورجوازية التى تحافظ  
عليهم في وضع لا يمكن ذكاؤهم من النمو ؟ أو أن الآلات سيئة النظام ويجب أن

تجاط بسياج لتسد الفتص الذي يقع على عاتق البورجوازية . أو أن العامل يعمل تحت مؤثرات ترجح الخطر الذي يهدده ، إذ يجب عليه أن يعمل في سرعة ليكسب أجره ، وليس لديه الوقت ليةخذ حذره ، والبورجوازية أيضاً هي الملوثة على ذلك . إن حوادث كثيرة تحدث مثلاً ، بينما العامل ينظف الآلات وهي تعمل . لماذا ؟ لأن البورجوازي سيرغم العامل ، إن لم ينظفها وهي تعمل ، على تنظيفها أثناء ساعات راحته بينما هي متوقفة عن العمل ، وبالمربع فإن العامل ليس للتضحية بأي جزء من وقت راحته . إن كل ساعة راحة ، تمثل شيئاً ثميناً بالنسبة للعامل ، إلى حد أنه غالباً ما يخامر بحياته في الأسبوع مرتين ، على أن يضحي بساعة من ساعات راحته للبورجوازي . دع المستخدم يأخذ الزمن اللازم لتنظيف الآلات من ساعات العمل ، وحينئذ لن يحدث مطلقاً أن ينظف أى عامل الآلات أثناء تشغيلها ، وفي إيجاز ، فإن اللوم يتبع في النهاية على صاحب المصنع ، مهما كانت زاوية الرؤية ، ومنه يجب أن يطلب ، كحد أدنى ، دعم العامل لعاجز طوال عمره ، ودعم أسرة الضحية في حالة ما يقب الموت حادثة من الحوادث ، لتمد كانت نسبة الحوادث أكثر بكثير مما هي عليه الآن ، في المرحلة المبكرة للغاية من لصناعة . كان الوضع كذلك لأن الآلات كانت أوني وأصغر وأكثر إزدحاماً ، ولم تكن في غالب الأحيان مسورة على الإطلاق . إلا أن الرقم ما يزال كبيراً بما فيه الكفاية ، كما تثبت الحالات السابقة عرضها ، ليشير السؤال الخليل عن الوضع الذي يسير الأمور ، والذي يسمح بمثل هذه الكثرة من النشوهات والمضاعفات لصالح طبقة واحدة ، ويغمس هذه الكثرة من العمال لكادحين من الحاجة والجماعة بسبب إصابات تتمع أثناء الخدمة ، وبواسطة خلأ البورجوازيين .

إن قائمة عامة بالأمراض ، ترجع بالكامل إلى جشع أصحاب المصانع البغيض إلى المال . النساء يجعلن غير صالحات للإنجاب ، الصبية يشوهون ، الرجال يضعفون ، الأطراف تسحق ، أجيال بكاملها تحطم ، تبطل بالمرض والضعف ، كل ذلك لتميئ أكياس البورجوازيين ، إن المرء عندما يقرأ عن همجية بعض الحالات ، كيف يمسك المشرقون بالصبية عرايا في السرر ويدفعون بهم إلى المصنع لهما وركلا وثيابهم فوق أذرعهم . كيف يرفع عنهم النوم بالمطبات



وكيف يستملكون مع ذلك نياماً فوق أعمالهم . كيف أن صديقاً بائساً قفز عند نداء المشرف ، وسار وهو ما زال نائماً بطريقة آلية عبر عمليات عمله رغم أن الماكينة كانت متوقفة ، عندما يقرأ المرء كيف أن الصنعية متعجبين إلى حد يجزهم عن الذهاب إلى منازلهم ، فيختبئون بعيداً في لفحهم عن حجرة لتجفيف ليناموا هناك ، ولا يمكن طردهم من المصنع إلا بالسيطرة : كم مات منهم تعود إلى منازلها متعبة ، إل حد أنهم لا يستطيعون تناول العشاء لحاجتهم إلى النوم ولا فتقادهم الشهية ، وأن الوالدين يجنون صديقتهم راكعين إلى جوار السرر حيث ناموا أثناء صلاتهم ، عندما يقرأ المرء عن كل هذا وعن مئات أخرى من الرزائل ولشذاعات في هذا التقرير الواحد ، وكلها شهادات أديت بعد حلف اليمين مؤيدة بعدد من اليهود ، وقد أقر بها رجال يعتبرهم المندوبون أنفسهم أهلاً للثقة ، عندما يفكر المرء بأن هذا التقرير تقرير ليبرالي ، وضع بغرض تحقيق رد فعل مماكس لتقرير المحافظين السابق ، ورد اعتبار نفاوة قلب أصحاب المصانع ، وأن المندوبين أنفسهم يقفرون في صف البرجوازيين ، وأنهم يقررون كل تلك الأمور ضد إرادتهم هم ، كيف يمكن للمرء بعد ذلك إلا أن يمتلئ بالغضب والحقد ضد طبقة تفاخر بالبذل في سبيل الإنسانية والتضحية الذاتية ، بينما غايتها الوحيدة هي ملأ أكياسها بأى ثمن؟ دعونا نستمع ، في تلك الأثناء ، إلى البرجوازيين يتحدثون على لسان حوارهم المختار دكتور « أور » ، الذى يروى فى كتابه « فلسفة المصانع » \* ، بأنه قد قيل للعمال أن أجورهم لا تتأثر إن قيسست بتضحياتهم ، ولذا اضطرب حسن التفاهم بين أساقفة والرجال . يجب على العمال ، بدلاً من ذلك ، أن يكبحوا حتى يزكون أنفسهم بانتباههم ومثابرتهم . يجب على العمال أن يفرحوا لاغبال الدنيا على سادتهم ، إنهم حينئذ سيصبحون ملائمة ومرغبين وفى النهاية شركاء ، وطلبتماً لذلك فإنهم — ( وباللحكمة يا من تتكلم كالجماعة ) — « يكونون قد زادوا الطلب على زملائهم فى السوق ! » .

« لو لم تكن هنالك تلك المعارضات العنيفة وأعمال التعطيل الناجمة عن الأفكار الخاطئة بين العمال ، لما نظام المصنع بمعدل أسرع وأكثر نفعاً

---

\* ( فلسفة المصانع ) بقلم دكتور ( أندرو أور ) ص ٢٢٧ ومايلها .

ثم يلى ذلك مرثاة طويلة عن روح المقاومة عند العمال ، ثم الملحوظة  
الساذجة التالية ، بمناسبة إضراب عمال الغزل الرفيع وهم أفضل العمال  
أجراً ...

« إن أجورهم العالية، فى الحقيقة، هى التى مكنتهم من الإبقاء على لجنة مسيرة  
للرواتب ، ومن أن يدللوا أنفسهم بعزل عصبية ، وذلك بتناولهم غذاء مثيراً  
ووفيراً للغاية ، بالنسبة لما يقومون به من أعمال منزلية . »

دعونا نسمع كيف تصف البورجوازية عمل الصبغة \*\*\*.

« لقد زرت الكثير من المصانع فى كلا من « مانشستر » والمناطق المحيطة بها،  
خلال فترة امتدت لعدة شهور، داخل حجلات الغزل دون أن يتوقع ذلك أحد،  
وكنت فى غالب الأحوال بمفردى وفى أوقات مختلفة من اليوم ، ولم أرى إلا لافاً  
أى دليل على العقاب البدنى مرفعاً على صبي ما ، ولا — فى الحقيقة — رأيت  
على الإطلاق طفلاً واحداً مبتسماً . كانوا دوماً بادين البهجة والبرقة ، سعداء  
بأحبة عضلاتهم الخفيفة ، مستمتعين بخفة الحركة الطبيعية بالنسبة لأعمارهم . إن  
منظر الصناعة بعيد تمام البعد عن المشاعر الحزينة المثيرة ، وهو فى رأى منظر  
مثير للبهجة دائماً . لقد كان من المفرح أن ترأى الرشاقة التى يلفقون بها الأطراف  
المتقطعة . عندما تبدأ عربة المصنع فى التقهقر عن كمر الدرفيل ، وأن تراهم ساعة  
الفراغ بعد دقائق من تدريبهم لأصابعهم الدقيقة ، مسلين أنفسهم بالمريضة التى  
يختارونها حتى تكتمل اللغة والشدة مرة أخرى . إن عمل هؤلاء العفاريات لصغار  
النشيطين يبدو وكأنه يشبه لعبة رياضية ، تمنحهم العادة فيها ، مهارة مفرحة .  
كانوا مغتبطين أن يعرضوا مهارتهم التى يعرفون قدرها على أى غريب . أما عن

\* نفس الكتاب ص ٢٧٧ .

\*\* نفس الكتاب ص ٢٩٨ .

\*\*\* نفس الكتاب ص ٣٠١ .

إجهادهم من عمل اليوم ، فلم يظهر له أى أثر عليهم بينما كانوا يغادرون المصنع فى المساء ، إذ أنهم أخذوا على الفور فى الوثب إلى أرب ملعب ، وبدأوا فى ألعابهم الصغيرة بنفس المرح الذى يلعب به الصبية المنصرفين من مدرسة ؟

بالطبع ! كما لو كانت الحركة المباشرة لكل عضلة ليست ضرورة عاجلة لها كل الأجساد التى نمت على التيبس والاسترخاء فى نفس الوقت ! إلا إنه كان على دأور ، أن ينتظر ليرى ، ما إذا كانت هذه الإثارة الوقتية لم تخمد بعد دقيقتين . إن دأور ، — إلى جانب ذلك — ما كان فى وسعه أن يرى هذا العرض الكامل إلا بعد الظهر ، بعد خمس أو ست ساعات من العمل ، وليس فى المساء ! أما عن صحة العمال ، فإن البورجوازية حمقاء بلا حدود ، حتى تتخذ فى تقرير عام ١٨٢٣ — والذى أقتبس منه آنفاً فى ألف موضع — شهادة عن الصحة الرائعة التى يتمتع بها هؤلاء الناس ، محاولة إثبات أنه لا أثر لداء الخنازير يمكن العثور عليه فيما بينهم ، وذلك بياخذ إقتباسات مجتزأة ومشوهة ، وأن الحقيقة التى لا جدال فيها ، هو أن نظام المصنع يحرر العمال من كل الأمراض الحادة (أما حقيقة أنهم مصابون بكل أنواع الأمراض المزمنة فهو أمر تخفيه بالطبع) . ولتوضيح القحة التى يدلى بها صديقتنا دأور ، أضخم الأكاذيب على الشعب الانجليزى ، يجب أن يعرف أن التقرير يشتمل على ثلاثة أجزاء من القطع الكبيرة ، والى لم يحدث أن فحصها بورجوازى إنجليزى واحد يتغذى تغذية جيدة . دعونا نرى ، أبعد من ذلك ، كيف يعبر عن رأيه فى «لائحة المصنع ، الصادرة عام ١٨٣٤ ، والى أغفلتها البورجوازية الليبرالية ، واضعة أتعف الحدود فقط على أصحاب المصانع ، كما سنرى . إنه يسمى هذا القانون ، وخاصة فقرة التعليم الإجبارى ، بالإجراء الباطل الجائر الموجه ضد أصحاب المصانع ، الذى يؤدى إلى الإلتناء بكل الصبية تحت سن الثانية عشر خارج دائرة التشغيل . وما النتيجة ؟ إن الصبية طبقاً لذلك ، سوف يلحدون من مهنتهم الخفيفة المفيدة ، فى حين أن يتلقوا أى قدر من التعليم ، سوف يخرجون من دفة حجرة الغزل إلى العالم البارد ، إنهم سيعيشون فقط بالتسول والسرقة ، ستكون حياتهم حياة تنافس تنافساً كئيباً وحالهم الذى يتحسن باضطراد فى المصنع وفى مدارس يوم الأحد . إن هذا القانون ، تحت قناع حب الخير الإنسانية ، سوف يكثف معاناة الفقراء ، ويعوق إلى حد كبير ، صاحب المصنع

حي الضمير عن عمله المفيد ، إن لم ينع في الحقيقة منعاً باتاً \*

إن التأثير المدمر لنظام المصنع قد بدأ في شد الإنباه لعام منذ عهد ميمكر . ولقد أشرنا آنفاً إلى «لائحة الصنعية تحت التمرين» لعام ١٨٠٤ ، وفيما بعد قراءة عام ٨١٧ بدأ « روبرت أوين » ، وهو صاحب مصنع حينذاك في «نيولا نارك» في اسكتلندا ، ومؤسس «الإشتراكية الإنجليزية» فيما بعد ، في جذب إنباه الحكومة ، عن طريق المذكرات والالتماسات ، إلى ضرورة توفير ضمانات مشرعة قانوناً من أجل صحة العمال ، وخاصة الصنعية . واتحد معه في موقفه هذا ، المرحوم « سير روبرت بيل » وآخرون من محبي الخير ، إستهلموا بالتدريج تحقيق «لوائح المصنع» التي صدرت في أعوام ١٨١٩ ، ١٨٢٥ ، و ١٨٣١ . إن لقانونين الأولين لم يوضعا البتة في حين لتنفيذ (١٢) ، أما القانون الأخير فقد كان ينفذ هنا وهناك فقط . لقد قام قانون ١٨٣١ على حركة سيرج . ب هوب هوس . والذي جاء فيه شرط عدم تشغيل أي أحد تحت سن الواحد والعشرين ، فيما بين الساعة والنصف مساءً والخامسة والنصف صباحاً ، وأنه يجب على كل مصنع ، ألا يقوم بتشغيل الشبان تحت سن ثمانية عشر أكثر من إثني عشر ساعة يومياً ، وتسع ساعات يوم السبت . ولكن ، حيث إن العمال لا يستطيعون الشهادة ضد سادتهم دون تعرضهم للطرد ، فإن العون الذي قدمه هذا القانون كان محدوداً للغاية . أما في المدن الكبرى حيث كان العمال أكثر جموحاً ، فإن كبار أصحاب المصانع قد وصلوا إلى إتفاق فيما بينهم على إطاعة القانون ، إلا أن العديدين منهم ، مثلهم في ذلك مثل مستخدمى الريف ، لم يبالوا بالقانون . في تلك الأثناء ، أصبح مطلب قانون العشر ساعات مطلباً قوياً بين العمال ، إنه قانون من أجل وجوب منع أعمال تحت سن الثمانية عشر من العمل أكثر من عشر ساعات في اليوم ، وجعلت التعميمات هذا المطلب — بما قامت به من إثارة — مطلباً عاماً بين جمهور الصناعيين ، وحينئذ استحوذ قطاع محبي الإنسانية في حزب المحافظين بقيادة « ميشيل ساوولر » على المشروع ، وتقدم به إلى البرلمان . وحصل « سادلر » على لجنة برلمانية لتقصي نظام المصنع ، وقد قدمت هذه اللجنة تقريرها في عام ١٨٢٢ . كان تقريرها متحيزاً بصورة مؤكدة ، أعده أعداء أنوياء لنظام

(\*) دكتور « أندرو أور » (المسفة لمصانع) صفحات ٤ ، ٥ ، ٦ ، وما يليها

المصنوع من أجل أهداف الحزب . ولقد وقع « سادلر » بسبب حماسه النبيل في أشد البيانات خطأ وتشويها ، لقد إستخرج من شهوده عن طريق أسئلته المجردة ، إجابات تشتمل على الحقيقة ، لكنها حقيقة في صورة ملتوية . لقد هاج أصحاب المصانع ضد التقرير الذي قدمهم كوحوش ، وأصبحوا يطالبون الآن بتحقيق رسمي . إنهم يعرفون أن تقريراً دقيقاً يجب ، في هذه الحالة ، أن يكون ملائماً لهم ، إنهم يعرفون أن أعضاء حزب الأحرار ، وهم بورجوازيون خالصاء كانوا في مركز الإدارة ، وهم على علاقات طيبة معهم ، وأن مبادئهم تعارض أى قيد على صاحب المصنع . وحصلوا على لجنة طبقاً للنظام الواجب ، مكرمة من بورجوازيين ليبراليين ، وهم الذين إستشهدت كثيراً بتمريرهم . لقد جاء هذا التقرير أقرب إلى الحقيقة إلى حد ما من تقرير « سادلر » إلا أن ما جاء فيه من إنحرافات كانت في الاتجاه المضاد له . إنه يفصح في كل صفحة عن التماخف مع أصحاب المصانع ، والشك في تمرير « سادلر » ، والاشتماز من العمال المهيجين بشكل مستقل ومؤيدى « لائحة الساعات العشر » إنه لا يسلم في أى مكان بحق العامل في حياة تليق بالآدمى ، في النشاط المستقل ، في أن تكون له أفكاره الخاصة . أنه يعنف أعمال ، لأنهم عندما عضدوا « لائحة الساعات العشر » لم يفكروا في الصبية فقط ، ولكن في أنفسهم بالمثل ، إنه يتهم العمال الذين لهم علاقة بأعمال الإثارة بالديماغوجية وسوء النية والخبث . . . الخ ، إنه في إيجاز ، محسروب لصالح البورجوازيين ، ومع ذلك فإنه لم يستطع تبيض صفحة أصحاب المصانع ، كما أنه وضع أيضاً فوق أكتاف المستخدمين كمية من الفضائح ، حتى أنه بعد صدور هذا التقرير ، أصبح هنالك مبرر واضح لكل أعمال الإثارة التي حدثت من أجل « لائحة الساعات العشر » وللكرهية ضد أصحاب المصانع وللنعموت القاسية التي وجهتها اللجنة إليهم . إلا أنه كان هنالك ذلك الفارق الواحد ، وهو أنه بينما يتهم تقرير « سادلر » أصحاب المصانع بالقسوة الصريحة العلانية ، فإنه قد أصبح الآن واضحاً ، أن تلك القسوة كانت تتم أساساً تحت قناع من الحضارة والانسانية . ومع ذلك ، فإن دكتور « هاوكينز » المندوب الطبى « الانكشاير » يعبر عن رأيه بشكل قاطع في الأسطر الافتتاحية من تقريره إلى جانب « لائحة الساعات العشر » ، ويوضح المندوب « ماكينتوش » ، أن تقريره الخاص لم يشتمل على الحقيقة كلها ، لأنه كان صعباً للغاية أن تقنع العمال بالشهاد



ضد مستخدميهم ، ولأن أصحاب المصانع ، بالإضافة إلى أنهم مكرهين على تقديم تنازلات أكثر لعمالهم ، بسبب الاضطراب القائم بين العمال ، فإنهم غالباً ما يستعدون عند تفتيش المصانع ، إذ يتم كنسها وتقليل سرعة الآلات فيها . . . الخ. وهم يلجأون في ذلك ، خاصة إلى حيلة تقديم مشرفي حركات العمل للشول أمام المندوبين ، وجعلهم يشهدون — باعتبارهم عمالاً — بإنسانية مستخدميهم ، والتأثيرات الصحية للعمل ، ولا مبالاة العمال — إن لم يكن عداؤهم — للائحة الساعات العشر ، . إلا أن هؤلاء ليسوا بالعمال الاصلاح ، إنهم فارين من طبعهم . لقد دخلوا في خدمة البورجوازيين من أجل أجر أفضل ، وهم يقاتلون دفاعاً عن مصالح الرأسماليين ضد العمال . إن مصالحهم هي مصلحة الرأسماليين ، ولذا فإن العمال يكادوا يكرهونهم أكثر مما يكرهون أصحاب المصانع أنفسهم .

ومع ذلك ، فإن هذا التقرير كاف تماماً ، لظهار أشد صور طيش البورجوازيين الصناعيين خزيًا قبل العاملين لديهم ، ولأظهار الفضيحة الكاملة للنظام الصناعي الاستغلالي في كامل وحشيته . لا شيء أكثر إثارة للاشمئزاز في هذا التقرير ، من مقارنة السجل الطويل للأمراض والتشوهات التي أحدثها العمل الزائد عن الحد ، بالأحصاء اللامبالى للإقتصاد السياسي لأصحاب المصانع ، والذي يحاولون به إثبات أنهم ومعهم إنجلترا كلها ، يجب أن تذهب إلى الدمار إن كان يتوجب منعهم من تعجيز العديد والعديد من الصبية كل عام ، إن المصلحة التي استخدمها دكتور دأور ، وحدها ، وهي التي سبق وإقتبسها ، سوف تظل رغم ذلك أكثر إثارة ، لو أنها لم تكن بعيدة عن الصواب بهذا القدر .

كانت نتيجة هذا التقرير هي دلائحة المصنع ، لعام ١٨٣٤ ، ولقد منعت هذه اللائحة تشغيل الصبية تحت سن التاسعة ( باستثناء مصانع الحرير ) ، وحددت ساعات عمل الصبية من سن ٩ - ١٣ عاماً بـ ٤٨ ساعة في الأسبوع أو ٩ ساعات في أي يوم كحد أقصى ، وللشباب من سن ١٤ - ١٨ بـ ٦٩ ساعة في الأسبوع أو ١٢ ساعة في اليوم كحد أقصى ، كما نصت على ساعة ونصف كحد أدنى فواصل وجبات ، وكررت التحريم الكلى للعمل الليلي للأشخاص دون سن الثامنة عشر ، وقررت المواظبة على التعليم الإجباري ساعتين يومياً لكل الصبية دون الرابعة عشر ، وقررت أن صاحب المصنع يكون مستوجباً للعقاب في حالة تشغيل صبيه



دون شهادة مكتوبة بسن الصبي من جراح المصنع ، وشهادة مكتوبة بمواظبته المدرسية من المدرس . وسمح للمستخدم كتمويض ، أن يسحب بنسب من دخل الصبي الأسبوعي ليدفع للمدرس . وعين بالاضافة إلى ذلك ، جراحون ومفتشون لزيارة المصانع في جميع الأوقات ، ولأخذ شهادة العمال مع حلف اليمين ، وفرض القانون يرفع الدعوى أمام قاضي الصلح . هذا هو القانون الذي قدح فيه دكتور « أور » ، بمثل تلك العبارات الجزافية !

إن نتيجة هذا القانون ، وخاصة تعيين المفتشين ، كان نقص ساعات العمل إلى معدل يتراوح من إثنتي عشر إلى ثلاثة عشر ساعة ، وإبطال تشغيل الصبية إلى أقصى حد ممكن ، وعند ذاك إختفت بعض المصائب الصارخة إختفاء يكاد أن يكون كلياً . والآن بدأت تظهر التشوهات في حالات ضعف البنية فقط ، وغدت آثار العمل الزائد عن الحد أقل ظهوراً بكثير . ومع ذلك ، يظل تقرير المصنع مشتملاً على وفرة من الأدلة ، على أن المصائب الأقل ، كورم الرسغ والضعف ، ألم الأرجل والأرداف والظهر ، دوالي الأوردة والقروح التي تحدث على الأطراف المتبادلة ، مع الجوع غير الطبيعي وسوء الهضم والاكتئاب ، إصابات الصدر نتيجة الغبار ، وجو المصانع السكريه . . . إلخ إلخ ، قد وقعت بين العاملين في ظل نصوص قانون « سيرج . ك . هوب هوس » ، ( الصادر عام ١٨٣١ ) ، والذي حتم أن تكون ساعات العمل من إثنتي عشر إلى ثلاثة عشر ساعة كحد أقصى . إن التقارير الواردة من « جلاسجو » و « مانشستر » ، تلفت الانتباه إلى وجهة النظر هذه بشكل خاص . لقد بقيت هذه المصائب أيضاً بعد قانون ١٨٣٤ ، واستمرت تنخر صحة الطبقة العاملة إلى يومنا هذا . لقد روعى أن يعلن جثع البورجوازيين من أجل الربح شكلاً نفاقياً حذارياً ، لكبح أصحاب المصانع عن الأعمال الدنيئة الواضحة للعيان ، وذلك باستخدام ذراع القانون . وبذا فإنهم يمنحونهم مبرراً للإعجاب بأنفسهم وهم يستعرضون بذلهم المصطنع في سبيل الانسانية ، وهذا هو كل مافي الأمر . إذ لو شكلت اليوم لجنة جديدة ، لوجدت أموراً كثيرة ، إلى حد ما ، مثلما كان في الماضي . أما عن الانتظام الاجباري بالمدارس ، والذي تم إرتجالياً ، فإنه ظل رسالة مية ، تماماً ، حيث عجزت الحكومة عن توفير مدارس جيدة . واستخدام أصحاب المصانع عمالاً مهترئين كدرسين ، كانوا يرسلون إليهم بالصبيه ساعتين كل

يوم ، وبذا أذعنوا للتانون دون أن يتعلم لصديه شيئاً . وحتى تقارير مفتشى المصنع ، واتى تحددها حدود الواجبات الملقاة على عاتق المفتش ، ألا وهى تنفيذ «لائحة المصنع» ، قد أعطيت بيانات تكفى لتبرير النتيجة إقائماً ، وهى أنه لم يكن هنالك مفر من بقاء المصائب القديمة . ويقرر المفتشان « هورنر » و « سوندرز » ، فى تقاريرهما عن شهرى أكتوبر وديسمبر عام ١٨٤٣ ، أن عدد الفروع التى يمكن الاستغناء فيها عن تشغيل الصديه أو إحلال راشدين محلهم ، ما زال يوم العمل فيها يتراوح بين أربعة عشر وستة عشر ساءاً ، أو أطول من ذلك أيضاً . كما وجدوا بين عمال تلك الفروع أعداداً من الشباب تجاوز عمرهم — عند القريب فقط — ما جاء فى نصوص القانون . إن كثيراً من المستخدمين يغفلون لتانون ، يتصرفون من مدة الواجبات ، يشغلون الصديه أطول من الزمن المسموح به ، يخاطرون بأن يحاكموا عارفين أن الغرامات المحتملة تافهة القدر إن قورنت بالأرباح المؤكدة الناشئة عن الجرم الذى يرتكبون . إنهم وانجسون الآن تحت إغراء كبير للسير فى هذا الاتجاه ، خاصة بسبب النشاط غير المعتاد للأعمال .

كانت الاثارة من أجل «لائحة الساعات العشر» قد خمدت كاية بين العمال ، إلا أنها سارت عام ١٨٣٩ قدما بكل قواها مرة أخرى . واحتل « لورد أشلى »\* و « ريتشارد أوستلر » مكان « ساذلر » - الذى كان قد توفى - فى مجلس العموم . كان كلاهما من حزب المحافظين ، وكان « أوستلر » على وجه الخصوص ، هو الذى داوم لقيام بإثارة مستمرة فى الأحياء العمالية ، وكان له نفس منوال النشاط خلال حياة « ساذلر » . كان محبوب العمال بصورة خاصة . كانوا يدعونه « بمليكهم العجوز الحبيب » و « ملك صديه المصنع » ، إذ لا يوجد صدى فى منالطق المصانع لا يعرفه ويهمله ، أو لا ينضم إلى المراكب التى تتحرك للترحيب به عندما يدخل المدينة . ولقد عارض « أوستلر » قانون افتراء الجديد أيضاً ، ولذا فقد سجن بسبب دين « لمستر ثورنهيل » ، الذى كان يعمل كوكيل فى متاعهته . ولذى كان يدينه ، بتدن من المال . ولتمد عرض « الأحرار » مراراً أن يدنوا

---

\* لورد ( شانتيميرى ) فيما بعد ، توفى عام ١٨٨٥ .

عنه دينه ، كما عرضوا أن يمنحوا عليه بأفضال أخرى ، إن هو فقط كف عن الاثارة ضد « قانون الفقر » ، ولكن عبثاً ، فقد ظل بالسجن ، حيث نشر « نشرات الأسطول » ١٤ ضد نظام المصنع وضد « قانون الفقراء » .

ووجهت حكومة المحافظين انتباهها مرة أخرى عام ١٨٤١ إلى « لوائح المصنع » وإنترح سير « جيمس جراهام » وزير الداخلية عام ١٨٤٣ لائحة تحدد ساعات عمل الصبية بستة ساعات ونصف ، وجعل التشريع الخاص بالمواظبة على التعليم الإلجباري أكثر فاعلية . إن اللائحة الأساسية المرتبطة بهذا الموضوع هي النص على مدارس أفضل . إلا أن هذه اللائحة قوضتها حفيظة المنشقين . إذ رغم عدم إمتداد التعليم الديني إلى أبناء المنشقين ، إذ أن المدارس المزمع إنشاؤها ، كانت ستوضع تحت الإشراف العام « للكنيسة القومية » ، كما اتخذ « الإنجيل » كتاباً للقراءة العامة ، وبذا فقد كان الدين أساس التعليم ، ومن ثم فقد أحس المنشقون بأنهم مهددون . واتحد معهم أصحاب المصانع والليبراليون بشكل عام ، وإنتسم العمال بسبب مسألة الكنيسة ، ولذا خمدت حركتهم ، ورغم أن متارضى اللائحة كانوا أثقل وزناً في المدن الصناعية الكبرى مثل « سالفورد » و « ستوك بورت » كما كانوا قادرين في مدن أخرى مثل « مانشستر » ، على مهاجمة نقاط معينة منها فقط خشية العمال ، إلا أنهم رغم ذلك ، جمعوا قرابة مليونين من التوقيعات على التماس ضدها ، مما أرب « جراهام » إلى حد أنه سحب اللائحة كلها . وفي العام التالي حذفت لفقرات الخاصة بالمدرسة ، وإنترح بدلاً من التصوص السابقة ، أن يكون عمل الصبية بين سن الثامنة ولثلاثة عشر قاصراً على ست ساعات ونصف ، وبذا يتم تشغيلهم على أساس أن يكون الصباح بأكمله أو بعد الظهر بأكمله فترة راحة ويقتصر عمل الشباب ما بين سن ثلاثة عشر والثامنة عشر ، وكل الاناث ، على إثنتي عشرة ساعة ، كما يتوجب سد كل اشغرات العديدة الموجودة بالآتانون حتى الآن . ما كاد « جراهام » يتمترح تلك اللائحة ، حتى بدأت الاثارة حول « لائحة الساعات العشر » مرة أخرى ، وبعنف أكثر من أى وقت مضى . كان « أوستلر » قد إستعاد للتو حريته ، إذ أن عدداً من أصدقائه ومجموعة من العمال سددت ما عليه من دين ، وألقى بنفسه في الحركة بكل قوته . كذا زاد عدد المدافعين عن « لائحة الساعات العشر » في مجلس العموم ، كما أن الإلتماسات العديدة التي تدعمهم

والتي إنهمرت من كل جانب ، قد جلبت لهم حلفاء . وفي ١٩ مارس ١٨٤٤ ، فاز لورد د أشلي ، بأغلبية ١٧٩ إلى ١٧٠ بقرار يحدد معنى كلمة ليل في «لائحة المصنع» ، بأنها الوقت الممتد من السادسة ليلا إلى السادسة صباحا . وبهذا القرار أصبح حظر العمل ليلا ، يعنى قصر ساعات العمل على إثنتى عشر ساعة ، مشتملة ساعات الراحة ، أو عشر ساعات من العمل الفعلى فى اليوم . إلا أن الوزارة لم توافق على ذلك . وأخذ «سير جراهام» يهدد بالاستقالة من الوزارة ، وعند التصويت على اللائحة ، رفض المجلس بأغلبية ضئيلة كلا من العشر والإثنتى عشر ساعة . وأعلن «جراهام» و «بييل» أنهما سيتقدمان بلائحة جديدة ، وإن لم تحصل تلك اللائحة على الموافقة فإنهما سيستقيلان . كانت اللائحة الجديدة هي بعينها لائحة «الساعات الإثنتى عشر» القديمه مع بعض التعديلات فى الشكل ، وإبتلاعها نفس مجلس العموم الذى رفض التناط الأساسية لهذه اللائحة فى مارس إبتلاعا كليا ، وكان سبب ذلك ، هو أن أغلب مؤيدى «لائحة الساعات العشر» كانوا من حزب المحافظين ، وهم الذين خذلوا اللائحة أكثر من الوزارة . إلا أنه مهما كانت الدوافع ، فإن مجلس العموم بتصويته على هذا الموضوع تصويتين متناقضين ، قد وضع نفسه فى أكثر الصور مهانة أمام العمال ، وأثبت على نحو رائع للغاية ، تأكيد «الإصلاحيين» على ضرورة تمويده . إن ثلاثة أعضاء من الذين صوتوا فيما سبق ضد الوزارة ، قد صوتوا معها فيما بعد وأنقذوها . لقد صوتت المعارضة ، أثناء كل الانقسامات مع الوزارة ، وكتلة حزبها ضد الوزارة\* . إن إقتراحات «جراهام» السابقة بشأن تشغيل الصبية ست ساعات ونصف وكل العمال الآخرين إثنتى عشر ساعه قد غدت الآن نصوصاً تشريعية ، صار من المستحيل تقريباً ، بواسطتها وبواسطة تحديد العمل الزائد لتعويض الوقت الضائع ، بسبب عطب الآلات أو عدم كفاية الطاقة بسبب الصقيع أو الجفاف ، أن يزيد يوم العمل عن إثنتى عشر ساعة . ومع ذلك ، لم يعد هناك شك فى أنه سوف يتم تبني «لائحة الساعات العشر» تبنياً حقيقياً خلال وقت

---

\* لأنه لأمر يسىء إلى سمعة مجلس العموم ، أن يجعل من نفسه هزأة المرة الثانية خلال نفس الموسم بنفس الطريقة فى مسألة السكر ، عندما صوت أولا ضد الوزارة ثم معها بعد ذلك بعد أعمال السوط الوزارى .

قصير . إن أصحاب المصانع جميعاً ضدها كأمر طبيعي ، ربما يوجد معها أقل من عشرة منهم ، لتمد استخداموا كل الوسائل الشريفة وغير الشريفة ضد هذه الآلة التي يخافونها لكن دون نتيجة ما ، غير أن يجلبوا على أنفسهم كراهية العمال التي كانت تعمق على الدوام . إن الآلة سوف تمر ، ولسوف يفعل العمال كل ما في وسعهم من أجل ذلك أما مسألة حملهم على هذه الآلة ، فقد أثبتوا أنهم قادرين عليها في الربيع الماضي . إن حجج أصحاب المصانع القائلة بأن « لا تحه الساعات العشر » ستزيد الإنتاج ، وتصيب المنتجين الإنجليز بالعجز عن المنافسة في الأسواق الأجنبية ، وبأن الأجور لا بد وأن تهبط ، إنما هي حجج تمثل نصف الحقيقة ، إنهم لم يبرهنوا على شيء غير أن عظمة الصناعة الإنجليزية لا يمكن الحفاظ عليها إلا بمعاملة العمال معاملة همجية ، وتحطيم صحتهم ، وتآكل أجيال كاملة منهم اجتماعياً وبيئياً ومعنوياً . بالطبع لو كانت « لا تحه الساعات العشر » هي القرار الأخير ، فلا بد وأن تحطم إنجلترا ، لكن طالما يجب أن تجلب معها قرارات أخرى لا مفر منها ، قرارات لا بد وأن تجر إنجلترا إلى طريق مختلف تمام الاختلاف ، عن الطريق الذي إتبعته حتى الآن ، فإنها يمكن بذلك فقط أن تحقق تقدماً .

دعونا نتحول إلى جانب آخر من نظام المصنع ، جانب لا يمكن علاجه بالنصوص التشريعية بسهولة طبقاً لما اتجه من أمراض . لقد أشرنا آنفاً بطريقة عامة إلى طبيعته التشغيل ، وبالتفصيل كاف يمكننا من إستخلاص إستنتاجات معينة من الحقائق المعطاة ، إن الإشراف على الآلات ولفق الخيوط الممزقة ، ليس بالنشاط الذي يستنزف قوى العامل الفكرية ، ومع ذلك فإنه أمر من صنف الأمور التي تمنعه من شغل ذهنه بأشياء أخرى . ولقد رأينا أيضاً أن هذا العامل لا يمنح العضلات فرصة للنشاط البدني ، وبالتالي فهو — كي نتكلم كما يجب — ليس عملاً ، ولكنه مشقة وعناء ، وأكثر العمليات المتصورة إهلاكا وإفناء . إن العامل محكوم عليه بأن يدع قواه الجسدية والمعنوية تتآكل في هذه الرتبة المظلمة ، إن مهمته أن يتحمل الضجر كل يوم وظوال اليوم منذ أن يكون في سن الثامنة . يضاف إلى ذلك ، أن عليه أن يستريح لحظه ، إن الآلة تعمل بشكل دائم ، العجلات والسيور والمغازل تلمن وتتجمع في أذنيه بلا توقف ، وإن حاول إختطاف لحظه واحدة ، فالمشرف خلف ظهره بدفتر الغرامات . هذا الحكم بأن

يدفنون في المصنع أحياء ، بأن يعطوا إنتباهاً ثابتاً . الآلة التي لا تكل ولا تمل ، أمر يحس به العمال كأنفس أنواع العذاب ، كما أن تأثيره على الذهن والبدن معوق للنمو الطبيعي في المدى الطويل إلى أقصى درجة . إنه لا توجد وسائل أفضل لإصابة المرء بالخبيل من أن يتضى فترة من العمل بالمصنع . ولقد حدث — رغم ذلك — أن لعمالين أنقذوا ليس فقط ذكائهم ، بل هذبوه أيضاً وأرهبوه أكثر من أى عمال ، فإنما يرجع ذلك لأنهم قد وجدوا ذلك ممكناً فقط ، بالتمرد ضد قدرهم وضد لبورجوازيين ، إنه الموضع الوحيد الذي في وسعهم أن يفكروا ويشعروا به وهم يعملون في ظل كل الظروف والأحوال . وإن لم يصبح هذا السخط هو العاطفة الأسى للعامل ، فإن النتيجة التي لا مفر منها هي إدمانه لشراب ، وكل ما يملأ عليه بشكل عام فساد الأخلاق . إن الضعف البدني والمرضى كالعمر عامة نتيجة نظام المصنع ، قد كانت كاتبة لحمل الندوب ، هاو كينز ، ليعتبر هذا الفساد الخلقى أيضاً أمراً لا مفر منه ، وماذا يكون الحال إن أضيف إليه الإعياء الممتد وكذا المؤثرات المذكورة آنفاً والتي أغرت كل عامل بالفساد الخلقى ، عندما تغدو هي الأخرى ملبوسة هنا . حينئذ لن يكون هناك داع للدهشة عندما يبلغ الإدمان والإفراط في الجنس تلك الذروة التي سبق وقت بوصفها ، خاصة في المدن الصناعية \* .

\* دعونا نستمع إلى قاضى آخر له أهليته « إذا أخذنا في الاعتبار ذلك النموذج الخاص بالآيرلندي في ارتباطه مع الكدح الذي لا يتوقف لطبقة عمل القطن ، فإن دهشتنا سوف تكون أقل لهعاد خلقهم الرهيب ، إن الكدح المرهق المتصل يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام ، لا يقصد به إنماء قدرات الإنسان الثقافية والعنوية ، إن الرقابة المثيرة للضجر ، للعناء الذي لا ينتهى ، والتي تتكرر فيها على الدوام نفس العملية الآلية ، لتشبه عذاب سيريفي ، إن عبء الكدح ، يشبه الصخر ، يسقط على الدوام فوق الكادح الهالى . إن العمل لن ينال المعرفة أو القدرة على التفكير ، سبب التشييل الأرنى لذات العضلات . إن الذهن يهوم في كسل بليد ، غير أن الأجزاء الحشنة في طبيعتنا ينجو نمواً رغداً . أن تحكم على إنسان بمثل هذا العمل بمعنى أنك تزرع نصف حيوان فيه . إنه ينمو لا مبالياً ، إنه يزدري الدوايح والعمادات التي تتميز نوعه . إنه يهمل وسائل الراحة ومسرات الحياة الناعمة ، إنه يعيش في فقر دفين ويتناول تديلة لا تفي بالغرض كما يبدد باقى ربحه في الدعارة . . دكتور « ج . كاي » .



يضاف إلى ذلك ، أن العبودية التي يقيد البورجوازيون بها البروليتاريا ، لا توجد بصورة أكثر وضوحاً في نظام المصنع في أى مكان آخر . هنا تنتهى كل حرية قانونية أو واقعية . يجب أن يكون العامل بالمصنع فى الخامسة والنصف صباحاً ، فإن تأخر دقيقتين وقعت عليه غرامة ، وإن تأخر عشر دقائق ، لا يسمح له بالدخول حتى ينتهى الإفطار ، ويمنع عنه ربع أجر اليوم ، رغم أنه لم يضع غير ساعتين ونصف فقط من ساعات العمل الإثنى عشر . يجب أن يأكل ويشرب وينام بالامر . وكى يشبع حاجياته الضرورية ، فإنهم يتعطفون عليه بأقل وقت ممكن تتطلبه الضرورة . وأيا كان بعد منزله عن المصنع ، نصف ساعة أم ساعة كاملة ، فإن هذا الامر لا يعنى مستخدميه . إن الناقوس الغاشم يستدعيه من مرتبه ، من إفطاره وغذائه .

وأى وقت مباح له داخل المصنع أيضاً ! المستخدم هنا هو مانح القانون المطلق . إنه يحدد النظم طبقاً لإرادته ، يغير ويضيف إلى دستوره طبقاً لرغبته ، وحتى إن أدخل أشد المواد جنونا ، فإن المحاكم تقول للعامل : لقد كنت سيد نفسك ، إن أحداً لم يجبرك على قبول هذا العقد ، إن لم تكن تلك رغبتك . والآن وقد دخلت فيه بمحض إرادتك ، فإنه يتوجب عليك أن تتقيد به . وبذا فإن العامل لا ينال من الصفقة غير سخرية قاضى الصلح الذى هو نفسه شخصاً بورجوازياً ، كما أن القانون من وضع البورجوازية . إن مثل تلك القرارات قد صدرت بكثرة وافرة . ففي أكتوبر ١٨٤٤ اضرب عمال مصنع « كينيدى » فى « مانشستر » ، ورفع عليهم « كينيدى » دعوى بناء على وضع تنظيمى أعلن فى المصنع ، وينص على أنه لا يجوز فى أى وقت أن يغادر العمل عاملان من حجرة واحدة فى نفس الوقت ، واتخذت المحكمة قرارها لمصلحته ، مقدمة للعمال الشرع الذى أوضناه عليه \* . ومثل تلك القواعد تكون عادة كالتالى :

( ١ ) تغلق الأبواب بعد عشر دقائق من إبتداء العمل ، ومن ثم فلن يسمح لأحد بالدخول حتى ساء الإفطار ، وكل من يكون غائباً خلال هذا الوقت توقع عليه غرامة قدرها ثلاث بنسات عن كل نول . ( ٢ ) كل نساج على نول آلى ،

---

\* المانشستر جارديان ، ٣٠ أكتوبر .

يكشف أنه قد أبلغ عن غيابه في وقت آخر ، بينما غاب هو والآلات تعمل .  
يغرم ثلاث بنسات عن كل ساعة وعن كل نول . وكل شخص يغادر الغرفة أثناء  
العمل دون الحصول على إذن من المشرف يغرم ثلاث بنسات ( ٣ ) النساجون  
الذين يعجزون عن أن يوفرُوا لأنفسهم مقصدا يدفعون غرامة قدرها بنس واحد  
عن كل يوم ( ٤ ) كل ضائف الشبايك الحشبية ، الفرش ، علب الزيت ، الدواليب  
والواح الشبايك المكسورة . . . إلخ إلخ يجب أن يدفع النساك ثمنها . ( ٥ )  
لا يحق للنساك التوقف عن العمل دون أن يتقدم بإشعار قبل أسبوع . ويحق  
لصاحب المصنع أن يطرد أى من العاملين لديه دون إشعار بسبب رداثة عمله أو  
أو سلوكه غير السوى . ( ٦ ) كل عامل يضبط وهو يتكلم مع آخر أو يغنى أو  
يصفر سوف يغرم ست بنسات ، كما يغرم لتركه مكانه أثناء العمل ست بنسات \*  
وترقد أمانى نسخته أخرى من نظم المصنع ، والتي يغرم طبقا لها ، كل عامل يحضر  
متأخراً ثلاث دقائق بأجر ربع ساعة ، وكل متأخر عشر دقائق بربع يوم ،  
ويغرم كل متأخر حتى موعد الإفطار بشان يوم الإثنين ، وست بنسات في كل  
يوم آخر من أيام الأسبوع . . . إلخ إلخ . وهذه الأخيرة هى نظام « مصانع  
فونيكس » الكائنة « بحرسى ستريت » فى « مانشستر » . ربما يقال أن مثل تلك  
القواعد ضرورية فى مصنع كبير معقد ، حتى يمكن ضمان تناسق العمل بين الأجزاء  
المختلفة ، وربما يزعم أن مثل هذا النظام القاسى ضرورى هنا ضرورته فى أى جيش .  
قد يكون الأمر كذلك ، ولكن أى نوع من النظم الاجتماعية هذا الذى لا يمكن  
الحفاظ عليه بدون مثل هذا الاستبداد المخزى ؟ إما أن الغاية تبرر الوسائل ، وإما  
أن محصلة سوء الغاية تبرر سوء الوسائل . إن كل فرد خدع كجندى يعرف ما معنى  
أن يتعرض ولو لفترة محدودة للنظام العسكرى . إلا أن هؤلاء العمال محكوم عليهم  
منذ التاسعة من عمرهم وحتى مماتهم بالعيش تحت حد السيف جسدياً وعقلياً . إنهم  
عبيد أسوأ حالا من زنوج أمريكا ، إذ أنهم مراقبون بدقة أكثر ، ومع ذلك  
يطلب منهم أن يمدشوا كالأدميين ، وأن يفكروا ويحسوا كالرجال ! حتماً ، إن  
هذا لن يقود إلا إلى كراهية متأججة تجاه الظالمين ، وتجاه ذلك التنظيم الذى  
يضعهم فى مثل تلك المرتبة ، التى تحط من قدرهم ليصبحوا كآلات . إلا أن الأمر

ما زال أكثر خزيًا من ذلك بكثير ، إذ طبقاً لشهادة العمال العامة ، فإن عدداً من  
 أصحاب المصانع يقومون بجمع الغرامات المحكوم بها على العمال ، بأشد أنواع  
 العنف قسوة ، بغرض تكديس مزيد من الأرباح الناتجة من تلك المآلئم المسلوقة  
 من البروليتاريين المعوزين . ويؤكد « ليش » أيضاً ، أن العمال غالباً ما كانوا  
 يجدون ساعة المصنع وقد تم تقديمها ربع ساعة ، وقد أغلقت الأبواب ، بينما  
 الكاتب يتجول بالداخل ومعه دفتر الغرامات يسجل أسماء المتخيبين العديدين .  
 ويدعى « ليش » أنه قد أحصى تسع وخمسون عاملاً أوصد الباب في وجههم ،  
 وقد وقفوا أمام المصنع ، الذي كانت ساعته أبطأ في الميل ربع ساعة عن ساعة  
 المدينة ، وأسرع في الصباح ربع ساعة عنها . ويروى « تقرير المصنع » حقائق  
 مماثلة . في أحد المصانع كانت الساعة تؤخر أثناء ساعات العمل ، وبذا يعمل العمال  
 وقتاً إضافياً دون أن يدفع لهم مزيداً من الأجر عنه ، وفي مصنع آخر كان يتم  
 تشغيل ربع ساعة كاملة وقتاً إضافياً ، وفي ثالث كانت هنالك ساعتان ، واحدة  
 عادية والأخرى آلية . تسجل دورات المحرر الرئيسي ، فإن سارت الآلات ببطء  
 فإن ساعات العمل تقاس بواسطة الساعة الآلية حتى يتم إنجاز عدد المفات الواجبة  
 خلال إثنتى عشر ساعة ، وإن سار العمل على نحو طيب مما يحقق عدد المفات  
 المطلوبة قبل إنتهاء ساعات العمل المعتادة ، كان العمال يجبرون على الكدح حتى  
 نهاية الساعة الثانية عشر . ويضيف الشاهد إلى أنه كان يعرف فتيات ، لديهن عمل  
 طيب ، كما كن يشتغلن وقتاً إضافياً ، ومع ذلك فقد إنصرفن إلى حياة الدعارة بدلاً  
 من الإذعان لهذا الاستبداد\* . ولنعد إلى الغرامات حيث يروى « ليش » أنه  
 قد رأى نساء في المرحلة الأخيرة من حملهن ، توقع عليهن غرامة ست بذسات  
 بتهمة الجلوس لحظة للراحة . أما غرامات العمل الرديء فهن عشوائية تماماً ، إن  
 السلع تختبر في مستودع البضائع ، ويوقع المشرف الغرامات على قائمة بالأسماء ،  
 حتى دون إستدعاء العامل ، الذي لا يعلم بأن غرامة قد وقعت عليه إلا عندما يدفع  
 المراقب له أجره ، وربما تكون البضاعة قد بيعت ، أو بالتأكيد قد وضعت  
 بعيداً عن متناولها ، ويضع « ليش » يده على قائمة من قوائم الغرامات تلك ، يبلغ  
 طولها عشرة أقدام ، وتبلغ قيمتها ٣٥ جنيهًا ، ١٧ شلنًا وعشر بذسات . وهو

\* شهادة « درينك ووتر » ص ٨٠ .

يروى أن مشرفاً جديداً طرد من المصنع الذى عملت فيه هذه القائمة لأن الغرامات التى وقعها كانت قليلة للغاية ، إذ أنه ورد أسبوعياً ، خمسة جنيهات أقل من المعتاد \* . وأنا أكرر أننى أعرف أن « ليش » رجل موثوق به تماماً وغير أهل للكذب .

إلا أن العامل عبد مستخدمه فى أشكال أخرى . إذ لو نالت زوجته أو إبنته حلاوة فى عينى السيد ، فإن أمراً ، أو إيماءة تكفى ، وعليها أن تضع نفسها تحت تصرفه وعندما يرغب المستخدم فى تزوير إلتماس فى صالح المصالح البورجوازية بالتوقعات ، فما عليه إلا أن يرسله إلى المصنع ، وإن شاء أن يحسم إنتخاب برلمانى ، فإنه يرسل بعمالة الذين لهم حق التصويت فى صفوف متراسة إلى أماكن الاقتراع ، ليصوتوا لصالح مرشح البورجوازية ، سواء كانت تلك إرادتهم أم لا . وإن أراد أغلبية فى إجتماع عام ، فإنه يصرف عماله نصف ساعة مبكراً عن المعتاد ، ضامناً لهم اما كن قرب المنصة ، حيث يستطيع ان يراقبهم ليفعلوا ما يرضيه .

إن إجرامين آخرين قد إتخذوا خصيصة لوضع العمال جبراً تحت سطوة صاحب المصنع ، « نظام المقايضة » و « نظام الكوخ » ، كان نظام المقايضة الذى يقوم على إيفاء أجر العامل بضائعاً ، نظام عام فى إنجلترا فيما قبل . يفتح صاحب المصنع متجراً « لراحة العمال » ولحمايتهم من أسعار تجار التجزئة المرتفعة . هنا تباع لهم كل أنواع البضائع بالآجل . ولأنهم العمال من الذهاب إلى المتاجر التى يمكن أن يحصلوا منها على بضائع أرخص ( « متاجر تومى » مثلاً ، تطلب على الدوام من خمسة وعشرين إلى ثلاثين فى المائة زيادة عن الآخرين ) فإن الأجور تصرف على صورة أذونات على المتجر بدلاً من أن تصرف نقوداً . ولقد أدى السخط العام ضد هذا النظام الشائن إلى إقرار « لائحة المقايضة » ، التى أعلن بمقتضاها — لصالح غالبية العاملين — أن دفع الأجور فى صورة أوامر مقايضة باطل وغير قانونى ، وهو أمر يستوجب العقاب بتوقيع غرامة على مرتكبيه ، غير أنه مثل معظم القوانين الإنجليزية الأخرى ، قد عمل به فقط هنا وهناك . لقد نفذ فى المدن مهمة نسبية ، إلا أن نظام المقايضة مزدهر فى الريف سواء كان

ذلك بشكل سافر أو مستتر . وينتشر هذا النظام في مدينة « ليستر » ، انتشاراً كبيراً أيضاً . وأمامى قرابة دسنة من الأحكام في مثل هذه التهمة ، مؤرخة ما بين نوفمبر ١٨٤٣ ويناير ١٨٤٤ ، البعض منها منشور في المانشستر جارديان ، والبعض الآخر في « النورشن ستار » . هذا النظام بالطبع ، يمارس الآن على نحو أقل سفوراً . إن الأجور عادة تصرف نقداً ، غير أن المستخدم ما زال يملك وسائل متعددة لإجبار العامل على شراء بضائعه من متجر المقايضة وليس في أى مكان آخر سواه . وفي ثم فإنه من التعسير محاربة نظام المقايضة ، حيث يمكن ممارسة ، تحت ستار القانون ، فقط شريطة أن يتلقى العامل أجره نقداً . ولقد نشرت « النورشن ستار » في عددها الصادر في ٢٧ إبريل ١٨٤٤ . رسالة من عامل من « هولفيرث » ، قرب « هورد سفيلد » في « يوركشاير » ، تشير إلى صاحب مصنع يدعى « بودارز » جاء فيها ، ( أعيدت ترجمتها من الألمانية إلى الإنجليزية ) .

« كان أمراً بعيداً تمام البعد ، أن يظن المرء إمكانية انتشار نظام المقايضة إلى مثل المدى الذى إنتشر به في « هولفيرث » ، وألا يوجد من يملك الشجاعة ليجعل صاحب المصنع يوقف هذا النظام . توجد هنا كثرة ضحمة من النساء اللواتي اللواتي يعانون بسبب هذا النظام القبيح ، هنا مثال واحد من عديد الأمثلة عن « طفمة التجارة الحرة » ، نبيلة القلب . يوجد صاحب مصنع صب على نفسه لعنات كل المنظمة بسبب سلوكه الشائن نحو نساغيه البؤساء ، إذ لو أنجزوا صناعة قطعة جاهزة تساوى ٣٤ أو ٣٦ شلناً ، فإنه يعطيهم ٢٠ شلناً نقداً والباقي ملابس أو بضائع أغلى من باقى المتاجر بنسبة تتراوح ما بين ٤٠ إلى ٥٠ ٪ ، وتكون تلك البضائع فى الغالب الأعم بالية . ولكن ماذا تقول « القبرى تريد ميركيورى » ، و « الميدز ميركيورى » ؟ \* إنهم ليسوا متعدين بأخذها ، فى وسعهم أن يفعلوا ما يشاءون . أوه ، حتأ ، إلا أنهم يجب أن يأخذوها وإلا ماتوا جوعاً ، لأنهم إن طلبوا عشرين شلناً أخرى نقداً ، فعليهم أن ينتظروا ثمانية أو أربعة عشر يوماً من أجل سدة النسيج ، لكنهم إن أخذوا العشرين شلناً والبضائع ، فهناك على الدوام سدة نسيج معدة لهم . وتلك هى « التجارة الحرة » .

---

(\*) ( الميدز ميركيورى ) جريدة بورجوارية راديكالية ( ملحوظة فى الطبعة الألمانية )

قال اللورد « بروجهام » ، أنه يتوجب علينا أن ندخر شيئاً من أيام شبابنا ، حتى لا نحتاج للذهاب إلى البرشية عندما نهرم . حسناً ، هل ندخر البضائع البالية ؟ إن لم يصدر هذا القول عن لورد ، لكان على المرء أن يقول بأن عقله عفن نفس عفونة البضائع التي تدفع عن أجرتنا . عندما ظهرت الأوراق غير المدموغة « بشكل غير قانوني » ، كان هناك العديد ممن يبلغون الشرطة عنها في « هولمبيرث » ، « آل بليث » ، و « آل إدوارد » . . . الخ ، ولكن أين هم الآن ؟ إن صاحب مصنعنا المقايض ينتهز إلى جماعة « التجارة الحرة » ، الورعة ، إنه يذهب إلى الكنيسة مرتين في يوم الأحد ، إنه يردد بإخلاص خلف راعي الكنيسة : « لقد تركنا دون إنجاز تلك الأمور التي كان يتوجب علينا إنجازها ، وفعلنا الأمور التي ما كان يجب أن نفعلها ، ولا خير فينا ، لكن أيها الإله الصالح ، خلصنا ، نعم ، خلصنا حتى الغد ، وسندفع أجر نساجيننا مرة أخرى بضائع بالية » .

يبدو نظام الكوخ أكثر براءة بكثير ، كما أنه نشأ بطريقة مأمونة أكثر بكثير ، ورغم نفس التأثير الاستعبادي له على العاملين . ففي الريف ، في الجوار من المصانع ، غالباً ما يكون هناك نقص في وجود مأوى معدة للعمال . وكثيراً ما يضطر صاحب العمل إلى إقامة مثل تلك المأوى ، وهو يعمل ذلك مسروراً ، إذ أنها تعطى مزايا كثيرة ، بالإضافة إلى الربح العائد من رأس المال المستثمر فيها . إذ لو كان مالك المأوى التي يقيم فيها عمال يحصل على ٦ ٪ في المتوسط من رأس المال المستثمر ، فإن عائد أكواخ صاحب المصنع يقدر — ونحن في الجانب المأمون — بضعف هذا المعدل ، إذ طالما يتوقف مصنعه تمام التوقف ، فإنه واثق من وجود سكان الأكواخ ، وسكان يدفعون في الموعد المقرر . وهو بالتالي قد تفادى الضررين اللذين يعمل في ظلهم أصحاب المنازل الآخرين ، أن أكواخه لن تخلو أبداً ، كما أنه لا يقدم على أية مغامرة . إلا أن إيجار تلك الأكواخ مرتفع وكأن تلك السموات تشعل فعلها بكل قوتها . أن صاحب المصنع بحصوله على نفس الإيجار الذي يحصل عليه صاحب المنزل العادي ، إنما يحقق — على حساب عماله — استثماراً رائعاً يبلغ ١٤ ٪ . إنه لن يظلم بين أن يحقق ضعف قدر الربح الذي يحققه أصحاب المنازل المنافسين له ، والذين في ذات الوقت مستبعدين من المنافسة معه . إلا أنه يتمتع في خطأ مزدوج عندما يسحب ربحه المحدود من جيوب الطبقة لا تملك ، والتي يجب



أن تتصرف بحساب عند إنفاق كل بنس معها . إنه ، على أى حال ، قد إعتاد ذلك ،  
لأنه من حقه كل ثروته على حساب العاملين لديه . غير أن هذا الظلم يصبح فاضحاً  
عندما يجبر العاملون لديه — والذين يجب أن يشغلوا منازلهم كما يحدث في الغالب —  
على الطرد بحكم صادر بذلك ، حتى يدفعوا إيجاراً أعلى من الإيجار المعتاد ، أو  
حتى يدفعوا إيجار منازل لا يقيمون بها . وتؤكد « الهاليفاكس جارديان » ،  
نقلًا عن « الصن » \* الميرالية ، أن مئات العمال من « آشتون » أسفل « لين »  
« واولد هام » و « روكدال » .. الخ ، قد أجبرهم مستخدموهم على دفع إيجار  
منزل ، سواء كانوا يشغلون هذا المنزل أم لا إن نظام الأكواخ عام في المناطق  
الريفية ، لقد أدى إلى وجود قرى بأكملها ، كما أن صاحب المصنع غالباً ما يواجه  
منافسة ضئيلة أو لا منافسة في مواجهة منازلهم ، ولذا ففي وسعه أن يحدد سعره  
بغض النظر عن أى معدل للسوق ، حتماً ، إنه يحدده طبيعياً بلشيدته — وإى قوة  
يعطيها نظام المصنع للمستخدم على العمال ، أثناء المنازعات بين السيد والرجال ،  
إذ لو حدث واضرب العمال فيما بعد ، فإن الأمر لا يقتضى منه غير إشعار موجه  
إليهم بمغادرة منازلهم ، والإشعار لا يمل غير اسبوع فقط ، وبعد هذا الأسبوع  
لا يكون العامل بدون خبز فقط ولكن بلا مأوى أيضاً ، يصبح متشرداً تحت  
رحمة القانون الذى سيرسله على الفور إلى آلة التعذيب .

هذا هو نظام المصنع ، إنه وصف إجمالى له بقدر ما سمح الحيز لى ، وبروح  
متحيزة تحيزاً محددًا بحدود القدر الذى تسمح به الأعمال البطولية للبورجوازية  
ضد العمال العزل ، تلك الأعمال التى لا يمكن للمرء أنه يظل لامبالياً فى مواجهتها .  
فالامبالاة نحوها جريمة . دعونا نقارن حالة الرجل الإنجليزى الحر عام ١٨٤٥  
بحالة القن السنكسونى تحت سوط البارونات النورمان عام ١١٤٥ . كان القن ،  
glebae adscriptus ، مقيداً إلى الأرض ، وهكذا العامل الحر بواسطة نظام  
الكوخ . كان القن مديناً لسيدته ، jus primae noctis ، بحق الليلة الأولى ،  
والعامل الحر يجب أن يسلم لسيدته ، عند الطلب ، ليس فقط بحق الليلة الأولى ،  
بل بحق كل ليلة . لم يكن من حق القن أن يقتنى أى ملكية ، كل ما يربحه يمكن  
لسيده أن يأخذه منه ، والعامل الحر لا ملكية له ، ولا يستطيع أن يربح شيئاً  
بسبب ضغط المنافسة . إن مالم يستطع أن يفعل البارون النورمانى قد فعله صاحب

(\*) (صن) جريدة يومية بلندن ، آخر نوفمبر ١٨٤٤ .

المصنع الحديث . إنه يتظاهر من خلال نظام المقايضة بأنه يقوم بالتدبير اليومي التفصيلي لكل ما يطلبه العامل لاحتياجاته المباشرة . إن علاقة صاحب الأرض بالقن كانت علاقة تنظمها العادات السائدة ، والقوانين المطاعة ، لأنها ذات صلة بهم ، أما علاقة العامل الحر بسيده فهي علاقة تنظمها قوانين لا تطاع ، لأنها ليست ذات صلة بمصالح أى من المستخدمين أو العادات السائدة . إن صاحب الأرض لا يستطيع أن يفصل القن عن الأرض ، أو أن يبيعه منفرداً عنها . وحيث كانت غالبية الأرض إقطاعاً . البورجوازية الحديثة تجبر العامل على بيع نفسه . القن كان عبد قطعة الأرض التي ولد عليها ، والعامل عبد لاحتياجاته الخاصة من الحياة والمال الذي يتوجب عليه أن يشتريها به — كلاهما عبد لشيء ما . قن في النظام الإقطاعي للمجتمع ما يضمن وسائل بقائه ، حيث لكل عضو في هذا المجتمع مكانه الخاص . والعامل الحر ليس له ضمان من أى نوع كان ، إن له مكاناً في المجتمع فقط عندما يمكن للبورجوازية أن تفيد منه ، وهو في جميع الحالات الأخرى غير معترف به ، إنه يعامل كشيء لا وجود له . القن يضحي بنفسه من أجل سيده وقت الحرب . وعامل المصنع وقت السلم . إن صاحب القن كان بربرياً ينظر إلى نذاته نظرة رأى القطيع ، أما مستخدم العمال فهو متحضر ينظر إلى الأيدي التابعة له كما ينظر إلى الآلة . وفي إيجاز ، فإن وضع كلاهما ليس بعيداً عن الندية ، وإن كان أحدهما مضاراً فهو العامل الحر . إن كلاهما عبد ، بفارق واحد ، أن عبودية أحدهما لا تصنع فيها ، إنها جريمة مستقيمة ، بينما عبودية الآخر ، مأكرة ، خبيثة ، مستترة ، مغطاء بالخداع عن ذاته وعن كل الآخرين ، إنها عبودية تقوم على النفاق ، إنها أسوأ من العبودية القديمة ، لقد كان المحافظون الإنسانيون على حق عندما أطلقوا على العمال اسم الرقيق الأبيض . غير أن العبودية المرائية المستترة تحرف الوجه الصحيح للحرية ، على الأقل في شكلها الظاهري وتنحني أمام رأى عام محب للحرية ، وهنا يمكن التقدم التاريخي إذا قورن بالعبودية القديمة ، وهو أن مبدأ الحرية قد تقرر ، وسيأتي يوم يتنبه فيه المضطهدون إلى تنفيذ هذا المبدأ .

وفي الختام أقدم أبيات من الشعر قليلة ، تعبر عن عواطف العمال أنفسهم تجاه نظام المصنع . كتب تلك الأشعار « ادوارد ب. ميد » ، من « بيرمينجهام » ، إنها تعبير صادق عن وجهات النظر السائدة فيما بينهم (١٦) .

## ملك البخار

هنالك ملك ، ملك لا يرحم  
ليس ملكا من صنع حلم بشاعر  
لكنه جبار جائر  
يعرفه الرقيق الأبيض جيداً  
هذا الملك القاسى

هو البخار  
له ذراع ، ذراع من حديد  
ومع أنه ذراع وحيد  
ففى هذا الذراع الشديد  
طلسم

لم تصنعه الملايين  
كالإله السامى القديم العابس  
مولاه الواقف فى وادى الهيمون  
من نار حية أحشاءه  
والأطفال غذاءه  
كهانة عصبية جائعة  
للدماء متعطشة ، وقحة متكبرة  
لتحيل الدم ذهباً  
من أجل كسب دنس  
من قبد العبيد

كل حقوق الطبيعة يقيدون  
من أم أمراه جميلة يسحرون

وعن دموع الرجال يعمون  
آهات أبناء العمال وانينهم  
شدو في آذانهم  
ظلال هيا كل الفتية والفتيات  
تظهر في بخار جحيم الملك  
ذلك الجحيم على الأرض ، منذ ولد ملك البخار  
تثر حوله اليأس  
بدلاً من عمل الإنسان ، بدلاً من تدبير السماء  
والجسد هنا يغتال  
إذن يسقط الملك ، الملك الإله السامى .  
إيتها الملايين العاملة جميعاً  
غلوا يده وإلا فقد قدر لأرض الوطن ان تنهار بفعله .  
ولاته الطغاة البغيضين ، كل منهم سيد مصنع متكبر  
والآن وقد اكتظ حلقومه بالذهب والدم  
يجب ان تنزله غضبة الأمة  
مثلما تنزل إلهه الوحش المهول \*

---

\* ليس لدى الوقت أو الحيز لأتناول بالتفصيل ردود أصحاب المصانع على التهم الموجهة  
ضدهم مدة اثنتى عشر عاماً . إن هؤلاء الناس لا يتعلمون ، لأن مصالحهم المفترضة تعميهم .  
فضلاً عن أن كثيراً من اعتراضاتهم قد لا تقينا بها في السياق السابق ، وفيما يلي كل ما أرى  
ضروره إضافته : —

انت تأتى الى « مانشستر » ، تبغى التعرف على الأحوال في انجلترا ، بالطبع معك توصيات  
تكني تعرف بأفاس محترمين ، انت تلقى بملاحظة أو اثنين عن حالة العمال . انت تعرف ببعض  
أصحاب المصانع الإمبراليين الأول ، ( روبرت هايندجريج ) ، ( ادموند آشورث ) ،  
( توماس أشتون ) وآخرين . هنالك من أخبرهم عن رغباتك . ان صاحب المصنع يفهمك ، =

يعرف ما يتوجب عليه فعله . ان يصطحبك الى مصنعه في الريف ، مستر ( كريج ) الى ( كوارى بانك ) في ( شيشاير ) ، مستر ( آشورث ) الى ( ثورتون ) قرب ( يوكتون ) ، مستر ( آشتون ) الى ( هايد ) . انه يفودك عبر مبنى فاخر منظم بطريقة تدعو الى الإعجاب ، وربما مزود أيضاً بأجهزه تجديد الهواء ، انه يلفت نظرك الى الحجرات الشاهقة طلقة الهواء ، الى الآلات الدقيقة ، وهنا وهناك عامل تبدو عليه علامات الصحة . انه يقدم لك غذاء رائعاً ، ويقترح عليك زيارة منازل العمال ، انه يقودك الى الأكواخ التي تبدو جديدة ، نظيفة وأنيقة ، ويدخل معك في هذا الكوخ وذاك ، بالطبع هي أكواخ الملاحظين والميكانيكيين ... الخ فقط ، حتى يمكنك أن ترى ( العائلات التي تعيش كاية على المصنع ) . ربما وجدت بين الأسر الأخرى ، أن الزوجة والأطفال ، فقط هم الذين يعملون ، بينما الزوج يرتق الجوارب ، ان وجود المستخدم يمنعك من السؤال بلا تحفظ ، تستجد كل امرئ حسن الأجر ، مرتاح البال ، صحته جيدة نسبياً بسبب جو الريف ، وتبدأ في الارتداد عن أفكارك المغالية عن البؤس والمجاعة ، . أما عن القول بأن نظام الكوخ يحول العمال الى عبيد ، وأنه ربما يوجد في الجوار متجر مقايضة . وأن الناس يكرهون صاحب المصنع فهو قول لن يشير اليه أحد ، لأن صاحب المصنع موجود لقد بنى مدرسة وكنيسة وحجراه المطالعة ... الخ . أما كونه يستخدم المدرسة ليعمل الأطفال للتعبية ، وأنه يسمح فقط في حجرة المطالعة بالمطبوعات التي تعبر عن مصالح البورجوازية ، وأنه يطرد العاملين لديه إن قرأوا صحفاً أو كتباً إصلاحية أو اشتراكية ، فهذا كله يدارى عنك . أنت ترى علاقة أبويه تريخ البال ، أنت ترى حياسة الملاحظين ، أنت ترى وعود البورجوازية ان استعبدوا لها عقلياً ومعنوياً . ان « مصنع الريف هذا ، هو المصنع الذي يحب المستخدمون أن يعرضوه ، حيث تنفني منه جزئياً مساوىء نظام المصنع ، وخاصة من وجهة النظر الصحية بسبب الهواء الطلق والمناطق المحيطة ، ولأن العبودية الأبوية يمكن الحفاظ عليها هنا فترة أطول . ويشدو دكتور ( أور ) بهراء من التقريظ على ذلك النعم الأساسى . ليكن ويل للعمال الذين يفكررون لأنفسهم ويصبحون اصلاحيين . ان الحب الأبوى لصاحب المصنع سوف يكف فجأة . يضاف الى ذلك ، أنك ان شئت أن يصاحبك أحد خلال الأحياء العمالية في ( مانسستر ) ، ان شئت أن ترى تقدم نظام المصنع ، في مصنع المدينة ، فانك حينئذ ، ما تنتظر طويلاً . قبل أن يساعدك هؤلاء البورجوازيين الأثرياء . ان هؤلاء الأفاضل لا يعرفون حال العاملين لديهم ولا ماهية رغباتهم . كما أنهم لا يجرؤن على معرفة أمور تقلقهم ، أو تدفعهم للتصرف بما يتعارض ومصالحهم الخاصة . ليكن ولحسن الحظ . ليس لهذا الأمر أهمية : ان ما يتوجب على العمال القيام به . فانهم سيقومون به من أجل أنفسهم .





## الفروع الباقية من الصناعة

سنضطر إلى تناول نظام المصنع على نحو مطول بعض الشيء ، باعتبار أنه خلق جديد تماماً ، خلق استحدثته الثورة الصناعية ، كما سيكون في وسعنا تناول العمال الآخرين على نحو أكثر اختصاراً ، حيث أن ما قيل ، سواء عن البروليتاريا الصناعية بشكل عام أو عن نظام المصنع بشكل خاص ، سوف يطبق عليهم إن جزئياً أم كلياً . وبناء على ذلك ، فإننا سوف نقتصر على تسجيل مدى نجاح نظام المصنع ، في شق طريقه قسراً في كل فرع من فروع الصناعة ، وأي خصائص أخرى يمكن أن يميّط ذلك الفعل ، اللثام عنها .

إن الفروع الأربعة المتضمنة تحت «لائحة المصنع» تعمل في إنتاج الملابس . ونكون قد أحسنا صنفاً ، إن نحن تناولنا فيما يلي ، هؤلاء العمال الذين يتسلبون لوازيمهم من هذه المصانع ، وأن نبدأ قبل الجميع بذساجي الجوارب في «توتينجهام» ، «دربي» و «وليدستر» . إن «لجنة تشغيل الصببة» ، تقرر أن ساعات العمل الطويلة المفروضة على هؤلاء العمال بأجور منخفضة ، مع حياة رتيبة راكدة ، وإجهاد للعينين يتلازم مع طبيعة العمل ، يضعف البنية كلها عادة ، وخاصة العينين . إن العمل ليلاً دون إضاءة قوية للغاية أمر مستحيل ، إن الإضاءة تنتج عن تركيز أشعة المصباح التي تمرر خلال كرات زجاجية ، وهو أمر شديد الخطورة على الإبصار . إن الجميع تقريباً يلبسون النظارات عند سن الأربعين . إن الصببة الذين يعملون في لف البكر وثني الحواشي ، يعانون عادة من أضرار بالغة على الصحة والبنيان . إنهم يعملون وهم في سن السادسة أو السابعة أو الثامنة ، من عشر إلى اثنتي عشر ساعة في اليوم . في حجرات صغيرة مغلقة ، ومن الشائع بينهم أن يصابوا بالإغماء أثناء عملهم ، أن يصعبوا ضمافاً إلى حد العجز عن القيام بأبسط الأعمال

المنزلية، كما أنهم يصابون أيضاً بقصر النظر، مما يضطرهم إلى إرتداء النظارات خلال صباهم . لقد وجد المندوبون أن أعراض داء الخنازير تظهر على بنية الكثيرين منهم ، كما أن أصحاب المصانع يرفضون عادة تشغيل الفتيات اللواتي عملن بهذه الطريقة ، وذلك لأنهن ضعاف للغاية . وتوصف حالة هؤلاء الصبية بأنها « فضيحة لبلد مسيحي » ، ويعبر البعض عن رغبة في التدخل بصورة تشريعية . ويضيف « تقرير المصنع » \* أن نساجي الجوارب هم أسوأ العمال أجراً في « ليدستر » ، إنهم يربحون اسبوعياً ، ست أو سبع شلنات ، إن بذلوا جهداً أكبر ، عن ساعات عمل يومية ، تتراوح من ستة عشر إلى ثمانية عشر ساعة . لقد كانوا يربحون فيما سبق ، من عشرين إلى واحد وعشرين شلناً ، إلا أن إدخال الأطر الكبيرة قد دمر عملهم . إفي الغالبية العظمى منهم ماتزال تعمل بالأطر القديمة الصغيرة المفردة ، والتي تنافس التقدم الآلى بصعوبة . هنا أيضاً ، كل تقدم يمثل ضرراً بالعمال . ومع ذلك يتحدث المندوب « باور » عن تباهى نساجي الجوارب بأنهم أحرار ، وإن ليس لديهم ناقوساً يحدد لهم الوقت الذي فيه يأكلون أو ينامون أو يحملون ، إن حالهم اليوم ليس أفضل مما كان عليه عام ١٨٣٣ ، عندما وضعت « لجنة المصنع » بياناتها السابقة ذكرها . إن منافسة نساجي الجوارب الساكسونيين ، والذين يجذون بالكاد ما يأكلون ، تتكفل بهذا الحال . إن وقع هذه المنافسة قوى للغاية على الإنجليز في كل الأسواق الأجنبية تقريباً ، وكذا على السلع الأقل جودة ، حتى داخل السوق الإنجليزي ذاته . إن ذلك الأمر لا بد وإن يكون مصدر بهجة لنساج الجوارب الوطنى الألمانى ، حيث إن أجوره التى تضعه فى حالة مجاعة ، قد أجبرت أخيه الإنجليزى على أن يجوع أيضاً ! إن يجوع ، حقاً ، وهو نخور وسعيد من أجل المجد الأعظم للصناعة الألمانية ، مادام شرف أرض الآباء يتطلب أن تكون مائدته خاوية وطبقه نصف فارغ ؟ آه ، يالها من شيء نبيل تلك المنافسة و « سباق الأمم » هذا . إن الـ « مورنينج كرونيكل » ، وهى صحيفة ليبرالية أخرى ، صحيفة للبورجوازية دون منازع ، تنشر بعض الخطأيات من نساج جوارب فى « هينكل » ، يصف فيها حال زملائه العمال — أنه يكتب ضمن ما يكتب عن حالة ٥٠ أسرة مكونة من ٣٣١ فرداً ، كانوا يعتمدون فى حياتهم

---

\* تقرير ( جراينجر ) ، ملحق ، الجزء الأول ص ١٥ وصفحات ١٣٢ — ١٤٣ .

على ١٠٩ إطاراً ، كل إطار منها يغل في المتوسط ٥ شلناً ، وكل اسرة تكسب في المتوسط ١١ شلناً ، ٤ بنسات ، يلزم أن يدفع منها إيجار المنزل ، إيجار الإطار الوقود والنور ، الصابون والابز وهي كلها تكلف ، شلنات ، ١٠ بنسات ، وبذا يتبقى ١٤ بنس لكل رأس يومياً ، ولا شيء من أجل الملابس . يقول نساج الجوارب : « لا عين قد رأت ، ولا أذن قد سمعت ، ولا قلب قد أحس نصف الآلام التي يعانها هؤلاء الناس الفقراء » . كانت السرر مفتقدة اما تماماً أوجزئياً والأطفال يتجولون في مزق عراة الأقدام ، والرجال يقولون والدموع في مآقيهم « مضى زمن طويل منذ كان لدينا أية لحوم ، لكننا كدنا أن ننسى مذاقها » ، وفي النهاية فإن البعض منهم يعمل يوم الأحد ، رغم أن الرأي العام يغتر في سرعة أى فعل آخر غير هذا الفعل ، كما أن صوت الإطار المجاجل مسموع خلال الجوارب . « ولكن ، قال أحدهم : « أنظر إلى أولادى ولا تسأل أى سؤال . ان فقرى يجبرنى على فعل ذلك ، اننى لا أقوى ولا أود أن أسمع أطفالى يصرخون دوماً في طلب الخبز ، دون أن أحاول كل الرسائل حتى آخرها كي أكسب كسباً شريفاً . لقد استيقظت يوم الإثنين الماضى فى الثانية صباحاً وظللت أعمل حتى قرابة منتصف الليل . لقد نلت كفايتى من ذلك . لن أقتل نفسى ، ولذا فإنى أذهب الآن الى السرير فى الساعة العاشرة ، وأعوض الوقت الضائع بالعمل أيام الأحد » ان الأجور لم ترتفع فى « ليسستر » و « توتينجهام » و « دربى » منذ ١٨٢٣ ، وأسوأ هذه الأجور فى « ليسستر » حيث يسود نظام المقايضة الى حد كبير ، كما سبق وذكر . لذلك ، ليس هنالك ما يثير الدهشة ، عندما يلحظ نساجو هذه المنطقة دوراً نشطاً للغاية فى حركات كل العمال ، انه أكثر الأدوار نشاطاً وتأثيراً حيث أن الرجال هم الذين يعملون أساساً على الأطر .

توجد فى منطقة نساجى الجوارب هذه ، أحياء لصناعة الدانتيل أيضاً . هنالك بشكل إجمالى ٢٧٦٠ إطاراً تعمل فى صناعة الدانتيل فى البلدان الثلاثة المذكورة . بينما لا يوجد فى باقى إنجلترا كلها غير ٧٨٦ إطاراً . وتتعد صناعة الدانتيل إلى حد كبير بسبب إتباع نظام صارم فى تقسيم العمل . وتضم هذه الصناعة عدداً من الفروع . إن الغزل يلف أولاً على البكرات بواسطة فتيتات فى سن الرابعة عشر وما فوقها يسمين باللفافات ، ثم توضع البكرات بواسطة

صبيحة في سن الثامنة وما فوقها يسمون بالضمامين ، إنهم يمررون الخيوط خلال فتحات دقيقة ، يوجد منها ١٨٠٠ فتحة في المتوسط في كل ماكينة ، ثم يصل بالخيوط إلى متصدها ، ثم يبدأ النساج في نسج الدانتيل التي تخرج من الآلة كقطعة عريضة من القماش . ويقوم صبيحة صغار للغاية بحملها وسحب الخيوط التي كانت تربطها ، وتسمى هذه العملية بالدانتيل الجارية أو المسحوبة ، ويسمى الصبيحة أنفسهم بالسحابين . ثم تعد الدانتيل للبيع . وليس للمفات ، مثلهن في ذلك مثل المضامين ، زمن عمل محدد ، إنهم يستدعون للعمل في أى وقت تفرغ فيه البكرات على الأطر ، وبذا فهم معرضون لأن يستدعوا في أى وقت إلى المصنع أو حجرة العمل ، طالما أن النساج يعمل ليلاً . أن تأثير تتابع عدم الانتظام هذا ، والعمل الليلي المتكرر ، وطريقة الحياة المشوشة عليهم ، يولد عديداً من الأمراض البدنية والأخلاقية وخاصة الاباحية الجنسية الجامحة المبكرة ، والتي أجمعت عليها آراء كل الشعوب . إن لهذا العمل تأثير ضار للغاية على العيدين ، ورغم أن إصابة دائمة لا تلاحظ عامة بين المضامين ، غير أنه تتولد فيما بينهم التهابات العيون والألم والدموع والالتباس المؤقت للرؤيا أثناء عملية المضم . أما عن المفات ، فإنه من المؤكد ، على أى حال ، أن عملهن يؤثر بصورة خطيرة على العين ، ويولد بالإضافة إلى التهابات القرنية المتعددة ، حالات كثيرة من إظلام الرؤيا والمياه البيضاء . أما عمل النساجين أنفسهم فهو صعب للغاية ، حيث يتم توسيع الأطر بصورة مستمرة ، حتى أصبحت الأطر المستخدمة حالياً تحتاج لعمل ثلاثة رجال على التوالي ، كل يعمل ثماني ساعات ، وبذا يعمل الإطار طوال الأربع والعشرين ساعة . ومن ثم فإن المفات والمضامين يستدعون كثيراً أثناء الليل ، وعليهم أن يعملوا حتى لا يتوقف الإطار خاملاً . إن عملية ملأ ١٨٠٠ فتحة بالخيوط تشغل عمل ثلاثة صبيحة مدة ساعتين على الأقل . لقد أزاحت قوة البخار كثيراً من الأطر ، وبذا بطل عمل الرجال ، وكما يذكر « تقرير تشغيل الصبيحة » ، فإن مصانع الدانتيل وحدها هي التي تبعث في طلب الصبيحة ، ويلى ذلك على ما يبدو أمرين ، إما أن عمل النساجين قد إنتقل أخيراً إلى حجرات المصانع الكبرى ، وإما أن النسيج بالبخار قد أصبح عاماً إلى حد ما ، وفي كاتما الحالتين ، فإن نظام المصنع قد خطا خطوة نحو الأمام . وأكثر تلك الأعمال ضرراً بالصحة هو عمل السحابين ، الذين هم دائماً صبيحة في السابعة ، بل وحتى في الخامسة والرابعة

من عمرهم ، ولقد وجد المندوب « جراينجر » طفلاً في الثانية من عمره يعمل في هذا العمل . إن متابعة خيط يجب سحبه من نسيج متشابك بواسطة ابرة ، هو عمل ضار جداً بالعيزين . خاصة عندما يستمر العمل كالمعتاد أربعة عشر أو ستة عشر ساعة مما ينتج قصر النظر شديد الخطر ان أخذت أقل الحالات ضرراً أو العمى الذى لا براء منه بعد اظلام الرؤيا ان أخذت أسوأ الحالات وأكثرها انتشاراً . يضاف الى ذلك ، أن الصبية يصبحون ضعافاً ، ضيق الصدر ، بسبب الجلوس منحنيين بصورة دائمة ، كما يصابون بداء الخنازير نتيجة سوء الهضم . كما أن اضطراب وظائف الرحم يكاد يكون عاماً بين الفتيات ، كذا انحناء السلسلة الفقرية أيضاً ، حتى أنه « يمكن التعرف على كل السحابين من مشيتهم » . كما أن تطرير الدانتيل يودى الى نفس النتائج على العيزين وعلى كل البنيان . وتجمع آراء الشهود العاملين بالطب على فكرة أن كل الصبية العاملين في انتاج الدانتيل يقاسون بشكل خماير ، انهم شاحبون ، ضعاف ، نحاف ، دون الحجم الطبيعى وهم دون الأطفال الآخرين بكثير في قدرتهم على مقاومة المرض . ان الإصابات التى يعانون منها دائماً هى الهزال العام ، تكرار الإغماء ، آلام الرأس والأجناب ، الظهر والأرداف ، خفقان القلب ، الغشيان ، القيء وفقدان الشهية ، انحناء السلسلة الفقرية ، داء الخنازير وداء السل ، أما صحة الأنثى صانعة الدانتيل فهي خاصة ، مخربة بصورة دائمة وعميقة ، الشكاية عامة من الانيميا وتعرس الولادة والاجهاض \* . يقرر الموظف التابع « للجنة تشغيل الصبية » أكثر من ذلك . أنه يقرر أن الصبية غالباً سيئى الملبس ومهملين ، يتناولون طعاماً غير كاف ، هو عادة من الخبز والشاى فقط . وهم فى الغالب لا يتناولون اللحم لشهور متصلة ، أما عن حالتهم الأخلاقية فإنه يقرر\*\*.

« أن كل سكان « نوتينجهام » والشرطة ورجال الدين وأصحاب المصانع والسما والآباء وأمهات الصبية ، يجمعون الرأى حول فكرة ، أن نظام العمل الحالى ، هو مصدر من أكثر مصادر الفساد الخلقى أثمارة . ان اللضامين ، وهم أساساً من الصبية ، واللفافات ، وهن عادة من البنات ، يستدعون الى المصنع فى

\* تقرير ( جراينجر ) كله .

\*\* ( جراينجر ) ، ( تقرير لجنة تشغيل الصبية ) .

نفس الوقت ، إن لديهم أنسب فرصة لإقامة علاقات غير لائقة ، وأن يظلوا معاً بعد إنتهاء العمل . ولقد ساعد ذلك ، إلى حد ليس بالقليل ، في فساد الأخلاق ، الذى إمتد طبقاً للفكرة العامة ، إلى مدى رهيب فى « نوتينجهام » . يضاف إلى ذلك ، أن هدوء الحياة المنزلية وراحة الأسرة التى ينتمى إليها هؤلاء الصبية والشباب ، قد ضحى بها تماماً ، من أجل هذه الحالة الشاذة تمام الشذوذ والتى تسير عليها الأمور .

هنالك فرع آخر من فروع صنع الدانتيل ، يجرى مباشرة فى المناطق الزراعية المحيطة « بنورث امبتون » ، « اكسفورد » و « بدفورد » ، هو صنع بكرات الدانتيل ، ويقوم به أساساً ، صبية وشباب ، يشتهكون عامة من سوء الطعام ، وهم من النادر ما يتذوقون اللحوم . إن العمل نفسه غير صحى إلى أقصى حد . فالصبية يعملون فى حجرات صغيرة ، سيئة التهوية رطبة ، يجلسون دائماً منحنيين فوق وسادة الدانتيل ، ولدعم الجسد فى هذا الوضع المتعب ، ترتدى الفتيات مشدات ذات أضلع خشبية ، والتى تسبب - فى هذا السن الغضة لمعظمهن بينما العظام ما تزال طرية للغاية - من زحزحة الضلوع تماماً ، وتجعل ضيق الصدر عاماً . إنهن عادة ما يمتن بداء السيل بعد معاناة أشد أشكال اضطراب الهضم الناجم عن العمل جلوساً فى جورديء . ويكاد أن تكن جميعاً دون تعليم ، كما أن التشقيف الخلقى هو أقل ما يتلقين . إنهن يحببن التبرج ، ونتيجة هذين المؤثرين فإن حالهن الخلقى يدعو إلى الأسف الشديد ، إن الدعارة بينهن تكاد أن تكون وبائية\*

هذا هو الثمن الذى إبتاع به المجتمع متعة إرتداء سيدات البورجوازية الناعمة للدانتيل . إنه ثمن معقول حقاً ! آلاف قليلة فقط أصابها العمى ، بعض بنات العمال أصابهن السيل ، جيل أمرضته وفرة الرذيلة التى تورث هزالها إلى أبنائه الذين يتساون معه فى الرذيلة ، ثم إلى أبناء الأبناء . ولكن ، ما الذى يقود إليه ذلك ؟ إنه لا شئ ، لا شئ مهما كان الأمر ! إن بورجوازيينا الإنجليز سوف



يضعون تقرير « اللجنة الحكومية » جانباً غير مباليين بشيء ، وسوف تستمر زوجاتهم وبناتهم في تزيين أنفسهن بالدانتلا كما كن من قبل ، إن رباطة جأش البورجوازي الإنجليزى إنما هى شيء جميل .

إن عدداً كبيراً من العمال يعمل فى مؤسسات طباعة القطن فى « لانكشاير » و « درى شاير » و « غرب اسكتلندا » ، إن المهارة الآلية فى أى فرع من فروع الصناعة الإنجليزية لم تحقق مثل هذه النتائج الباهرة ، غير أنها أيضاً لم تسحق العمال مثلما سحقتهم فى هذا الفرع . إن إدخال استخدام الاسطوانات المنقوشة التى تسحب بقوة البخار ، واكتشاف طريقة للطباعة تستخدم من أربع إلى ست ألوان مرة واحدة يمثل تلك الاسطوانات ، قد أبطل العمل اليدوى مثلما فعل إدخال الآلات فى غزل ونسج القطن . إن انظم الجديدة فى أعمال الطباعة قد وفرت من الأيدى العاملة أكثر بكثير مما حدث فى حالة إنتاج الأقمشة . إن رجلاً واحداً يعاونه صبي ، يقوم الآن — عن طريق الآلة — بما كان يقوم به ٢٠٠ من طباعى القوالب من قبل ، إن ما كينة واحدة تنتج ٢٨ ياردة من النسيج المطبوع فى الدقيقة . إن طباعى البقعة أيضاً فى حالة سيئة للغاية . إن ضواحي « لانكاستر » و « درى » و « شستر » قد انتجت فى عام ١٨٤٢ ( طبقاً للإلتماس مرسل من الطباعين إلى مجلس العموم ) ١١ و ٠٠٠ و ٠٠٠ قطعة من البضائع القطنية المطبوعة ، ١٠٠ و ٠٠٠ مطبوعة باليد طباعة كلية ، ٩٠٠ و ٠٠٠ قطعة مطبوعة جزئياً بالآلة وجزئياً باليد ، ١٠ و ٠٠٠ و ٠٠٠ قطعة بالآلة وحدها ، وهى بها من أربع إلى ست ألوان . وحيث أن الآلات الحديثة ، تجرى بها من الأساس تحسينات مستمرة ، فإن الطباعين اليدويين يزدون بكثير عن كمية العمل المتاحة ، وبذا فإن الكثيرين منهم يعانون المجاعة . إن الإلتماس يقدر عددهم بربع العدد الإجمالى للعمال ، بينما يتم تشغيل الباقيين فى أحسن الأحوال ، ساعة أو إثنتين مدة ثلاثة أيام فى الأسبوع مع إعطائهم أجراً زهيداً . ويؤكد « ليدش » أن العامل من عمال المطابع اليدوية فى إحدى ورش الطباعة ( ديبلى دى — قرب بورى فى لانكشاير ) لا يكسب أكثر من خمس شلنات فى المتوسط ، رغم علمه بأن عمال الطباعة الآلية يتقاضون أجوراً طيبة إلى حد ما . وبذا فإن ورش الطباعة قد نبذت نظام المصنع كلية ،

دون أن تكون معرضة للقيود التشريعية الواقعة عليه . إنهم ينتجون صنفاً خاضعاً « للموضة » ، ولذا فإن عملهم غير منتظم . إنهم يعملون نصف الوقت إن كانت لديهم طلبيات صغيرة ، ويعملون حتى العاشرة أو الثانية عشر وربما الليل بطوله إن هم عقدوا اتفاقاً لتنفيذ نموذج ما للطباعة وكان العمل نشطاً . كانت هنالك ورشة إلى جوار منزلي قرب « مانشستر » ، وغالباً ما كنت أراها مضاءة وأنا عائد في ساعة متأخرة من الليل . لقد سمعت أن الصبغة هناك ، كانوا يجبرون على العمل ساعات طويلة ، حتى أنهم كانوا يحاولون إقتناص لحظة راحة وينامون على السلام الحجرية وفي أركان الدهليز . ليس لدى دليل قانوني عن صحة تلك الواقعة ، وإلا كنت ذكرت اسم الشركة . إن « تقرير لجنة تشغيل الصبغة » سطحي للغاية في تناوله لهذا الموضوع ، إنه يقرر فقط ، أن الأطفال في إنجلترا على الأقل جيدو المأكل والملبس إلى حد ما في غالب الأحوال ( نسياً ، طبقاً لأجور الوالدين ) وأنهم لا يتلقون أى تعليم مهما كان ، وإنهم على مستوى منخفض من الأخلاق . إنه من الضروري فقط أن نتذكر ، أن هؤلاء الصبغة خاضعين لنظام المصنع ، وحينئذ نحيل القارئ على ما قيل سابقاً في هذا الصدد ، ونمضي في سبيلنا .

أما عن العمال المتبقين والعاملين في صناعة أقمشة الملابس ، فقد بقي القليل ليقال . إن عمل المبيضين غير صحي على الإطلاق ، إنهم يجبرون على إستنشاق الكلور ، وهو غاز خطير على الرئتين . أما عن عمل الصباغين فهو صحي للغاية في كثير من الأحوال ، حيث يقتضى إجهاد الجسد كله ، أما قدر ما يتناوله هؤلاء من أجر ، فهو أمر لا يعرف عنه إلا القليل ، وهذا دليل كاف على صحة الإستنتاج ، بأنهم لا يحصلون على أقل من المتوسط العام للأجور ، وإلا كانوا تدمروا . إن قطاعي الأقمشة القطنية الوبرية ، وهم عديدون نسبياً نتيجة الإستهلاك الكبير للقطن المخملي ، حيث يتراوح عددهم من ٣,٠٠٠ إلى ٤,٠٠٠ عامل ، قد عانوا بقسوة شديدة ، وعن طريق غير مباشر ، من تأثير نظام المصنع . إن السلع التي كانت تنسج سابقاً بالمناسج اليدوية ، لم تكن متناسقة تماماً ، وكانت تحتاج إلى أيدي مدربة لقطع الصفوف المفردة للخياط . ومنذ إستخدام المناسج الآلية ، فإن الخياط تجرى منتظمة ، كل خيط من لحمة النسيج مواز للخيط الذي يسبقه تماماً ،

وبذا لم تعد عملية القطع فناً ، واتجه العمال الذين طردوا من هذا العمل بسبب إدخال الآلات ، إلى عملية تقطيع الأقمشة القطنية الوبرية ، وتسببوا في خنض الأجور بسبب منافستهم ، واكتشف أصحاب المصانع أنهم يستطيعون الحصول على العمل داخل المصنع نفسه بتكلفة أقل من تلك التي تتم في حارات القطاعين ، والتي كانوا يدفعون إيجارها بشكل غير مباشر . ومنذ هذا الاكتشاف ، فإن حارات القطاعين الرابطة في المطابق العلوى لعدد من الأكواخ قد غدت خالية ، أو تم تأجيرها كمساكن ، بينما فقد القطاع حرته في اختيار ساعات عمله ، وغداً يوثق به بسلطة الناقوس . لقد أخبرني قطاع ، ربما كان عمره خمس وأربعين عاماً ، أنه يتذكر وقتاً كان يحصل فيه على ٨ بنسات أجر صناعة الياردة ، في حين يحصل الآن على بنس واحد في مقابل صنعها . حتّى ، أن النسيج الأكثر إنظاماً يقطع في سرعة أكثر من السابق ، إلا أنه لا يستطيع بأي حال من الأحوال أن يضاعف ما يصنعه خلال ساعة واحدة ، كما كان يحدث في الماضي ، ولذا فإن أجوره قد هبطت إلى أقل من ربع ما كانت عليه . ويقدم « ليش » قائمة بالأجور المدفوعة عام ١٨٢٧ و عام ١٨٤٣ عن مختلف السلع والتي يظهر منها أن الأصناف التي دفع فيها عام ١٨٢٧ معدلات ٤ بنس ، ٢½ بنس ، ٢¼ بنس و بنس واحد للياردة ، قد دفع فيها عام ١٨٤٣ معدلات ١¼ بنس ، ١ بنس ، ¾ بنس و ½ بنس للياردة ، كما أجر للقطاعين ، إن متوسط الأجر الأسبوعي طبقاً « ليش » ٢ شلن و ٦ بنسات - واحد جنيه إسترليني - واحد جنيه إسترليني و ٦ شلنات و ٦ بنسات ، ولنفس السلع في عام ١٨٤٣ : ١٠ شلنات و ٦ بنسات - ٧ شلنات و ٦ بنسات ، ٦ شلنات و ٨ بنسات ، و ١٠ شلنات بينما لا يجد مئات العمال عملاً حتى بقدر هذه المعدلات المذكورة أخيراً . لقد تحدثنا فيما سبق عن النساجين اليدويين في صناعة القطن ، أما باقي الأقمشة المنسوجة فتكاد أن تكون منتجة بالكلية على مناسج يدوية . هنا عانى أكثر العمال كما عانى قطاعو الأقمشة القطنية الوبرية من نزاحم المنافسين الذين حلت الآلات محلهم ، والذين تعرضوا ، مثلهم في ذلك مثل عمال المصانع ، إلى نظام صارم دقيق من العمل الرديء . فمثلًا نساجوا الحرير ، لقد وضع مستر « بروكل هيرست » وهو واحد من أكبر أصحاب مصانع الحرير في إنجلترا كلها ، أمام لجنة من أعضاء البرلمان ، قوائم مأخوذة من دفاتره ، يتضح منها أن السلع التي كان يدفع عنها عام ١٨٢١ أجور بمعدل ٣٠ شلن ، ١٤

شلنا ، ٣٥ شلنا ، ٣ شلنا ، ١٦ شلنا ، ١٠ شلنات ، لم يدفع عنها في عام ١٨٣١ غير ٩ شلنات ، ٧ ١/٤ شلنا ، ٢ ١/٤ شلنا ، ١ ١/٢ شلنا ، ١ شلنا ، ١ شلنا ، ٦ ١/٤ شلنا ، بينما لم يحدث ، في تلك الحالة أى تحسين في الآلات . غير أن ما فعله مستر « بروكل هورست » يمكن إتخاذه كمقياس للجميع . ويظهر من تلك القوائم ذاتها ، أن متوسط الأجر الأسبوعي لنساجيه - بعد كل التخفيضات - كان ١٦٥ شلنا في عام ١٨٢١ ، ٦ شلنات لا غير في عام ١٨٣١ ، ثم هبطت الأجور أكثر فأكثر منذ ذلك الوقت . إن السلع التي كانت تعود على النساج في عام ١٨٣١ بأجر قدره ٤ بنسات ، أصبحت تعود عليه في عام ١٨٤٣ بنسيتين ونصف ( قطعة واحدة من النسيج الحريري الناعم ) ، كما يمكن لعدد كبير من النساجين في الريف أن يحصلوا على عمل ، إن هم قبلوا إعداد تلك السلع بأجر يتراوح من ١.٥ إلى ٢.٠ بنس فقط . يضاف إلى ذلك أنهم معرضون لتخفيض أجورهم بطريقة تعسفية ، إذ تعطى بطاقة لكل نساج يتسلم مواداً ، وعلى البطاقة مكتوب ساعة محددة من اليوم يجب إعادة الشغل فيها ، حتى يلزم النساج الذي لا يستطيع العمل لمرضه ، أن يخطر المكتب بهذه الحقيقة خلال ثلاثة أيام ، وإلا فإن يعتبر المرض عذراً ، كما أن يعتبر عذر كاف إن ادعى العامل أنه اضطر لإنتاز خيوط للغزل . إن ما لا يقل عن نصف الأجر يستقطع إن حدثت أخطاء معينة في العمل ( مثلاً إن وجدت خيوط لحمة النسيج في حيز معين أكثر مما ينبغي ) ، ويستقطع بنس عن كل ياردة يتم إرجاعها إن لم تكن السلع جاهزة في الوقت المحدد . إن الاستنتاجات بناء على تلك البطاقات جسيمة إلى حد أن الرجل الذي يحضر إلى « لى » في « لانكشاير » مرتين في الأسبوع ، لجمع السلع المنسوجة ، يعود لمستخدمه في كل مرة ، ومعه على الأقل خمسة عشر جنيهاً إسترلينياً قيمة الغرامات — إنه يؤكد بنفسه ، في الوقت الذي يعتبر فيه من أكثر جامعي السلع تساملاً . مثل تلك الأمور كانت تسوى فيما سبق بتحكيم المحكمين ، ولكن لما كان العمال يطردون إن هم أصرروا على ذلك ، فقد أُلغى نهائياً عن تلك العادة ، وأصبح صاحب المصنع هو الممثل التعسفي للمدعى والشاهد والقاضى ، مانح القانون ومنفذه في ذات الوقت . وإن حدث وذهب عامل إلى قاضى الصلح ، فإن الإجابة ستكون « إنك بقبولك البطاقة قد دخلت في عتد يتوجب عليك الالتزام به » إنه نفس ما يحدث مع عمال المصنع . يضاف إلى ذلك ، أن المستخدم يجبر العامل على توقيع

صك يعلن فيه موافقته على الاستقطاعات التي تمت ، وإن تمرد أحد العمال فإن كل أصحاب المصانع في المدينة ، يعرفون في الحال أن ذلك الرجل ، كما يقول ( ليش ) \*

« يقام النظام القانوني كما أرسته بطاقات النساجين ، فضلا عن أنه كان من الوقاحة بحيث يشكك في حكمه هؤلاء الذين يتوجب عليه أن يعرف ، أنهم سادته في المجتمع .. »

بالطبع ، العمال أحراراً تماماً . إن صاحب المصنع لا يجبرهم على أخذ مواده وبطاقاته ، لكنه يقول لهم مترجماً « ليش » في إنجليزية واضحة ، الكلمات التالية :  
« إن لم تكونوا راغبين في أن تطبخوا في مقلاتي ، فلي وسعكم أن تنزهوا في النار . »

لقد عاش نساجو حرير « لندن » وخاصة النساجون في ( سبيتال فيلدز ) مدة طويلة ، في حالة من الضيق الذي يعقب بعضه بعضاً . إن الدور النشط للغاية والذي يلعبونه في حركات الطبقة العاملة عامة ، وحركات عمال لندن خاصة ، ليبرهن على عدم وجود سبب يجعلهم قانعين بنصيبهم . إن الضيق السائد فيما بينهم هو الذي تسبب في الحمى التي إنتشرت في « الايست إند » وأخرج « اللجنة الخاصة ببحث الحالة الصحية للطبقة العاملة » . إلا أن آخر تقرير « لمستشفى الحيات بلندن » يوضح أن هذا المرض مازال متفشياً بشدة فيما بينهم .

وتأتي صناعة السلع المعدنية ، عند تناول أهم منتجات الصناعة الإنجليزية ، بعد صناعة الأقمشة المنسوجة بمراحل . إن لهذه الصناعة رئاستها في « برمينجهام » ، حيث تنتج كل أنواع السلع المعدنية الدقيقة ، كالملاعق والشوك والسكاكين في « شيفيلد » ، كما تصنع السلع غير المصقولة ، كالأقفال والمسامير . إلخ في « ستافورد شاير » وخاصة في « ولفرهامبتون » . ولو صف حالة أعمال الذين يعملون في هذه

---

\* « ليش » ، « الحقائق الصعبة عن المصانع » صفحات ٣٧ — ٤٠ .

الصناعات ، دعونا نبدأ « برمينجهام » . إن تنظيم العمل « برمينجهام » قد استقر ، بينما ما يزال يوجد شيء من طبائع الحرفى القديم ، فى معظم الأماكن التى يتم تشغيل المعادن بها . إن المستخدمين الصغار ما زالوا موجودين ، إنهم يعملون مع صبيانهم فى دكان فى المنزل ، أو إن إحتاجوا لقوة البخار ، فى أبنية المصانع الكبيرة ، حيث يقسم المبنى إلى دكاكين صغيرة ، يؤجر كل منها إلى مستخدم ، ويزود الدكان بمحور تحركة الماكينة ، وبذا تتوافر قوة محركة للآلة . ويشخص « ليون فوتشر » ، الذى كتب عددا من المقالات فى « ريفيو دا دى موندس » ، تعتبر فى حدها الأدنى دراسة تكشف تلك الأوضاع ، وهى حتى الآن أفضل مما كتبه الإنجليز والألمان فى هذا الموضوع ، يشخص هذه العلاقة ، بأنها تتناقص والصناعة فى « لانكشاير » و « يوركشاير » ، باعتبارها « ديمقراطية صناعية » ، ويلاحظ أنها لن تعود بنتائج مناسبة تماما ، لا للسيد ولا للرجال . إن هذه الملاحظة صائبة تماما ولأنه لا يمكن للعديد من صغار المستخدمين إن يستمروا بطريقة جيدة ، معتمدين على الربح المقسم بينهم ، والذى تحدده المنافسة ، ربح يمتصه فى ظروف أخرى ، صاحب مصنع واحد ، إذ فى مقابل نمو واحد منهم إلى حد الثراء ، يصاب عشرة بالخراب ، ويصل مائة إلى وضع أسوأ من أى وضع كانوا فيه على الإطلاق . إن ذلك يتم بضخ يقوم به واحد منهم ، قادر على البيع بسعر أرخص من الآخرين . وإن توجب عليهم منافسة رأسماليين كبار ، فإن الأمر يكون واضحا منذ البداية ، إذ أنهم لن يستطيعوا شيئا غير الكدح فى ظل أشد الصعوبات ، أما عن الصبيان ، فقد كانوا ، كما سنرى ، ساء الحال تماما ، إنهم يعملون مع المستخدمين الصغار ، ولعمل هنا مثل العمل مع أصحاب المصانع ، مع فارق واحد ، هو أنهم بدورهم قد يصبحون مستخدمين صغارا أيضا ، وبذا يحصلون على قدر معين من الاستقلال — بمعنى أنهم فى أفضل الأحوال ، يستخلون من البورجوازية بقدر مباشر أقل من ذلك القدر الذى يعانونه فى ظل نظام المصنع . ولذا فإن هؤلاء المستخدمين الصغار ، ليسوا بروتاريين أصلاء . حيث أنهم يعيشون جزئيا على عمل صبيانهم ، كما أنهم ليسوا بالبورجوازيين الأصلاء ، حيث وسائل دخلهم الرئيسية هى عملهم الخاص . إن هذا الوضع الوسط الخاص بعمال الحديد فى « برمينجهام » ، هو الوضع المسئول عن شكل



إنضمام هؤلاء العمال إلى حركات العمل الإنجليزية ، والذي يكون إنضماماً نادراً وليس إنضماماً كلياً أو لا ردة فيه . إن « برمينجهام » مدينة راديكالية وليست مدينة إصلاحية من الناحية السياسية . وعلى أى حال ، هنالك العديد من المصانع الكبيرة المملوكة لرأسماليين ، يسودها نظام المصنع . إن تقسيم العمل ، والذي ينفذه هنا إلى أدق تفاصيله ( كما فى صناعة الإبر مثلاً ) ، كذا استخدام البخار كقوة محرّكة ، قد مكن من تشغيل أعداد ضخمة من النساء والأطفال ، وسنجد هنا \* نفس القسّمات بالضبط ، التى تناولها « تقرير المصانع » وقد عادت للظهور ، تشغيل النساء حتى ساعة الوضع ، وعدم كفاءتهن كمديرات لبيوتهن ، إهمال الأبناء والمنزل ، اللامبالاة المقت الحقيقى للحياة العائلية ، فساد الآداب ، طرد الرجال من العمل ، رفع الولاية مبكراً عن الأبناء ، والرجال الذين تعولهم نساؤهم وأبنائهم . . . إلخ إلخ . ويوصف الصبية بأنهم يعيشون فى شبه مجاعة ، مهمل الشيا ، نصفهم لا يعرف معنى الشبع ، لا يجد الكثيرون منهم ما يقتاتون به حتى وجبة منتصف النهار ، أو ربما يقضى الواحد منهم طوال النهار على خبز يساوى بنس واحد حتى وجبة الليل — كانت هنالك حالات حتمية لم يتناول فيها الصبية أى طعام منذ الثامنة صباحاً حتى الساعة مساء . يندر فى غالب الأحوال ، أن يرتدوا ما يكفى لتغطية عريهم ، الكثيرون منهم حفايا الأقدام حتى فى الشتاء . ومن ثم فإن جميعهم صغىرو الحجم وضعاف بالنسبة لأعمارهم ، إنهم نادراً ما يظهرون أى قدر من النشاط . إننا عندما نتأمل حالهم ذاك ، مع عدم وجود وسائل كافية لتعويض قواهم البدنية فى الوقت الذى هم فيه مطالبون بالعمل الشاق فى حجرات مخلقة ، يجب ألا تصتربنا الدهشة لقلة عدد الراشدين اللائقين للخدمة العسكرية فى « برمينجهام » . يقول أحد جراحى التجنيد « إن العمال صغار الحجم ، ضعاف ، قوتهم البدنية ضئيلة للغاية ، والكثيرون منهم مصابون أيضاً بتشوهات فى الصدر أو السلسلة الفقرية . وطبقاً لتأكيد أحد شاوشية التجنيد ، فإن أهل « برمينجهام » أصغر حجماً من هؤلاء القادمين من أى مكان ، إن أطوالهم عادة خمس أقدام وأربع أو خمس بوصات ، فمن بين ٦١٣ مجنداً ، لم يكن صالحاً للخدمة غير ٢٣٨ فرداً . أما بالنسبة

---

\* « تقرير لجنة تشغيل الصبية » .

للتعليم ، فلقد تم أخذ عدد من الشهادات والعينات من أحياء عمال المعادن ، سبق واستشهدنا بها للقارىء\* . ويتضح من « تقرير لجنة تشغيل الصبية » ما هو أبعد من ذلك ، إن أكثر من نصف صبية « برمينجهام » ، والذين تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة والخامسة عشر ، لا يواظبون على أية مدرسة من أى نوع كانت ، وأن الذين يفعلون ذلك ، يغيرون مدرستهم باستمرار ، وبالتالي ، يستحيل عليهم أن ينالوا أى تدريب له صفة الدوام . إنهم جميعاً يسحبون من المدرسة فى فترة مبكرة للغاية ويرسلون للعمل . ويوضح التقرير نوع من المدرسين الذين يعملون فى هذا المجال . إن إحدى المدرسات ، فى إجابتها على السؤال ، إذا ما كانت تعطى أى تعليم أخلاقى ، قالت ، كلا ، إن هذا لىكون كثير للغاية على من يدفع ثلاث بنسات فى الأسبوع مصاريف مدرسية ، وأخرى عديدة لم يفهم حتى هذا السؤال . وما زالت أخريات لا يعتبرن أن هذا جزء من واجبهن . ولقد قالت إحدى المدرسات ، أنها لم تعط أى تعليم أخلاقى ، لأنها لقيت الكثير من المتاعب لتثبت المبادئ الطيبة بين الصبية ( إنها بقولها هذا قد وقعت فى زلة عمدية ضد إنجليزيتها ) . لقد وجد المندوب المدرسة فى حالة من الفوضى والضجة الدائمة . إن حالة الصبية الخلقية تثير أعلى درجة من الرثاء . إن نصف كل المجرمين ، من الصبية دون الخامسة عشر . كان هنالك تسعين مجرماً ، فى عام واحد ، فى سن العاشرة ، منهم أربعة وأربعين حالة من الجرائم الخطيرة التى أدانها القضاء . ويبدو أن العلاقات الجنسية الجامحة ، طبقاً لرأى المندوب ، تكاد أن تكون عامة . كما أنها تمارس فى سن مبكر للغاية\*\*\* .

أما عن الأوضاع فى حى الحديد « بستاورد شاير » فهى سيئة أيضاً ، حيث لم يكن من الممكن تطبيق أى نظام لتقسيم العمل إلى تقسيمات كثيرة ( مع بعض الاستثناءات الخاصة ) ، أو إدخال قوة البخار أو الآلات ، على السلع غير المصقولة المصنوعة هنا . ومن ثم فإنه يوجد فى « وولفرهامبتون » ، « ويلهول »

\* انظر صفحة ١١٢ من الكتاب الأصيل ( ص ٣٦٣ ، ٢٦٤ الجزء الحالى ) .

\*\* « جرابنجر » ، التقرير والشهادة .

« سيد جيلي » ، « بدنسفيلد » ، « دارلاستون » ، « دورلي » ، « والسال » ، « و « بدنسبيري » . . . إلخ مصانع أقل ، إلا أنها في الأساس ، مسابك تعمل منفردة ، حيث يعمل السادة الصغار بمفردهم ، أو مع واحد أو أكثر من الصيادين الذين يخدمونهم حتى يبلغوا الواحدة والعشرين من عمرهم . إن المستخدمين الصغار هنا ، في نفس الوضع تقريباً ، الذي عليه هؤلاء الذين هم في « برمينجهام » . غير إن لصيادين كقاعدة ، في حال أسوأ بكثير . يكاد اللحم الذي يحصلون عليه أن يكون بالكلية لحم حيوانات مريضة أو ماتت موتاً طبيعياً ، أو لحماً فاسداً ، أو أنهم يقومون بصيد السمك ليأكلوه ، مع لحم كندوز من أبقار ذبحت وهي صغيرة للغاية . كما يأكلون لحم خنزير من تلك الخنازير التي اختنقت أثناء النقل ولا يعتمد على هذا الطعام صغار المستخدمين فقط ، بل يعتمد عليه أصحاب كبار المصانع أيضاً ، الذين يعمل لديهم من ثلاثين إلى أربعين صيداً . يبدو أنها عادة عامة في « وولفرهامبتون » ، ونتيجتها الطبيعية هي الشكاوى المتكررة من الأمعاء وأمراض أخرى . يضاف إلى ذلك ، أن الصيدية لا يحصلون عادة على كفايتهم من الأكل ، وهم نادراً ما يكون لديهم أي ملابس غير الهللهيل التي يرتدونها أثناء العمل . ولهذا السبب ، دون أي سبب آخر ، فإنهم لا يستطيعون الذهاب إلى مدارس أيام الأحاد . إن المساكن رديئة وقذرة إلى حد كبير ، حتى أنها تشكل مصدراً للبرص . ورغم أن العامل من الناحية المادية ليس بالعمل غير الصحي ، إلا أن نمو الصيدية قاصر ، وهم ضعاف ، مصابون بالكساح الحاد في حالات كثيرة . يوجد مثلاً في « ويلنهول » عدد لا حصر له من الأشخاص الذين انحنى ظهورهم نتيجة البرادة على المخرطة بصورة دائمة ، أو التوت رجلهم ، التي يطلقون عليها اسم « الرجل الخلفية » ، حتى أن هيئة الرجل تتخذ شكل الحرف K ، بينما يقال إن أكثر من ثلث العمال هناك مصابين بالفتاق . ولقد وجدت هنا ، كما هو الحال في « وولفرهامبتون » ، حالات من الفتيات لا حصر لها ، تأخرن في سن البلوغ (الفتيات أيضاً يعملن في المسابك) وكذا الحال بين الصيدية ، وقدامتد هذا التأخير حتى سن التاسعة عشر . وفي « سيد جيلي » والمنطقة المحيطة بها ، حيث تشكل المسامير ، المنتج الوحيد على وجه التقريب ، يعيش العاملون في صناعة المسامير ويعملون في أقذر الأكواخ التي تشبه الاسطبلات ، وهي أكواخ لا نظير لها في قدارتها .

وتعمل الفتيات والاولاد منذ العاشرة أو الثانية عشر من أعمارهم ، وهم لا يدخلون في أعداد العمال المهرة بحق ، إلا عندما يصنع الواحد منهم ألف مسمار في اليوم . إن أجر الألف ومئتا مسمار هو  $٥\frac{3}{4}$  بنس ، وكل مسمار يحتاج إلى إثنتى عشر خبطة ، وحيث أن المطرقة تزن  $1\frac{1}{4}$  رطلا ، فإن على صانع المسامير أن يرفع ١٨٠٠ رطلا ليحصل على هذا الأجر البائس . وفي ظل هذا العمل الشاق ، والطعام غير الكاف ، لابد وأن ينمو الصبية بالضرورة على الهيئة ، وذات بنيان دون الحجم الطبيعي ، وتؤكد شهادات المندوبين تلك الأوضاع . أما بالنسبة للتعليم في هذه المنطقة فقد سبق وقدّمنا البيانات الخاصة بذلك . إنها منخفضة المستوى إلى حد لا يمكن تصديقه . إن نصف الصبية لا يذهبون حتى إلى مدارس أيام الآحاد ، ويذهب النصف الآخر بشكل غير منتظم . إن عددا قليلا جدا ، إذا قورن بالاحياء الأخرى ، هو الذى فى وسعه القراءة . أما مسألة الكتابة فخالها أسوأ بكثير بالطبع ، إذ أنهم يرسلون إلى العمل ، فى سن السابعة ، فى الوقت الذى يبدأون فيه تحصيل شىء مفيد من ذهابهم إلى المدرسة . أما مدرسو مدارس أيام الآحاد ، وهم من الحدادين وعمال المناجم ، فإنهم غالبا ما يستطيعون قراءة أو كتابة أسمائهم بصعوبة . وتتطابق الاخلاق مع وسائل التعليم تلك . ويؤكد المندوب « هورن » مقدما الأدلة الوفيرة على تأكيد هذه ، أنه لا يوجد على الإطلاق فى « ويلنهول » أى حس خلقى بين العمال . لقد وجد ، بشكل عام ، أن الصبية لا يعرفون واجباتهم قبل والديهم ، ولا يكونون أى مشاعر لهم . إن قدرتهم على التفكير فيما يقولون محدودة ، إنهم بلهاء للغاية ، أغبياء إلى درجة مؤسفة ، حتى أنهم غالبا ما يزعمون ، أنهم كانوا يعاملون معاملة حسنة ، وأنهم كانوا فى طريقهم إلى الشهرة فى الوقت الذى كانوا يجبرون فيه على العمل من إثنتى عشر إلى أربعة عشر ساعة ، مرتدين الأسمال ، لا يحصلون على ما يكفى من المأكل ، ويضربون إلى الحد الذى يحسون فيه بآثار الضرب لآيام عديدة لاحقة . إنهم لا يعرفون أى نوع آخر من أنواع الحياة ، غير تلك التى يكدهون فيها منذ الصباح حتى يسمح لهم بالنوم ليلا ، إنهم حتى لا يفهمون معنى السؤال الذى لم يسمعه من قبل ، إن كانوا قد أصيبوا بالتعب \* .

\* تقرير « هورن » وشهادته .

الاجور في «شيفيلد» أفضل وكذا الرضع الخارج للمال. كذا هناك من ناحية أخرى ، فروع أخرى من العمل يمكن ملاحظة وجودها هنا ، بسبب تأثيرها الخلل على الصحة بصورة غير عادية . إن عمليات معينة تحتاج إلى ضغط متصل للآلات على الصدر ، مما يولد السيل في حالات كثيرة ، كما يتأخر النمو العام لأجساد آخرين من بينهم البرادين ويصابون باضطرابات في الهضم . ويصاب قاطعوا العظام اللازمة لصناعة مقابض السكاكين بالصداع والصفراء ، وتصاب الفتيات ، وثلاثي يعمل منهن عدد كبير ، بالأنيميا . أما العمل في شحن الشوك وحواف السكاكين ، فإنما يفوق كل ذلك بمراحل من حيث كونه عملاً ضاراً بالصحة ، وخاصة إذا تم إنجازها باستخدام حجر جاف ، حيث يسبب الموت المبكر المؤكد . إن عدم صحة هذا العمل ترجع جزئياً إلى الوضع المنحني ، والذي ينضغط فيه الصدر والمعدة ، إلا أن الضرر المتميز ، يكمن في كمية جزئيات الغبار المعدني الحاد الأطراف والذي ينطلق أثناء عملية الشحن ، فيملأ الجو ، ويتم استنشاقه بالضرورة . إن متوسط أعمار الذين يعملون على المسن الجاف لا يكاد يكون خمسة وثلاثين عاماً ونادراً ما يتجاوز الذين يعملون على المسن المرطب بالماء خمسة وأربعين عاماً . يقول دكتور « نايت » من شيفيلد\* .

« في وسعي أن أنقل فكرة ما عن أضرار هذه الحرفة ، بأن أؤكد فقط أن أشد مدمني الخمر من السنانيين هم أطولهم عمراً ، لأنهم أطولهم وأغلبهم غياباً عن عملهم . إنهم ، في مجملهم ، قرابة ٢٥٠٠ سناني في «شيفيلد» ، حوالي ١٥٠ منهم سناني شوك ( ٨٠ رجلاً و ٧٠ ولداً ) ، وهؤلاء يموتون في سن تتراوح ما بين الثامنة والعشرين والثلاثين من أعمارهم . إن سناني أمواس الحلاقة ، وهم يعملون بالمسن الرطب والجاف أيضاً ، يموتون فيما بين الأربعين والخمسة والأربعين من أعمارهم ، ويموت سناني أدوات السفرة ، وهم الذين يسنون على الرطب ، ما بين الأربعين والخمسين من أعمارهم . »

ويقدم نفس الطبيب ، الوصف التالي ، للهجرى الذي يتخذه المرض المعروف بإسم « ربو السنانيين » .

---

\* دكتور ( نايت ) ، ( شيفيلد ) .

« إنهم عادة ما يبدأون في العمل في سن الرابعة عشر ، ونادراً ما يلاحظون أية عوارض للمرض قبل سن العشرين ، إن كانوا جيدوا البنيان . ثم تبدأ عوارض مرضهم الخاص في الظهور . إنهم يعانون من قصور التنفس عند بذل أبسط جهد في صعود تل أو درج ، وهم يعتادون رفع أكتافهم ليغذوا الحاجة الدائمة والمتزايدة للتنفس ، إنهم ينحنون إلى الأمام ويبدون ، بشكل عام ، وكأنهم يحسون في وضعهم الجاثم الذي يعملون به ، بالراحة الكبرى . إن لون بشرتهم يصبح أصفر مترباً ، وتعبر ملاحظتهم عن القلق ، ويشكون من الضغط على صدورهم وتصبح أصواتهم أجشّة خشنة ، ويسعلون في صوت مرتفع ، ويبدو الصوت وكأنه هواء مدفوع من أنبوب خشبي ، وهم يبصقون من وقت لآخر ، كميات وافرة من الغبار ، إما مختلطة بالبلغم ، أو في كتل كروية أو إسطوانية مغطاة بطبقة رقيقة من المخاط . ثم يأتي بصق الدم ، وعدم القدرة على الرقاد ، العرق ليلاً والإسهال والخسسان غير العادي ، كل عوارض الإصابة بالسيل ، والتي تنتهي بهم إلى الموت ، بعد أن يكونوا قد ظلوا شهوراً أو حتى أعواماً ، غير صالحين ليعولوا أنفسهم أو هؤلاء الذين يعتمدون عليهم . ويجب أن أضيف ، أن كل المحاولات التي بذلت حتى الآن لمنع « ربو السنانيين » أو لعلاجه قد باءت جميعاً بالفشل . »

لقد كتب « نايت » كل هذا منذ عشر سنوات مضت ، ومنذ ذلك الحين زاد عدد السنانيين ، كما زاد عنف المرض ، رغم المحاولات التي بذلت لمنع ، بتغطية أحجار السن ، وطررد الغبار باصطناع تيار هواء . لقد كانت هذه الوسائل على الأقل ناجحة ، غير أن السنانيين لا يرغبون في أن يتبنواهم أحدا . لقد حطموا ذلك الإختراع هنا وهناك ، باقتناع أن وجوده سيجذب مزيداً من العمال إلى العمل وبذا تنخفض الأجور . إنهم دعاة حياة قصيرة مريحة ، وغالباً ما كان دكتور نايت يخبر السنانيين الذين يحضرون إليه وقد ظهرت عليهم عوارض الربو ، بأن عودتهم إلى السنانة تعني الموت المؤكد . ولكن عبثاً ما يقول إن هذا الذي قد غدا سنانا يهوى إلى اليأس ، وكأنه قد باع نفسه إلى الشيطان . إن مستوى التعليم في « شيفيلد » منخفض للغاية . إن أحد رجال الدين وقد شغل نفسه إلى حد كبير بإحصائيات التعليم ، يرى أنه من بين ١٦٥٠٠ فرداً من أبناء الطبقة العاملة ، والذين كان عليهم



المواظبة على المدرسة ، هنالك ٦٥٠٠ في وسعهم بالكاد أن يقرأوا . ويرجع ذلك إلى حقيقة أن الصبية يأخذون من المدرسة في سن السابعة ، وإن تأخر الأمر كثيراً ففي سن الثانية عشر ، وأن المدرسين لا يصلحون لشيء ، قاصرهم لص محكوم عليه بالأشغال الشاقة ، ولم يجد عند الإفراج عنه عملاً يعول به نفسه غير التدريس بالمدرسة ! إن فساد الآداب بين الشباب يسود في « شيفيلد » أكثر من أى مكان آخر . إنه من الصعوبة بمكان ، أن يحدد المرء أى مدينة يجب أن تفوز بالجائزة ، وعند قراءة التقرير ، فإن المرء يقتنع بأن كلا منها يستحقها بجدارة ! إن الجيل الأصغر يقضى طوال يوم الأحد متسكعاً في الشوارع يقترع بالنقود ، أو يصارع الكلاب ، كما يذهب بانتظام إلى صالة مشروب الجن ، حيث يجلس الفتية هناك مع حبيباتهم حتى ساعة متأخرة من الليل ، وعندها يبدأون النزهة في ثنائيات منفردة . لقد وجد المندوب في أحد بيوت الجعة التي زارها هناك ، من أربعين إلى خمسين شاباً من كلا الجنسين ، كانوا جميعاً دون السابعة عشر من العمر تقريباً . وكان كل فتى يجلس إلى جوار فتاته ، وهنا وهناك كانوا يلعبون الورق ، وفي أماكن أخرى كانوا يرقصون ، أما الشرب ففي كل مكان . وكان بين الصحبة مومسات محترفات معترف بهن علناً . إذن لا عجب ، كما يشهد بذلك كل الشهود ، أن تبدأ العلاقات الجنسية الجاحجة والدعارة الفتية مبكراً ، بأشخاص تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشر والخامسة عشر بكثرة غير عادية في « شيفيلد » . إن الجرائم ذات الطابع الوحشي والمتهور عامة الوقوع ، ولقد قبض قبل عام من زيارة المندوب على عصابة كانت على وشك إشعال النار في المدينة . كانوا مجهزين تجهيزاً تاماً بأدوات الطعن والمواد سريعة الالتهاب . وسنرى فيما بعد ، أن حركة العمال في « شيفيلد » تحمل نفس هذه السمة الوحشية \* .

وتوجد إلى جوار هذين المركزين من مراكز صناعة المعادن مصانع للإبر في « دارينجتون » ، « لانكشاير » حيث تسود الحاجة إلى حد كبير ، وكذا فساد الآداب والجهل بين العمال ، خاصة بين الصبية . كما يوجد أيضاً عدد من مسابك

---

\* تقرير ( سيمونز ) وشهادته .

المسامير في جوار « ويجان » في « لانكشاير » وفي شرق اسكتلندا . وتروى التقارير الواردة من المناطق الأخيرة ، نفس قصة الأوضاع الجارية في « ستافورد شاير » على وجه التقريب بالضبط . كما يوجد فرع آخر من فروع هذه الصناعة تتم مباشرة في المناطق الصناعية وخاصة في « لانكشاير » . والخاصية الأساسية لهذا الفرع ، هو إنتاج الآلات بالآلات ، وبذا يطرد العمال من أماكن أخرى ، ويحرمون من آخر ملاذ لهم ، بخلق عدوهم الذي يقينا سيحل محلهم . لقد ألقت آلات مسح الخشب وقطع مسامير القلاووظ والعجلات والصهول آلات القلاووظ ... الخ . وكذا المخارط الآلية ، بالعديد من العمال الذين كانوا يجدون فيما سبق ، عملاً منتظماً بأجور مجزية ألقت بهم خارج نطاق العمل ، وفي وسع أى أمرئ يشاء أن يقوم بهذا ، أى يرى جموعهم في « مانشستر » .

ويرقد شمال منطقة الحديد في « ستافورد شاير » منطقة صناعية ، سنوجه التفاتنا إليها الآن . إنها منطقة الفاخورات ، والتي توجد مقار إداراتها في دائرة « ستوك » ، التي تضم « هنلي » ، « بورسلم » ، « لين إند » ، « لين ولف » ، « إتروريا » ، « كولريدج » ، « لانجبورت » ، « تونستول » و « جولدن هيل » . وتحتوى كلها على ٦٠.٠٠٠ من السكان . ويقرر « تقرير لجنة تشغيل الصب » في هذا الصدد ، بأنه في عدد من فروع هذه الصناعة ، العاملة في إنتاج الأواني الفخارية ، يتعين على الصبية أن يقوموا بعمل خفيف ، في حجرات دافئة طليقة الهواء ، وعلى نقيض ذلك في فروع أخرى ، إذ أن المطلوب هو عمل قاس مرهق ، بينما لا يحصل العاملون فيه على الطعام الكافى أو الملابس الجيدة . إن كثيراً من الصبية يشكون ، « إننا لا نحصل على ما يكفي للأكلة ، إننا غالباً ما نتناول البطاطس بالملح ، لا اللحم على وجه الإطلاق ، لا خبز على وجه الإطلاق ، لا نذهب إلى المدرسة ، ولم نحصل على أية ملابس » . « إننا لم نحصل على شيء نأكله لغذاء اليوم ، إننا لا نتناول غذاءنا في المنزل إطلاقاً ، نحن نتناول البطاطس والملح في غالب الأوقات والخبز في بعض الأحيان » — « ذلك هو كل ما لدى من ملابس . لا توجد في منزلنا بزة ليوم الأحد » . إن حاملي الطين هم من بنين الصبية الذين يقومون بعمل خطر على وجه الخصوص ، إذ عليهم أن

يحملوا المادة الطينية بغالبها إلى حجرة التجفيف ، وإعادة الثقال فارغاً فيما بعد ، عندما تجف المادة تمام الجفاف . وبذا فإنه يتوجب عليهم أن يقضوا النهار جيئة وذهاباً ، يحملون أحمالاً أثقل نسبياً من أعمارهم ، بينما درجة الحرارة العالية والتي يتوجب عليهم العمل في ظلها ، تزيد بشكل ملحوظ من إنهاك العمل . إن هؤلاء الصبية ، باستثناءات تكاد تكون مفردة ، نحاف ، ضعاف ، شاحبون ، دائخون ، يعانون جميعاً ، على وجه التقريب ، من اضطرابات المعدة ، الغثيان ، فقدان الشهية ، ويموت العديدون منهم بالسل . إن الصبية وهم على هذا القدر من الوهن يسمون « بالدواليب » ، إشتقاقاً من دولاب الفخراى الذى يديرون عجلته . إلا أن أشد تلك الأعمال خطراً إلى أبعد حد ، هو عمل هؤلاء الذين يغمسون المادة المعدة فى سائل يحتوى على كميات كبيرة من الرصاص ، وفى الغالب من الزرنيخ ، أو يتناولون باليد المادة الخام المغموسة لتوها فى السائل . أن أيدى وملابس الراشدين والصبية من هؤلاء العمال ، تظل على الدوام مبللة بهذا السائل ، فيلين الجلد ويتساقط عند وجود أى احتكاك متصل بأشياء خشنة ، وبذا تدمى الأصابع فى غالب الأحوال ، وتظل دائماً فى أنسب حالاتها لامتصاص هذه المادة الخطرة . والنتيجة ألم عنيف ، وأمراض المعدة والأمعاء الخطرة . الأمساك الشديد ، القولون ، السل أحياناً والصرع الذى هو أكثر الأمراض إنتشاراً بين الصبية . إن الشلل الجزئى لعضلات اليد ، المخص الناجم عن مركبات الرصاص والشلل الكلى للأطراف ظاهرة عادية بين الرجال ، يروى أحد الشهود أن صبيدين كانا يعملان معه ، ماتا من الرعشة وهما فى العمل ، ويروى آخر كان يعاون فى عملية الغمس لمدة عامين عندما كان صبياً ، أنه عانى فى مبدأ الأمر آلاماً رهيبية فى إمعائه ، ثم أصيب بالرعشة ، ولزم الفراش مدة شهرين نتيجة ذلك ، حيث كانت تتكرر نوبات الرعشة بشكل متزايد ، ثم غدت يومية ، مصحوبة فى غالب الأحيان بعشرة إلى عشرين نوبة من نوبات الصرع . وأصيب ذراعه الأيمن بالشلل ، وقد أخبره الأطباء ، بأنه لن يكون فى وسعه أن يستعيد استخدام أطرافه على الإطلاق . ولقد وجد فى مصنع واحد ، فى حجرة الغمس ، أربعة رجال مصابون جميعاً بالصرع ، ويعانون من قولون حاد ، وإحدى عشر صبياً ، أصاب الصرع العديدين منهم بالفعل . وفى إيجاز ، فإن هذه الأمراض الخفيفة ، تتبع هذه الحرفة عامة : وأن هذا أيضاً ، يرجع إلى ما تربحه البورجوازية

من ربح كبير للغاية ! إن الجو في الحجرات التي تتخف فيها الأواني الفخارية بالدعك ، مليء بحجر الصوان المسحوق ، والذي يشكل إستنشاقه خطراً يماثل خطر إستنشاق غبار الصلب بين سناني « شيفيلد » . إن الأعمال يفقدون القدرة على التنفس ، ويعانون من إحتقان الزور والسعال العنيف ، كما يغدو صوتههم واهناً حتى أنه بالكاد يمكن سماعهم . إنهم جميعاً يموتون بالسل أيضاً . يقال أن المدارس في منطقة صناعة الفخار عديدة نسبياً ، وأنها تقدم للصبيبة فرصاً للتعليم ، ولكن حيث أن الصبيبة يرسلون في سن مبكرة للغاية للعمل إثنى عشر ساعة وأكثر يومياً في غالب الأحيان ، فإنهم ليسوا في وضع يمكنهم من الاستفادة من المدارس ، حتى أن ثلاثة أرباع الصبيبة الذين إمتحنهم المندوب ، لم يستطيعوا القراءة أو الكتابة ، بينما تغوص المنطقة كلها في أعمتى جهالة . إن الصبيبة الذين واطبوا على مدارس أيام الأحاد لسنوات ، لم يستطيعوا أن يفرقوا بين حرف وآخر ، كما أن التعليم الديني والأخلاقي منخفض المستوى للغاية ، مثله في ذلك مثل التعليم التثقيفي \* .

وهكذا يجرى العمل أيضاً في مصانع الزجاج ، حيث يبدو قليل الخطر على الرجال ، إلا أن الصبيبة لا يستطيعون إحتماله . إن العمل الشاق ، وعدم إنتظام ساعات العمل ، وتكرار العمل ليلاً ، والحرارة العالية ( ١٠٠ إلى ١٣٠ فهرنهايت ) لمكان العمل على وجه الخصوص ، تولد عند الصبيبة الهزال العام والمرض ووقف النمو الطبيعي وإصابات العين بشكل خاص ، الشكوى من الأمعاء ، الإصابات الروماتيزمية والخاصة بالشعبيات الرئوية . إن كثيراً من الصبيبة شاحبون ، جمر العيون ، وغالباً ما يصابون بالعمى لأسابيع متصلة مرة واحدة ، يعانون من الغشيان العنيف ، القيء ، السعال ، أمراض البرد والروماتيزم . إذ عندما يسحب الزجاج من النار ، يتوجب على الصبيبة أن يبدأوا العمل في مثل تلك الحرارة ، التي تشتعل بسببها ألواح الخشب الموجودة تحت أقدامهم . إن ناخبي الزجاج عادة ما يموتون صغار السن من الهزال وإصابات الصدر \*\* .

\* تقرير وشهادة ( اسكريفن ) .

\*\* ملحق تقرير ( ليفشيلد ) الجزء الثاني ، صفحات ل ٢ ، ١١ ، ١٢  
 تقرير لجنة تشغيل الصبيبة { « فراف-كس » « نافر-د »  
 « ك ٧ ، ٤٨ » « أ ٧٦ وما بعدها »

وبشكل عام ، فإن هذا التقرير يشير إلى الإدخال التدريجي المؤكد لنظام المصنع في كل فروع الصناعة ، مبيناً بشكل خاص مسألة تشغيل المرأة والصبية ، إنني لم أرى أنه من الضروري أن أتابع تقدم الآلات وحلولها محل الرجال كعمال في كل حالة . أن أى امرئ على أى درجة من الإلمام بطبيعة الصناعة يستطيع أن يسد هذه الناحية بنفسه ، بينما فسحة الوقت لم تكن كافية لأصف بالتفصيل ، وجها من وجوه نظامنا الحالي للإنتاج ، ونتيجة ذلك ، قدمته في وصف مختصر فيما سبق ، أثناء تناول نظام المصنع . إن الآلة تدخل كل النواحي ، وبالتالي فإن آخر بقايا استقلال العامل قد تحطمت . إن العائلة تتحلل من كل النواحي . بتشغيل الزوجة والأبناء ، أو ترتد بطرد الزوج من العمل وجعله يعتمد عليهم في لقمة عيشه ، وفي كل مكان ، تضاف الآلة التي لا مفر منها ، تسلط الرأسمالى الكبير على المهنة وعلى عمالها معها . إن مركز رأس المال توسع الخطن قدما دون عتبة ، ويحدث كل يوم تقسيم المجتمع إلى رأسماليين كبار وعمال لا يملكون ، ويتقدم النمو الصناعى للأمم بخطى عملاقة نحو أزمة لا مفر منها .

لقد أوضحت فيما سبق ، أن قوة رأس المال فى الصناعات اليدوية ، وتقسيم العمل أيضاً فى بعض الحالات . قد أنتج نفس النتائج ، سحق أصحاب الحرف الصغار ووضع الرأسماليين الكبار والعمال الذين لا يملكون فى مكانهم . أما بالنسبة للحر فيين ، فهناك التقليل ليقال ، حيث أن كل ماله علاقة بهم قد وجد مكانه فيما سبق عندما كانت تناقش حالة البروليتاريا بشكل عام . لم يحدث هنا غير تخير طفيف فى طبيعة العمل وتأثيره على الصحة منذ بداية الحركة الصناعية . إلا أن الإتصال الدائم بعمال المصانع ، وضغط كبار الرأسماليين والذي يمكن الإحساس به أكثر بكثير من ضغط المستخدم الصغير ، والذي ما يزال يجرى تعامل صديقه ، معه فى صورة علاقة شخصية على وجه التقريب ، وتأثيرات الحياة فى المدن ، وهبوط الأجور ، قد جعلت من كل الحرفيين تقريباً مشاركين نشطين فى حركات العمل . إننا سنتمول المزيد عن هذه النقطة عما قريب ، وفى تلك الأثناء فإننا سنتناول قسماً من عمال لندن يستحق إنتباهنا بسبب الهمجية الشاذة التى يستغلهم بها جشع البورجوازيين إلى المال ، وأعنى بهذا القسم صانعات الملابس والنساء الخائبات .

إنها حقيقة غريبة ، إن إنتاج هذه الحاجيات بالتحديد ، وهى التى فى خدمة  
 زينة سيدات البورجوازية ، تطوى على أشد النتائج المحزنة على صحة العمال ، لقد  
 رأينا ذلك آنفاً فى صانعى الدانتلا ، ونأتى الآن إلى مؤسسات صناعة الملابس  
 فى لندن ، لنقدم مزيداً من الأدلة والبراهين . إنهم يشغلون حشداً من الفتيات  
 الصغيرات - يقال أن عددهن جميعاً ١٥٠٠٠ واحدة - إنهن ينمن ويأكلن عند  
 محال العمل ، يأتين عادة من الريف ، وهن بذلك عبيد لمستخدميهم بشكل مطلق .  
 إن ساعات العمل ، خلال موسم « الموضة » ، والذي يستمر حوالى أربعة شهور ،  
 هى خمسة عشر ساعة تمتد إلى ثمانية عشر ساعة يومياً فى حالات الضغط الشديد ،  
 إن ذلك يحدث حتى فى أفضل المؤسسات . إلا أن العمل فى أغلب الحوانيت  
 يستمر فى تلك الأوقات دون نظام محدد ، حتى أن الفتيات لا يحصلن أبداً على  
 أكثر من ست ساعات فى الأربع وعشرين ساعة ، للراحة والنوم ، ولا يزيد ذلك  
 الوقت فى غالب الأحوال عن ثلاث أو أربع ساعات . وأحياناً لا يزيد فى الحقيقة  
 عن ساعتين . إنهن يعملن من تسعة عشر إلى عشرين ساعة إن لم يكن الليل بطوله ،  
 كما يحدث فى الغالب ! إن الحد النهائى الوحيد لعملهن هو العجز البدنى المطلق من  
 إمساك الإبرة دقيقة أخرى . لقد حدثت حالات تخلع فيها هاتى المخلوقات ، التى  
 لا حول لها ، ملابسها طوال تسعة أيام وليالى متتالية ، لم يكن فى وسعهن الراحة  
 غير لحظة هنا أو هناك ، فوق مرتبه ، حيث كان يقدم الطعام لهن جاهز التقطيع  
 حتى لا يحتاج إلا إلى أقل وقت ممكن لا ابتلاءه . وفى إيجاز ، يحتفظ بتلك الفتيات  
 البائسات بسوط معنوى يمسك به سائق العبيد الحديث . إنه التهديد بالضرب ،  
 يحتفظ بهن فى مثل هذا الكدح الطويل الذى لا ينتطع ، والذي لا يستطيع  
 احتمال أى رجل قوى ، فما بالنا بالفتاة النحيلة التى يتراوح عمرها من الرابعة عشر  
 إلى العشرين . وهى دون الرجل بكثير . يضاف إلى ذلك ، أن هواء حجرة العمل  
 وأماكن النوم الرديئة ، والوضع المنحنى ، والطعام السيء عسر الهضم فى غالب  
 الأحوال ، وفوق كل تلك الأسباب مجتمعة ، ساعات العمل الطويلة المرتبطة  
 بالحرمان الكلى من الهواء الطلق تقريبا ، تسبب فى أشد النتائج المحزنة على صحة  
 الفتيات . ويبدأ الضعف والإنهاك والنحول وفقدان الشهية وآلام الأكتاف  
 والأرادف والصداع خاصة ، فى سرعة شديدة ، ثم تتبع ذلك إنحناءات العمود  
 الفقري والأكتاف المرتفعة المشوهة والنحافة والعيون الدامعة المنفخة والتى



يحسسن فيها بالوخز ، والتي سرعان ما تصبح قصيرة النظر ، والسعال والصدور الضيقة وقصور التنفس ، وكل اضطراب نمو التركيب العضوى للأنثى .

وفى حالات كثيرة تعاني العيون معاناة شديدة إلى حد ينتج العمى الذى لا براء منه . ولكن إن ظل النظر قوياً إلى حد يسمح بأن يكون العمل المتصل ممكناً ، فإن السبل عادة ما ينهى الحياة الحزينة لصانعات القبعات والملابس ، وحتى هؤلاء اللواتى يتركن العمل فى سن مبكرة ، فإنهن يحتفظن بصحة قد أضررت ضرراً دائماً ، وببنيان عظم . وهن عندما يتزوجن فإنهن ينجهن إلى هذا العالم أطفالا ضعافاً ومرضى . لقد انفتحت كل الرجال الذين استجوبهم المندوب بأنه ليس فى الإمكان ابتكار طريقة للحياة محسوبة على نحو أفضل من تلك ، لتدمير الصحة والدفع إلى الموت المبكر .

وتستغل باقى النساء العاملات فى لندن ، بنفس القدر من القسوة وإن كان بشكل غير مباشر إلى حد ما . إن الفتيات اللاتى يعملن فى صناعة المشدات ، إنما يعملن فى حرفة صعبة مرهقة شاقة على الأعين . وأى أجر ينال على هذا العمل ؟ إننى لا أدرى ، وإن كنت أعرف أن الوسيط الذى عليه أن يقدم ضماناً للواد المسلمة ، والذي يقوم بتوزيع العمل بين النساء العاملات بالإبرة ، يحصل على ١ ½ بنس عن كل قطعة ، يقوم هو بخصم ½ بنس على الأقل لحسابه ، وبذا فإن بنساً واحداً على الأكثر سيصل إلى جيب الفتاة عن كل قطعة . إن على الفتيات اللواتى يخطن أربطة العنق أن يقيدن أنفسهن إلى العمل ستة عشر ساعة فى اليوم ، ويتقاضين ٤ شلناً فى الأسبوع \* . إلا أن نصيب صانعات القمصان أسوأ ، إنهن يتقاضين ١ ½ بنساً عن القميص العادى ، وكن فيما سبق ، يتقاضين من ٢ إلى ٣ بنساً ، إلا أنه منذ بدأ مشغل دسانت بانكراس ، والذي يديره مجلس راديكالى من الأوصياء ، فى العمل بسعر ١ ½ بنساً ، فإن النساء الفقيرات فى خارجه ، قد أجبرن على فعل المثل . إن ٦ بنسات تدفع من أجل القمصان الرقيقة الجميلة ، والذي يتم صنع الواحد منها فى يوم عمل واحد داوله ثمانية عشر ساعة . إن الأجر

---

\* أنظر ( ويكلى ديسباتش ) ١٦ مارس ١٨٤٤ .

الأسبوعى لهاته النسوة الحائكات طبقاً لهذا ، وطبقاً لشهادة أطراف عدة منها النسوة العاملات بالإبر والمستخدمين ، يتراوح ما بين ٢ شلناً و ٦ بنسات — و ٣ شلنات ، لأشد أنواع العمل إجهاداً ، والذي يستمر إلى ساعة متأخرة من الليل . إن ما يتوج هذه الهمجية المخزية ، هو حقيقة إلزام دفع هاته النسوة تأميناً مالياً على جزء من المواد التى أأتمن عليها ، وهو الأمر الذى لا يستطيعن فعله بالطبع دون رهن جزء من المواد ( وذلك ما يعرفه المستخدمون جيداً ) وهن يفكرن رهنها بالخسارة ، وأن عجزن عن فك رهن المواد ، فإنهن يقدمن إلى قاضى الصلح كما حدث لإحدى الحائكات فى نوفمبر عام ١٨٤٣ . لقد أغرقت إحدى الفقيرات نفسها فى القنال عام ١٨٤٤ عندما وقعت فى هذا الحرج ، ولم تعرف ماذا تفعل بعد ذلك . وتعيش هاته النسوة عادة فى أشد حالات الضيق فى غرف صغيرة فوق الأسطح ، حيث يكتظظن معاً بالعدد الذى يمكن لمساحة المكان أن تسمح به ، وحيث يكون دفع العمال الحيوانى ، هو الدفع الوحيد المتاح فى فصل الشتاء . هنا يجلسن منحنيات فوق عملهن ، يحكن من الرابعة أو الخامسة صباحاً حتى منتصف الليل ، مدمرين صحتهن فى عام أو اثنين ، ثم ينتهين إلى قبر مبكر دون أن يتطعن الحصول على أفقر ضرورات الحياة فى تلك الأثناء\* فى الوقت الذى تتدحرج فيه عربات البورجوازية ثعلياً انتلأنة أسفلهن ، وربما كان هنالك غندور ما على بعد عشر خطوات ، يشير الرثاء لأنه فقد فى ليلة واحدة فى لعب القمار ، مالا يزيد عما يكسبه منه هن فى عام .

\* \* \*

\* إن «نوماس هود» وهو أكثر المضحكين الأنجليز المعاصرين — موهبة ملء بالمشاعر الإنسانية ، شأنه فى ذلك شأن كل المضحكين ، وإن كان يفقد الطاقة الذهنية . لقد نشر فى مطلع عام ١٨٤٤ قصيدة جميلة اسمها ( أغنية قيص ) ، أسالت دموع التعاطف الذى لا يحدى ، من عيون بنات البورجوازيين . لقد نشرت تلك القصيدة أصلاً فى الـ ( موتش ) ثم دارت فى جولة فى كل الصحف ، حيث كانت المناقشات حول حل النسوة الحائكات تملأ الصحف فى ذلك الوقت ولا أرى ضرورة لاقتباسات جديدة

هذا هو حال البروليتاريا الصناعية الانجليزية ، إننا نجد في كل النواحي وحيثما  
اتجهنا ، الحاجة والمرض دائمين أو مؤقتين، وفساد الآداب النابع من حال العمال،  
في كل المناحي تقويض بطيء . وإن كان أمراً مؤكداً ، وتدمير نهائى للإنسان  
جسدياً وعقلياً . هل هذه الأوضاع التى يمكن أن تدوم ؟ إنه حال لا يمكن أن  
يدوم ولن يدوم . إن العمال غالبية الأمة الكبرى ، لن يصبروا عليه . دعونا  
نرى ماذا يقولون في هذا الصدد .





## الحركات العمالية

يجب الاعتراف ، بأننى حتى لم اثبت تفصيلاً فى غالب الأحوال ، أن العمال الإنجليز لا يستطيعون الإحساس بالسعادة وهم فى وضعهم هذا ، فإن حالهم ليس بالجلال الذى يمكن فيه لرجل أو لطبقة من الرجال ، أن تفكر وتحس وتعيش كما يعيش البشر . ومن ثم فإنه على العمال أن يكافحوا للإغلات من هذا الوضع الذى يقودهم إلى الوحشية ، الأمر الذى لا يمكن القيام به دون الهجوم على مصالح البورجوازية التى تتوقف على إستغلالهم . غير أن البورجوازية تدافع عن مصالحها بكل القوة الموضوعة تحت تصرفها ، بموجب ثروتها وقوة الدولة . إن البورجوازي يصبح عدو العامل الصريح ، بقدر ما يحاول هذا الأخير تغيير الأوضاع الحالية .

يضاف إلى ذلك ، أنهم يجعلون العامل يحس فى كل لحظة بأن البورجوازية تعامله كقطعة من متاع ، كملكيتها الخاصة ، ولهذا السبب ، إن لم يكن لآى سبب آخر ، يجب عليه أن يواجهها كعدو له . لقد بينت بمئات السبل فى الصفحات السابقة ، وكان فى وسعى أن أبين بمئات أخرى ، أنه لا يمكن للعامل فى مجتمعاتنا الحالى ، أن ينقذ رجولته إلا بكراهية البورجوازية والثورة ضدها . كما أن فى وسعه أن يحتج بأشد عواطفه عنفاً ضد استبداد الطبقة الحاكمة . شكراً لتعليمه ، أو بالأحرى لعدم تعليمه ، وغزارة الدم الأيرلندى الحار الذى ينساب فى عروق الطبقة العاملة الإنجليزية . إن العامل الإنجليزي ليس إنجليزياً فى أيامنا تلك ، إنه لا يضع فى حسبانته أن يكون خطاف مال ، مثل جاره الثرى . إنه يمتلك مشاعر متطورة إلى حد كبير ، لقد تغلب تطور عواطفه الجامح ، على بروده الفطرى

الشمالى ، وتحكم فيه . إن تهذيب الإدراك ، والذي قوى إلى حد كبير ، نزعة  
الأنانية عند البورجوازي الإنجليزى الذى جعل الأنانية سمته السائدة ، وركز  
كل قواه العاطفية فى نقطة واحدة هى الشره للبال ، مفتقد عند العامل ، ومن ثم  
فإن عواطفه قوية وعظيمة كتلك التى للأجنبي . لقد أفنيت الجنسية الإنجليزية  
عند العامل .

وحيث أنه لم يترك للعامل مجال واحد يمارس فيه رجولته كما رأينا ، غير  
معارضته لأوضاع حياته كلها ، فإنه من الطبيعى أن يكون فى معارضته هذه  
بالتحديد ، أشد رجولة ونبالة ، وأكثر من يستحق التعاطف معه . ولسوف  
نرى أن كل طاقة العمال ونشاطهم موجه إلى هذه النقطة ، حتى محاولتهم تحصيل  
تعليم عام ترتبط كلها إرتباطاً مباشراً مع هذا . حتماً سيكون لدينا أفعال عنف  
فردية وكذا أعمال وحشية يمكن الكتابة عنها ، إلا أنه يجب أن نضع فى حسابنا  
على الدوام ، أن الحرب الاجتماعية فى إنجلترا تستخدم بشكل صريح . وفى حين أن  
مصلحة البورجوازية هى أن تسوس هذه الحرب بطريقة منافقة ، متخفية تحت  
إسم السلام والبذل فى سبيل الإنسانية أيضاً ، فإن العون الوحيد الذى يقدم للطبقة  
العاملة يتضمن تعرية حقيقة تلك الأوضاع وتحطيم هذا النفاق . إن أشد هجمات  
العمال عنفاً على البورجوازية وخذعها ، إنما هى التعبير الوحيد السافر المكشوف ،  
غير ذلك الذى ترتكبه البورجوازية ضد العمال سرّاً وبصورة مخادعة .

سرعان ما بدأ تمرد العمال بعد أول تلوير صناعى ، ثم مر هذا التمرد عبر عدة  
مراحل . إن بحث أهمية هذه المراحل فى تاريخ الشعب الإنجليزى أمر يتوجب  
على أن أبقيه لحين تناوله منفصلاً ، وفى أثناء ذلك فإننى سأحصر نفسى فى حدود  
الحقائق المجردة ، والتى تميز حال البروليتاريا الإنجليزية .

كانت الجريمة هى أكثر تلك الأشكال تمييزاً وفجاجة ، وأقلها ثمرة . لقد  
عاش العامل فى فقر وعوز ، ورأى الآخرين أفضل منه حالاً . لم يكن واضحاً لعقله ،  
لماذا وهو الذى يفعل للهجتماع أكثر من الغنى الكسول ، يجب أن يعاني فى ظل  
هذه الظروف ، إن العوز قد قهر إحترامه المورث لقدسية الملكية ، فسرق . لقد



رأينا كيف تزايدت الجريمة مع إتساع الصناعة ، كيف أن لعدد المتبوض عليهم سنويا ، علاقة ثابتة مع عدد بالات القطن التي تستهلك سنويا .

وسرعان ما أدرك العمال أن الجريمة لا تحل المشاكل . إن في وسع المجرم أن يحتج ضد نظام المجتمع القائم إحتجاجا فردياً فقط ، إلا أن قوى المجتمع كلها تحمل على كل مجرم ، وتسحقه بسيطرتها الضخمة . يضاف إلى ذلك أن السرقة كانت أكثر أشكال الإحتجاج بدائية . ولهذا السبب ، إن لم يكن لأى سبب غيره ، لم تصبح أبداً وسيلة التعبير العامه للرأى العام العمال ، مهما كانت موافقتهم الصامتة عليها أمراً كبير الإحتمال . إنهم كطبقة قد جامدوا أول ما جامدوا بمعارضتهم للبورجوازية عندما قاوموا إدخال الآلات في البداية الأولى للمرحلة الصناعية . إن المخترعين الأول ، مثل « آركريت » ، وآخرين قد إضطهدوا بهذا الأسلوب ودمرت آلاتهم . وقامت فيما بعد عدة تمردات ضد الآلات ، تكاد أن تتماثل في ملابساتها مع إضطرابات الطباعين في بوهيميا عام ١٨٤٤ ، إذ خربت الآلات ودمرت .

هذا الشكل من المعارضة أيضاً ، تم التخلي عنه ، وإنحصر في مناطق معينة ، ووجه ضرسمة واحدة فقط ، من نظامنا الإجتماعية الحالية . وعندما تحقق الهدف المرحلى ، إنهاكت قوة المجتمع كلها ، بثقلها ، على العمال الأشرار الذين لا يحميمهم شيء ، وأوقع بهم العقاب ، الذى بعث الرضا إلى قلب تلك القوة ، بينما الآلات تدخل دون نقص على الإطلاق . وكان لابد من العثور على شكل آخر للمعارضة .

عند تلك النقطة جاء العون على شكل قانون صدق عليه برلمان القلة الخاصة من المحافظين ، البرلمان القديم غير المقوم . قانون ما كان من الممكن أن يمر فيما بعد من مجلس العموم . لقد أقرت « لائحة الإصلاح » التمايز بين البورجوازية والبروليتاريا بصورة قانونية ، وجعلت البورجوازية هى الطبقة المحاكمة . لقد صدق على هذا القانون عام ١٨٢٤ ، وألغيت كل القوانين ، التى كانت تمنع حتى الآن ، الائتلافات العمالية من أجل أغراض العمل . لقد حصل العمال على حق ، كان من قبل قاصراً على الارستقراطية البورجوازية ، حق الاتحاد الحر . وللحقيقة ، فإن الائتلافات السرية قائمة ، لكنها لم تحقق أبداً نتائج كبيرة . ففي

« جلاسجو » ، وكما يروى « سيمونز » \* ، حدث إضراب عام للنساجين عام ١٨١٢ ، وكان قد أعد له إتحاد سرى . وتكرر الإضراب عام ١٨٢٢ ، وألقى في هذه المناسبة بحامض الكبريتيك في وجه عاملين لم يلتحقا بالاتحاد ، ومن ثم فقد اعتبرهما الأعضاء خائنين لطبقتهم . ولقد فقد العاملان المذان هوجما القدرة على استخدام عينيهمما إثر الإصابة . وكذا الأمر أيضاً بالنسبة لاتحاد عمال المناجم الاسكتلنديين ، الذى كان من القوة بحيث أنه دبر إضراباً عاماً فى عام ١٨١٨ . كانت الاتحادات تطالب أعضائها بأن يؤدوا قسم الإخلاص والسرية . كان لديها قوائم منظمة ، مدخرات ، محاسبين وفروع محلية . إلا أن السرية التى كانت تدار بها كل الأمور قد عرفت تمورها . إلا أن هذه الاتحادات ، من ناحية أخرى ، قد إنتشرت إنتشاراً سريعاً للغاية فى كل إنجلترا . وبلغت حداً كبيراً من القوة عندما حصل العمال على حق الإتحاد الحر فى عام ١٨٢٤ . وتكونت نقابات العمال فى كل فروع الصناعة ، مجاهرة بما تنويه من حماية العامل الفرد ضد إستبداد وإهمال البورجوازية . كانت أهدافها ، تثبيت الأجور ، التعامل مع المستخدمين جملة كتوة ، تنظيم معدل الأجور طبقاً لربح المستخدمين وأن ترفع عندما تسنح الفرصة لذلك ، وأن يحافظ عليها متماثلة فى كل صناعة فى طول البلاد وعرضها . ومن ثم ، فقد حاولوا ترسيخ معيار للأجور مع الرأسماليين ، يتم الإلتزام به عامه ، وأمروا العاملين لدى الأفراد الذين يرفضون قبول هذا المعيار ، بالإضراب وهدفوا إلى أبعد من ذلك حفاظاً على طلب العمالة ، بتقييد عدد الصبيان ، حتى يحافظ على الأجور مرتفعة بواسطة الأدوات والآلات الجديدة ، تقدر المستطاع وفى النهاية ، مساعدة العمال العاطلين ، مالياً . كانت تفعل ذلك مباشرة ، وإما عن طريق بطانة تقرر شرعية حاملها « كرجل فى المجتمع » ، تبيح للعامل التجول من مكان إلى آخر مدعوماً من زملائه العمال ، موجهها إلى أفضل الفرص للعثور على عمل . كانت تلك صعلكة ، والمتجول صعلوك . ولوضع حد لكل ذلك ، فقد تم تعيين رئيس وسكرتير بمرتبات ( حيث كان من المتوقع ألا يقوم أى صاحب مصنع بتشغيل مثل هؤلاء الأشخاص ) ، وتكوين لجنة تقوم بجمع المعونات الأسبوعية ، وتراقب صرفها لأغراض الإتحاد . وعندما ثبت أن ذلك أمر ممكن

---

\* « الصنائع والصناعية » ص ١٣٧ وما يليها .

ومفيد ، فإن النقابات المختلفة للمناطق المنفردة ، اتحدت في اتحاد إئتلافى ( فيدرالى ) وعقدت مؤتمرات مندوبين ، فى أوقات محددة . إن محاولة توحيد عمال فرع واحد على نطاق انجلترا كلها ، فى اتحاد كبير ، قد تمت فى حالات مفردة ، كما تمت عدة محاولات ( لأول مرة فى عام ١٨٣٠ ) لتكوين اتحاد النقابات العامة لكل المملكة المتحدة ، على أن يكون لكل نقابة تنظيمها المستقل . هذه الاتحادات ، على كل حال ، لم تتماسك معاً طويلاً ، بل ولم تكن معروفة فى حينها ، حيث يلزمها إثارة عامة غير عادية ، حتى تصبح مثل هذه الاتحادات الفيدرالية ممكنة ومؤثرة .

كانت الأساليب التى تستخدمها هذه الاتحادات عادة كالتالى : إرسال وفد أو تقديم إلتماس ، إذا رفض واحد أو أكثر من المستخدمين دفع الأجر الذى حددته النقابة ، ( إن العمال ، كما ترى ، يعرفون كيف يقدرّون السلطة المطلقة لسيد المصنع فى ولايته الصغيرة ) ، وإن أثبت ذلك عدم جدواه ، تأمر النقابة العمال بوقف العمل ، وتعود كل الأيدى العاملة إلى منازلها . إن هذا الإضراب ، إما أن يكون جزئياً إذا كان الأمر مع واحد أو عدّة من المستخدمين ، أو عاماً إذا رفض كل المستخدمين فى الصناعة ، أن ينظموا الأجور طبقاً لإقتراحات النقابة . إلى هذا المدى تذهب الوسائل القانونية للنقابة مفترضة أن الإضراب سوف يكون مؤثراً بعد إنتهاء أجل المذكرة القانونية ، وهو أمر لا يحدث دائماً . إلا أن هذه الوسائل القانونية تكون ضعيفه للغاية عندما يكون هنالك عمال خارج النقابة ، أو عندما ينفصل عنها أعضاء بسبب مكسب وتبقى قدمته البورجوازية ، ويمكن لصاحب المصنع ، خاصة فى الإضرابات الجزئية ، أن يضمن فى الحال ، بمجندين من هذا القطيع الأسود ( والمعروفين باسم عصى الفلاكة ) ، وبذا يجعل جهود العمال المتحدّين بلا ثمرة . إن عصى الفلاكة هؤلاء عادة ما يهدّدون ويضربون أو يسىء أعضاء النقابة معاملتهم ، وفى إيجاز ، يلقى الرعب فى قلوبهم بكل السبل ، ثم يأتى التنازى ، ولما كان القانون الدائم للبورجوازية يملك السلطة بين يديه ، فإن قوة النقابة تنحط كل مرة تقريباً بسبب أول عمل غير قانونى ، أول إجراء قضائى ضد أعضائها .

إن تاريخ هذه النقابات إنما هو سلسلة طويلة من هزائم العمال ، تقطعها

إنتصارات قليلة منفصلة . إن كل تلك الجهود ، لا تستطيع بالطبع ، أن تغير القانون الإقتصادي الذي تتحدد الأجور بمقتضاه ، طبقاً للعلاقة بين العرض والطلب في سوق العمالة . ومن ثم تظل النقابات عاجزة في مواجهة كل القوى الكبرى التي تؤثر في تلك العلاقة . إن على النقابة ذاتها في ظل الأزيمة التجارية ، أن تخفض الأجور وإلا تحللت كلية . كما أن النقابة لا تستطيع أن تحدد معدلات الأجور أعلى من تلك التي تصل إليها المنافسة التلقائية بين الرأسماليين وبعضهم البعض ، في الوقت الذي يزيد فيه الطلب على العمالة إلى حد كبير ، إلا أنها تكون قوية عندما تواجه قوة منفردة قليلة الأهمية . كما يقوم المستخدم ، إن لم يتوقع معارضة مجمعة مركزه ، بتخفيض الأجور — لمصلحته الخاصة إلى نقطة أدنى وأدنى ، إن معركة المنافسة التي عليه خوضها ضد زملائه أصحاب المصانع . تضطره حتماً إلى فعل ذلك ، وحينئذ تصل الأجور إلى حدما الأدنى في سرعة . إلا أن تلك المنافسة بين أصحاب المصانع وبعضهم البعض ، تقيد معارضة العمال إلى حد ما ، في ظل المعدل العام للأوضاع .

يعرف صاحب كل مصنع ، أن نتيجة التخفيض الذي لا تبرره الظروف ، والذي يتعرض له منافسوه بالمثل ، ستكون الاضراب ، وهو غالباً ما يضار من الاضراب على نحو مؤكد ، حيث أن رأسماله خاملاً طالما ظل الاضراب قائماً ، كما سيصيب الصداً آلاته . إن قدرته على فرض التخفيض في هذه الحالة ، أمر مشكوك فيه تماماً ، إذ أنه على يقين من أن منافسيه سيتبعونه في حالة نجاحه ، مخفضين سعر السلع المنتجة ، وبالتالي فإنهم سيجردونه من فائدة سياسته . إن النقابات أيضاً ، غالباً ما تحقق زيادة أسرع في الأجور بعد الأزيمة ، على عكس ما يجب حدوثه . حيث أن مصلحة صاحب المصنع هي تعطيل رفع الأجور حتى تضطره المنافسة إلى ذلك . إلا أن العمال يطالبون الآن بزيادة الأجر ، بمجرد أن تتحسن حال السوق ، وهم قادرين على تقديم مطالبهم بحجة صغر إحتياطي العمال الذي تحت تصرف صاحب المصنع في مثل تلك الظروف . إلا أن النقابات لا حول لها ، إن كان الأمر يقتضي مقاومة قوى أكثر أهمية ، قوى لها تأثيرها في سوق العمالة . إذ يدفع الجوع المضربين في مثل تلك الحالات ، إلى إستئناف العمل بأية شروط ، وما تبدأه قلة منهم مرة واحدة ، حتى تتحطم النقابة ، حيث

أن هذه القلة من عصى الفلاسكة ، بالإضافة إلى الإحتياج المدخر من البضائع في السوق يمكنان البورجوازية من التغلب على أسوأ تأثيرات توقف العمل . وسرعان ما تستنفذ مدخرات النقابة ، بسبب الأعداد الكبيرة ممن يطلبون المعونة . ويسحب أصحاب المتاجر ما كانوا يقدمونه من قروض بفائدة كبيرة ، بعد فترة من الوقت . وتضطر الحاجة العامل إلى أن يضع نفسه مرة أخرى تحت نير البورجوازية . إلا أن الاضرابات غالباً ما تنتهي بكارثة على العمال ، لأن أصحاب المصانع يجبرون في سبيل مصالحهم ( والتي دعنا نقول أنها قد غدت مصالحهم فقط ، على ضوء مقاومة العمال ) على تجنب كل التخفيضات التي لا جدوى منها ، بينما يحس العمال بتدني حالهم مع كل تخفيض يفرض عليهم بسبب حالة التجارة ، الأمر الذي يجب أن يحموا أنفسهم في مواجهته ، بقدر ما فيهم من قدرة .

وسيسأل سائل : لماذا إذن ، يضرب العمال في مثل تلك الحالات ، التي تكون فيها عدم جدوى المعايير واضحة بهذا الشكل ؟ إن الأمر ببساطة ، هو أنهم يجب أن يحتجوا ضد كل تخفيض حتى وإن كانت تملية الضرورة ، إذ أنهم كبشر ، مضطرين للإعلان عن أنهم لن يوضعوا في وضع ينحنون فيه للظروف ، بل إنهم كبشر . يجب أن تخضع لهم الظروف الاجتماعية ، حيث أن الصمت من جانبهم ، إنما هو تسليم لهذه الأوضاع الاجتماعية ، وإقرار بحق البورجوازية في إستغلال العمال في الأوقات الطيبة ، وتركهم يموتون جوعاً في الأوقات السيئة . على العمال أن يتمردوا ضد هذا ، طالما لم يفقدوا شعورهم الإنساني . إن إحتجاجهم بهذه الطريقة ، وليس بطريقة أخرى ، إنما يرجع إلى أنهم شعب إنجليزي عمل ، يعبر عن نفسه بالحركة . إنهم ليسوا مثل المنظرين الألمان ، الذين يذهبون إلى النوم فور تسجيل إحتجاجهم كما يجب ، ووضعه في الملف حيث ينام في هدوء كما ينام المحتجون أنفسهم ، أن للمقاومة النشطة للعمال الانجليز تأثيرها في إمساك جشع البورجوازية للمال في حدود معينة ، وتحافظ على معارضة العمال للهيمنة الاجتماعية والسياسية للبورجوازية ، حية ، بينما تفرض الاقرار ، بأن شيئاً أكبر من النقابات العمالية والاضرابات ، مطلوب لتحطيم قوة الطبقة الحاكمة . إلا أن ما يعطى هذه النقابات وتلك الاضرابات الناشئة عنها ، أهميتها الحقيقية ، هي أنها أول محاولة للعمال لمحاربة المنافسة . إنها تتضمن إدراك حقيقة ، أن سيادة البورجوازية إنما تقوم بشكل كلي على منافسة العمال لبعضهم البعض ، أي على



انتقادهم للتماسك . إن النقابات توجه نفسها بالتحديد ، ضد العصب الحيوى للنظام الاجتماعى ، ولذا فإنها خطيرة للغاية على هذا النظام الاجتماعى ، مهما كان هذا التوجه أحادى الجانب ومهما كان ضيق الطريق ، إن العمال لا يستطيعون مهاجمة البورجوازية ومعها كل النظام الاجتماعى القائم ، فى موضع أكثر إيلا ما من هذا الموضع ، إذ لو تحطمت منافسة العمال لبعضهم البعض ، وصمم الجميع على ألا يستغلوا من البورجوازية إلى مدى أبعد من ذلك ، فإن حكم الملكية يكون فى نهايته . إن الأجور تتوقف على علاقة العرض بالطلب ، على حالة سوق العمالة الطارئة ، ويرجع ذلك فى بساطة ، إلى أن العمال قد إرتضوا حتى الآن ، أن يعاملوا كالمتاع ، أن يباعوا ويشترىوا . إن اللحظة التى يصمم فيها العمال على ألا يبيعوا ويشترىوا بعدته ، وأن يلعبوا دور الرجال الذين يمتلكون إرادة — مثلها هم قوة عاملة — عند تقرير قيمة العمالة ، سوف تكون اللحظة التى يكون فيها كل الإقتصاد السياسى القائم الآن ، فى نهايته .

حتماً ، إن القوانين التى تقرر معدل الأجور تصبح سارية المفعول فى المدى الطويل ، إن لم يتخطى العمال خطوة نحو المنافسة فيما بينهم . إلا أنه يجب عليهم تجاوز ، ما لم يكونوا مجدين للتراجع مرة أخرى ، والسماح للمنافسة بأن تتجاوز الظهور فيما بينهم . إنهم ما داموا قد تقدموا إلى هذه المدى مرة ، فإن الضرورة تعرض عليهم أن يسيروا إلى أبعد من ذلك ، أن يمحوا ليس فقط صورة واحدة من صور المنافسة ، بل المنافسة ذاتها كلية ، وهذا ما سوف يصنعون .

إن العمال سيدركون بصورة أكثر وضوحاً ، مع مرور كل يوم ، كيف تؤثر المنافسة عليهم . إنهم يرون بوضوح أكثر من البورجوازي ، أن المنافسة بين الرأسماليين بعضهم البعض ، إنما تضغط على العمال أيضاً بحلب الأزمات التجارية ، وأن هذا النوع من المنافسة أيضاً ، يجب محوه . إنهم سيتمهلون فى القريب ، كيف يتوجب عليهم خوض ذلك أيضاً .

إن كون هذه النقابات تعاون إلى حد كبير ، فى تغذية كراهية العمال المرة ضد الطبقة القابضة على الملكية ، أمر يصعب قوله . وبالتالى ، فإن صدور أعمال قردية عن العمال ، سواء كانت بتواطىء أعضاء قياديين أو عدم تواطئهم ، إنما



يمكن تفسيرها فقط ، بسبب الكراهية التي صنعتها ذروة اليأس ، وبسبب عاطفة وخشية تتغلب على كل الضوابط . إن هجمات حامض الكبريتيك التي ذكرت في الصفحات السابقة ، وسلسلة من هجمات أخرى ، سأسشهد بالعديد منها ، هي من هذا النوع . فقد أطلق الرصاص ، خلال حركة عمالية عنيفة في عام ١٨٣١ ، على الشاب « آشتون » صاحب مصنع في « هايد » قرب « مانشستر » ، ولم يكتشف أى أثر للقاتل . لاشك أن هذا العمل كان عملاً إنتقامياً من جانب العمال . إن الحرائق العمد ، ومحاولات النسف أمر شائع للغاية . لقد تمت يوم الجمعة ٢٩ سبتمبر عام ١٨٤٣ . محاولة نسف ورش « بادجين » لنشر الأخشاب في شارع « هوارد » في « شيفيلد » . كانت الوسيلة المستخدمة هي أنبوبة مسدودة ملئت بالمسحوق ، وكان الضرر جسيماً . وتمت في اليوم التالي محاولة مماثلة في ورش « ابيستون » للسكين والمبرد في « شالزموور » قرب « شيفيلد » ، لقد جعل مستر « ابيستون » من نفسه شخصاً محموقاً باشتراكه الفعال في حركات البورجوازية ، بدفعه أجور منخفضة ، وباقتصاره على تشغيل العمال عصي الفلكة ، وباستغلاله قانون الفقراء لمنفعته الخاصة . لقد كتب خلال أزمة ١٨٤٢ ، بأن هؤلاء العمال الذين يرفضون تخفيض الأجور ، وهؤلاء الأشخاص الذين يمكن أن يجدوا عملاً ، لكنهم لا يشغلوه ، لا يستحقون المعونة بالتالي ، مما أجبرهم على قبول التخفيض . لقد أحدث الانفجار ضرراً بالغاً ، كما أن العمال الذين تصادف ورأوا هذا الانفجار ، قد أسفوا فقط « لأن كل هذا المكان لم يتطاير في الهواء » . وتمت يوم الجمعة ٦ أكتوبر عام ١٨٤٣ محاولة لإشعال النيران في مصنع « اينسورث وكرومبتون » ، في « بولتون » ، ولم ينتج عنها أية خسائر . كانت المحاولة الثالثة أو الرابعة في نفس المصنع خلال فترة زمنية قصيرة . وفي يوم الأربعاء ١٠ يناير ١٨٤٤ عرض مأمور الشرطة في اجتماع مجلس مدينة « شيفيلد » آلة من حديد الزهر ، صنعت بغرض خاص ، لإحداث التفجير ، وقد وجدت مليئة بأربعة أرتال من المسحوق ، وقتيل مفرقات كان قد أشعل ، في ورش مستر « كيتشن » ، « دايرلستريت » ، « شيفيلد » ، إلا أن مفعوله لم يتحقق . وفي يوم الأحد ٢٠ يناير عام ١٨٤٤ وقع انفجار ناتج عن ربطة مسحوق في مصنع « بنتلي وهوايت » لنشر الأخشاب في « بورس » ، في « لانكشاير » ، وقد نجمت عنه خسائر فادحة . وفي يوم الثلاثاء ١ فبراير ١٨٤٤ اشتعلت النيران في ورش « سوهو » للعجلات ، واحترقت الورش كلها .

هناك ست حالات مماثلة لتلك الحالات ، حدثت خلال أربعة شهور ، ولكل حالة من تلك الحالات أساسها الخاص بها ، من مرارة العمال ضد المستخدمين .  
اننى لأجد صعوبة في الحديث ، عن نوع الوضع الاجتماعى الذى تصبح فيه مثل هذه الأمور ممكنة . إن هذه الحقائق لبرهان كاف ، على أن الحرب الاجتماعية في إنجلترا ، حتى في سنوات العمل الجيد مثل عام ١٨٤٣ « هى حرب معلنة ومستمرة بطريقة صريحة ، في الوقت الذى ما زالت فيه البورجوازية الانجليزية لا تتوقف لتمن التفكير ! . إلا أن الحادثة التى أحدثت دويماً أكثر من غيرها ، إنما هى حادثة قتلة « جلاسجو » المأجورين \* ، والتى قدمت أمام محكمة الجنايات العليا من ٣ إلى ١١ يناير عام ١٨٣٨ . ويظهر من المحاكمة أن اتحاد غزالى القطن والذى وجد هنا واستمر منذ عام ١٨١٦ ، كان يمتلك قوة وتنظيماً نادر الوجود . كان الأعضاء ملتزمين بقسم أن يلتزموا بقرار الأغلبية ، وكان لديهم في كل اعتصاب عمالى ، لجنة سرية غير معروفة لجمهرة الأعضاء ، لجنة تتحكم تحكماً مطلقاً في المدخرات المالية . ولقد حددت تلك اللجنة سعراً لرأس كل من عصى الفلكة ، وأصحاب المصانع الممقوتين ، وللحرائق العمدة في المصانع . وبناء على ذلك ، فقد أشعلت النار في مصنع كانت تعمل به إناث من هاته العصى ، بدلا من الرجال في عملية الغزل . لقد أغتيلت مسز « م. فيرسون » ، أم واحدة من هاته الفتيات ، وأرسل القاتلان إلى أمريكا على نفقة الاتحاد . وفي فترة مبكرة من عام ١٨٢٠ أطلق الرصاص على واحدة من عصى الفلكة . تدعى « م كوارى » فخرحت ، وقد حصل الفاعل على عشرين جنينها مقابل فعلته . وفيما بعد أطلق الرصاص على من يدعى « جراهام » وتسلم الفاعل عشرين جنينها ، إلا أن أمره انكشف ، ونفى مدى الحياة . وأخيراً وقعت في مايو عام ١٨٣٧ ، اضطرابات نتيجة اعتصاب عمال مصانع « أوتباتك » و « مايل إند » ، والتى أودى فيها ستة من عصى الفلكة تقريباً . واستمرت الاضطرابات حتى يوليو من نفس العام ، واعتدى على واحد من عصى الفلكة يدعى « سميث » إلى حد الموت . والآن قبض على اللجنة ، وبدأ التحقيق معها ووجد أن الأعضاء القياديين مدانين بالاشتراك في المؤامرة على عصى الفلكة

---

\* أخذوا هذا الاسم عن قبيلة الهند الشرقية ، والتى كانت حرفة الوحيدة هى قتل كل أجنبى يقع في يديها .

وإذائهم ، وإشعال الحرائق العمدة في مصنع «جيمس وفرانسيس وود» ، فنفوا لمدة سبع سنوات . ماذا يقول مواطنونا الألمان الطيبون عن هذه القصة ؟ \*

إن الطبقة القابضة على الملكية وخاصة القسم الصناعي منها ؛ والذي له اتصال مباشر بالعمال ؛ يندد أعنف التنديد بالنقابات ؛ ويحاول دوماً إثبات عدم جدواها للعمال على أسس إقتصادية سليمة ، لكن حيث أن هذا السبب بالذات خاطئ جزئياً ، وبسبب فهم العمال ، فإنه لا تأثير البتة له عليهم . إن حماس البورجوازية بالذات ، يوضح أنها ليست منزهة عن الغرض بخصوص هذه المسألة ، إذ فضلاً عن الخسارة المباشرة التي يتضمنها اعتصاب العمال فإن وضع المسألة هو أنه مهما كان ذلك الذي يدخل جيوب أصحاب المصانع ، فإنه ناتج عن ضرورة غير تلك التي للعمال . إذ حتى لو لم يعرف العمال أن النقابات تتمسك بالتفوق على ساداتهم في قضية تخفيض الأجور ، على الأقل بمعيار ما ، بعملية منع ما ، فإنهم سيقفون إلى جوارها ، وذلك في بساطة ، للإضرار بأعدائهم أصحاب المصانع . إن الإضرار بفريق في الحرب ، هو كسب للفريق الآخر ، وحيث أن العمال في حالة حرب ، في مواجهة مستخدميه ، فإنهم لا يفعلون غير ما يفعله الصولة الكبار عندما ينغمسون في مشاجرة ما .

ويقف صديقنا دكنور «أور» ، أشد أعداء النقابات شراسة ؛ خلف كل البورجوازيين الآخرين . إنه يرغب ويزيد على « المحاكم السرية » لغزالي القطن ؛ أقوى قطاع من العمال . تلك المحاكم التي تتباهى بقدرتها على شل كل عاق من

---

\* « أي نوع من العدالة الوحشية يمكن أن يكون كامناً في قلوب هؤلاء الرجال ، يحفزهم ، وقد بيتوا النية ، في اجتماعات سرية ، على إدانة أخيهام العامل ، كإرب من طبقته وقضية طبقته ، وأن يموت ميتة الخائن الهارب ، وأن يمدم بطريقة سرية ، بعد أن حكم عليه غيابياً دون قاضي على أو جلاد » كفرسان الفهمجريت والمحكمة السرية « التي كانت لديكم ، لأنها تمت فجأة في هذا الثوب القريب ، فجأة تهب مرة أخرى أمام العين الذاهلة ، لأنهم لا يرتدون الآن قمصاناً مدرعة ، لسكن سترات من قماش قطي وبري ، انهم لا يجتمعون إلا في غابات » وستفاليا . ولكن في دروب الإعدام الممهدة في « جلاسجو » ! إن هذا المزاج لا بد وأن يكون سما واسع الانتشار بين الكثيرين ، حتى عندما يتخذ في ذروه سوءه ، مثل هذه الصورة بين القلة . — « كارايل » ، « الميثاقية » ص ٤٠ .

أصحاب المصانع\* ، وبذا يجلبون الخراب للرجل الذي أعطاهم عملا مربحا لسنوات عدة ، . إنه يتحدث عن زمان\*\*\* ، كان كل الأعضاء المتمردين والأدنى مكانة يستعبدون كل رأس حاذق مخترع وكل قلب يدعم الصناعة ، . من المؤسف أن العمال الإنجليز لن يتركوا أدعائك الكاذب وأسطورتك تقودهم إلى الإستكانة بسهولة ، كما فعل عامة الرومان ، أنت يا « مينينيوس أجرييا (١٧) » ، الحديث . وهو يروى في النهاية ما يلي : حدث في وقت من الأوقات أن أساء الغزالون الذين يعملون على آلة الغزل الخشن ، استخدام قوتهم إلى مدى أبعد من كل احتمال . إن ما يحصلون عليه من أجور عالية ، قد أدى إلى الزهو في كثير من الأحوال ، ووفر لهم مدخرات تدعم المتمردين خلال الإضرابات التي زاروا بها عددا من أصحاب المصانع واحدا بعد الآخر ، بطريقة تعسفية للغاية ، بدلا من أن توظف فيهم تلك الأجور الشعور بالعرفان نحو أصحاب المصانع ، وتقودهم إلى تحسين ثقافتهم ( في دراسة للعلوم التي لا ضرر منها والتي تفيد البورجوازية بالتأكيد ) . لقد حدث أثناء واحد من تلك الإضرابات الكئيبة في « هايد » ، « دو كينفيلد » ، والضاحية المحيطة بها ، أن توجه أصحاب مصانع المنطقة ، وهم يحسون القلق ، مخافة أن يزيحهم الفرنسيون والبلجيكيون والأمريكيون من السوق ، إلى مصانع « شارب » ، روبرتس وشركاهم ، للآلات ، والتسوا من مستر « شارب » ، أن يوجه مهارته العقلية في الاختراع ، نحو آلة غزل أوتوماتيكية ، يمكن أن « تحرر الصنعة من العبودية الخائفة والدمار الوشيك»\*\*\*

« لقد انتج في غضون أشهر قليلة آلة تزخر ، بصورة واضحة ، ويفكر وإحساس وحضافة العامل المحنك — آلة قدمت وهي ماتزال في طفولتها ، مبدأ جديدا في التنظيم ، وأبدت استعدادها . في حالة نضجها ، للقيام بوظائف غزال تام الإعداد . وهكذا فإن ( الرجل الحديدي ) ، كما سماها العمال عن حق ، إنطلق من أيدي رجلنا « بروميثيوس » الحديث بناء على دعوة « مينيرفا » — ليؤكد

\* دكتور « أور » « فلسفة الصناعات » ص ٤٠ .

\*\* نفس المصدر ص ٢٨٢ .

\*\*\* نفس المصدر ص ٣٦٧ .

هيمنة بريطانيا العظمى على المهارة الفنية . إن أخبار هذه المأجزة « الهرقلية » قد نشر الرعب عبر النخبة ، لقد صرعت « هيدرا » الشغب والفوضى ، حتى قيل أن ترك مهدها بوقت طويل ، بل وحتى قبل أن تتكلم ، \* .

ويذهب « أور » أبعد من ذلك ، ليبرهن على أن اختراع الآلة التي تلعب أربعة أو خمسة ألوان دفعة واحدة ، إنما كان نتيجة إضرابات حدثت بين طباع البغته . أن تمرد العاملين في تسوية خيوط الغزل في الأنوال الآلية لمصانع النسيج ، قد أثار مسألة آلة جديدة متقنة لتسوية سداة النسيج ، كما يذكر الكثير من الحالات الأخرى المماثلة . ويجهد « أور » نفسه كثيراً قبل هذا بصفحات قليلة ، ليبرهن بالتفصيل ، على أن الآلات مفيدة للعمال ! إلا أن « أور » ليس الوحيد في ذلك المضمار . إن مستر « آشورث » وآخرين عديدين ، لا يتركون في « تقرير المصنع » فرصة إلا وعبروا فيها عن سخطهم على النقابات . إن هؤلاء البورجوازيين الحكماء ، مثل بعض الحكومات المعينة ، يرجعون كل حركة لا يفهمونها إلى تأثير المهيجين ذوي النية السيئة ، المضللين ، الخونة والبهلاء والمندفعين والشباب غير المتزن . إنهم يعلنون أن عملاء الذين تدفع لهم النقابات ، لهم مصلحة في أعمال الإثارة والتفجيع ، لأنهم يعيشون عليها . وكأن الحاجة إلى هذا الدفع لم تكن مفروضة عليهم من قبل البورجوازية ، التي لن تعطى لمثل هؤلاء الرجال أي عمل ! إن تعدد هذه الإضرابات بصورة لا يمكن تصديقها ، إنما يثبت أفضل من كل شيء ، إلى أي مدى قد نشبت الحرب الاجتماعية في طول إنجلترا وعرضها . حتى لا يمر أسبوع ، بل بالكاد يوم ، دون أن يقع إضراب في اتجاه ما ، مرة ضد التخفيض ، ثم ضد رفض معدل الأجور ، ومرة أخرى بسبب تشغيل عصي الفلكة أو استمرار سوء المعاملة ، وأحياناً ضد الآلات الجديدة أو لمائة سبب آخر . إن هذه الإضرابات تبدأ كمنافشات ، تصل أحياناً إلى صراعات خطيرة . حقاً إنها لا تحسم شيئاً ، إلا أنها أقوى دليل على أن المعركة الحاسمة بين البورجوازية والبروليتاريا تقترب . إنها المدرسة العسكرية التي يعد العمال فيها أنفسهم للصراع الكبير الذي لا يمكن تجنبه . إنها إعلان من فروع مفردة في الصناعة بالإلتحاق بالحركة العمالية أيضاً . إن فحص ودراسة ملف جريدة « نورث



ستار ، — وهي الصحيفة الوحيدة التي تكتب عن كل حركات البروليتاريا — خلال عام ، يوضح أن كل بروليتارى الصناعة فى المدن والريف قد اتحدوا فى اتحادات ، وأنهم قد احتجوا من وقت لآخر ضد سيادة البورجوازية ، باستخدام أشكال من الإضراب العام . إن النتمابات ، مثلها مثل مدارس الحرب ، ليست فريدة . لقد نمت فيها الشجاعة التى اختص بها الإنجليز . يقال فى القارة ، أن الإنجليز وخاصة العمال جبناء ، إنهم لا يستطيعون الاستمرار بالشورى ، لأنهم على خلاف الفرنسيين ، لا يشعرون هنا وهناك ، لأنهم بوضوح ، يقبلون النظام البورجوازي فى هدوء . إن هذا خطأ تام . إن الإنجليز لا يضارعهم أحد فى شجاعتهم ، إنهم متبرمين مثل الفرنسيين تماما ، إلا أنهم يحاربون بطريقة مختلفة . إن الفرنسيين ، الذين هم بطبيعتهم سياسيين ، يناضلون ضد آثام المجتمع بأسلحة سياسية ، أما الإنجليز ، والذين قامت السياسة لديهم كموضوع مصلحة فقط ، مصلحة المجتمع البورجوازي وحده ، فقد حاربوا ضد البورجوازية مباشرة وليس ضد الحكومة ، وفى الوقت الحالى ، لا يمكن القيام بهذا إلا بأسلوب سلمى . إن ركود العمل والعوز الناجم عنه قد أوجد الثورة لمصلحة الجمهورية فى «ليون» عام ١٨٣٤ : ولقد أثار سبب مماثل فى «مانشستر» عام ١٨٤٢ ، إعتصاب عمالى عام ، من أجل ميثاق الحقوق ، ومن أجل زيادة الأجور . إن الشجاعة المملوكة لاعتصاب العمل ، إنها فى الحقيقة شجاعة أعلى بكثير ، وأجسر بكثير ، وتحتاج إلى تصميم أشد ، من خروج ما على السلطة القائمة . إن هذا الأمر يوضح نفسه بنفسه . إنه ، فى الحقيقة ، ليس بالأمر تنافه لعامل يعرف العوز من تجربة ، أن يواجهه هو وزوجته وأطفاله ، وأن يواجه الجوع والشتاء معاً لشهور ، ويقف خلال ذلك كله ، صلباً لا يهتز . ما هو الموت ، ما هى المكاراة التى تنتظر الثائر الفرنسى ، إن غورنت بالموت جوعاً بالتدريج ، بالمنظر اليومي لعائلة تموت جوعاً ، باليقين من إنتقام البورجوازية مستقبلاً ؟ إن العامل الإنجليزى يختار كل ذلك ، مفضلاً أياه عن الخضوع لنير الطبقة الممسكة بالملكىة . إننا سنلتقى فيما بعد ، بمثال آخر من أمثلة عناد الرجال هذا ، وشجاعتهم التى لا تقهر ، هؤلاء الذين لا يخضعون للقوة ، إلا عندما تغدو المقاومة بلا هدف ولا معنى ، إن العامل الإنجليزى ، يرمى بالتحديد ، فى ظل تلك المباشرة وهذا التصميم المتين الذى يمر كل يوم بمئات الاختبارات ، ذلك الجانب من شخصيته



الذى يفرض أكبر قدر من الاحترام . إن الرجال الذين يكابدون كثيراً على هذا النحو ، من أجل ثنى بورجوازي واحد ، سيكونون قادرين على تحطيم البورجوازية كلها .

إلا أن العامل الإنجليزي قد يرهن ، إلى جانب ذلك ، على شجاعته مراراً كافية . إن كون إعتصاب العمال في عام ١٨٤٢ ، لم يحقق مزيداً من النتائج ، إنما يرجع إلى حقيقة أن البورجوازية قد أجبرت الرجال عليه ، وجزئياً إلى أنهم لم يكونوا واضحين أو متحدين حول الغرض منه . لكنهم أظهروا ، إلى جانب ذلك ، شجاعة كافية في مرات عديدة ، عندما كانت المسألة المطروحة ، مسألة إجتماعية خاصة . إننى لن أتناول هنا تمرد « ولش » عام ١٨٢٩ ، فقد نشبت في مايو من عام ١٨٤٣ معركة كاملة في « مانشستر » أثناء إقامتى هناك . لقد قامت شركة بولينج وهنفرى ، للقرميد بزيادة حجم القرميد المنتج دون أن تزيد الأجور . وأضرب العمال الذين رفضت مطالبهم بزيادة الأجور ، وأعلنت نقابة صانعى القرميد الحرب على الشركة . ونجحت الشركة في تلك الأثناء ، وبعد صعوبة كبيرة ، فى توفير الأيدي العاملة من المناطق المجاورة ، ومن العمال عصى الفلانة ، والذين استخدم الإرهاب معهم فى البداية ، واستخدم أصحاب الشركة اثنتى عشر رجلاً لحراسة الساحة ، كانوا كلهم من الجنود السابقين ورجال الشرطة المسلحين بالبنادق . وعندما أثبت الإرهاب أنه غير مجد ، إقتحمت جمهرة من صانعى القرميد فى أحد الأمسيات فى الساعة العاشرة ، ساحة القرميد ، واتى تقع على وجه التقريب على بعد مائة خطوة من معسكر لجنود المشاة ، لقد تقدموا فى نظام عسكري وقد تسلحت صفوفهم الأولى بالبنادق \* ، وشقوا طريقهم إلى الداخل ، مطلقين الرصاص على العمال بمجرد أن رأوهم ، ثم داسوا القرميد المنشور كى يحف ، وهدموا صفوف القرميد الذى جف بالفعل ، مقوضين كل شىء فى طريقهم ، ثم حملوا على واحد من الابنية ، حيث دمروا الأثاث ، وأساءوا معاملة زوجة المشرف الذى كان يعيش هناك . وكان الحراس فى تلك الأثناء قد احتموا خلف سياج ، حيث يمكنهم أن يطلقوا النار وهم آمنين دون أن يعيقهم عائق . وكان

---

\* عند فاصلة « كروس لين » و« ريجينت رود » أنظر خريطة ( مانشستر ) ( ملحوظة فى الطبعة الألمانية )

المهاجمون يقفون أمام قنينة حرق القرميد ، وهي تلقى بضوئها الساطع عليهم ، مما جعل كل طلقة من أعدائهم تصيب هدفها ، بينما كل طلقة من طلقاتهم تخطئ هدفها ، ومع ذلك ، فقد دام إطلاق النار نصف الساعة ، حتى نفذت الذخيرة ، وتحقق الغرض من الزيارة ألا وهو تقويض كل شيء قابل للإنلاف في الساحة . ثم تقدم العسكر ، وانسحب صانعوا القرميد إلى « إكلس » ، وهي تبعد ثلاثة أميال عن « مانشستر » . وقبل الوصول إلى « إكلس » ، بفترة قصيرة ، تليت قائمة الأسماك ، ونودي على كل رجل طبقاً لرقمه في القسم التابع له ، ثم تفرقوا ، ليصبح سقوطهم ، في أيدي الشرطة التي كانت تتقدم من جميع الجهات ، أمراً مؤكداً . لا بد أن عدد الجرحى كان جسيماً للغاية ، إلا أن الذين أمكن عددهم ، هم أولئك الذين قبض عليهم ، وكان أحد هؤلاء قد تلقى ثلاث رصاصات (واحدة في الفخذ والثانية في سمانة الرجل والثالثة في الكتف) ، ورغم كل ذلك فإنه قد سار على قدميه أكثر من أربعة أميال . لقد أثبت هؤلاء الرجال أيضاً ، أنهم يمتلكون شجاعة ثورية ، وأنهم لا يهربون من الرصاص المنهمر عليهم كالطير . وعندما تجوز جماعة غير مسلحة ، دون أن يكون لأفرادها هدف عام محدد ، من مكان السوق المعزول ، وقد حرس مخارجه بزوج من رجال الشرطة والفرسان ، كما حدث في عام ١٨٤٢ ، فإن هذا الأمر يشبه دون شك ، إفتقاد الشجاعة . إلا أن العكس هو الصحيح ، ذلك أن تلك الجماعة كان من الممكن أن تتحرك حركة محدودة ، لو لم يكن خدام النظام العام ( أي خدام البورجوازية ) موجودين . إن العمال يبدون شجاعة كافية عندما يكون لهم هدف محدد يسعون إليه ؛ كما حدث مثلاً في الهجوم على مصنع « بيرلي » ، والذي كان لا بد من حمايته فيما بعد باستخدام المدفعية .

وفي هذا الصدد ، هنالك كلمة أو إثنين بخصوص القانون في إنجلترا . حقيقة أن القانون مكرس للبورجوازية ، لأنه من تأليفه الخاص ؛ شرع برضاه ، لمصلحته ولحمايته . أنه يعرف ، حتى إن كان هنالك قانون خاص يمكن أن يضر به ، فإن كل النسيج بحمي مصالحه ، وأكثر من ذلك ، فإن قدسية القانون ، وحرمة النظام ، كما أسست بالإرادة النشطة لفريق واحد من المجتمع ، والقبول الشلبي من الفريق الآخر ، إنما تشكل أكبر دعامة لوضعه الاجتماعي . وحيث أن البورجوازية الإنجليزية يجد في قانونه ، كما يجد في إلهه ، صورة طبق الأصل

من ذاته ، فإن هراوة رجل الشرطة ، والتي هي بمقياس معين نبوته الخاص ، تمثل بالنسبة له قوة رائعة للتهديّة . إلا أنها عكس ذلك تماماً بالنسبة للعامل . إن العامل يدرك بصورة جيدة للغاية ، وقد تعلم من خبرته التي تتكرر مراراً ، أن القانون إنما هو عصا أعدتها البورجوازية له ، وأنه أن لم يكن مضطراً للجوء إلى القانون فإنه لا يفعل ذلك أبداً . إن البعض يزعم أن العامل الإنجليزي يخاف الشرطة ، وهذا أمر مسير للسخرية ، إذ أن رجال شرطة «مانشستر» يضربون أسبوعياً ، ولقد تمت في العام الماضي ، محاولة لإقتحام مخفر شرطة كان مؤمناً بأبواب ونوافذ حديدية . إن قوة الشرطة في اعتصاب العمال عام ١٨٤٢ ، تكمن كما قلت ، في افتقاد العمال أنفسهم إلى غرض واضح التحديد .

وحيث أن العمال لا يحترمون القانون ، إلا أنهم بدساسة يذعنون لقوته عندما لا يستطيعون تغييره ، فإنه من الطبيعي تماماً ، أن يقترحوا على الأقل ، إجراء تغييرات به ، وأن يرغبوا في وضع قانون بروليتاري مكان النسيج القانوني للبورجوازية . إن هذا القانون المقترح هو «ميثاق الشعب» ، وهو عمل سياسي تماماً من ناحية الشكل ، ويطالب بأن يقوم مجلس العموم على أسس ديمقراطية . إن «الميثاقية» هي الشكل المتناسك لمعارضتهم للبورجوازية . لقد ظلت معارضة النقابات واعتصابات العمال منفصلة على الدوام : كانت الحرب حرباً منفردة لعمال أو لقطاعات منهم ، ضد بورجوازي فرد . وإن تحدثت الحرب عامة ، فإن ذلك أمر يندر أن يقوم به العمال عن عمد ، وإن حدث وكان مقصوداً ، فإنما يرجع ذلك إلى أن «الميثاقية» كانت هناك في أعماقه . كانت الطبقة تهب كلها «بالميثاقية» ضد البورجوازية ، وتهاجم قبل كل شيء ، القوة السياسية ، المتراس التشريعي الذي تحيط البورجوازية به نفسها . لقد انبثقت «الميثاقية» من «الحزب الديمقراطي» ، الذي نشأ ما بين عام ١٧٨٠ و ١٧٩٠ ، مع البروليتاريا ومن داخلها ، واكتسب قوة خلال الثورة الفرنسية ، وظهر «الحزب الراديكالي» بعد السلام . لقد كان مقر رئاسته حينذاك في «برمينجهام» و «مانشستر» ، ثم في «لندن» فيما بعد ، وانتزع «لائحة الإصلاح من القلة الحاكمة في البرلمان القديم» ، باتحاده مع البورجوازية الليبرالية ، وثبت أكثر فأكثر منذ ذلك الحين ، كحزب صريح للطبقة العاملة في مواجهة البورجوازية . وفي عام ١٨٣٥ ، كتبت لجنة الاتحاد العام للعمال في لندن ، برئاسة «ويليام لوفيت» ، «ميثاق الشعب» ، الذي اشتمل

على النقاط الست التالية : (١) التصويت العام لكل رجل بلغ السن ، صحيح العقل وغير مدان في جريمة ما . (٢) برلمانات سنوية . (٣) مرتبات لأعضاء البرلمان ، لتمكين الرجال الفقراء من الترشيح للانتخابات . (٤) التصويت بالاقتراع السري لمنع الرشوة وإرهاب البورجوازية . (٥) مناطق انتخابية متساوية لضمان تمثيل متساو . (٦) إلغاء صلاحية الملكية العقارية بـ ٣٠٠ جنيه استرلينياً للعضو ، وحتى إن كان هذا الأمر الآن مجرد أمر اسمي فقط ، حتى يصبح كل ناخب صالحاً للانتخاب . إن هذه النقاط الست والتي ترتبط كلها بمجلس العموم ، والتي لا ضرر منها كما تبدو ، لكافية للإطاحة بكل الدستور الانجليزي ، بما فيه الملكية واللوردات . إن ما تسمى بمواد الدستور الملكية والاستقرار والارستقراطية ، يمكنها الحفاظ على نفسها فقط ، لأن البورجوازية مصلحة في استمرار وجودها الصوري ، وهي لا تملك الآن أكثر من هذا الوجود الصوري . ولكن ، إن ساند رأي عام حقيقى مجلس العموم ، وإن واحد مجلس العموم الإرادة ، لا إرادة البورجوازية وحدها ولكن إرادة الأمة كلها ، فإنه سيستوعب السلطة كلها تماماً ، حتى أن الهالة الأخيرة على رأس الملكية والارستقراطية لا بد وأن تسقط . إن العامل الانجليزي لا يحترم أى من الملكية أو اللوردات . أما البورجوازية فإنها تقدم لهم تكريماً شخصياً صورياً ، رغم أنها في الواقع لا تسمح لهم إلا بنفوذ ضئيل . إن الميثاقى الانجليزي ، جمهورى من الناحية السياسية ، رغم أنه نادراً ما يذكر الكلمة أو لا يذكرها على الإطلاق ، بينما يتعاطف مع الأجزاء الجمهورية في كل البلاد ، ويفضل أن يطلق على نفسه اسم ديمقراطى ، إلا أنه أكثر من مجرد جمهورى ، إن ديمقراطيته في بساطة ليست سياسية .

لقد كانت « الميثاقية » منذ البداية في عام ١٨٣٥ حركة بين العمال أساساً ، رغم أنها لم تفصل بعد إنفصالاً حاداً عن لبورجوازية الصغيرة الراديكالية . إن راديكالية العمال قد سارت يداً في يد مع راديكالية البورجوازية ، لقد كان « الميثاق » هو شعار كلا منهما . كانا يعقدان « مؤتمرها القومى » كل عام بشكل مشترك ، حتى يبدو أن وكأنهما حزب واحد . كان الجزء الأدنى من الطبقة الوسطى في ذلك الوقت بالضبط ، في حالة عقلية هائجة مشاكسة ، نتيجة الشعور بخيبة الأمل من « لائحة الإصلاح » وبسبب السنوات التي ركبت فيها الأعمال منذ عام ١٨٣٧ حتى عام ١٨٣٩ ، ونظر هذا الجزء إلى الإثارة « الميثاقية » العاصفة بعين الرضا

التام . لا يوجد في ألمانيا من لديه فكرة عن حدة هذه الإثارة . لقد طلب من الرجال أن يسلحوا أنفسهم ، واستحثوا مراراً على الثورة ، وأعدت الحراب كما حدث في الثورة الفرنسية ، ووقف في عام ١٨٣٨ قسيس من « مائنة الميثوديست الكنيسة » يدعى « ستيفنس » يقول في الرجال المحتشدين في « مانشستر » :

« لستم في حاجة للخوف من قوة الحكومة ، من حراب بنادق الجنود ، من المدفع ، من كل ذلك الموجود تحت تصرف مضطهديكم ، إن لديكم سلاحاً أكثر مضاًء بكثير من كل ذلك . سلاحاً تعجز حراب البنادق والمدفع في مواجهته . إن صبيّاً في العاشرة من عمره لقادر على استعماله بطريقة حسنة . ما عليكم إلا أن تأخذوا زوجاً من أعواد الكبريت وحزمة من القش المغموس في القار ، وسأرى ما تفعل الحكومة ومئات الآلاف من جنودها في مواجهة هذا السلاح ، إن استخدم بحساسة » \* .

لقد عبرت الصفة الاجتماعية « الميثاقية » العمال عن نفسها مبكراً من ذلك العام إن نفس « ستيفنس » هذا يقول في اجتماع ضم ٢٠٠,٠٠٠ في « كيرسال مور » ، وهي الـ « موترساكر » في « مانشستر » .

« إن ( الميثاقية ) أصدقائي ، ليست حركة سياسية ، حيث يكون حصولكم على الاقتراع السري ، هو النقطة الرئيسية . ( الميثاقية ) هي مسألة شوكه وسكين : ( الميثاق ) يعني منزل جيد ، طعام وشراب جيد ، الرفاهية وساعات عمل قصيرة » .

إن الحركات المضادة « لقانون الفقراء » ، والمناصرة « للأنحة الساعات العشر » ، كانت بالفعل وثيقة الصلة « بالميثاقية » . ففي كل الاجتماعات التي عقدت في ذلك الوقت ، كان « أوستلر » من حزب المحافظين نشطاً ، وكانت مشات الإلتماسات لإجراء تحسينات في حالة العمال الاجتماعية ، تتداول مع الإلتماس القومى « لميثاق الشعب » ، الذى تم تبنيه في « برمينجهام » ، واستمرت الإثارة عنيفة عام ١٨٣٩ كما كانت ، وعندما بدأت تتراخى في نهاية العام ، أسرع « يوساى » و « تايلور » و « فورست » إلى الدعوة لإنتفاضات تهب في آن واحد في كل من شمال إنجلترا و « يوركشاير » و « ويلز » . واضطر « فورست » عندما خذلت

---

\* لقد أخذ العمال ، كما رأينا ، هذه النصيحة ، مأخذاً جديداً (ملحوظة في الطبعة الألمانية).



خطة، للجاهرة بخصومات لم يكن قد حان حينها بعد . وسمع هؤلاء الذين في الشمال بفشل خطته في الوقت الذي بدأوا ينسحبون فيه . وفيما بعد ، بعد شهرين في يناير ١٨٤٠ ، وقع الحديد مما يسمى بتنشئ الجاسوسية<sup>(١٨)</sup> في «شيفيلد» و «برادفورد» وفي «يوركشاير» ، وخدم الإضراب بالتدريج . في تلك الأثناء وجهت البورجوازية أنظارها إلى مشروعات أكثر عملية ، أكثر فائدة لها ، أعني «قوانين القمح» . وتشكل «الاتحاد المضاد لقانون القمح» في «مانشستر» ، وكانت النتيجة هي تراخي العلاقة بين البورجوازية الراديكالية والبروليتاريا . إذ سرعان ما أدرك العمال أن إلغاء «قانون القمح» سيعود عليهم بفائدة ضئيلة ، في حين أن هذا الإلغاء يفيد البورجوازية للغاية ، ولذا لم يكن من الممكن كسبهم إلى هذا المشروع . وحلت أزمة ١٨٤٢ ، وعنفت الإثارة مرة أخرى كما كانت في عام ١٨٣٩ . غير أن البورجوازية الصناعية الثرية ؛ والتي كانت تعاني بعنف في ظل هدم الأزمات الخاصة . شاركت في هذه المرة . واتخذت «الرابطة المضادة لقانون القمح» . كما كانت تدعى حينذاك أسلوباً ثورياً صريحاً . واستخدمت صحافتها ومثيروها لغة ثورية سافرة ؛ وكان أحد الأسباب الوجيهة لذلك . هو أن الحزب المحافظ كان في السلطة منذ عام ١٨٤١ . وكما فعل «الميثاقيون» من قبل ؛ طالب هؤلاء القادة البورجوازيين الشعب بالتمرد ؛ ولم يكن العمال الذين عانوا الكثير من الأزمة ساكنين ؛ كما يبرهن على ذلك عام الإلتماس القومي ؛ وما عليه من توقيعات ، بلغ عددها ثلاثة ملايين ونصف توقيع . وفي إيجاز ؛ فإن الحزبين الراديكاليين قد وجدا نفسيهما مرة أخرى . بعد أن كانا قد تباعدا بعض الشيء . وفي ١٥ نوفمبر عام ١٨٤٢ عقد اجتماع بين «الأحرار» و«الميثاقيين» في «مانشستر» وفيه كتب التماس يستعجل إلغاء «قوانين القمح» وتبني «الميثاق» . وفي اليوم التالي تبني الحزبان الإلتماس وإنقضى الربيع والصيف وسط إثارة عنيفة وضيق متزايد . كانت البورجوازية مصممة على المطالبة بإلغاء «قوانين القمح» مستعينة في ذلك بالآزمة وبالعوز الذي سببته وبالإضراب العام . كان «المحافظون» في ذلك الوقت في السلطة . وتخلي البورجوازيون «الأحرار» — نصف تخلي — عن قانون عاداتهم المستقرة . كانوا يرغبون في إحداث ثورة بمساعدة العمال . كان على العمال أن يخرجوا الكسنة من النار حتى ينقذوا البورجوازيين من إحراق أصابعهم وأعيدت الفكرة القديمة عن «شهر عطلة» والإضراب العام ؛ والتي كان



«الميثاقيون» قد بدأوها عام ١٨٣٩ ؛ إلى الحياه لم يكن العمال ؛ على أى حال ؛ هم الذين يرغبون فى إغلاق مصانعهم وإرسال العمال إلى الأبرشيات المحلية الواقعة فى عتقارات الارستقراطية . وبذا يجبرون برلمان « المحافظين » ووزارة « المحافظين » على إلغاء « قوانين القمح » . كان من الطبيعى أن تلى الثورة ما حدث ، إلا أن البورجوازية وقفت فى الخلفية فى أمان . وكان فى وسعها أن تنتظر النتيجة دون أن تعرض نفسها للخطر فى أسوأ الحالات . وفى آخر يوليو بدأت الأعمال فى التحسن ، كان الوقت قد أزف . وحتى لا تضيع الفرصة ، قامت ثلاث شركات فى « ستالى بريدج » بتخفيض الأجور برغم هذا التحسن \* . إننى لأعرف إن كان هذا التصرف قد تم بدافع ذاتى ، أم باتفاق مع أصحاب مصانع آخرين ، وخاصة هؤلاء الذين ينتمون إلى الرابطة . وبعد فترة من الوقت انسحب إثنان منهم ، إلا أن الثالث وهو « ويليام بايل وأخوته » وقف فى صلابة ، وقال للعمال المعترضين . « إن كان ذلك لا يسرهم ، فعليهم أن يذهبوا للعب قليلا » ، واستقبل العمال هذا الرد المتعجرف بالاستهزاء . فتركوا المصانع ، وتظاهروا عبر المدينة يدعون كل زملائهم إلى ترك العمل . وفى ساعات قليلة توقفت خامده كل المصانع ، وسار العمال إلى « مورتون مور » كي يعقدوا إجتماعا . كان ذلك فى ٥ أغسطس ، وفى ٨ أغسطس انتقلوا إلى « أشتون » و « هايد » ، كانوا خمسة آلاف من الأقوياء ، الذين أغلقوا كل المصانع وحنر الفحم ، وعقدوا إجتماعات ، كان السؤال المطروح فيها للنقاش ، ليس بأى حال من الأحوال ، إلغاء « قوانين القمح » ، كما كانت ترغب البورجوازية ، ولكن « أجور يومية عادلة عن عمل يومية عادلة » . وانتقلوا فى ٩ أغسطس إلى « مانشستر » دون أن تقاومهم السلطات ( والى كانت كلها من الأحرار ) ، وأغلقوا المصانع ، وفى ١١ أغسطس كانوا فى « ستورك بورت » حيث واجهوا أول مقاومه بينما كانوا يقتحمون دار تشيغيل الفقراء ابن البورجوازية المفضل . وفى نفس اليوم . كان هنالك إضراب عام وإضطراب فى « بولتون » ، ولم تقاومه السلطات هنا أيضاً . وسرعان ما انتشرت الهبة فى كل المنطقة الصناعية ، وتوقفت كل أنواع العمل باستثناء أعمال الحصاد وإنتاج الخمام . إلا أن العمال المتمردين كانوا هادئين . لقد دفعوا إلى الثورة

---

\* قارن « تقرير الغرف التجارية » فى « مانشستر » و« ليدز » فى نهايه يوليو وبدايه أغسطس .

دون أن يكونوا راغبين فيها . إن أصحاب المصانع ، لم يعارضوا ما حدث خلافاً  
لعماداتهم ، باستثناء محافظ واحد فقط هو « بيرلى » من « مانشستر » . لقد بدأ  
الامر دون أن يكون للعمال هدف واضح أمام أنظارهم ، وهذا السبب قد جعلهم  
يتحدون ، مصممين على ألا يطلق الرصاص عليهم ، لصالح البورجوازية المطالبة  
بالغاء « قانون القمح » . كان البعض من الباقين ، يرى المطالبة بالميثاق ، وأعتقد  
آخرون أن هذا الامر سابق لأوانه ، وطالبوا بمجرد تأمين معدل أجور عام  
١٨٤٠ . وتحطم العصيان كله على هذه النقطة . إن الامر ، لو كان منذ البداية .  
عصياناً عمالياً مقررًا ومقصوداً ، لطلب بالتأكيد بمقصده ، إلا أن هذه الجموع  
التي ساقها سادتها إلى الشوارع ، ضد إرادتها الخاصة ، وبدون غرض محدد ،  
لم يكن في مقدورها أن تفعل شيئاً . وسرعان ما شعرت البورجوازية ، التي لم  
تفعل شيئاً لوضع تحالف ١٥ فبراير موضع التنفيذ . شعرت في تلك الأثناء بأن  
العمال قد إرتأوا ألا يكونوا أدواتها ، وأن سلوكها غير المنطقي الذي تخلت  
بمقتضاه عن قانون موقفها الثابت ، قد أصبح خطر مهدداً . ومن ثم استعادت  
قانون إتجاهها الثابت ، ووضعت نفسها إلى جانب الحكومة ، كما وقفت ضد  
العمال بالمثل .

إنها تؤمن بالتابعين الذين يوثق بهم كالكونستبلات الخصوصيين ( لقد  
شارك التجار الألمان في « مانشستر » في هذه المراسيم ، وساروا عبر المدينة  
بطريقة لا لزوم لها البتة . بسيجارهم في أفواههم وهرواتهم الغليظة في أيديهم ) .  
لقد أعطت الامر بإطلاق النار على الحشد في « بريستون » حتى أن ثورة الشعب  
التي لم يكن لها هدف محدد ، قد وقفت كلها وفي الحال وحها لوجه ، مع كل الطبقة  
الممسكة بالملكية ، وليس فقط مع كل القوى العسكرية الحكومية . وانفض  
العمال الذين لم يكن لهم هدف محدد بالتدريج . وانتهى التمرد دون نتائج سيئة .  
وفيما بعد حاولت البورجوازية المدانة القيام بعمل مخزى تلو آخر . أن تبيض  
نفسها ، بالإعراب عن فزعها من العنف الشعبي ، بلغة لا تتطابق بأى حال من  
الأحوال مع لغتها الثورية عن الهبة ، ملقبة مسؤولية التمرد على المهيجين  
« الميثاقين » . في حين أنها قد فعلت أكثر مما فعلوا هم مجتمعين ، كي  
تثير الهبة ، واستعادت منحاها القديم بتقديس اسم القانون ، دون حياء لا مثيل  
له حقاً . إن « الميثاقين » الذين كانوا جميعاً أبرياء من إثارة هذه الهبة ، والذين

فعلوا ببساطة ما قصدت أن تفعله البورجوازية، قد اتهموا وأدينوا، بينما هربت البورجوازية دون خسائر، وباعت إلى جانب ذلك كل مخزونها من البضائع القديمة خلال فرصة توقف العمل.

كان الانفصال الحاسم للبروليتاريا عن البورجوازية، هو ثمرة هذه الهبة. إذ لم يكف «الميثاقيون» عن تصميمهم في المطالبة «بالميثاق»، بأى ثمن، وحتى وإن كان الثورة. ورفضت البورجوازية، التى أدركت الآن ودفعة واحدة، ذلك الخلل الذى يهدد به أى تغيير عنيف وضعها، رفضت أن تستمع إلى شىء آخر عن القوة الجسدية، واقترحت أن تحقق غرضها بالقوة المعنوية، وكان ذلك شىء آخر غير التهديد بالقوة الجسدية، سواء بشكل مباشر أم غير مباشر، كانت تلك اللحظة واحدة من نقاط الشقاق، التى أزيلت فيما بعد، بتأكيد «الميثاقين»، (وم الذين يمكن تصديقهم على الأقل مثل البورجوازية) بأنهم قد كفوا عن الإلتجاء إلى القوة الجسدية أيضاً. أما نقطة الشقاق الثانية والإساسية، والتى وضعت «الميثاقية» فى دائرة ضوء لا تشوبه شائبة، فقد كانت إلغاء «قوانين القمع». لقد كان للبورجوازية مصلحة مباشرة فى هذا الأمر، أما البروليتاريا، فلم يكن لها. ومن ثم فقد إنقسم «الميثاقيون» إلى حزبين، إتفق برناجمهما حرياً، وإن كانا مع ذلك، مختلفين إختلافاً كلياً وعاجزين عن الوحدة. ففي مؤتمر «برمينجهام» القومى فى يناير ١٨٤٣، إقترح «ستورج» ممثل البورجوازية الراديكالية حذف إسم «الميثاق» من قوانين «إتحاد الميثاقين»، باعتبار أن هذا الإسم قد إرتبط بذكرىات العنف أثناء التمرد. وبالمناسبة، فإن هذا الإرتباط قد إستمر سنوات دون أن يعترض عليه مستر «ستورج» قبل الآن. ورفض العمال إسقاط الإسم. وعندما هزم «ستورج» فى الإنتخابات بأغلبية الأصوات، أصبح هذا «الكوميكر» الفاضل أميناً فجأة، فانصرف من القاعة، وأسس «إتحاد التصويت الانتخابى التام»، فى إطار البورجوازية الراديكالية. لقد أصبحت ذكرى تغيير إسم «التصويت الانتخابى العام» إلى «التصويت الانتخابى التام» مسألة كريمة للغاية عند البورجوازية «اليقوبية»، أما العمال فقد سخروا منه وساروا فى طريقهم.

منذ تلك اللحظة، غدت «الميثاقية»، وقد تحررت من كل عناصر بورجوازية هى قضية العامل، وسقطت صحف «التام»، وهى «الويكلى ديسباشر» و«الويكلى كرونيكل»، و«إيكسامبشر»... الخ، بالتدريج فى اللهجة الناعمة

لباقى جرائد « الأحرار » . فساندت قضية « الصناعة الحرة » ، وهاجمت «لائحة الساعات العشر» وكل مطالب العمال بنوع خاص وبالتالى فقد تركوا «راديكاليته» ، كل تسقط فى الخلفية . وضمت البورجوازية « الراديكالية » أيديها بأيدي « الأحرار » ضد العمال فى كل صدام « وجعلوا بشكل عام » قضية «قانون القمح» ، والذى كان يعنى بالنسبة للإنجليز قضية « الصناعة الحرة » ، قضيتهم الأساسية . وهم لذلك ، قد سقطوا تحت سيطرة البورجوازية « الميرالية » وأصبحوا الآن يلعبون دورا من أكثر الادوار إثارة للرثاء .

وعلى نقيض ذلك ، ساند العمال « الميثاقيون » كل صراعات البروليتاريا ضد البورجوازية ، بحمية مضاعفة . إن حرية المنافسة قد سببت للعمال ما يكفى من المعاناة كي يكرهونها ، إن حواريتها البورجوازيين ، هم أعدائهم الواضحين . إن العامل لا ينتظر غير الأضرار من الحرية الكاملة للمنافسة . إن المطالب التى تقدم بها حتى الآن هى ، « لائحة الساعات العشر » حماية العمال ضد الرأسماليين ، الأجور الجيدة ، الوضع المؤمن ، إلغاء « قانون الفقراء » الجديد ، كل المسائل التى تنتمى « للميثاقية » ولها نفس أهمية « النقاط الست » ، كانت تتعارض بشكل مباشر والمنافسة الحرة و « الصناعة الحرة » . لا عجب ، إذن ، أن لا يستجيب العمال « للصناعة الحرة » وإلغاء «قوانين القمح» ( وهى حقيقة غير مفهومة لكل البورجوازية الإنجليزية ) إذ بدناهم ، على الأقل لا يبالون بقضية « قانون القمح » ، فإنهم ساءحلمون بعمق شديد ضد المدافعين عنها . إن هذه القضية بالتحديد ، هى النقاط التى تنفصل فيها البروليتاريا عن البورجوازية ، «الميثاقية » عن « الراديكالية » وإدراك البورجوازية عاجز عن استيعاب هذا ، لأن البورجوازية عاجزة عن فهم البروليتاريا .

هنا يكمن الفرق بين ديمقراطيه « الميثاقيين » وكل ديمقراطية بورجوازية سياسية سابقة . إن « الميثاقية » طبيعة إجتماعية أساسية ، إنها حركة طبقية . إن (النقاط الست ) والى تمثل بالنسبة للبورجوازي « الراديكالى » بداية الأمر ونهاية ، والى تعنى فى غايتها القصوى ، الدعوة إلى مزيد من إصلاحات معينة فى الدستور ، إنما تعنى بالنسبة للبروليتاريا مجرد وسائل إلى مزيد من الأهداف . « القوة السياسية سبيلنا ، ولإسعاد الإجتماعية غايتنا » هى الآن الصيغة الواضحة

لصخرة حرب « الميثاقين » . إن قضية الواعظ ( ستيفنس ) عن السكين والشوكة كانت حقيقة ، فقط بالنسبة لجزء من « الميثاقين » ، في عام ١٨٣٨ ، ثم غدت حقيقة بالنسبة لجميعهم في عام ١٨٤٥ . لم يعد هنالك بين « الميثاقين » ، من هو مجرد سياسي فقط ، إذ رغم أن « اشتراكيتهم » ، ضئيلة التطور للغاية ، ورغم أن علاجهم الأساسي للفقر ، قائم حتى الآن على نظام توزيع الأرض حصصا الأمر الذي أبطل بإدخال الصناعة ورغم أنه من الواضح أن إقتراحاتهم لعملية الأساسية ذات طبيعة رجعية إلا أن هذه المعايير مع ذلك ، تتضمن البديل بالذات ، وهو أنه يتوجب عليهم ، إما أن يدعوا لقوة المنافسة مرة أخرى ويرجمون الوضع القديم للأمور ، وإما عليهم هم أنفسهم ، أن يتخلبوا على المنافسة وأن يعلموها . ومن ناحية أخرى ، فإن الوضع الراهن غير المحدد « الميثاقية » ، الانفصال عن الحزب السياسي البحت ، يتضمن ضرورة تطوير وجهها الاجتماعي — وهو سمتها المميزة بالتحديد — تطويراً أكثر مما هو عليه . إن التقدم نحو « الاشتراكية » لا يمكن أن يتوقف ، خاصة عندما توجه الأزمة التالية العمال — بقوة العوز المحض — إلى وسائل علاج إجتماعية بدلا من الوسائل السياسية . هنالك أزمة لابد قادمة ، تلو الحالة الراهنة الناشئة للصناعة والتجارة ، إنها على الأقل ستكون في عام ١٨٤٧ ، ومن المحتمل أن تكون في عام ١٨٤٦ ، إنها أيضا ، أزمة ستتجاوز إلى حد كبير ، في مداها وعنفها ، كل الأزمات السابقة . سيطالب العمال « بميثاقهم » ، وهذا أمر طبيعي ، إلا أنهم سيستعملون في تلك الأثناء . أن يروا بوضوح كثيرا من النقاط التي تتعلق به ، والتي يمكن أن يحققها لهم ، والتي يعرفونها الآن معرفة ضئيلة .

وفي تلك الأثناء ، فإن الإثارة الاشتراكية أيضا تسير قدما . إن « الاشتراكية الإنجليزية » تدخل في حسابنا فقط ، بمقدار ما تؤثر في الطبقة العاملة . إن « الاشتراكيين الإنجليز » يطالبون بالإدخال التدريجي للملكية على المشاع ، في مستعمرات وطنية تضم إثنين أو ثلاثة آلاف شخص ، يقومون بكلا من الزراعة والصناعة ، وهم يتمتعون بحقوق متساوية وتعليم متساو . إنهم يطالبون بتسهيل أكثر للحصول على الطلاق ، بتأسيس حكومة عقلانية ، مع حرية تامة للضمير ومحو للعقاب ، الذي يستبدل بمعاملة المذنب معاملة عقلانية . تلك هي معاييرهم



العملية ، أما عن مبادئهم النظرية ، فهي لا تهمنا هنا . لقد نشأت « الاشتراكية الإنجليزية » مع « أوين » وهو صاحب مصنع ، ولذا فإنها تتخذ من الأساليب ما يتسم بالإحترام نحو البورجوازية والأجحاف الكبير للبروليتاريا ، رغم بلوغها الذروة في المطالبة بمحو الخصومة الطبقيّة بين البورجوازية والبروليتاريا .

إن « الإشتراكيين » مروضين تماما ومسالمين . إنهم يقبلون نظامنا القائم ، سيدنا كما هو ، بقدر ما يذبذبون كل الوسائل الأخرى ، عدا استمالة الرأي العام . ومع ذلك ، فإنهم جامدين ، حتى أن نجاحهم بهذه الطريقة ومبادئهم كما هي مصاغة حالياً ، إنما هو أمر ميثوس منه تماما . إذ بينما يندبون فساد آداب الطبقات الدنيا ، يصابون بالعمى عن العناصر التي تعاون هذا التحلل في نظام المجتمع القديم ، ويرفضون الأقرار بأن الفساد الذي صنعه المصالح الخاصة ورياء الطبقة الممسكة بالملكية ، أكثر بكثير . إنهم لا يعترفون بأى تطور تاريخي ، ويرغبون في وضع الأمة في حالة « الشيوعية على الفور » ، من الليلة الماضية \* ، لا بالمسيرة التي لا مفر منها ، لتطورها السياسي ، إلى النقطة التي يصبح فيها هذا التحول ممكنا وضروريا معا . إنهم يفهمون ، وهذا حق ، لماذا ينقم العامل على البورجوازي ، لكنهم ينظرون إلى هذه الكراهية الطبقيّة على أنها عقيمة . إنها ، رغم كل شيء ، الحافز المعنوي الوحيد الذي يمكن العامل من الاقتراب من هدفه . إنهم يبشرون ، بدلا من ذلك ، بحب إنساني عام ، أكثر عقما بكثير ، بالنسبة لحالة انجلترا الراهنة إنهم يعترفون فقط ، بتطور فسيولوجي ، تطور مجرد للإنسان ، بعيدا عن كل علاقة تربط الإنسان الفرد بالماضي ، بينما كل العالم يستند إلى ذلك الماضي . وبالتالي فإنهم محترقون للغاية ، ميتافيزيقيون للغاية ، ولا ينجزون إلا القليل . إنهم مجندون جزئيا من الطبقة العاملة ، التي لم يكسبوا منها غير جزء صغير للغاية ، يمثل ، على أية حال ، أشد عناصرها تعلما وصلابة . إن « الاشتراكية » بوضعها الراهن لا يمكن أن تكون المعتقد العام للطبقة العاملة ، وعليها أن تنازل وأن تعود للحظة ، إلى وجهة نظر « الميثاقيين » . إلا أن الاشتراكية البروليتارية الحقة ، وقد مرت من خلال « الميثاقية » التي ظهرت من عناصرها البورجوازية ،

---

\* إن باقى الجملة فى النص الألمانى يستمر من هنا كما يلى : « دون الاستمرار فى الاشتغال بالسياسة ، حتى تحقق هدفها ، حيث تتلاشى عند هذه النقطة » . — المباشر .



متخذة الشكل الذى بلغته بالفعل فى عتول كثير من القادة « الاشتراكيين » ، و « الميثاقيين » ، ( والذين يكادون أن يكونوا جميعا إشتراكيين \* ) ، يجب خلال فترة زمنية قصيرة ، أن تلعب دوراً له ثقله ، فى تاريخ تطور الشعب الإنجليزى . إن أسس « الاشتراكية الإنجليزية » ، والتي هى منسوبة أكثر بكثير من تلك التى للفرنسيين ، ومتخلفة عنها فى التطور النظرى ، يجب أن تراجع للحظة إلى وجهة النظر الفرنسية حتى تتجاوزها فيما بعد . وفى تلك الأثناء ، فإن الفرنسيين أيضا سيتطورون إلى أبعد من ذلك . إن « الاشتراكية الإنجليزية » ، تقدم أوضح تعبير عن الغياب السائد للدين بين العمال ، تعبير صريح حتماً إلى حد أن كتلة العمال ، رغم كونها غير متدينة دون وعى منها ومن الناحية العملية فقط ، كانت تراجع أمامه . إلا أن الضرورة هنا أيضاً ، ستضطر العمال إلى التخلي عن بقايا معتقد سيديكون بوضوح أكثر فأكثر أنه لا يخدم فى شيء غير أن يجعلهم ضحفاً مستسلمين لقدرهم مطيعين أوفياء للطبقة مصاصى الدماء المسكبة بالملكية .

ومن ثم ، فإنه من الواضح أن حركة العمال مقسمة إلى جزأين ، « الميثاقيين » ، و « الاشتراكيين » . « الميثاقيون » هم الأكثر تخلفاً من الناحية النظرية ، والأقل تطوراً ، إلا أنهم بروليتاريون أصلاً بشكل عام ، إنهم يمثلو طبقتهم . و « الاشتراكيون » أكثر منهم بعد نظر ، يقترحون العلاجات العملية ضد البلاء ، إلا أنهم وقد نبهوا أصلاً من البورجوازية ، غير قادرين على الاندماج تماماً مع الطبقة العاملة لهذا السبب . إن وحدة « الاشتراكية » مع « الميثاقية » ، نسخة « الشيوعية الفرنسية على الطريقة الإنجليزية » ، ستكون الخطوة التالية . وهى قد بدأت بالفعل . عند إنجاز ذلك فقط ، ستكون الطبقة العاملة حينئذ هى القائد المثقف الحقيقى لانجلترا . وفى تلك الأثناء سوف يتقدم التطور السياسى والاجتماعى ، وسوف يغذى هذا الحزب الجديد ، هذا التحول الجديد « الميثاقية » .

إن الأجزاء المختلفة من العمال ، غالباً ما تتحد ، وغالباً ما تنفصل . لقد أنشأ « النقابيون » و « الميثاقيون » و « الاشتراكيون » ، بالاعتماد على أنفسهم ، عدداً

---

\* بالطبع ، اشتراكيين بالمعنى العام ، وليس بالمعنى الخاص لالمنقسمين إلى « أوين » . ( ملحوظة فى النسخة الألمانية ) .

من المدارس وحجرات المطالعة لتقدم العلم . إن كل مؤسسة « إشتراكية » ،  
وتكاد كل مؤسسة « ميثاقية » ، أن يكون لديها مثل هذا المكان ، وكذا لديها  
نقابات عديدة أيضاً . هنا يتلقى الصبية تعليمًا بروليتارياً بحسب، خالصاً من كل تأثيرات  
البورجوازية ، ولا توجد ، أو لا تكاد توجد في حجرات المطالعة غير الصحف  
والكتب البروليتارية . إن هذه الأوضاع خطيرة جداً على البورجوازية ، التي  
نجحت في سحب العديد من أمثال هذه المعاهد « معاهد الميكانيكا » (١٩) من التأثيرات  
البروليتارية ، وجعلتها أدواتها ، لبث العلوم النافعة للبورجوازية ، هنا يدرسونهم  
العلوم الطبيعية الآن ، وهي علوم ربما تسحب العمال بعيداً عن معارضة البورجوازية ،  
وهي ربما تضع في أيديهم وسائل تحقيق إختراعات سوف تعود بالمال على  
البورجوازية ، بينما دراية العامل بالعلوم الطبيعية عديمة النفع له تماماً ، « الآن ،  
في الوقت الذي لا يحصل فيه ، أبداً ، في الكثير من الأحوال ، على نظرة من  
« الطبيعة » ، في مدينته الكبيرة ، وهو يعمل كل تلك الساعات الطويلة . هنا  
يبشر بالاقتصاد السياسي ، الذي تعتبر المناغسة الحرة معبراً عنه ، والتي تعنى خلاصته  
ومادته ، بالنسبة للعامل ، أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً أكثر معقولية من إخضاع  
نفسه للهجاعة . التليم كله هنا مروض ، يدعو للاسترخاء والخضوع للسياسات  
الحاكمة والدين ، حتى أنه لا يمثل بالنسبة للعامل ، غير موعظة عن الطاعة التامة  
والسلبية والإذعان لقدره .

إن كتلة العمال بالطبع ، ليس لديها ما يربطها بتلك المعاهد ، وهم يعمدون  
للذهاب إلى حجرات المطالعة البروليتارية ، ومناقشة الأمور التي تهم مصالحهم  
بشكل مباشر ، ومن ثم فإن البورجوازية الراضية عن ذاتها تقول مأثوراتها :  
*Dixi et Salva vi* \* ، ثم تستدير في إزدراء عن الفصل الدراسي الذي يفضل  
الهراء الغاضب للبعاني التضليلية السيئة ، عن مزايا التعليم الراسخ . « إن العمال ،  
على أي حال ، يعرفون قدر التعليم الراسخ ، عندما يستطيعون الحصول عليه غير  
مخلوط برطانة المصالح البورجوازية . إن المحاضرات المتعددة عن الموضوعات  
العلمية والجمالية والاقتصادية ، والتي تقدم خاصة في المعاهد الإشتراكية ، حيث

\* قد نكلمت وأنقذت روحى .

يواظب العمال على حضورها بصورة جيدة للغاية ، تبرهن على ذلك ، اننى كثيرا ما سمعت عمالا ، مما يندران تماشك ستراتهم المصنوعة من القطن الوبرى ، يتحدثون فى موضوعات جيولوجية وفلكية وموضوعات أخرى ، بمعرفة أكثر بكثير من غالبية « المثقفين » البورجوازيين فى ممتلكات « المانيا » . أما كبر المدى الذى نجحت البروليتاريا الإنجليزية فى تحقيقه ، فى مجال التعليم المستقل ، فأمر يمكن أن توضح ، بشكل خاص ، حقيقة أن المنتج من المؤلفات الفلسفية والسياسية والشعرية الحديثة ، والتي تشكل هذه الحقبة ، تكاد قراءتها أن تكون قاصرة على العمال . إن البورجوازي الذى يسهله الظروف الاجتماعية ، والمناخ الذى تشتهل عليها هذه الظروف ، ليرتحش ويدكر إسم الله ويرسم الصليب على نفسه ، أمام أى شىء يمهّد الطريق بالفعل أمام التقدم ، فى حين يفتح البروليتارى عينيه على ذلك الشىء ، ويدرسه بسعادة ونجاح . إن « الاشتراكيين » ، من هذه الزاوية على الخصوص ، قد حتموا المعجزات فى تعليم البروليتاريا . لقد ترجموا للماديين الفرنسيين ، « هيلفييتيوس » ، « هولباك » ، « ديدزوت » . . . إلخ ، ونشروها مع أفضل الأعمال الإنجليزية ، فى طبعات رخيصة . وكذلك نشرت « حياة المسيح » « لستراوس » ، و « الملكية » « لبرودون » . ووجد « شيللى » العبدى والنبي ، « شيللى » ، و « بايرون » بحسبته المتوهجة وهجوه المرير لمجتمعنا القائم ، معظم قرائهم بين البروليتاريا ، فى حين تمتلك البورجوازية طبعات فاقدة الرجولة طبعات أسرية اختصرت طبقا للأخلاق المرائية فى أيامنا تلك . إن حياة أعمال الفيلسوفين العمليين الكبارين « بنتام » و « جودوين » فى الأيام الأخيرة وخاصة « جودوين » ، تكاد أو تكون قاصرة على البروليتاريا . إذ رغم أن « لبنتام » مدرسته داخل البورجوازية « الراديكالية » إلا أن « البروليتاريا والاشتراكيين » وحدهما ، هما اللذان نجحا فى تطوير تعاليمه خطوة إلى الأمام . وشكلت البروليتاريا على هذه الأسس ، مؤلفات تتكون من جرائد وكتيبات ، تتجاوز فى تقدمها كل المؤلفات البورجوازية ، من ناحية قيمتها الجوهرية .

تبقى نقطة واحدة يلزم الالتفات إليها ، وهى أن عمال المصانع ، خاصة عمال منطقة القطن ، هم الذين يكونون نواة الحركة العمالية . إن « لانكشاير » وخاصة « مانشستر » هى بؤرة أكثر النقابات قوة ، إنها مركز « الميثاقية » ، والمكان

التي يوجد به أكبر عدد من « الاشتراكيين » ، إذ كلما اشتدت قبضة نظام  
المصنع على فرع من فروع الصناعة ، كلما زاد اشتراك العمال العاملين في هذا  
الفرع في الحركة العمالية ، واحتدم التعارض بين العمال والرأسماليين ، ووضح  
الضيق العمالي بين العمال . إن سادة « برمينجهام » الصغار ، رغم معاناتهم  
للأزمات ، مازالوا يقفون على أرض تعسة ، هي وسط بين « ميثاقية » البروليتاريا  
( راديكالية ) أصحاب الدكاكين . إلا أن كل العاملين في الصناعة ، بشكل عام ،  
قد كسبهم شكل أو آخر من أشكال مقاومة رأس المال والبورجوازية . إنهم  
جميعاً قد اتحدوا حول نقطة أنهم عمال ، وهو اسم يفخرون به ، وهو الصيغة  
المعتادة للتخاطب في اجتماعات ( الميثاقيين ) . إنه يشكل طبقة منفصلة ، ذات  
مصالح ومبادئ منفصلة ، لها طريقة في النظر إلى الأمور منفصلة ومتناقضة مع  
ذلك التي لأصحاب الملكية . وأنه تكمن في هذه الطبقة ، قوة ومقدرة الأمة  
على التطور .

## البروليتاريا التعدينية

إن إنتاج المواد الخام والوقود اللازم لصناعة ضخمة ، كذلك التي في إنجلترا يحتاج إلى عدد كبير من العمال . إلا أن إنجلترا لا تنتج من كل تلك المواد التي تحتاجها صناعاتها ( باستثناء الصوف ، الذي ينتمي إلى المناطق الزراعية ) غير المعادن : الفلزات والفحم . بينما تمتلك « كورنوال » مناجم غنية بالنحاس والقصدير والزنك والرصاص ، وتنتج « ستافورد شاير » و « ويلز » ومناطق أخرى كميات ضخمة من الحديد ، ويكاد كل شمال وغرب إنجلترا واسكتلندا الوسطى ومناطق معينة من أيرلندا ينتج الفحم بوفرة \* .

\* ان عدد العمال العاملين في مناجم بريطانيا العظمى ، دون أيرلندا ، طبقا لاعداد ١٨٤١ كان كما يلي :

الرجال فوق سن العشرين	الرجال دون سن العشرين	النساء فوق سن العشرين	النساء دون سن العشرين	المجموع
٨٣٤٠٨	٣٢٤٧٥	١١٨٥	١١٦٥	١١٨٢٣٣
٩٨٦٦	٣٤٢٨	٩١٣	١٢٠٠	١٥٤٠٧
٩٤٢٧	١٩٣٢	٤٠	٢٠	١١٤١٩
٧٧٧٣	٢٦٧٩	٤٢٤	٧٣	١٠٩٤٩
٤٦٠٢	١٣٤٩	٦٨	٨٢	٦١٠١
أنواع مختلفة				
٢٤١٢٦	٦٥٩١	٤٧٢	٤٩١	٣١٧١٦
معادن غير معدودة				
١٢٩٢٣٨	٤٨٤٥٤	٣١٠٢	٣٠٣١	١٩٣٨٢٥
الإجمالي				

وحيث أن تشغيل مناجم الفحم والحديد يتم بنفس الناس ، فإن جزءاً من عمال المناجم الذين ينسبون إلى مناجم الفحم ، وجزء كبير ممن ذكروا تحت العنوان الأخير ، يجب أن ينسبوا إلى مناجم الحديد .

ويعمل في مناجم (كورنيلش) حوالى ١٩٠٠٠ رجلا ، و ١١٠٠٠ امرأة وصبي ، البعض فوق الأرض ، والبعض تحت الأرض ، ويكاد يقتصر العمل في المناجم تحت الأرض على الرجال والصبية فوق سن الثانية عشر . ويبدو أن الحالة المادية لهؤلاء العمال طبقا لتقرير « لجنة تشغيل الصبية » محزنة نسبيا ، وكثيرا ما يفاخر العمال الانجليز بعمال مناجمهم الأفوياء الشجعان الذين يتابعون عروق المعدن تحت قاع البحر ذاته . إلا أن نفس التقرير ، « تقرير لجنة تشغيل الصبية » ، يصدر حكما مختلفا ، فيما يخص صحة هؤلاء العمال . إذ يوضح التقرير الذكى للدكتور « بارهام » ، كيف أن إستنشاق جو تحليل المحتوى من الأوكسجين ، مختلط بغبار ودخان المسحوق الناعم ، كذا الجرب السائد في المناجم ، يؤثر تأثيرا خطيرا على الرئتين ، ويسبب اضطرابا في عمل القلب ، ويتمل نشاط أعضاء الجهاز الهضمي ، إن هذا الكدح المرهق ، وخاصة عملية تسليق السلالم صعودا وهبوطا ، والتي يقضى فيها حتى الشباب متين البنيان أكثر من ساعة قبل العمل وبعده ، يسهم إلى حد كبير في إنماء تلك العيوب ، حتى أن الرجال الذين يبدأون هذا العمل في شبابه المبكر ، لا يبلغون أبدا طول قامة إمرأة تعمل فوق سطح الأرض ، إن الكثيرين منهم يموتون صغارا من السبل المستعجل ، كما يموت غالبية عمال المناجم في منتصف العمر من السبل البطيء ، كما أنهم يشيخون قبل الأوان ، ويصبحون غير صالحين للعمل فيما بين سن الخامسة ولثلاثين والخامسة والأربعين ويصاب الكثيرون منهم بالتهابات حادة في الأعضاء التنفسية ، عندما يتعرضون للتخدير المفاجيء في هواء المدخل الدافئ ( بعد تسليق السلم في عرق غزير ) . إلى الريح الباردة فوق سطح الأرض ، وأن تلك الإلتهابات غالبا ما تكون قاتلة . وتقوم الفتيات والصبية بالعمل فوق سطح الأرض ، في تكسير الخام وفرزه ، وهو عمل يوصف بأنه صعب للغاية ، حيث يتم إنجازها في الهواء الطلق .

تتمع مناجم رصاص ( إستون مور ) الواسعة الامتداد ، في شمال إنجلترا ، عند حدود ( تورثوميرلاند ) و ( دورهام ) . وتكاد تتفق التقارير الواردة من تلك المنطقة \* تمام الاتفاق ، مع الواردة من ( كورنوال ) . هنا ، أيضا ،

\* كذلك ورد أيضا في « تقرير لجنة تشغيل الصبية » : تقرير المندوب « ميتشيل » .



شكاوى من إفتقار الأوكسجين ، من كمية الغبار الزائدة عن الحد ، من دخان البارود ، من غاز حامض الكربونيك ومن الكبريت في الجو المحيط بالعمال ، وبالتالي فإن عمال المناجم هنا ، كما هو الحال في « كورنوال » ، قصار القامة ، ويكاد يعانون الجميع ابتداء من سن الثلاثين وحتى آخر العمر من إصابات الصدر ، التي تنتهي إلى السيل ، كما هو الحال دائماً على وجه التقريب ، خاصة إذا مارس هذا العمل باستمرار ، وبذا ينتص متوسط عمر هؤلاء البشر إلى حد كبير . وإذا كان عمال تعدين هذه المنطقة أطول عمرا إلى حد ما عن هؤلاء العاملين في « كورنوال » ، فإنما يرجع ذلك إلى أنهم لا يدخلون المناجم قبل أن يبلغوا سن التاسعة عشر ، في حين أنهم يبدأون العمل في « كورنوال » ، كما رأينا ، في سن الثانية عشر ومع ذلك ، فإن الغالبية هنا أيضاً ، تموت فيما بين سن الأربعين والخمسين ، طبيعياً لما جاء في بيان طبي . إن ٧٩ من عمال المناجم الذين أدرج مرتبهم في السجل العام للمنطقة ، والذين بلغت أعمارهم ٤٥ عاماً في المتوسط ، قد مات منهم ٣٧ عاملاً بالسيل ، ٦ عمال بالربو . إن متوسط طول العمر في المناطق المحيطة ، في ( اليندال ) و ( ستانهوب ) و ( ميدلتون ) هو ٤٩ ، ٤٨ ، ٤٦ على التوالي . وتشكل الميئات الناجمة عن إصابات الصدر ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٥٦ ٪ من العدد الإجمالي . يجب أن يكون واضحاً في الأذهان ، أن كل البيانات تشير فقط إلى عمال المناجم الذين لم يبدأوا العمل إلا بعد سن التاسعة عشر من أعمارهم . دعنا نقارن تلك الأرقام بما يسمى بالجدول السريدي ، وهي قوائم تفصيلية لإحصائيات الوفاة تشتمل على كل سكان السريد ، وهي المسلم بها في إنجلترا ، على أنها المعيار الأكثر صحة والمتاح حتى الآن ، لمتوسط أطوال حياة الطبقة العاملة البريطانية . وطبقاً لتلك القوائم فإن الذكور من البشر ، الذين يعيشون بعد سن التاسعة عشر ، يبلغون متوسطاً من العمر يصل إلى ٥٧ عاماً ، ولكن طبقاً لهذا ، فإن عشرة أعوام من الحياة في المتوسط تسلب من عمال شمال إنجلترا ، بسبب عملهم . ومع ذلك ، فإن الجدول السريدي مقبولة على أنها المعيار لطول حياة العمال ، وبالتالي فإنها توضح متوسط فرص الحياة وقد تأثرت بالظروف غير الملائمة التي تعيشها البروليتاريا ، معيار لطول الحياة أقل من المعيار القياسي . إننا مرة أخرى ، نجد المنازل التي تؤجر مفروشة ، وأماكن المبيت ، والتي اعتدناها هنا في المدن فيما سبق ، وهي في حالة من الإزدحام وإثارة التفرز والفتارة ، تماثل

تلك التي هناك . لقد زار المندوب ( ميتشيل ) ، واحدة من أمثال ثكنات المبيت تلك ، إن طولها يبلغ ١٨ قدماً ، واتساعها ١٣ قدماً ، وهي معدة لاستقبال ٤٢ رجلاً و ١٤ صبية ، أى ما مجموعه ٥٦ شخصاً ، ينام نصفهم فوق النصف الآخر في مراند كملك الموجودة فوق ظهر السفن . إن المندوب ( ميتشيل ) لم يستطع أن يحتمل رائحتها ولا جورها للحظة ، رغم أن أحداً لم يكن قد نام في تلك الزريبة منذ ثلاثة ليالى سابقة على الزيارة . ما حالها إذن خلال ليلة صيف حارة بشاغليها الستة والخمسين ؟ إنها ليست مقدمة سفينة عبيد أمريكية ، إنها مأوى بريطانيين أحرار المولد !

دعونا نعود الآن إلى أكثر فروع التعدين البريطاني أهمية ، إلى مناجم الفحم والحديد ، والتي يتناولها « تقرير لجنة تشغيل الصببية » بشكل عام ، وبكل التفصيل الذى يقتضيه أهمية الموضوع . يكاد كل الجزء الأول من هذا التقرير أن يكون مخصصاً لحالة العمال الذين يعملون في هذه المناجم . إننى سأكون على أى حال ، قادراً على تناول هذا الموضوع بالاختصار الذى يقتضيه غرض العمل الحالى ، بعد الوصف التفصيلى الذى قدمته عن حال العمال الصناعيين .

يشتغل الصببية من الرابعة والخامسة والسابعة في مناجم الفحم والحديد ، وهى تعمل بطريقة تكاد تتماثل تمام التماثل . إنهم يعملون في نقل الخام أو الفحم الذى فككه عامل المنجم ، من مكانه إلى طريق الخيل أو المدخل الرئيسى ، كما يعملون في فتح وإغلاق الأبواب ( التى تفصل أقسام المنجم وتنظم تهويته ) لمروور العمال والمواد . وعادة ما يشتغل أصغر الصببية في مرانبة الأبواب ، وبذ يصبح عليهم ، أن يقضوا في الظلام بمفردهم ، إثنتى عشر ساعة يومياً ، جالسين عادة في عمرات رطبة ، دون أن يكون لديهم أيضاً ، عمل كاف ينقذهم من ملل عدم فعل شيء ، مما يضيع الرشد ويصير الإنسان وحشاً . كما أن نقل الفحم وخام الحديد ، من ناحية أخرى ، عمل شديد الصعوبة ، فالمادة تدفع في براميل كبيرة دون عجالات فوق أرضية المنجم غير الممهدة ، وغالباً ما يكون ذلك فوق طفلة مبهتلة أو خلال الماء ، وغالباً فوق منحدرات حادة الميل وعبر عمرات منخفضة الأسقف ، حتى أن العمال يضطرون إلى الزحف على أيديهم وركبتهم . ولذا فإن الذين يعملون في مثل هذا العمل أكثر ارهاقاً ، هم الصببية الأكبر سناً والفتيات نصف الناميات .

ويعمل ، طبقاً للظروف ، رجل أو صبيان على كل برميل ، وإن كان العاملان صبيين ، فإن أحدهما يدفع والآخر يشد . أما تفكيك الخام أو الفحم ، والذي يقوم به رجال أو شباب أشداء في السادسة عشر من العمر أو يزيد ، فهو أيضاً عمل مرهق للغاية . إن يوم العمل يتراوح ما بين إحدى عشر أو اثنتى عشر ساعة ، وأطول من ذلك في غالب الأحوال وهو يصل في اسكتلندا إلى أربعة عشر ساعة ، وغالبا ما يتضاعف يوم العمل ، عندما يستمر العاملون في العمل تحت الأرض أربع وعشرين ساعة ، بل وستة وثلاثين ساعة بلا انقطاع . إن هؤلاء الناس يأكلون عندما يحسون الجوع ويسمح وقتهم بذلك ، حيث أن فواصل الوقت من أجل الوجبات ، غير معروفة لديهم .

يوصف معيار معيشة عمال المناجم بشكل عام ، بأنه متوسط الجودة ، وتعتبر أجورهم مرتفعة بالنسبة لأجور العمال الزراعيين المحيطين بهم ( والذين يعيشون ، على أى حال ، في معدلات المجاعة ) ، باستثناء مناطق معينة في اسكتلندا وفي المناجم الايرانية ، حيث يسود شقاء بالغ ، ولسوف تكون لدينا الفرصة للعودة إلى هذا الوضع فيما بعد ، والذي هو بالمناسبة ، مجرد علاقة نسبية ، إذ أنه يتضمن المقارنة بأفقر طبقة في إنجلترا كلها . وفي تلك الأثناء ، فإننا سوف ننظر في المكاره التي تنشأ عن الطريقة الحالية للتعدين ، وفي وسع القارىء أن يحكم ، إن كان من الممكن لأى أجر نقدي أن يعوض عامل المنجم عن مثل تلك المعاناة .

إن الصبية والشباب الذين يعملون في نقل الفحم وخام الحديد يشتهكون جميعاً من أنهم متعبون يعانون تعباً يفوق الحد ، ولا يوجد مثل هذا العمل الزائد عن الحد بصورة بالغة ، حتى في المنشآت التي تدار بأشد الأساليب طيشاً ومغامرة . إن التقرير كله يثبت ذلك ، مقدماً عدداً من الأمثلة في كل صفحة من صفحاته ، إن الصبية يلقون بأنفسهم على الدوام ، على حجر الموقد أو على الأرض بمجرد أن يبلغوا منازلهم ، لأنهم ينامون على الفور دون أن يكونوا قادرين على تناول قسمة طعام ، ويتم غسلهم ووضعهم في السرر وهم نيام ، بل يحدث أن يرقدوا وهم في الطريق إلى منازلهم ، حيث يجدهم ذووهم في ساعة متأخرة من الليل ، نائمين على الطريق . ويبدو أن قضاء يوم الأحد في السرير ، إنما هو عادة عامة بين هؤلاء الصبية ، وذلك حتى يستردوا بعضاً من الجهد الزائد عن الحد الذي بذلاه خلال الأسبوع . إن قلة منهم تتردد على الكنيسة أو المدرسة ، والمدرسون يشتهكون

حتى من هذه اقله لنومها وإفتقادها أى حماس للتعليم . ونفس الامر كذلك حتى ، بالنسبة لفتيات الأكبر سناً والنساء . إنهن يشتغلن بأشد الطرق وحشية . إن هذا الإرهاق ، والذي يكاد يصل دائماً إلى ذروة الألم ، لا يمكن إلا أن يؤثر على تركيب الجسم ، إن النتيجة الأولى لمثل هذا الإرهاق الزائد عن الحد ، هى تحول النشاط الحيوى إلى نمو أحادى الجانب للعضلات ، حتى أن عضلات الأذرع والأرجل والأكتاف والصدر خاصة ، والتي تستنفر بشكل أساسى فى عمليات الدفع والشد ، تبلغ درجة غير عادية من النمو ، بينما يعانى باقى الجسد وهو ضامر ، من عملية التنشيط ، كما تعانى القامة ، أكثر من أى شىء آخر ، وقد وقف نموها الطبيعى وعوقفت . ويكاد يكون كل عمال المناجم قصار القامة ، باستثناء عمال « ليسستر شاير » و « مرارويكشاير » ، الذين يعملون تحت ظروف مواتية ، شاذة عن القاعدة العامة . وأكثر من ذلك ، أن سن البلوغ يتأخر عند الأولاد مثلهم فى ذلك مثل البنات . أنه يتأخر عند الأولاد حتى سن الثامنة عشر ، ولقد حضر ولد من سن التاسعة عشر أمام المندوب « سيمونز » ولم يكن يبدو عليه أى دليل غير دليل الأسنان ، يشير إلى أنه لم يتجاوز الحادية عشر أو الثانية عشر من عمره . إن تلك الإطالة فى فترة الطفولة ليست فى الأساس غير دليل على النمو المعوق ، والذي نجح فى أن يثمر فى السنوات التالية . إن تشوهات الأرجل ، وإنحناءات الركب إلى الداخل والاقدام إلى الخارج ، وعاهات العمود الفقرى ، إنما تنتج عن وضع العمل أثناء العمل ، وهو وضع غالباً ما يكون العامل مضطراً إليه بشكل عام ، وتظهر تلك التشوهات سريعاً فى البنية ، عندما يصيبها الوهن . إن تلك التشوهات منتشرة بشكل كبير ، حتى أن العديد من الشهود - ليس فقط من الأطباء - فى « يوركشاير » و « لانكشاير » ، و « نورثورميرلاند » و « دورهام » ، يؤكدون أنه يمكن التعرف على عامل المناجم ، من بين مائة من الأشخاص الآخرين ، من هيئته . ويبدو أن النساء خاصة يعانين من هذا العمل ، وهن من النادر ، إن لم يكن على الإطلاق ، ذوات قامة مستقيمة مثل باقى النساء . وهنا أيضاً شهادة ، عن ان تشوهات الحوض ، ونتيجتها صعوبة الحمل ، إن لم يكن الحمل القاتل ، إنما تنشأ من إشتغال المرأة فى المناجم . إلا أن عمال المناجم الفحهم يعانون ، إلى جانب هذه العاهات الموضعية ، من عدد من الإصابات الخاصة ، والتي يمكن تفسيرها بطبيعة العمل - إن أمراض أعضاء الجهاز الهضمى ، كفقدان الشهية ، وآلام المعدة ، والغثيان والقيء ، تأتي

في المرتبة الأولى وهن الأكثر إنتشاراً ، كذلك الظباء الشديد الذي لا يطفئه غير  
 ماء المنجم القاتر القدر. إن عملية الهضم تعوق، وبذا تحل كل الإصابات الأخرى .  
 إن أمراض القلب وخاصة التضخم والتهاب القلب وغشاء التامور الذي يغلفه  
 وضيق الصمامات الأذينية البطينية ومدخل الأورطى أيضاً ، تذكر بصورة  
 متكررة كأمراض تصيب عمال المناجم ، الأمر الذي يفسره بالفعل ، العمل  
 الزائد عن الحد ، كما أن الأمر صحيح بالنسبة للفتاق الذي يكاد أن يكون عاماً ، وهو  
 نتيجة مباشرة للإرهاق الممتد الزائد عن الحد . إن إصابات عديدة مؤلمة وخطرة  
 على الرئات ، وخاصة الربو الذي يظهر في بعض المناطق في سن الرابعة عشر وفي  
 مناطق أخرى في سن الثالثة عشر ، تنشأ بين الغالبية من عمال المناجم ، جزئياً  
 بسبب الإرهاق الزائد عن الحد ، وجزئياً بسبب الجو الرديء المليء بالغبار  
 المختلط بحامض الكربونيك وغاز الهيدروكربون الذي يمكن تجنبه في الحال . إن  
 هذا يجعلهم غير صالحين للعمل خلال فترة قصيرة ، ويظهر ضيق الصدر بالطبع  
 بين هؤلاء العاملين في أشغال رطبة ، في فترة أكثر تبكيراً . إنه يظهر في بعض  
 مناطق « اسكتلندا » فيما بين سن لعشرين والثلاثين ، وهو الوقت الذي تكون  
 فيه الرئات المصابة عرضة للإلتهابات والأمراض ذات الطبيعة المحيومة بنوع  
 خاص . إن المرض الذي يختص لعمال به ، من هذا النوع ، هو « البصاق الأسود »  
 والذي ينشأ من تشبع كل الرئة بجزئيات الفحم ، وهو يعلن عن نفسه بالضيق  
 العام وصداع وضيق الصدر والمخاط الأسود الغليظ . ويظهر هذا المرض بصورة  
 متبدلة في بعض المناطق، وعلى عكس ذلك في مناطق أخرى، إذ لا يبرأ منه المريض  
 البتة ، وخاصة في « اسكتلندا » . أن التنفس اللائث المصحوب بتزويق الصدر ،  
 وانقبض السريع ( والذي يتجاوز مائة نبضة في الدقيقة ) واسباب الجاف ، مع  
 ازدياد النعانة والهزال ، إلى جوار الأعراض التي سبق ذكرها ، والتي تظهر في  
 صورة مكثفة ، تجعل المريض غير لائق للعمل في سرعة . إن كل حالة من هذا  
 المرض تنتهي نهاية مميتة . ويقرر دكتور « ماكيلار » من « بنسيت لاند » ،  
 « ليست لوثيران » ، أن هذا المرض غير معروف ، في كل مناجم الفحم جيدة  
 التهوية ، بينما يحدث كثيراً أن يصاب به عمال المناجم الذين ينتمون من مناجم  
 جيدة التهوية إلى مناجم رديئة التهوية . إن جشم أصحاب المصانع للربح ، والذي  
 يمنع استخدام أجهزة تجديد الهواء ، هو اذن المسئول أصلاً ، عن حقيقة وجود



هذا المرض الذي يصيب العمال ، وكذلك يعتبر الروماتيزم مرضاً عاماً بين عمال المناجم ، باستثناء عمال « وارويك » و « ليدستر شاير » ، وهو ينشأ على وجه الخصوص في أماكن العمل التي تغلب عليها الرطوبة . إن كل عمال مناجم الفحم ، يهرمون مبكراً ، نتيجة كل تلك الأمراض ، ويصبحون غير لائقين للعمل بعد سن الأربعين ، رغم اختلاف هذا باختلاف الأماكن . إن عامل منجم الفحم الذي يستطيع أن يوالى حرفته بعد سن الخامسة والأربعين أو الخمسين ، هو في الحقيقة نادر تمام الندرة . إذ من المعروف بشكل عام ، أن هؤلاء العمال يهرمون في سن الأربعين . إن هذه المسألة تنطبق على هؤلاء الذين يفككون الفحم من طبقة الفحم ، والحمالين الذين عليهم أن يرفعوا على الدوام كتل ثقيلة من الفحم إلى داخل البراميل ، ويهرمون عند سن التاسعة والعشرين أو الثلاثين ، حتى أن هنالك قول مأثور في مناطق مناجم الفحم ، بأن الحمالين يشيخون قبل أن يصلوا إلى سن الشباب . ويصبح موت الفحمامين أثر تلك الشيوخوخة التي جاءت قبل أوانها أمر بديهي ، والرجل الذي يبلغ الستين من عمره فيما بينهم إنما هو استثناء هائل . وحتى في « سوث ستافورد شاير » ، حيث المناجم صحية نسبياً ، فإن قليلاً من الرجال هم الذين يصلون إلى سن الخمسين . وإلى جانب هذا التقاعد المبكر للعمال عن العمل ، فإننا نجد ، كما هو الحال في المصانع ، نقصاً عاماً في تشغيل الرجال الأكبر سناً ، والذين يعولهم في الغالب ، صبية صغار للغاية . وإن نحن لخصنا في إيجاز ، نتائج العمل في مناجم الفحم ، فإننا سنجد ، كما وجد دكتور « سوث وود سميث » ، أحد المندوبين ، أن فترة الحياة التي يكون فيها الإنسان مالاً لكل قواه ، فترة الرجولة ، قد اختصرت للغاية ، إذ أن هناك إطالة في فترة الطفولة من ناحية ، وشيوخوخة مبكرة من ناحية أخرى ، بينما طول الحياة بشكل عام هو دون المتوسط . وهذا أيضاً أمر يقيد على حساب البورجوازية .

إن كل هذا يتناول فقط ، المعدل العام لمناجم الفحم الانجليزية . إلا أن هنالك الكثير منها ، بلغت فيه الأمور حداً أسوأ بكثير ، أعني تلك التي يتم فيها تشغيل طبقات رقيقة من الفحم . إن تكلفة الفحم ستكون مرتفعة للغاية ، إن أزيح أى جزء من الرمال أو الطفلات المحيطة به ، وإذا فإن أصحاب المناجم لا يسمحون



بالعمل إلا في طبقات الفحم فقط ، ولذا فإن الممرات التي يصل إرتفاعها إلى أربعة وخمسة أقدام وأكثر ، في أى مكان آخر ، تظل هنا منخفضة ، إلى حد أن مسألة الوقوف فيها منتصب القامة ، أمر لا يمكن التفكير فيه . إن العامل يرقد على جنبه ، ويفكك الفحم بمعوله ، مستنداً على كوعة ، مستخدماً إياه كمحور ، مما يصيبه بالتهابات المفصل ، وفي الحالات التي يضطر فيها للإستناد على ركبته ، فإنه يصاب بالتهابات الركبة أيضاً . إن النساء والصبية الذين عليهم نمل الفحم ، يزحفون على أيديهم وركبهم ، وقد شدوا إلى البراميل بعدة كعدة الفرس وسلسلة ( تمر غالباً بين الأرجل ) بينما هنالك من الخلف رجل يدفع البرميل بيديه ورأسه . إن الدفع بالرأس يولد إلتهايات موضعية ، وأورام مؤلمة وقرح . وفي كثير من الأحيان أيضاً ، تكون المداخل مبللة ، حتى أنه يتوجب على هؤلاء العمال أن يزحفوا عبر ماء قدر أو مالح بعمق عدة بوصات ، وبالتالي فهم معرضون لإلتهايات معينة في الجلد ويمكن بالفعل تصور الحد الكبير الذي يغذى به هذا الكدح الاستعبادى المخيف بوجه عام تلك الأمراض التي أصبحت مميزة لعمال المناجم .

إلا أن تلك الأمور ، ليست هى كل الشرور التي تحط على رأس عامل المناجم ، إذ لا توجد مهنة في كل الإمبراطورية البريطانية، يمكن أن يلقى فيها الرجل نهايته، بطرق عديدة شديدة التباين كتلك المهنة . إن منجم الفحم مسرح لعدد من أشد النكبات بشاعة ، وتأتى تلك المآسى مباشرة ، من أنانية البورجوازية . إن غاز الهيدروكربون الذي يظهر بوفرة كبيرة في تلك المناجم ، يشكل عندما يتحد مع الهواء الجوى ، متفجراً يشتعل عند ملامسة أى لهب ، ويقتل كل من يكون في متناوله أن مثل تلك الانفجارات تحدث كل يوم تقريباً ، في منجم أو آخر . ففي ٢٨ سبتمبر ١٨٤٤ قتل إنفجار ٩٦ رجلاً في منجم «هاسويل» للفحم الحبرى في «دورهام» . إن غاز حامض الكربونيك ، والذي يظهر أيضاً في كميات كبيرة ، يتجمع في الأجزاء الأكثر عمقاً من المنجم ، وهو غالباً ما يصل إلى إرتفاع قامة رجل ، ويخنق كل من بداخله . إن الغرض من الأبواب التي تفصل أجزاء المنجم ، أن تمنع إشاعة الانفجارات وحركة الغازات ، ولكن حيث أنها معهود بها إلى صبية صغار ، غالباً ما يسقطون نياماً أو يهملون تلك الأبواب ، فإنها تصبح

وسيلة منع وهمية . إن تهوية ملائمة للمناجم ، بواسطة مداخل للهواء النقي ، يمكن أن تزيح على وجه التقريب ، تلك التأثيرات الخطرة لكلا الغازين . إلا أنه ليس لدى البورجوازية ما لا تستغنى عنه ، مفضلة أن تأمر العمال باستعمال « مصباح دافى » ، وهو مصباح عديم الفائدة لضوئه المعتم ، ولذا فإنهم عادة ما يستبدلونه بشمعة . وإن حدث انفجار ، وقع اللوم على تهور عامل المنجم ، وغم أنه في وسع البورجوازي أن يجعل الانفجار الوشيك مستحيلاً بتوفير تهوية جيدة . وأكثر من ذلك ، فإن سقفاً من أسقف المنجم ، يسقط كل بضعة أيام ، فيدفع العمال المشتغلين فيه أو يمزقهم . إن من صالح البورجوازي أن يجرى العمل كاملاً ندر الطائفة في طبقات الفحم ، ومن ثم تقع حوادث من هذا النوع . ثم هنالك أيضاً ، تلك الحبال التي ينزل بها الرجال إلى المناجم ، وهي غالباً ما تكون مهترئة ، فتقطع ، ويسقط تعساء الحظ ويتحطمون . إن كل تلك الحوادث ، وليس لدى متسع لحالات خاصة ، تتمثل سنوياً ، طبقاً « للينينج جورنال » قرابة الألف وربعمئة آدمى . وتكتب « المانشستر جارديان » عن حادثتين أو ثلاث على الأقل كل أسبوع ، في « لانكشاير » وحدهما . إن الجماعات التي تشكل محلفي قاضى تحقيق الجنايات في كل مناطق التعدين تتريباً ، وفي كل الحالات تتريباً ، إنما هي من هؤلاء التابعين لأصحاب المناجم ، وحيث لا يكون الوضع كذلك ، فإن العادة أنأخوذ بها منذ القدم تؤكد أن اقرار سيكون « الموت قضاء وقدر » . وإلى جانب ذلك ، فإن جماعة المحلفين لا تهتم إلا قليلاً جداً بحالة المنجم ، حيث أنها لا تفهم شيئاً في هذا الموضوع . إلا أن « لجنة تشغيل الصبغة » ، لا تتردد في جعل أصحاب المناجم مباشرة ، هم المستبدلين عن اعداد الأكبر من هذه الحالات .

أما بالنسبة لتعليم وأخلاقيات أهل التعدين ، فإنها جيدة إلى حد ما في « كورنوال » ، ورائعة في « الستون مور » ، طبقاً لتقرير لجنة تشخيص الصبغة ، لما في مناطق الفحم بشكل عام ، فإن ما يكتب عنهم يشير إلى عكس ذلك ، يشير إلى أنهم في مستوى منحط للغاية . إن العمال يعيشون في الريف في مناطق مهملة ، وهم إن قاموا بعملهم المرهق ، فلا إنسان خارج إطار قوة الشرطة ، يشغل نفسه بأمرهم . ومن ثم ، وبسبب اسن الغضة التي يبدأ فيها الصبغة عملهم ، فإن نتيجة ذلك ، هو إهمال تعليمهم اعتملى كلية . إن المدارس النهارية ليست في متناولهم ، كما

أن المدارس المليية ومدارس أيام الآحاد ، ما هي إلا عورات لا قيمة لمدرسيها . وبالتالي فإن قليلين هم من في وسعهم القراءة ، وأغل من قليل هم من في وسعهم الكتابة . إن النقطة الوحيدة التي ما تزال عيونهم مفتوحة عليها ، هي أن أجورهم منخفضة للغاية بالنسبة لعملهم الخطير البغيض . إنهم نادراً ما يذهبون إلى الكنيسة ، أولاً يذهبون البتة إليها . إن كل رجال الدين يشتكون من أن كفرهم لا يضارعه كفر . والحقيقة ، هي أن جهل عمال المصانع ، والذي وضح في كثير من الأمثلة في الصفحات السابقة ، يعتبر أمراً تافهاً إذا قورن بجهالة عمال التعدين بالمسائل الدينية والمسائل المقدسة بالمثل . إن مقولات الدين معروفة لديهم فقط ، من خلال لعناتهم وسبهم للدين . أن أخلاقهم قد حطمتها عملهم ذاته . أما أن عمل عمال المناجم الزائد عن الحد ، يولد لديهم إدمان الخمر ، فهو أمر يوضح نفسه بنفسه . أما عن علاقتهم الجنسية ، فإن الرجال والنساء والصبيات يعملون في المناجم في أحوال كثيرة ، عرايا تماماً ، وشبه عرايا في أغلب الأحوال ، بسبب الحرارة السائدة . والنتائج في ظلام المناجم الموحشة أمر يمكن تصوره . إن عدد الأبناء غير الشرعيين هنا متفاوت إلى حد كبير ، وهو يشير إلى ما يجري تحت الأرض بين قوم نصف متوحشين . وهو يثبت أيضاً أن الجماع غير الشرعي بين الجنسين هنا لم ينحدر إلى مستوى الدعارة كما في المدن الكبرى . إن تشييل المرأة يؤدي إلى نفس النتائج التي أدى إليها عملها في المصانع ؛ إنه يحلل الأسرة ؛ ويجعل الأم غير قادرة كلية على العمل المنزلي .

وعندما وضع « تقرير لجنة تشييل الصربية » أمام البرلمان ، فإن اللورد (أشلي) أسرع بتقديم لائحة تمنع اشتغال المرأة نهائياً في المناجم ، وتحد إلى حد كبير من تشييل الصربية . وتم تبني اللائحة ، إلا أنها ظلت حبراً على ورق في كثير من المناطق ، حيث لم يعين مفتشو مناجم لمراقبة وضعها في التنفيذ (٢٠) . إن التحايل على القانون أمر سهل للغاية في المناطق الريفية حيث تقع المناجم ، كما أن أحداً لم تصبه الدهشة عندما وضع « إتحاد عمال المناجم » في العام الماضي ، مذكرة رسمية أمام وزير الداخلية ، جاء فيها : أنه توجد أكثر من ستين امرأة تعمل في مناجم فحم « ديوك » في « هاميلتون » في « أسكتلندا » أو ما كتبت عنه « المناشستون » جارديان ، بأن فتاة قد هلكت في انفجار وقع في منجم قرب « ويجان » ولم

عزيزج أحد نفسه أبعد مدى من ذلك ، فيما يخص حقيقة أن تعديا على القانون قد انكشف بذلك النبأ . وفي بعض الحالات الفردية ، كان يوقف مستخدم النساء ؛ إلا أن الحال لتقديم للأمور إستمر بشكل عام كما كان من قبل .

ليست تلك هي كل البلايا التي يعرفها عمال المناجم على أى حال . إن البورجوازية لا تكتفى بتدمير صحة هؤلاء الناس . وبوضعهم تحت الموت المفاجئ . ويسلبهم من كل فرص التعليم ، بل هي تعمل على نهبهم من كل ناحية ، بأكثر السبل وقاحة . إن نظام المقايضة هنا هو القاعدة وليس الاستثناء ، وهو يمارس بأكثر الصور صراحة وسفورا . كما أن نظام الكوخ أيضاً نظام عام ، ويكاد هنا أن يكون ضرورة ، إلا أنه يستعمل هنا لنهب العمال بصورة أفضل . ويجب أن يضاف إلى كل وسائل القهر تلك كل أنواع الغش والخداع الصريح . إذ بينما يباع الفحم بالوزن ، فإن أجور العمال تحسب أساساً بالميال ، وإذا لم يكن برميل العامل ممتلئاً إمتلاء تاماً ، فإنه لا يتناول أجراً مهما كان ؛ بينما لا يحصل على ملجم واحد لما يزيد عن الميال . وإن كان هنالك زيادة ؛ عن كمية معينة ؛ من التراب في البرميل ، وهو أمر يتوقف على طبيعة طبقة الفحم أكثر مما يتوقف على عامل المنجم ، فإنه لا يفقد فقط كل أجره ، بل إنه يجازى إلى جانب ذلك . إن نظام الغرامات في مناجم الفحم على درجة عالية من الاتقان بشكل عام ، حتى أن البائس التعس الذي يعمل الأسبوع بطوله ، يعلم أحياناً عندما يذهب ليأخذ أجره من الملاحظ — وهو الذي له مطلق الحرية في توقيع الغرامات دون إخطار العمال — فإنه ليس فقط ، لا يستحق أجراً ، بل عليه أن يدفع كذا وكذا الكثير من الغرامات الزائدة ! إن للملاحظ بشكل عام ، سطوة مطلقة على الأجور ، إنه بدون العمل المنجز ، وفي وسعه أن يحدد على مزاجه ما يدفعه للعامل ، الذي هو مضطر للتسليم بذمته . وتستخدم في بعض المناجم ، حيث يكون الأجر طبقاً للوزن ، موازين عشرية مزيفة ، إذ أن الموازين لا تتعرض لتفتيش السلطات . ولقد كان هنالك بالفعل نظام في أحد مناجم الفحم ، يقضى بأنه على العامل الذي ينوى الشكوى من زيف الموازين ، أن يقدم مذكرة بذلك إلى الملاحظ ، قبل شكواه بثلاثة أسابيع ! ولقد جرت العادة في كثير من المناطق ، وخاصة شمال إنجلترا ، إلى ربط العمال بالعمل مدة عام ، وهم يتعهدون بعدم العمل عند أى

مستخدم آخر طوال ذلك الوقت ، إلا أن صاحب العمل لا يتعهد من ناحيته بإعطائهم عملاً ، وبذا يظلون بلا عمل عدة شهور معاً ، وإن نشدوا العمل في مكان آخر ، فإنهم يرسلون إلى آلة تعذيب المذنبين مدة ستة أسابيع لعدم الوفاء بالعقد . ويوعد عمال المناجم ، في عقود أخرى بعمل تصل قيمته إلى ٢٦ شلناً كل ١٤ يوماً ، إلا أن هذا الوعد لا يتم تنفيذه ، ويدفع المستخدمون لعمال المناجم ، في بعض العقود الأخرى ، مبالغ صغيرة مقدماً ، ليعملوا بها فيما بعد ، وهم بذلك يقيدون المدينين بهم . ولقد جرت العادة في الشمال بشكل عام ، على دفع الأجور متأخرة أسبوعاً عن موعدها ، وبذا يربطون العمال بسلاسل إلى عملهم ولا يستكمال عبودية هؤلاء العمال المستعبدين ، فإن كل « قضاة الصلح » في مناطق الفحم ، هم على وجه التقريب ، أصحاب المناجم أنفسهم ، أو أقرباء وأصدقاء أصحاب المناجم ، ويكادوا يملكون سلطة بلا حدود في تلك المناطق التعسة المتخلفة ، حيث يوجد القليل من الصحف ، وهذه القلة في خدمة الطبقة الحاكمة ، ولا شيء آخر غير قليل من أعمال الإثارة . إن كيفية سلب عمال المناجم التعساء هؤلاء ، وكيفية استبداد « قضاة الصلح » بهم ، هؤلاء الذين يقومون بدور القضاة في قضيتهم الخاصة ، لأمر يفوق تصور المرء .

هكذا جرت الأمور لزمن طويل . العمال لا يعرفون شيئاً أفضل من أنهم قد وجدوا هناك بغرض إختلاس حياتهم ذاتها . إلا أنهم بالتدريج وفيما بينهم ، خاصة في المناطق الصناعية ، حيث يثمر الإتصال بعمال أكثر ذكاء ، وحيث نشأت روح معارضة لظلم وجود « ملوك الفحم » ، بدأوا في تكوين نقابات ، والقيام بإضراب ما بين وقت وآخر . وإنضموا إلى « الميثاقين » قلباً وقالباً في المناطق المتحضرة . وظلت مناطق الفحم الضخمة في شمال إنجلترا والمعزولة عن كل مخالطة صناعية ، متخلفة ، حتى نشأت بعد مجهودات عدة ، ترجع جزئياً إلى « الميثاقين » ، وجزئياً إلى العمال الأكثر ذكاء بين عمال المناجم أنفسهم ، روح المعارضة عام ١٨٤٣ ، ولقد سيطرت تلك الحركة على العمال في « نورثومبرلاند » و « دورهام » ، حتى أنهم وضعوا أنفسهم في صدارة اتحاد شامل لعمال المناجم في طول المملكة وعرضها ، وعينوا « و.ب. روبرتس » مدعياً عاماً ، لهم ، وهو « ميثاق » كان يعمل وكيل قضايا في « بريستول » ، وكان قد اشتهر في المحاولات



المبكرة «لليثاقيين» . وسرعان ما انتشر الاتحاد عبر الغالبية العظمى من المناطق . وعين الوكلاء من كل النواحي ، وعقدوا إجتماعات في كل مكان ، وكسبوا أعضاء جدد . ولقد مثل المؤتمر الأول للهندوبين في «مانشستر» عام ١٨٤٤ - ٦٠,٠٠٠ عضو ، ومثل المؤتمر الثاني الذي انعقد في «جلاسجو» بعد ستة شهور ١٠٠,٠٠٠ عضو . هنا ، نوقشت كل أمور عمال المناجم ، وأخذت قرارات خاصة بالإضرابات الكبيرة ، وأسست عدة صحف وخاصة «المينرز ادفوكات» ، في «نيوكاسل - تاين» . للدفاع عن حقوق عمال المناجم . وفي ٣١ مارس ١٨٤٤ ، أنهيت كل عقود العمال ، ونوض «روبرتس» في كتابة إتفاق جديد ، طالب الرجال فيه بما يلي : —

- (١) يحسب الأجر على أساس الوزن لأعلى أساس المكيال . (٢) تحديد الوزن بموازين عادية خاضعة للمفتشين لعموميين . (٣) تجديد العقود كل نصف سنة .
- (٤) إلغاء نظام الغرامات ، ويكون الأجر طبقاً للعمل المنجز بالفعل . (٥) أن يضمن المستخدمون للعمال أربعة أيام عمل على الأقل في الأسبوع ، أو أجور هذه الأيام الأربعة طوال فترة عملهم الشاملة . ورفع العقد إلى «ملوك الفحم» وعين وفد مفوض ، للتفاوض معهم ، إلا أنهم ردوا بأن الاتحاد غير قائم بالنسبة لهم ، وأنهم يتعاملون مع العمال كأفراد فقط ، وأنهم لن يعترفوا بالاتحاد . وقدموا هم أيضاً إتفاقاتاً خاصاً بهم ، تجاهل كل التماسات السابقة ، وكان من الطبيعي أن يرفضه عمال المناجم . وبذا أعلنت الحرب . وفي ٣١ مارس ١٨٤٤ ، ألقى ٤٠,٠٠٠ من عمال المناجم بمعاولهم ، ووقفت كل المناجم في الريف خالية . كانت مدخرات الاتحاد كبيرة إلى حد ضمان إعانة أسبوعية لكل أسرة قدرها ٢ شلن ، ٦ بنسات لعدة شهور . وبينما كان العمال ، يضعون بذلك صبر سيادتهم في الاختبار ، نظم (روبرتس) كلا من الإضراب وعملية الإثارة ، بمثابة منقطة النهاية ، أعد لعقد الاجتماعات ، قلع انجلترا من طرف إلى آخر ، كان أسلوبه في الإثارة سليماً وقانونياً ، وحمل حملة صليبية ضد «قضاة الصلح» الظالمين وضد سادة المقايضة ، حمل حملة لم يعرف لها مثيل في انجلترا من قبل . لقد بدأ هذه الحملة مع بداية العام . إذ عندما كان يدين «قاضي الصلح» عاملاً من عمال المناجم ، كان يحصل له من محكمة هيئة قضاء الملكة ، على أمر بأن يمثل أمام القاضي للتحقيق في عدم قانونية إحتجازه ، وكان يحضر عميله إلى لندن ، ضامناً تبرأته على الدوام . وبناء على ذلك ، برأ القاضي «ويليامز» من هيئة قضاء الملكة ، في ١٣ يناير ثلاثة من



عمال المناجم كان « قضاة الصلح » في « بيلستون » ، « سوٲ ستافورد شائر » قد أدانوهم . كانت تهمة هؤلاء الرجال ، أنهم قد رفضوا العمل في مكان مهدد بالانهيار على من فيه ، وبالفعل إنهار هذا المكان قبل عودتهم . وفي مناسبة سابقة مبكرة ، برأ القاضي « بانيسون » ستة من العمال ، حتى أن إسم « روبرتس » بدأ يصبح رعباً لأصحاب المناجم . وفي « بريستون » وضع أربعة من زبائنه في السجن ، وانتقل في الأسبوع الأول من يناير إلى هناك ليفحص الحالة في موقعها ، لكنه وجد عندما وصل ، أن المحكوم عليهم قد أفرج عنهم قبل نهاية الحكم . وفي « مانشستر » كان هنالك سبعة عمال في السجن ، وحصل لهم « روبرتس » على أمر تحقيق لعدم قانونية إحتجازهم ، وبرؤوا جميعاً أمام القاضي « ديتمان » وفي « بريسكوت » كان هنالك تسع عمال مناجم في السجن ، متهمين بخلق الإضرابات في « سانت هيلز » « سوٲ لانكشاير » . كانوا في إنتظار المحاكمة ، وعندما وصل « روبرتس » إلى المكان ، أخلى سبيلهم على الفور . كل ذلك وقع في النصف الأول من فبراير . وفي أبريل أطلق « روبرتس » سراح عامل مناجم من السجن في « دربي » ، وأربعة في « ويكفيلد » وأربعة في « ليدستر » . وسار الحال على هذا المنوال فترة من الزمن ، حتى وصلت « كلاب الحراسة » تلك إلى احترام عمال المناجم بعض الاحترام . وحل بنظام المقايضة نفس المصير . كان « روبرتس » يقدم أصحاب المناجم سيئ السمعة واحداً بعد الآخر أمام المحاكم ، ويضطر قضاة الصلح الكارهين ، على إدانتهم ، وانتشر الفرع بينهم من هذا « المدعى العام » الذي يبدو كوميض البرق ، وكأنه في كل مكان ، حتى في « بيلبر » مثلاً ، نشرت إحدى شركات المقايضة الإعلان التالي :

## « إعلاب »

مناجم بنتريك للفحم

« يعتقد اسادة « هاسلام » ، أنه من الضروري ، منذ أكل الأخطاء ، أن يعلموا أن كل الأشخاص الذين يعملون في مناجم الفحم الخاصة بهم ، سيتسلمون أجورهم بالكامل نقداً ، وأنه في وسعهم ، أن يصرفوها في الوقت وبالطريقة التي يختارونها ، فإن اشترى بضائع من حوانيت اسادة « هاسلام » ، فإنهم سيتسلمونها

كما كان قبلاً بأسعار الجملة ، غير أنه ليس متوقعاً منهم أن يبتاعوا بالضرورة من هناك ، وسيستمر العمل والأجور كالمعتاد ، سواء تمت المشتريات من هذه الحوانيت ، أو من أى مكان آخر .

وأثار هذا الانتصار أشد صور البهجة عبر الطبقة العاملة الانجليزية ، وجلب للاتحاد كتل من الأعضاء الجدد . وفى تلك الأثناء ، كان الإضراب فى الشمال يتقدم ، لم تتحرك يد واحدة للعمل ، وجردت « نيو كاسل » الميناء الرئيسى للفحم من بضاعتها ، حتى أن الفحم كان يؤتى به إليها من الساحل الاسكتلندى ، رغم الحكة المأثورة\* . فى البداية ، عندما كانت مدخرات « الاتحاد » صامدة ، سارت كل الأمور سيراً حسناً ، إلا أن الصراع باقتراب الصيف ، صار أكثر ايلاها لعمال المناجم . لقد ساد العوز الأكبر فيما بينهم ، لم يكن لديهم نقوداً ، لأن إعانات عمال كل فروع الصناعة فى إنجلترا كانت ذات نفع قليل أمام العدد الزاخر من المضربين ، مما اضطرهم إلى الاقتراض من أصحاب الحوانيت الصغيرة بخسارة وبيلة . لقد كانت الصحف كلها ، ما عدا الصحافة البروليتارية القليلة ، ضدهم ، وحتى القليلين من ابورجوازية ، والذين يحتمل أن يكون لديهم إحساس كاف بالعدالة كي يدعموا عمال المناجم ، كانوا لا يعرفون عنهم غير أكاذيب صحافة « المحافظين » و « الأحرار » العفنة . وحصل وفد مكون من إثنتى عشر عاملاً من عمال المناجم الذين ذهبوا إلى لندن على مبلغ من البروليتاريا هناك ، إلا أنه أيضاً لم يدم طويلاً بين الجمهرة التى تحتاج للدعم . ومع هذا ورغم كل ذلك ، فإن عمال المناجم ظلوا ثابتين . إن الأمر الذى كان له مغزى أكبر — هو أنهم كانوا هادئين فى مواجهة كل الأعمال الاستفزازية والعدائية التى قام بها أصحاب المناجم وخدمهم المخلصين . لم ترتكب أى أعمال انتقامية ، ولم تسم معامل أى مرتد ، ولم تقع عملية سرقة واحدة . وبذا استمر الإضراب أربعة شهور على نحو جيد ، ومازال أصحاب المناجم بلا أمل فى أن تكون اليد العليا لهم . إلا أن طريقاً كان ما يزال مفتوحاً أمامهم ، على أى حال . لقد تذكروا نظام الكوخ ، لقد خطر

---

\* فى الأصل الألمانى ، تستمر الجملة الأخيرة على النحو التالى « رغم أن نقل الفحم إلى نيو كاسل ، فى إنجلترا ، يمتطى نفس المعنى القائل ، « بنقل اليوم إلى أثينا » ، فى اليونان ، أى أن تفعل شيئاً لا لزوم له على الإطلاق » — ناشر الطبعة الانجليزية .

لهم أن منازل المتمردين إنما هي « ملكهم » الخاص . ونفذ الإجراء بوحشية  
تستثير الثورة . فقد أزيح المرضى وضعاف الصحة وكبار السن من الرجال ،  
والنصيبة الصغار وحتى النساء الذين هم في حالة وضع ، من أسرهم بلا رحمة .  
وألقى بهم في الحفر الموجودة في جانب الطريق ، لقد جر أحد العملاء امرأة  
كانت في فترة الوضع من شعرها ، من سريرها إلى الشارع . كانت هنالك حشود  
من الجنود ورجال الشرطة ، مستعدين لإطلاق النار عند أول بادرة للمقاومة ،  
عند أقل إشارة من قضاة الصلح ، الذين مهدوا السبيل لكل هذه الإجراءات  
الوحشية . كانوا يأملون في أن يلبأ الرجال إلى العنف ، لقد كانوا يستفزونهم  
بكل أشكال القوة كي يخالفوا القوانين ، يجدوا مبرراً لإنهاء الإضراب بالتدخل  
العسكري . إلا أن عمال المناجم الذين لا مأوى لهم ، ظلوا ساكنين صامدين ،  
وهم يتذكرون تحذيرات « مدعيهم العام » ، وقد وضعوا حاجياتهم المنزلية فوق  
الأرض السبخة أو الحقول التي تم حصادها . وحط البعض منهم ، والذي  
لا مأوى آخر له ، حط رحاله في الحفر وعلى جانبي الطريق وحط آخرون فوق  
أرض مملوكة للغير ، ومن ثم فقد رفعت ضدّهم الدعاوى ، وكانوا يغرّمون جنياً  
مقابل كل «خسارة تسببوا فيها ، يساوى قدرها نصف بنس» ، ولما كانوا عاجزين  
عن الدفع ، فقد عملوا على آلات تعذيب المدنيين بدلا من الغرامة ، وهكذا  
عاشوا هم وعائلاتهم ثمانية أسابيع وأكثر من أيام الصيف الأخيرة الرطبة، تحت  
السما المـكشوفة ، دون أى مأوى لهم ولصغارهم غير ستائر سرهم المصنوعة من  
البفتة ، ودون أى عون آخر غير المساعدات الزهيدة التي يقدمها « إتحادهم » ،  
والتعامل بالنسيئة مع صغار التجار ، وهو تعامل سريع الإنـكماش ، ولذا هدد  
« اللورد ديرى » وهو مالك مناجم هائلة في « دور هام » ، أصحاب الدكاكين  
الصغار في « مدينته » من أعمال « سيهام » ، بأشد درجات غضبه إن هم إستمروا  
في إقراض « عمالة » المتمردين . إن هذا اللورد « النبيل » قد جعل من نفسه  
المهرج الأول للإضراب ، بسبب الفرمانات المختالة المثيرة للسخرية ، والتي كان  
يوجهها إلى العمال دون أن يكون لها محل من الإعراب ، والتي كان ينشرها من  
حين لحين ، دون أية نتيجة غير إدخال البهجة على الأمة . وعندما لم تجدى كل تلك  
الجهود ، قام أصحاب المصانع بإستيراد أيدي عاملة من إيرلندا بتكلفة عالية ،

لقد إستوردوا العمال من الأجزاء النائية من ويلز والتي لم توجد بها بعد حركة عمالية . وبذا أعيدت منافسة العمال للعمال ، فأنهارت قوة المضربين . وإضطرتهم أصحاب المناجم إلى التبرؤ من « الإتحاد » وإلا هجران « روبرتس » ، وقبول الشروط التي وضعها المستخدمون . وبذا إنتهت ، في آخر سبتمبر ، معركة الشهور الخمس الكبرى ، لعمال مناجم الفحم ضد أصحاب المناجم ، معركة خاضها المضطهدون بجلاء وشجاعة وذكاء وهدوء أعصاب يتحق أعلى درجات الإعجاب .

أى قدر من التحضر الانسانى الحقيقى ، من الحماس ومتانة الخلق ، تضمنته مثل تلك المعركة ، من جانب الرجال الذين وصفوا حتى عام ١٨٤٠ ، بأنهم متوحشون غاية الوحشية وقاصرين فى حسيهم الأخلاقى كما جاء فى « تقرير لجنة تشغيل الصببية » . ولكن ، كم من الضرورى أيضاً ، أن يكون هذا الضغط الذى دفع هؤلاء الأربعة ألاف من عمال مناجم الفحم الحجرى قاسياً ، ليهبوا هبة رجل واحد ، وأن يقاثلوا المعركة ، ليس فقط بجيش متحمس أيضاً ، جيش يملك إرادة واحدة ، بأكثر قدر من هدوء الأعصاب ورباطة الجأش ، إلى نقطة تصبح المقاومة بعدما ضرباً من الجنون . وأية معركة ! إنها ليست معركة ضد أعداء الداء مرئيين ، لكنها معركة ضد الجوع والعوز والشقاء والتشرد ، ضد عواطفهم الخاصة التى تستفزها وحشية الثروة إلى حد الجنون . ولو حدث أن لجأ العمال إلى العنف من ثورتهم ، وهم العزل دون حماية ، لضربوا بالرصاص ، وكان يوم أو إثنين كانيان لحسم إنتصار أصحاب المصانع . إن هذا الاحتياط إلزاماً بالقانون ، لم يكن خوفاً من أركان حرب الكونستبلات ، لكنه كان نتاج المداولة والتمعن ، وهو أفضل دليل على ذكاء العمال وسيطرتهم على أنفسهم .

وهكذا أجبر العمال مرة أخرى على الخضوع لبأس رأس المال ، رغم جلدتهم الذى لا مثيل له . إلا أن القتال لم يكن عبثاً ، وأول شىء هو أن أسابيع الاضراب التسعة عشر تلك ، قد إنتزعت عمال مناجم شمال إنجلترا ، وإلى الأبد ، من الموات الذهبى الذى كانوا يرقدون فيه حتى الآن . لقد هجروا سباتهم ، وغدوا يقظين للدفاع عن مصالحهم ، ودخلوا حركة التحضر ، خاصة حركة العمال . إن الاضراب الذى وضع كل وحشية الملاك فى الضوء لأول مرة ، قد أسس معارضة العمال هنا وإلى الأبد ، وجعل ثلثى العمال على الأقل « ميثاقين » إن

كسب ثلاثين ألف من أمثال هؤلاء الرجال ذوى العزم والخبرة إلى « الميثاقين »  
لأن أمر له بالقطع قيمته الضخمة ، كذلك ، فإن الالتزام بالقانون والجلد الذى  
ميز الاضراب كله ، مرتبطاً بالاثارة للنشطة التى صاحبتها ، قد ركن الانتباه العام  
على عمال المناجم . ولقد أثار « توماس دونكومب » العضو الوحيد « المؤكد  
ميثاقيته » فى « مجلس العموم » ، حال عمال المناجم ، بمناسبة مناقشة ضريبة التصدير  
على الفحم ، وقرأ إلتماساً لهم ، وبذا أجبر الصحافه البرجوازية بحديثه هذا ،  
على أن تنشر على الأقل بياناً صحيحاً عن الحالة ، فى تقاريرها عن الأعمال البرلمانية  
ولقد وقع انفجار فى « هاسويل » ، بعد الإضراب مباشرة ، وذهب « روبرتس »  
إلى لندن ، وطالب بإجتماع مع « بيل » ، وأصر باعتباره ممثلاً لعمال المناجم ، على  
إجراء بحث دقيق للحالة . ونجح فى أن يعهد إلى البروفسورين « ليل » و « فاراداي »  
وهما أبرز مشهورين فى الجيولوجيا والكيمياء فى إنجلترا ، بزيارة المكان . وحيث  
أن انفجارات أخرى قد وقعت بعد ذلك فى تتابع سريع ، فإن « روبرتس »  
وضع التفصيلات مرة أخرى أمام رئيس الوزراء ، الذى وعد أن يقترح كل  
التدابير اللازمة لحماية العمال ، فى دورة البرلمان التالية ، أى الدورة الحالية لعام  
١٨٤٥ ، إن كان ذلك ممكناً . ما كان كل هذا ليتم إن لم يكن هؤلاء العمال قد  
أثبتوا ، عن طريق الإضراب ، إنهم رجال محبوبون للحرية ، ويستحقون كل  
احترام ، وإن لم يكونوا قد استخدموا « روبرتس » مستشاراً لهم .

ما كاد يصبح معروفاً أن عمال المناجم فحم الشمال قد أجبروا على التبرىء من  
الاتحاد وعلى طرد « روبرتس » ، حتى كون عمال المناجم فى « لانكشاير » ، اتحاد  
من قرابة عشرة آلاف رجل ، وكفلوا « لمدعيهم العام » رانبا سنوياً قدره ١٢٠٠  
جنيهاً إسترلينياً . لقد جمعوا فى خريف العام الماضى أكثر من ٧٠٠ جنيهاً  
إسترلينياً ، صرفوا منها أكثر من ٢٠٠ جنيهاً على الأجور ونفقات التقاضى ،  
وصرف الباقي أساساً فى دعم العاطلين ، بسبب إفتقارهم للعمل أو بسبب نزاعاتهم  
مع مستخدميهم . وبذا فقد أخذ العمال يدركون بثبات وبصورة أوضح ، أنهم  
فى وحدتهم قوة تستحق الاعتبار أيضاً ، وأنهم فى وسعهم فى المدى الأخير ، أن  
يهزموا بأس البرجوازية أيضاً . إن كل ما اغتنته كل الحركات العمالية من بعد  
نظر ، قد كسبه كل عمال المناجم فى إنجلترا ، عن طريق « الاتحاد » والإضراب  
الذى تم عام ١٨٤٤ . إن التفاوت فى الذكاء والنشاط ، والموجود حالياً لصالح

عمال المصانع ، سوف يختفى في زمن قصير للغاية ، وسوف يصبح عمال المناجم في المملكة ، قادرين على الوقوف معهم جنباً إلى جنب في كل وجه من الوجوه\* ، وبذا فإن قطعة وراء أخرى من الأرض التي تمتف البورجوازية عليها تتموض تحت أقدامها ، وأى قدر من الوقت سينتضى قبل أن ينهار صرحها الاجتماعي والسياسي بقواعده التي يستقر عليها ؟

إلا أن البورجوازية لن تأخذ حذرهما . إن مقاومة عمال المناجم لا تفعل غير أن تزيد من إغاضتها . وبدلاً من أن تعرف قيمة هذه الخطوة إلى الأمام ، في الحركة العامة للعمال ، فإن الطبقة الممسكة بالملكية لا ترى فيها غير مصدر خنق وغضب ضد طبقة من الناس ، بلهاء إلى حد إعلان إنهم لن يذعنوا أطول من ذلك ، للعاملة التي كانوا يتلقونها حتى الآن . إنها لا ترى في مطالب العمال الذين لا يمتلكون ، إلا سخلاً وقحاً ، وتمرداً معتوهاً ضد « النظام الإلهي والبشري » ، وفي أحسن الأحوال نجاح ( يجب أن تتأوم ، البورجوازية بكل بأسها ) تحقق بواسطة « الديماجوجيين سيدي النية ، والذين يعيدشون على الإثارة ، لأنهم أكسل من أن يعملوا » . لقد سعت دون نجاح بالطبع ، كي تصور للعمال أن « روبرتس ، ووكلاء « الاتحاد » ، والذين على الاتحاد أن يدفع لهم بالتأكيد ، إنما هم نصابين وقحين ، يسحبون آخر ملهم من جيوب العمال . عندما يسود مثل هذا الخلط العقلي في الطبقة الممسكة بالملكية ، عندما يصبها كسبها الوقتي بمثل هذا العمى ، حتى لم يعد لديها عيون ترى أكثر دلالات الأزمدة ظهوراً للعيان ، فإنه يجب بالتأكيد ، إنهاء كل أمل في حل سلمى للمشكلة الاجتماعية في إنجلترا . إن الحل الوحيد الممكن هو ثورة عنيفة ، ثورة لا بد من وقوعها .

---

\* كان لدى عمال المناجم في تلك اللحظة عام ١٨٨٦ ، ستة من جماعتهم يجلسون في



## البروليتاريا الزراعية

لقد رأينا في المقدمة ، كيف تحطمت البورجوازية الصغيرة والاستقلال المتواضع للعمال الأول والفلاحون الصغار أيضاً ، في آن واحد ، عندما فضح الاتحاد ، السالف بين العمل الصناعي والزراعي ، وأدخلت المزارع المهجورة جملة في مزارع كبيرة ، وألغت المنافسة الشاملة لكبار المزارعين ، صغار المزارعين . وبدلاً من أن يكونوا ملاك أرض ومستأجرين كما كانوا من قبل ، أجبروا الآن على تأجير أنفسهم كعمال للمزارعين الكبار وأصحاب الأراضي . كان هذا الرضع محتملاً إلى حين رغم سوءه إن قورن بوضعهم السابق . وسائر إتساع الصناعة وزيادة السكان ، حتى بدأت الصناعة تتخذ خطى أبطلى ، ثم غداً من المستحيل على الصناعة أن تمتص كل فائض السكان الزراعي بسبب التحسين المستمر في الآلة . منذ ذلك الحين وما تلاه ظهرت المحنة . كانت حتى ذلك الحين موجودة في المناطق الصناعية فقط وفي بعض الأحيان فقط ، ظهرت المحنة في المناطق الزراعية أيضاً . في هذا الوقت تقريباً ، جاءت نهاية الخمسة وعشرين عاماً في الصراع مع فرنسا . وأعطى الإنتاج المتناقص للركائز المختلفة للحروب ، وقطع الواردات ، والحاجة إلى تزويد الجيش البريطاني في أسبانيا ، وأعطى للزراعة الانجليزية رخاء خادعاً ، كما سمحت بالإضافة إلى ذلك ، أعداد هائلة من العمال ، من عملهم الطبيعي إلى الجيش . إن منع تجارة الوارد ، وفرصة التصدير والطلب العسكري على العمال ، قد بلغ الآن نهايته فجأة ، وكانت النتيجة الحتمية لذلك ، ما أسماه الانجليز بالمحنة الزراعية . كان على المزارعين أن يبيعوا قمحهم بأسعار منخفضة ، وبالتالي لم يعد في وسعهم إلا أن يدفعوا أجوراً منخفضة . وصدرت قوانين القمح عام ١٨١٥ بغرض المحافظة على الأسعار ، مانعة استيراد القمح

طالما ظل سعره أغل من ٨٠ شلناً للوزنة\* . وعدلت تلك القوانين العنيفة  
بالطبع عدة مرات ، إلا أنها لم تنجح في إحداث التـكـبـة في المناطق الزراعية . لم  
يكن كل ما فعلوه غير تغيير المرض الذي كان من الممكن أن يتخذ شكلاً حاداً في ظل  
المنافسة الأجنبية الواردة من الخارج — ليباغ أوجيه في سلسلة من الأزمات تتصل  
في أزمة حادة ، تنوء بثقلها — وإن كان بطريقة متسقة — على عمال المزارع .

إن العلاقة الأبوية بين السيد والرجل ، والتي تحطمت مع الصناعة ، قد أدت  
هنا — ولفترة من الزمن بعد نشوء البروليتاريا الزراعية — إلى نمو نفس العلاقة  
بين المزارع وعماله ، إن تلك العلاقة ما تزال قائمة في كل ألمانيا تقريباً . لقد كان  
فقر العمال أغل وضوحاً ، طالما ظلت تلك العلاقة في حالات الضرورة القصوى ،  
إلا أن كل هذا قد تغير الآن . إن الأيدي التي تعمل في المزرعة قد تحولت إلى  
عمال يومية في كل مكان تقريباً ، إنهم يدعون للعمل فقط عندما يحتاج المزارعون  
إليهم ، وبالتالي فهم لا يجدون في الغالب عملاً لأسابيع متصلة ، وخاصة في الشتاء .  
كانت الأيدي العاملة وأسرها تعيش في الفترة الأبوية على المزرعة ، حيث كان  
يشب أطفالهم هناك ، وكان المزارع يحاول إيجاد عمل للجيل القادم . وكان عمال  
اليومية إذن ، هم الاستثناء لا القاعدة وبالتالي كان هناك في كل مزرعة ، عدد من  
الأيدي العاملة أكبر من الحاجة الفعلية بالضبط . وبذا أصبح من صالح المزارعين  
حل هذه العلاقة ، وطرد عامل المزرعة من المزرعة ، وتحويله إلى عامل باليومية  
لقد حدث هذا تقريباً وبشكل عام ، نحو عام ١٨٣٠ ، وكانت النتيجة هي إطلاق  
فائض السكان الذي كان كامناً حتى ذلك الحين ، فُلزم معدل الأجور على الانخفاض  
وارتفع معدل لفقر بصورة هائلة ، ومنذ ذلك الوقت صارت المناطق الزراعية  
بؤراً دائماً للفقر ، مثلها في ذلك مثل المناطق الصناعية والتي كانت بؤراً دورية  
للفقر منذ أمد بعيد . وكان تعديل « قانون الفقراء » هو أول معيار اضطرت  
« الدولة » إلى تطبيقه على حالة الإفقار المتزايد بصورة يومية في إبراشيات  
الريف . يضاف إلى ذلك أن الاتساع المستمر لأعمال الزراعة على نطاق واسع ،  
وإدخال آلات الدراسة وغيرها ، وتشغيل النساء والعصبية ( والذي هو الآن  
ظاهرة عامة ، حتى أن أثارها قد فحمت مؤخراً بواسطة مندوب رسمي خاص ) ،

قد ألفت بعدد كبير من الرجال خارج نطاق العمل . من الواضح إذن ، إن نظام الإنتاج الصناعي قد شق طريقه هنا أيضاً ، بالزراعة على نطاق واسع ، وفسخ العلاقة الأبوية والتي لها هنا أهمية قصوى ، وذلك بإدخال الآلات والبخار وعمل النساء والصبية . وبهذا الفعل . فإن آخر جزء من البشرية العاملة وأكثرها سكوناً قد شد إلى الحركة الثورية . إلا أنه بقدر ما طال سكون الزراعة ، بقدر ما غدا الحمل الآن ثميلاً فوق العامل ، بقدر ما ظهرت نتائج الإخلال بنظام النسيج الاجتماعي القديم بعنف . وظهر « فائض السكان » للتو إلى الضوء . لم يكن من الممكن امتصاصه عن طريق حاجات الإنتاج المتزايد ، كما يحدث في المناطق الصناعية . إذ من الممكن دوماً بناء مصانع جديدة ، إن كان هناك مستهلكين لمنتجاتها إلا أنه لا يمكن خلق أرض جديدة . إن فلاح الأرض البور المشاعة ، كان فكرة جريئة للغاية بالنسبة للأوقات السيئة التي تلت نهاية السلام . إن المنافسة بين العمال بعضهم البعض — كنتيجة حتمية — قد بلغت أعلى درجات الحدة ، كما أن الأجور هبطت إلى أدنى حد . إن العمال يتسلبون إعانة من الضرائب المحلية ، مادام « قانون الفقراء » ، \* التقديم ما يزال قائماً ، وهبطت الأجور بالطبع إلى مستوى أكثر إنخفاضاً ، حيث يضطر المزارعون أكبر عدد من العمال للمطالبة بالمعونة . إن المعدل الأكثر ارتفاعاً للفقراء ، والذي يوجب « فائض السكان » ، قد ازداد فقط بهذا الإجراء ، وشرع « قانون الفقراء » الجديد كعلاج ، وهو القانون الذي سنتحدث عنه فيما بعد . إلا أن هذا لم يحسن الأمور . لم ترتفع الأجور ، ولم يكن في الاستعانة بتخلص من فائض السكان ، ولم تفعل وحشية القانون الجديد شيئاً غير تغييص الناس إلى أقصى حد . وحتى معدل الفقراء ، الذي تضاعف في البداية بعد الموافقة على القانون الجديد ، استعاد ارتفاعه القديم بعد سنوات قليلة . وكان تأثيره الوحيد ، أنه بينما كان يوجد من ثلاثة إلى أربعة ملايين من أنصاف المعوزين فيما سبق ، فقد ظهر الآن مليونين من المعوزين تمام العوز وظل الباقيون نصف معوزين ، فقط دون إعانة . إن الفقر في المناطق الزراعية قد ازداد كل عام . إن الناس يعيشون في أكبر عوز وحاجة ، إن عائلات بأكملها يجب أن

\* انظر أسفل صفحة ٣٢٨ من هذا الجزء — الماشر .

تسكافح قدما بست أو سبع أو ثمان شلنات في الأسبوع ، وفي بعض الأحيان لا يكون لديها أى شيء . دعونا نستمع إلى وصف لهؤلاء السكان ، قدمه عضو برلمان من « الأحرار » في فترة مبكرة من عام ١٨٣٠ \* .

«عامل ززاعى إنجلينزى ومعووز إنجلينزى إنما هى كلمات مترادفة. لقد كان أبوه معوزاً ، ولم يكن يحتوى ابن أمه على أى قوت . منذ طفولته المبكرة وغذاءه ردىء . إنه لا يتناول غير نصف ما يكفى لإسكات جوعه . ومع ذلك فإنه يعانى عضبة الجوع الذى لم يشبع طوال يقظته ، إنه نصف مكتسى ، ليس لديه نار أكثر من تلك التى تكفى لطبخ وجبته الطفيفة . ولذا يلزمه البرد والرطوبة دوماً فى المنزل ، وهما لا يتركانه إلا إن تحسن الطقس . إنه متزوج ، لكنه لا يعرف شيئاً عن مسرات الزوج والأب . إن زوجته وأطفاله جوعى ، نادراً ما يدفأون ، مرضى وعاجزون فى غالب الأحوال تصيبهم المتاعب والهموم على الدوام . وهم بلا أمل مثله . إنهم بالطبع ممسكى اليد ، أنايدين ، من عجين ، وبذا فإنه — طبقاً لتعبيره هو — يكره مرآهم . إنه يدخل كوخه فقط ، لأنه يقدم له مأوى من الريح والمطر ، أفضل بقدر ضئيل من ذلك الذى يقدمه سياج . عليه أن يعول أسرته ، رغم أنه لا يستطيع فعل ذلك ، وعندما تحل اتفاقية ، فإنه يرتكب كل أنواع الغش والخداع ، منتهياً إلى الإحتيال الكامل التام . إنه وإن كان قد انحدر إلى هذا الحد ، فإنه ما يزال يملك الشجاعة التى تجعل من هم أكثر قوة وهمة فى طبقته ، لصوص صيد أو مهربين بالجملة . إلا أنه يسلب إن واثته الفرصة ، ويعلم أبناءه الكذب والسرقة . إن سلوكه الدليل المستسلم لجيرانه الأثرياء ليوضح أنهم يعاملونه بغلاظة ورغبة ، وبالتالى فهو يخافهم ويكرههم ، إلا أنه لن يضيرهم عنوة . إنه يفسد خلقياً على طول الخط ، لقد تمادى كثيراً ليمتلك قوة اليأس أيضاً . إن وجوده

\* ١. ج . ويكفيلد ، م . ب « سوينج دون قناع ، أو سبب حرائق العمد في الريف » لندن ، ١٨٣١ ، كتيب رءما توجد الاقتباسات السابقة في الصفحات ٩ — ١٣ ، إن الفقرات التي تناول ، في الأصل ، « فانوف القراء » القديم والذي مازال قائماً ، قد حذفت هنا .

(المعرفة « سوينج » ، أنظر صفحات ٣٠٧ ، ٣٠٨ من هذا الجزء - الناشر ) .

التعس قصير ، إن الروماتيزم والربو يقودانه إلى دار تشغيل الفقراء ، حيث يلفظ أنفاسه الأخيرة دون ذكرى واحدة مفرحة ، ويفسح المجال لتعس آخر عديم الحظ ، ليعيش ويموت كما عاش هو وكما مات .

ويضيف كاتبنا أنه إلى جوار تلك الطبقة من العمال الزراعيين ، ما تزال هنالك طبقة أخرى أكثر نشاط إلى حد ما ، إنها موهوبة صحياً وعقلياً وأخلاقياً بطريقة أفضل ، إنها مكونة بالتحديد من هؤلاء الذين يعيشون نفس الحياة التعسة ، إلا أنهم لم يولدوا على تلك الحال . إنه يقدمهم على أنهم أفضل في حياتهم العائلية ، إلا أن المهربين ولصوص الصيد والذين يدخلون في صدامات دموية عديدة مع حراس غابات الصيد وضباط السواحل يصبحون أكثر شعوراً بالمرارة . ضد المجتمع ، خلال حياة السجن التي غالباً ما يقاسونها . وهكذا يقفون جنباً إلى جنب مع الطبقة الأولى في كراهيتهم للقابضين على الملكية ، ويقول الكاتب في النهاية : إن كل هذه الطبقة ، تدعى من باب المجاملة ، فلاحو إنجلترا الجسورين .

إن هذا الوصف ، عند الوصول إلى الوقت الراهن ، ينطبق على الجزء الأكبر من العمال الزراعيين في إنجلترا . فلقد أرسلت «التايمز» في يونيو ١٨٤٤ ، مراسلاً إلى المناطق الزراعية ليكتب تقريراً عن وضع هذه الطبقة . وقد إتفق التقرير الذي أعده الراسل ، تمام الاتفاق ، مع ما جاء فيما سبق . كانت الأجور في بعض المناطق لا تزيد عن ست شلنات في الأسبوع ، أى أنها لا تزيد عن تلك التي في كثير من المناطق في ألمانيا ، بينما تبلغ أسعار كل ضروريات الحياة ضعفاً على الأقل . أى حياة تلك التي يحياها هؤلاء الناس أمر يمكن تصوره ، إن طعامهم طفيف ورتدى ، ملابسهم مهلهلة ، مأويهم أكواخ يائسة صغيرة ، مكدسة وخربة ، ليس بها أى نوع من أنواع الراحة ، كما أنه ينذر فصل الرجال عن النساء ، في المنازل المؤجرة مفروشة للشباب ، مما يحرض على الجماع غير الشرعى . أن البقاء دون عمل مدة يوم أو يومين خلال الشهر أمر لا بد وأن يدهم هؤلاء الناس الذين هم في أشد حالات الحاجة بشاعة ، يضاف إلى ذلك ، أنهم لا يستطيعون الإتحاد لرفع أجورهم ، حيث أنهم متناثرين ، وإن حدث ورفض أحدهم بمفرده أن يعمل طبقاً للأجور المنخفضة ، فهناك العشرات بلا عمل ،

أو ممن تعولهم ضرائب البلدية ، وهم حامدين شاكرين لأشد العروض تفاهة ،  
بينما يرفض القائمون على « قانون الفقراء » تقديم أى إعانة ، لهذا الذى يرفض  
العمل ، إلا أن يعمل فى « دار تشغيل الفقراء » الكريمة ، باعتبار أنه متشرد  
كسول ، حيث أن الأوصياء هم أنفسهم المزارعين الذين سيطلب منهم وحدهم  
أو جيرانهم أو معارفهم ، عملاً . إن مثل تلك التقارير لم يرد فقط من منطقة  
أو منطقتين بعينهما فى إنجلترا ، بل على عكس ذلك ، الضيق عام ، تتساوى  
ضخامته فى الشمال والجنوب ، فى الشرق والغرب . إن وضع العمال فى « سوفولك »  
و « نورفولك » يتطابق مع ذلك الذى فى « ديفونشاير » و « هامبشاير » و « سوسيكى » .  
إن الأجور منخفضة فى « دورسيتشاير » و « اكسفوردشاير » ، كما هو الحال  
« كنت » و « سوري » و « باكينجهامشاير » و « كمبريدجشاير » .

إن « قوانين الصيد » تتضمن قساوة همجية ضد الطبقة العاملة بشكل خاص ،  
إنها هنا أشد تضيقاً عنها فى أى بلد آخر ، رغم وفرة الصيد بصورة تفوق  
كل تصور . إن الفلاح الإنجليزي الذى يرى فى سرقة البط فقط ، تعبيراً طبيعياً  
ونبيلاً عن الشجاعة والجسارة ، طبقاً للعادة والتقليد الإنجليزي التليد ، ليستفزه  
أكثر وأكثر ، ذلك التناقض بين فقره ومسررات اللورد ، ذلك الذى يحافظ على  
آلاف الأرانب البرية وطيور الصيد لمتعته الخاصة . إن العامل ينصب الشراك ،  
أو يطلق النار هنا وهناك على قطعة من الصيد ، إن هذه القطعة لن تضر المالك  
فى الحقيقة ، إذ لديه فائض وفير ، فى حين أنها تقدم لسارق الصيد ، وجبة له  
ولأسرته الجائعة . إلا أنه لو أمسك لأرسل إلى السجن ، وفى حالة ارتكاب  
الجرم لثانى مرة ، فإنه ينال سبعة سنين فى المنفى على الأقل . إن قسوة « قوانين  
الصيد » تتسبب فى صدمات دموية عديدة مع حراس غابات الصيد ، وهى تؤدى  
كل عام إلى عدد من حوادث القتل ، ولذا فإن وظيفة حارس الصيد ، ليست  
بمجرد وظيفة خطيرة ، بل إنها سيئة السمعة أيضاً ومحتقرة . لقد حدث فى حالتين  
فى العام الماضى ، أن أطلق حارسا صيد النار على نفسيهما ، منغضلين ذلك عن  
الاستمرار فى عملهما . ذلك هو متوسط الثمن الذى يتبع به أرسنقراطية أصحاب  
الأراضى رياضة الصيد النبيلة ، لكن ماذا يهم سادة الأرض من ذلك؟ ماذا يهمهم  
إن مات واحد أو إثنان ، أكثر أو أقل من « الفائض » ، إن ذلك لا يغنى شيئاً ،



بل لو أمكن إزاحة نصف فائض السكان نتيجة «قوانين الصيد» ، فإن ذلك كله سيكون خيراً للنصف الآخر — وذلك طبقاً للنهج الذى يسير عليه أصحاب الأرض الإنجليز بدلاً فى سبيل الإنسانية .

إن الفقر والحاجة يحملان ثمارهما حتى إلى هنا ، رغم أن أحوال الحياة فى الريف والمآوى المنعزلة ، وثبات البيضة والحرف ، وبالتالى الافكار لا بد وأن تكون غير مواتية لآى تطور . لقد أظهرت البروليتاريا الصناعية والتعدينية فى فترة مبكرة ، منذ المرحلة الأولى لمقاومة نظامنا الاجتماعى ، تمرداً فردياً مباشراً باقتراف الجريمة ، إلا أن الفلاحين فى وقتنا الراهن ، ما يزالوا فى هذه المرحلة . إن طريقتهن المفضلة فى الحرب الاجتماعية هى الحرق العمد . لقد غدت تلك الحرائق عامة ، خلال الشتاء الذى أعقب ثورة يوليو عام ١٨٣٠ — ١٨٣١ . لقد وقعت الاضطرابات فى أكتوبر ودخلت منطقة «سوسكى» كلها والأقاليم المجاورة لها فى حالة من الهياج ، وذلك على أثر زياده حرس السواحل (مما جعل التهريب أكثر صعوبة ، و«دمر الساحل» — كما جاء فى كلمات أحد المزارعين) ، والتغييرات التى أدخلت على «قانون الفقراء» ، والأجور المنخفضة وإدخال الآلات . لقد حرق تبين وأعواد قمح المزارعين فى الحقول ، وتحت توافد الزرائب والاسطبلات ذاتها . كان يشعل حريقان من أمثال تلك الحرائق كل ليلة تقريباً ، فينشران الذعر بين المزارعين وملاك الأراضى ، ونادراً ما كان يكتشف المذنبين ، ولقد نسب العمال الحرق العمد إلى شخص أسطورى ، أطلقوا عليه إسم «سوينج» \* . لقد أجهد الرجال عقولهم لاكتشاف من يكون «سوينج» هذا ، ومن أين هذا الغضب بين فقراء المناطق الريفية . إن واحداً هنا أو هناك فقط ، قد فكر فى أن القوة الكبرى الدافعة لذلك ، إنما تكمن فى العوز والإضطهاد ، إلا أن الشيء المؤكد ، هو أن أحداً من هؤلاء لم يكن من المناطق الزراعية . ومنذ ذلك العام تكررت تلك الحرائق العمد كل شتاء ، مع كل فصل تتكرر فيه بطالة العمال الزراعيين . ولقد تكررت تلك الحرائق مرة أخرى ، وبطريقة أكثر غرابة فى شتاء عام ١٨٤٣ — ١٨٤٤ .

---

\* الأرجوحة ( المترجم ) .

وأمامي الآن ، ترقد سلسلة في أعداد « النورثن ستار » الصادرة في ذلك الوقت ، إن كل منها تشتمل على تقرير عن حرائق عمد عديدة ، ذاكرة مرجعها في كل حالة . إن الأعداد الناقصة في القائمة التالية ، لم تكن في متناول اليد ، إلا أنها تحتوي أيضاً ودون شك عدداً من الحالات . يضاف إلى ذلك ، أن مثل تلك الصحيفة ، ربما لا يمكنها أن تثبت كل ما يقع من حالات . ففي الخامس والعشرين من نوفمبر عام ١٨٤٣ وقعت حالتان ، وهنالك حالات عديدة مبكرة يتم بحثها . وفي السادس عشر من ديسمبر وقع هياج عام مدة أسبوعين ، أثر حرائق عمد متكررة ، كان يحدث العديد منها في كل ليلة . لقد أحرقت خلال الأيام القليلة الماضية دارين في مزرعتين كبيرتين ، وأحرقت في « كامبريدج شاير » أربع دور في مزارع كبيرة ، وواحدة في « هرфорд شاير » ، وإلى جانب ذلك ، خمسة عشر حريق عمد في مناطق مختلفة . وحدثت في الثلاثين من ديسمبر ، حريق واحدة في « سوفولك » ، وإثنتان في « اسكس » ، وواحدة في « ششاير » ، وواحدة في « لانكشاير » ، وإثنتي عشر في « دربي » ، لينكولن والجنوب . وكان المجموع الكلي للحرائق في السادس من يناير ١٨٤٤ عشرة حرائق . وسبعة في الثالث عشر من يناير ، وأربع حرائق عمد في العشرين من يناير . وشملت التقارير ، منذ ذلك الوقت وما تلاه ثلاث أو أربع حرائق عمدية كل أسبوع ، ولم تتوقف الحرائق بمجيء الربيع كما كان في الماضي . بل امتدت أيضاً إلى يوليو وأغسطس . إن هذا النوع من الجرائم في إزدیاد خلال الموسم القاسي المقرب لعام ١٨٤٤ — ٥٤ ، والذي أشارت إليه الصحف الإنجليزية بالفعل .

بماذا يفكر قرائي في شؤون هذا حالها ، في مناطق ريفية في إنجلترا ، مناطق هادئة وبسيطة وساحرة ؟ هل هذه حرب إجتماعية أم لا ؟ هل تلك هي الأوضاع الطبيعية التي يمكن أن تدوم ؟ ومع كل ذلك فإن أصحاب الأراضي والمزارعين هنا أغنياء ذاهلين . إنهم عميان أيضاً عن كل شيء . لا يضع المال في جيوبهم مباشرة ، مثلهم في ذلك مثل أصحاب المصانع والبورجوازية عمرها في المناطق الصناعية . وإن كان أصحاب المصانع يعدون العاملين لديهم بالخلاص عن طريق إلغاء « قوانين القمح » ، فإن ملاك الأراضي وجزء كبير من المزارعين يعدون العاملين لديهم بفردوس فوق الأرض عن طريق تعضيد نفس القوانين . إلا أن القابضين على الملكية في كلا الحالين لم ينجحوا في كسب العمال إلى هوايتهم المحببة .

إن العمال الزراعيين ، مثلهم في ذلك مثل الصناع ، غير مباشرين بإلغاء « قوانين القمح » أو عدم إلغائها . ومع ذلك فإن السؤال هام لكليهما . أى يمكن القول - أنه بإلغاء « قوانين القمح » والمنافسة الحرة ، فإن الاقتصاد الاجتماعى الحالى يسير إلى نقطته القصوى ، ويصل كل مزيد من التطور فى إطار النظام الحالى إلى نهايته ، وتصبح الخطوة الوحيدة الأبعد من ذلك ، هى التحويل الجذرى للنظام الاجتماعى \* . بالإضافة إلى ذلك ، كان هذا السؤال يطرح على العمال الزراعيين ، تلك العلاقة الهامة التالية : إن الاستيراد الحر للقمح ، يتضمن تحرير المزارعين من ملاك الأراضى وتحويلهم إلى « أحرار » ( أما كيفية حدوث ذلك ، فليس فى وسعنى أن أشرحها « هنا » ) . لقد عاونت العصبة المعادية لقانون القمح فى الوصول إلى هذه النهاية . وتلك هى الخدمة الوحيدة الحقيقية التى قامت بها . إذ عندما يصبح المزارعون « أحراراً » فإن البورجوازيين الواعيين والعمال الزراعيين ، سيصبحون بالحق « ميثاقيين » و « اشتراكيين » ، إن التغيير الأول يتضمن التغيير الثانى . لقد تحققت بداية فعلية لحركة جديدة بين العمال الزراعيين فى اجتماع دعا إلى عقده « إيرل راندور » - وهو مالك أراضى من الأحرار - فى أكتوبر عام ١٨٤٤ ( قرب « هاى وورث » ، حيث تقع أملاكه ، وذلك للوافقة على قرارات موجهة ضد « قوانين القمح » ، إلا أن العمال الذين لم يكونوا مهتمين على الإطلاق بهذه القوانين ، قد طالبوا فى هذا الاجتماع بشيء مختلف تمام الاختلاف ، طالبوا بمنحهم قطعاً من الأرض صغيرة بإيجار منخفض ملقين بكل أنواع الحقائق المرة ، فى وجه « إيرل راندور » . وبذلك تجد حركة الطبقة العاملة طريقها إلى المناطق الزراعية المائتة معنويًا ، الساكنة النائبة ، وشكراً للضيق العام ، الذى سيغدو فى القريب متأصلاً بعزم ونشاط ، كما هو الحال فى المناطق الصناعية \* .

---

\* لقد تحقق هذا حرفياً ، إذ بعد فترة من اتساع لا مثيل له فى التجارة ، أوقعت « التجارة الحرة » إنجلترا فى أزمة بدأت عام ١٨٧٨ ، وما زالت فى تزايد فسيط فى عام ١٨٨٦ .

\*\* إن العمال الزراعيين الآن « اتحادات عمال » ، إن أكثر ممثليهم نشاطاً هو « جوزيف آرك » ، والذى انتخب « ضوا فى البرلمان » عام ١٨٨٠ .

أما بالنسبة لحالة العمال الزراعيين الدينية ، فإنهم — وهذا حق — أكثر ورعا من العمال الصناعيين ، إلا أنهم — أيضاً — فى شجار مع الكنيسة ، حيث لا يكاد يوجد فى تلك المناطق إلا أعضاء مخلصين من الكنيسة المعترف بها من الدولة ، إن مراسلا لجريدة « المورنينج كرونيكل » ، يستخدم توقيع « الرجل الذى صفر على المحراث » \* ، يكتب عن رحلته عبر المناطق الزراعية ، ويروى المحادثة التالية التى جرت مع بعض العمال بعد القداس ، ضمن ما يرويه من أشياء أخرى : —

« سألت واحداً من هؤلاء الناس ، إن كان واعظ اليوم هو كاهنهم الانجليكانى ، قال نعم ، لتصديه الآفة ! انه راعى كنيستنا ، وهو يتسول طوال الوقت ، انه دائم التسول منذ عرفته ( كانت الموعظة عن بعثه إلى الوثنيين ) ، وأضاف آخر ، وأنا أيضاً لم أعرف القسيس فيه البتة ، طوال معرفتى به ، بل عرفت فيه ذلك الذى يتسول لهذا أو ذاك » ، وقالت امرأة كانت قد خرجت من الكنيسة لتوها ، « نعم أنظر كيف تهبط الأجور ، وانظر الى المتشردين الأثرياء الذين يأكل القسيس معهم ويشرب ويصطاد . ساعدنى يا الهى ، ان الموت جوعاً فى « دار تشغيل الفقراء » لأمر أكثر مناسبة لنا من أن ندفع للقساوسة حتى يذهبوا الى وسط الوثنيين » . وقال آخر « ألا يرسلون القسيس كدكور النحل كل يوم كاتدرائية سالسبورى ، أليس ذلك من أجل لا أحد غير الأحجار العارية ؟ لماذا لا يذهبون « هم » الى الوثنيين ؟ » انهم لا يذهبون » ، قال الرجل العجوز الذى سألته أولاً ، « لأنهم أغنياء ، انهم يمتلكون كل الاراضى التى يحتاجونها ، انهم يريدون النقود حتى يتخلصوا من القسيس الفقراء ، اننى أعرف ما يريدون ، اننى اعرفهم منذ زمن بعيد » . وتساءلت أنا « من المؤكد أيها الأصدقاء الطيبون أنكم لا تخرجون على الدوام من الكنيسة ، بمثل هذه المشاعر المرة تجاه الواعظ ؟ لماذا تذهبون على أى حال » . « لماذا نذهب » ، قالت المرأة ، « يجب علينا أن نذهب . ولقد علمت فيما بعد أنهم يمنحون ميزات محدودة . خاصة بخشب الحريق وأرض البطاطس ( والذى يدفعون عنها ) على شريطة أن يذهبوا الى الكنيسة » .

وينتفى المراسل ، بعد وصف فقرهم وجهالتهم ، إلى القول :

« وآآن فإننى أؤكد بشجاعة ، أن حالة هؤلاء الناس ، فقرهم وكراهيتهم  
للكنيسة ، اذعانهم الخارجى ، ومرارتهم الداخلية ضد الرؤساء الكهنوتيين ،  
إنما هى القاعده بين الابرشيات الريفية فى إنجلترا ، وأن عكسها هو الاستثناء »

إن كان فلاحو إنجلترا قد جعلها النتائج التى تتضمنها علاقة بروليتاريا زراعية  
كثيرة العدد ، بزراعة كبيرة ، أمراً واضحاً فى المناطق الريفية ، فإن « ويلز »  
توضح بالشواهد ، دمار صغار الملاك . وإن كانت الابرشيات الريفية الانجليزية  
تولد العداء بين الرأسمالى وبروليتارى ، فإن حالة فلاحى « ويلز » تناظر الدمار

إن كان فلاحو إنجلترا قد جعلوا النتائج التى تتضمنها علاقة بروليتاريا زراعية  
كثيرة العدد ، بزراعة كبيرة ، أمراً واضحاً فى المناطق الريفية ، فإن « ويلز »  
توضح بالشواهد ، دمار صغار الملاك . وإن كانت الابرشيات الريفية الانجليزية  
تولد العداء بين الرأسمالى وبروليتارى ، فإن حالة فلاحى « ويلز » تناظر الدمار  
المطرد للبورجوازية الصغيرة فى المدن . إذ لا يكاد يوجد فى « ويلز » غير ملاك  
صغار ، لا يستطيعون بيع منتجاتهم رخيصة ، بنفس الربح الذى يحققه من هم  
أكبر منهم ، هؤلاء المزارعين الإنجليز الذين هم فى وضع أفضل ، والذين هم  
مضطرين إلى منافستهم على أية حال . يضاف إلى ذلك ، أن نوعية الأرض فى  
بعض الأماكن ، لا تسمح إلا بتربية المواشى فقط ، وتلك تكاد تكون قليلة  
الربح . كما أن مزارعى « ويلز » أكثر استقراراً من المزارعين الإنجليز ، ومرجع  
ذلك إلى قوميتهم المنفصلة ، التى يحافظون عليها بعناد . إلا أن المنافسة فيما بينهم  
هم ، وفيما بينهم وبين جيرانهم الإنجليز ( والرهونات المتزايدة على أرضهم نتيجة  
هذا ) ، قد نزلت بهم إلى منزلة لا يكادوا يعيشون البتة فى ظلها . وحيث أنهم  
لا يعرفون السبب الحقيقى لما هم فيه من تعاسة ، فإنهم يرجعون ذلك إلى كل  
أنواع الأعمال الطفيفة ، مثل المكوس المرتفعة ... الخ ، والمكوس تعيق بالفعل  
تطور الزراعة والتجارة ، إلا أن كل من يأخذ قطعة أرض ، يضع المكوس فى  
الحسبان كرسوم دائمة ، وبذا فإن الذى يدفعها ، فى الحقيقة فى نهاية الأمر ، هو  
المالك . إن « قانون الفقراء » الجديد مكروه ، هنا أيضاً ، من صميم فؤاد



المستأجرين الذين يرتعدون من خطر دائم ، إن يقعوا تحت تسلطه . لقد نشبت عام ١٨٤٣ اضطرابات ربيكا الشهيرة بين فلاحى « ويلز » ، لقد ارتدى الرجال ثياب النساء وسودوا وجوههم ، وانقضوا فى جموع مسلحة على بوابات - المكوس ، وحطموها وسط إطلاق البنادق والتهليل الهائل ، كما دمروا منازل حراس - المكوس ، وكتبوا خطابات تهديد باسم « ربيكا » الخيالى . وتمادوا ذات مرة إلى حد إقتحام دار « كارمرش » لتشغيل الفقراء ، وعندما إستدعيت الميليشيا وعززت الشرطة فيما بعد ، قام الفلاحون بسحبهم فى مهارة تدعو للإعجاب وراء آثار مزيفة ، لقد دمروا بوابات المكوس عند إحدى النقط ، بينما الميليشيا تسير فى الاتجاه المعاكس ، بعد أن إستدرجتها أبواق الاشارة المزيفة . وعندما دعمت الشرطة دعماً كلياً ، إنصرف الفلاحون فى النهاية إلى الحرائق الفردية ومحاولات القتل . وكالمعتاد ، كانت تلك الجرائم الكبرى هى نهاية الحركة . لقد إنسحب الكثيرون بسبب الاستهجان ، وانسحب آخرون من الخوف ، وعاد السلام من تلقائه . وعينت الحكومة لجنة لتقصى الأمر ودوافعه ووضع نهاية لهذا الأمر . إلا أن فقر الفلاحين ، على أى حال ، سوف يستمر ، وهو الذى سوف ينتج يوماً ما مظاهر أكثر جدية من ذلك التذكر الهزلى « ربيكا » حيث أنه لا يمكن أن يضمّر فى ظل الظروف الراهنة بل لابد وأن يزداد كثافة .

إن كانت إنجلترا تظهر نتائج نظام الزراعة على نطاق واسع ، « وويلز » على نطاق ضيق ، فإن إيرلندا تبين نتائج التسميم الزائد عن الحد للأرض . إن الكتلة الكبيرة من سكان إيرلندا تتكون من مستأجرين صغار ، يشغلون أكوأخاً كسيرة دون حواجز ، ورقة بطاطس مساحتها تكفى لإمدادهم بالبطاطس طوال الشتاء ، مع استخدام أقصى درجات التقدير . ولقد بلغ إيجار الأرض حداً من الارتفاع لم يسمع به ، إنه ضعف أو ثلاث أضعاف أو أربع أضعاف ذلك الذى يدفع فى إنجلترا وذلك نتيجة المنافسة الشديدة التى تسود بين هؤلاء المستأجرين الصغار ، حيث يسعى كل عامل زراعى كى يصبح مزارعاً مستأجراً ، ورغم أن تقسيم الأرض قد سار شوطاً بعيداً ، إلا أن عدداً من العمال ما زال باقياً يتنافس على قطع الأرض . ومع أن بريطانيا تزرع ٣٢.٠٠٠ و ٣٢.٠٠٠ \* من الأرض ، وإيرلندا

---

\* الأكر أقل من فدان ( المترجم ) .



١٤,٠٠٠,٠٠٠ لا غير ، ورغم أن بريطانيا تنتج من المنتجات الزراعية ما تبلغ قيمته ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيهًا استرلينياً ، وأيرلندا ٣٦,٠٠٠,٠٠٠ جنيهًا استرلينياً لا غير ، فإنه يوجد في أيرلندا ٧٥,٠٠٠ بروتارياً زراعياً أزيد من الجزيرة المجاورة \* . إن المدى الذي يجب أن تكون عليه المنافسة حول الأرض . الأمر واضح في أيرلندا ، من هذا التفاوت غير العادى ، خاصة عندما يفكر المرء في أن العمال في بريطانيا العظمى يعيشون في غاية التعاسة . إن نتيجة هذه المنافسة ، هى استحالة أن يعيش المستأجرون حياة أفضل كثيراً من حياة العمال ، وذلك بسبب الإيجارات العالية التى عليهم دفعها . وبذا فإن فقراً ساحقاً يمسك بالشعب الأيرلندى ، فقر لا يستطيع أن يجبر منه نفسه فى ظل ظروفنا الاجتماعية الحالية . إن هؤلاء الناس يعيشون فى أشد الأكوخ الطينية بؤساً ، إنها بالكاد تصلح زرائب ماشية ، طعامهم طول الشتاء كله شحيح ، أو كما يتناول التقرير المقتبس عاليه الأمر ، بأن ما لديهم من بطاطس ، يكفى نصف حاجتهم طوال ثلاثين أسبوعاً فى العام ، ولا شئ باقى العام . وعندما يأتى الربيع ، الوقت الذى تصل فيه تلك المؤونة إلى نهايتها ، أو أنها تصبح غير صالحة للإستعمال حيث تكون قد نبتت ، فإن الزوجة والأطفال ينطلقون إلى التسول بحوبون الريف وأبريقهم فى أيديهم . فى تلك الأثناء ، يكون الزوج وقد زرع بطاطس للعام القادم ، فيذهب إلى أيرلندا أو إنجلترا بحثاً عن عمل ، ثم يعود إلى عائلته فى موسم جمع البطاطس . تلك هى الحالة التى يعيش فيها تسعة أعشار أهل الريف الأيرلندى . إنهم فقراء كفار كنيسة ، يرتدون أشد الهلاهيل بؤساً ، ويقفون عند أدنى مستوى ممكن للمدكاه ، فى بلد نصف متحضر . وطبقاً للتقرير المقتبس ، فإنه من بين سكان عددهم ٨,٥ مليوناً ، يوجد ٥٨٥,٠٠٠ رب أسرة فى حالة عوز كاملة . وطبقاً لبعض الهيئات الحكومية الأخرى التى استشهد بها العمدة « أليسون » \*\* ، بأنه يوجد فى أيرلندا ٣,٣٠٠,٠٠٠ شخصاً ، لا يستطيعون الحياة دون مساعدة عامة أو خاصة ، أى أن ٢٧ ٪ من السكان معوزين !

\* تقرير لجنة قانون الفقراء عن أيرلندا « الموسم البرلماني لعام ١٨٣٧ » ( مضافة من النسخة الألمانية ) .

\*\* . بادية السكان . الجزء ٢ .

إن سبب هذا الفقر ، يمكن في الحالة الاجتماعية القائمة ، وخاصة في المنافسة الموجودة هنا ، الموجودة في شكل تجزئة الأرض المجزأة . لقد بذل جهد كبير في البحث عن أسباب أخرى . فقد زعم أنها العلاقة بين المستأجر ومالك الأرض ، الذي يؤجر أملاكه قطعاً كبيرة إلى مستأجرين ، يكون لديهم بدورهم ، مستأجرين — أدنى ، ثم مستأجرين أدنى وأدنى على التوالي ، حتى أنه يوجد في غالب الأحوال عشرة وسطاء بين مالك الأرض والزارع الفعلي — ورغم أن الذي يلام على كل هذا الفقر ، هو القانون المخجل الذي يعطى لمالك الأرض ، حق نزع الأرض ، من الزارع الذي يكون قد دفع الإيجار المستحق عليه في حينه ، لأن المستأجر الأول عجز عن الدفع لمالك الأرض . إلا أن كل هذا يحدد فقط الشكل الذي يعلن به الفقر عن نفسه . لجعل المستأجر الصغير نفسه مالكا ، ماذا تكون النتيجة ؟ إن الغالبية منهم لن تستطيع الحياة على قطع أرضها ، حتى وإن كانت لا تدفع عنها إيجاراً ، وإن حدث تحسن ضئيل ، فإنه سيضيع مرة أخرى في سنوات قليلة ، نتيجة الزيادة السريعة في السكان . إن الأطفال الذين يموتون الآن في طفولتهم المبكرة نتيجة الفقر ، سوف يعيشون حينذاك ، لينمو في ظل الظروف التي تحسنت ، ويحيا ، من ناحية أخرى ، زعم بأن الظلم الواقع الذي يفرضه الإنجليز هو سبب الإضطراب . إن هذا الظلم على نحو ما ، هو السبب المبكر لهذا الفقر ، إلا أنه ليس سبب الفقر ذاته . أو يلقي باللوم على « الكنيسة البروتستانتية » ، المفروضة على أمة « كاثوليكية » ، إلا أننا ، إن قسمنا ما تأخذه الكنيسة من الإيرلنديين عليهم ، فلن يصل نصيب الرأس إلى ست شلنات . فضلاً عن ذلك ، فإن العشور ضريبة على ملكية صاحب الأرض ، وليست على المستأجر ، رغم أن دفع المالك لها قد يكون اسمياً ، إلا أنه منذ صدور «لائحة الفدية» لعام ١٨٣٨ ، فإن أصحاب الأرض يدفعون العشور مباشرة ، ويحددون إيجاراً عالياً للغاية ، حتى أن المستأجر ليس أفضل حالاً . كما تقدم بنفس الطريقة ، مئات الأسباب الأخرى التي تكمن وراء هذا الفقر ، وكلها تبرهن على القليل ، شأنها في ذلك شأن تلك السابقة . إن هذا الفقر إنما هو نتيجة أحوالنا الاجتماعية . أما الأسباب فيما عدا تلك الأحوال ، فإنها يمكن أن توجد مع الكيفية التي يعلن الفقر بها عن نفسه ، ولكنها ليست أسباب حقيقة وجوده . إن يعلن الفقر عن نفسه على هذا النحو وليس العكس ، إنما يرجع إلى ماهية هذا الشعب ، وإلى تطوره التاريخي .

إن الإيرلنديين إنما هم شعب ينتمي إلى الأمم اللاتينية في صفته الكلية ، إلى الفرنسيين . وخاصة الإيطاليين ، إن السمات الرديئة في خلقهم ، والتي صورها كارليل ، قد تناولناها سابقاً . دعونا الآن نستمع إلى رجل إيرلندي ، رجل يقترب على الأقل من الحقيقة عن « كارليل » الذي يتعصب للجنس التيوتوني \* .

« إنهم قلقين ومع ذلك خاملين ، أذكاء وقليلي الفطنة ، سريعى الغضب ، نافذى الصبر وعديمى التبصر ، شجعان بالسليقة ، كرماء دون كثير تأمل ، يتأثرون في سرعة للإهانات ويغفرونها ، يقيمون الصداقات ويقلعون عنها ، موهوبين بإفراط عبقرى وتقتير حصيف . »

يتسلط الانفعال والعاطفة على الإيرلنديين ، إن العقل يجب أن ينحني أمامهم . إن طبيعتهم الحسية سريعة الهيجان ، تمنع التأمل والهدوء والنشاط المثابر عن بلوغ التطور — إن مثل تلك الأمة كما تدار الآن ، غير لا ثقة للصناعة كلية . ومن ثم ، فقد أمسكوا بالزراعة ، وظلوا عند أدنى مستوى لها أيضاً . إن تحسين الأرض بتوظيف رأس المال ، لم يكن مطروحاً للتفكير فيه ، في ظل التقسيمات الصغيرة للأرض المقسمة ، ذلك الوضع الذى نشأ منذ عهد مفرط في القدم ، ولم ينشأ هنا بطريقة مصطنعة كما حدث في فرنسا وعلى نهر الراين ، وذلك بتقسيم العقارات الكبيرة \*\*\* . إن ذلك التحسين ، طبقاً « لاليسون » ، يحتاج إلى ١٢٠ جنيهاً استرلينياً ، ليرتفع بالأرض إلى حالة من الخصوبة ، ليست بالقدر العالى الذى بلغته بالفعل في إنجلترا . إن الهجرة الانجليزية ، والتي ربما كان عليها أن ترفع مستوى الحضارة الإيرلندية ، قد إكتفت بأشد صور النهب الوحشى للشعب الإيرلندي .

---

\* « حالة إيرلندا » لندن ، ١٨٠٧ ، الطبعة الثانية ١٨٢١ . كتيب .

\*\* خطأ . لقد كانت الزراعة على نطاق صغير هي الشكل الحائد للزراعة منذ العصور الوسطى . وبذا فإن مزرعة الفلاح الصغير قد ماتت قبل « الثورة » أيضاً . ان الشئ الوحيد الذى غيرته الأخيرة هو ملكيتها ، أى أنها أخذتها من ملاكها الإقطاعيين وحولتها بشكل مباشر أو غير مباشر إلى الفلاحين ( مضافة إلى النسخة الألمانية لعام ١٨٩٢ ) .

وبينما وضع الايرلنديون بهجرتهم إلى انجلترا ، خميرة سوف توثى ثمارها في المستقبل ؛ فإن ما يحمده الايرلنديون الهجرة الانجليزية عليه لقليل .

إن محاولات الايرلنديين إنقاذ أنفسهم من دمارهم الراهن ، قد اتخذت من ناحية شكل الجرائم . إنها الطريقة المتبعة اليوم في المناطق الزراعية ، وهي تكاد توجه دائماً إلى أكثر الأعداء مباشرة ، إلى عملاء أصحاب الأراضى ، أو خدمهم المطيعين ، إلى البروتستانت الدخلاء ، والذين تتكون مزارعهم الكبيرة ، من قطع أرض البطاطس ، التي تخص مئات العائلات التي طردوا منها . إن مثل تلك الجرائم ، متعددة بصورة خاصة في الجنوب والغرب . ويأمل الايرلنديون ، من ناحية أخرى ، في الفرج ، عن طريق الإثارة من أجل إلغاء « الاتحاد التشريعى » مع انجلترا (٢١) . يتضح من كل ما سبق ، أنه على الايرلنديين غير المتعلمين ، أن يروا في الانجليز أسوأ أعدائهم ، وأن أول أمل لهم في التحسن ، هو أن يظفروا بالاستقلال الوطنى . إلا أنه من الواضح أيضاً ، وبنفس القدر ، أن الشقاء الايرلندى ، لا يمكن إزاحته بأى « قانون » « الإلغاء » . إذ أن مثل هذا « القانون » ، على أى حال ، سيعرئ للتو ، حقيقة سبب الشقاء الايرلندى ، والذي يبدو الآن ، على أنه آت من الخارج ، فى حين أنه حقيقة ، موجود فى الداخل . فى تلك الأثناء ، هنالك مسألة مطروحة للبحث ، وهى إن كان تحقيق « الإلغاء » ضرورياً ، لجعل هذا الأمر واضحاً أمام الايرلنديين ، وقبل ذلك ، إن يحقق « المشاقيون » ولا « الاشتراكيون » نجاحاً ملحوظاً فى أيرلندا .

إننى أنهى بأكبر سرعة ، ملاحظاتى عن أيرلندا عند هذه النقطة ، حيث كانت « الإثارة من أجل الإلغاء » عام ١٨٤٣ ومحاولة « أوكونل » وهى الوسائل التي جعلت الشقاء الايرلندى معروفاً على نحو أكثر وأكثر فى ألمانيا .

لقد تعقبنا الآن بروليتاريا الجزر البريطانية عبر كل فروع نشاطها ، ووجدناها تعيش فى كل مكان ، فى حاجة وشقاء ، فى ظل ظروف غير إنسانية على الإطلاق . لقد رأينا السخط وهو ينشأ مع نشأة البروليتاريا ، ينمو ويتطور وينظم . لقد رأينا معارك مفتوحة للبروليتاريا ضد البورجوازية ، معارك دموية

وغير دموية . لقد بحثنا الأسس التي يتحدد طبقاً لها ، مآل وآمال ومخاوف البروليتاريا ، ولقد وجدنا أنه لا إمكانية لتحسين حالهم في المستقبل .

لقد كانت لدينا الفرصة ، هنا وهناك . نلاحظه سلوك البرجوازية تجاه البروليتاريا . ولقد وجدنا أنها تراعى نفسها فقط ، إنها لا تضع في إعتبارها إلا منفعتها الخاصة — وعلى أى حال ؛ وحتى لا نكون غير منصفين ، دعونا نبحث منوال فعلها ، بطريقة أكثر دقة ، إلى حد ما .







## موقف البورجوازية تجاه البروليتاريا

عند الحديث عن البورجوازية، فإننى أتحدث ضمناً عما تسمى بالارستقراطية، إذ أنها طبقة ذات امتيازات ، والارستقراطية تتضاد فقط مع البورجوازية ، ولا تتضاد مع البروليتاريا . والبروليتارى لا يرى فى كليهما غير ذلك الممسك بزمام الملكية — أى البورجوازي . إن كل الامتيازات الأخرى تختفى إزاء امتياز الملكية . إن الفرق الوحيد ، هو أن البورجوازي الخالص ، يرتكز على علاقات نشطة مع البروليتاريين الصناعيين ، وبمعيار ما ، مع البروليتاريين التعدينيين ، وكما زارع مع العمال الزراعيين . بينما تتعامل ما تسمى بالارستقراطية مع جزء من العمال التعدينيين والعمال الزراعيين .

إننى لم أر على الإطلاق طبقة فاسدة الآداب إلى حد بعيد ، طبقة حطت الانانية من قدرها إلى حد لا يرجى منه شفاء ، متآكلة من الداخل إلى درجة كبيرة ، عاجزة عن التقدم إلى مدى بعيد ، مثل البورجوازية الانجليزية ، وإننى أعنى بذلك على وجه الخصوص ، البورجوازية الخالصة خاصة « الأحرار » ، تلك البورجوازية المطالبة بإلغاء « قانون القمح » . إذ بالنسبة لها ، لا شيء موجود فى هذا العالم . بما فيه ذاتها ، إلا من أجل المال . أنها لا تعرف نعيماً غير الكسب السريع ، ولا ألماً غير خسران الذهب \* . إنه لمن المستحيل

---

\* يقدم « كارليل » من « الماضى والحاضر » ( لندن ، ١٨٤٣ ) وصفاً رائعاً للبورجوازية الانجليزية وجشعها المفرز للمال [ وقد ترجمت جزء من هذا الوصف فى « ديموش » — فرانزوسيش جاربوشر ، والى أجيل للقارىء إليها ( ٢٢ ) . ( مضافة فى الطبعة الألمانية ) ] .

حتى ظل هذا الولع والشبق بالكسب ، أن تظل عاطفة إنسانية واحدة أو رأى  
 واحد ظاهر الذيل . حتماً أن هؤلاء البورجوازيين الانجليز أزواج طيبون  
 وأرباب عائلات ، كما أنهم يتمتعون بكل أنواع الفضائل الخاصة الأخرى ،  
 ويبدون أثناء عملية الجماع العادية محتشمين ومحترمين ، شأنهم في ذلك شأن  
 البورجوازيات الأخرى ، وحتى في الأعمال ، فإنهم يتعاملون بطريقة أفضل  
 من الألمان ، إنهم لا يساومون ولا يماحكون كثيراً كما يفعل تجارنا الحقرء ،  
 لكن ، من المستفيد من كل تلك الأمور ؟ إن ما يحدد ذلك فقط في نهاية الأمر ،  
 هو المنفعة الذاتية وخاصة كسب المال . لقد ذهبت إلى « مانشستر » مع واحد  
 من مثل هؤلاء البورجوازيين ، وحدثته عن طريقة البناء السيئة غير الصحية ،  
 والوضع المخيف للأحياء العمالية ، وأكدت له أنني لم أر على الإطلاق ، مدينة  
 مبنية بطريقة رديئة مثل هذه المدينة ، واستمع الرجل في هدوء إلى كلامي حتى  
 النهاية ، وعند الناصية حيث إقترفنا ، قال « ومع ذلك ، فإن هذا المكان يدر  
 قدراً كبيراً من المال ، صباح الخير ، سيدي . » إن البورجوازي الانجليزي لا يهتم  
 على الإطلاق ، إن كان عماله يموتون جوعاً أم لا ، ماذا يربح مالا . إن كل  
 أحوال الحياة تقاس بالمال ، وذاك الذي لا يدر مالا ، إنما هو لغو فارغ ، غير عملي  
 ومثالي . ومن ثم ، فإن الاقتصاد السياسي ، علم الثروة ، هو الدراسة المفضلة  
 عند هؤلاء اليهود تجار المقايضة . إن كل واحد منهم رجل إقتصاد سياسي .  
 لا يوجد شيء إنساني في علاقة صاحب المصنع بعماله ، إنها علاقة إقتصادية بحتة .  
 إن صاحب المصنع إنما هو رأس مال ، وما العامل إلا عمل ، وإن لم يلزم العامل  
 بهذا التجريد ، إن أصر على أنه ليس « عمالاً » ، وإنما هو « رجل » يمتلك من بير  
 ما يمتلك ملكة قوة العمل ، إن وضع في رأسه أنه يجب ألا يسمح لنفسه بأن  
 يباع ويشترى في السوق كسلعة « عمل » ، فإن عقل البورجوازي سيتوقف . إنه  
 لا يستطيع إدراك وجود أية علاقة أخرى مع العمال ، غير علاقة البيع والشراء .  
 إنه لا يرى فيهم بشراً ، بل أيدي ، كما يدعوه في وجوههم على الدوام . إنه يصر ،  
 كما يقول « كارليل » ، على « أن الدفع نقداً » ، هو الصلة الوحيدة بين الرجل والرجل ،  
 بل أن تسعة وتسعين في المائة من العلاقة بينه وبين زوجته ، إنما هي أيضاً مجرد  
 « الدفع نقداً » ، إن المال يحدد قيمة الرجل ، « هذا قيمته عشرة آلاف جنيه » ،

إن هذا الذى لديه مالا « هو أفضل نوع من الناس » ، « إنه ذو نفوذ » ، وما يفعله إنما يقوم به حساباً لشيء ما فى دائرته الاجتماعية . إن روح البائع المتجول تتخلل كل اللغة ، إن كل العلاقات إنما يعبر عنها باصطلاحات عمل ، بتصنيفات إقتصادية . إن العرض والطلب هى المعادلات التى يحكم المنطق « البورجوازي الإنجليزى » طبقاً لها كل حياة الإنسان . ومن هنا كانت المنافسة الحرة فى كل علاقة ، ومن هنا كان شعار « دعه يعمل ، دعه يمر » (٢٣) ، فى الحكومة وفى الطب وفى التعليم ، وعما قريب سيكون فى الدين أيضاً ، كلها تدهورت كنيسة الدولة أكثر فأكثر . إن المنافسة الحرة لن تعانى أى تقييد ، لا رقابة من الدولة ، إن الدولة كلها ماهى غير عبء عليها . إنها ستصل إلى قمة كمالها فى ظل مجتمع فوضوى لا حكومة له ، حيث يكون فى استطاعة كل فرد أن يستغل الآخر بما يرضى هواه \* . وحيث أن البورجوازية ، على أية حال ، لا تستطيع الاستغناء عن الحكومة ، بل يجب أن تملكها ، حتى تقمع الطبقة العاملة التى لاغنى لها عنها بالمثل ، فإنها توجه قوة الحكومة ضد البروليتاريا ، وتظل هى بعيدة عن طريقها قدر المستطاع .

لا تدع أحداً يصدق ، بأى حال ، أن « المثقف الإنجليزى يفاخر علناً بأنانيته إنه على عكس ذلك ، يخفيها تحت أدنى صورة من صور النفاق . ماذا ؟ أثرياء الإنجليز يعجزون عن تذكر الفقراء ؟ هم أولئك الذين أسسوا المؤسسات الإنسانية ، على نحو لا يستطيع أى بلد آخر أن يباهى به ! مؤسسات إنسانية بكل تأكيد ! وكأنكم تقدمون للعمال معروفاً بأن تمتصون دم حياتهم ذاته فى البدايه ، ثم تمارسون عليهم لطفكم وإنسانيتم الزائفة ، واضعين أنفسكم أمام العالم كأفضل المدافعين عن الإنسانية . عندما تغيدون إلى الضحايا المسلوكة واحداً فى المائة مما يخصها ! الصدقة التى تحط مقام هذا الذى يعطى أكثر من ذاك الذى يأخذ ، صدقة تدوس ذلك الذى وطأه الأقدام أعماق وأعماق فى التراب ، صدقة تطالب الذى جرد من مقامه والذى نبذه المجتمع خارجه ، بأن يسلم أولاً آخر ما بقى له وبالذات حقه فى آدميته ، أن يستجدى الرحمة أولاً قبل تنازلاتكم

---

\* أضيفت الكلمات التالية إلى الأصل الألمانى « مثل » ، ( مجتمع ) الصديق ( ستيرنر )  
مثلاً - الناشر .

الرحيمه ، أن يوسم بميسم التحقير على جبينه في صورة صدقة . لكن دعونا نستمع إلى البورجوازية ذاتها ، إذ لم يمض عام منذ قرأت في « المانشستر جارديان » الخطاب التالي إلى رئيس التحرير ولقد نشر هذا الخطاب كوجهة نظر معتدلة وطبيعية تماماً: السيد رئيس التحرير - منذ وقت مضى وشوارعنا الرئيسية مسكونة بحشود من المتسولين ، الذين يحاولون إيقاظ شفقه المارة ، فأكثر الطرق وقاحة وإثارة للضيق ، وذلك بعرض ملابسهم الرثة البالية ، وجراحهم وتشوهاتهم المقززة . وفي اعتقادي ، أن المرء عندما يدفع ، ليس فقط ضريبة الفقراء ، بل ويتبرع بسخاء أيضاً للمؤسسات الخيرية ، فإنه يكون قد فعل الكثير للحصول على حق عدم تعريضه لمثل هذه المضايقات الكريهة السليطة . ولماذا تدفع مثل هذه الضرائب العالية لإعاشة شرطة البلدية ، إن كانوا لا يقومون حتى بحمايتنا ، ليصبح الذهاب والإياب في سلام من المدينة أمر كئيب لنا ؟ أمل أن يكون نشر هذه السطور في جريدتكم واسعة الانتشار ، عاملاً لحمل السلطات على إزاحة هذا الازعاج ، وسأظل - خادمتكم المطيعة .

« سيده »

ها هي أمامك البورجوازية الانجليزية خيرة بدافع من المصلحة الذاتية ، إنها لا تعطي شيئاً بصورة نهائية ، ولكنها تنظر إلى هباتها على أنها مسألة تجارية ، إنها تساوم الفقراء قائلة : « إنني إن كنت أنفق الكثير على المؤسسات الخيرية ، فإنني بذلك أبتاع حق ألا أعرض للمضايقة أبعد من هذا ، وإنتم بذلك مقيدون على أن تظلوا في جحوركم المعتمية ، وألا تستثيروا أعصابي المرهقة بعرضي تماسكتكم ، ستقطعون الرجاء كما كنتم من قبل ، لكنكم ستقطعون الرجاء في السرد دون أن أن يراكم أحد ، هذا ما أحتاج إليه وما ابتغيه بتبرعي للملجأ بعشرين جنيهًا ! » . إنها لشائنة تلك الصدقة التي يقدمها البورجوازي المسيحي ! وهكذا تكتب « سيده » ، لقد فعلت حسناً بتوقيعها هذا ، حسناً أنها فقدت الشجاعة على أن تسمى نفسها امرأة ! ولكن ، إن كانت « السيدات » هكذا ، فماذا يكون حال « السادة » ؟ سيقال إن تلك حالة فردية ، لكن لا ، إن الخطاب السابق يعبر عن الغالبية العظمى من البورجوازية الانجليزية ، وإلا لما كان رئيس التحرير قد هب له ، وكان لابد من الرد عليه ، وهو الشيء الذي إنتظرت في الأعداد التالية دون جدوى . أما بالنسبة لمدي فاعلية حب الخير هذا للإنسانية ، فإن « كانون

باركينسون ، نفسه يقول ، إن الفقراء يعيشون الفتراء أكثر بكثير عما تغيبهم  
البورجوازية ، ومثل تلك الإغاثة المعطاة من بروليتارى مخلص ، يعرف هو نفسه  
ماذا يعنى أن تكون جوعاناً ، كما تعتبر مشاركته في وجبته الهزيلة تضحية حقيقية ،  
لكنها تضحية محتملة في سعادة ، إن لمثل هذا العون رينده المختلف تمام الاختلاف  
عن تلك الصدقة التي يقذف بها البورجوازي المترف في لا مبالاة .

إن البرجوازية تتظاهر بالبذل الذي لا حده في سبيل الانسانية بطريقة  
مرائية في أوجه أخرى أيضاً ، ان تطلبت مصالحها ذلك ، كما يحدث في سياستها ،  
وإقتصادها السيامي . حتى مضت حتى الآن قرابة خمس سنوات ، وهي تعمل  
كي تثبت للعمال أنها تكافح من أجل إلغاء دقوانين القمح ، من أجل مصالحهم  
فقط . إلا أن خلاصة الموضوع هو كما يلي : إن قوانين القمح تحافظ على سعر الخبز  
مرتفعاً عن سعره في بلدان أخرى ، وينتج عن ذلك بالتالى رفع الأجور ، إلا أن  
هذه الأجور المرتفعة ، تجعل منافسة أصحاب المصانع للأمم الأخرى التي يوجد  
بها الخبز بسعر أرخص وبالتالي الأجور ، أكثر صعوبة . أما عند إلغاء دقوانين  
القمح ، ، فإن سعر الخبز سيهبط ، وتقرب الأجور من تلك التي في البلدان  
الأوربية الأخرى ، ذلك هو الأمر كما يجب أن يكون واضحاً لكل امرئ ، من  
عرضنا السابق للمبادئ التي تتحدد الأجور طبقاً لها . إن صاحب المصنع يستطيع  
أن يكون أكثر تأهباً للمنافسة ، وسوف يزداد الطلب على البضائع الانجليزية ،  
ومعها الطلب على العمل . ونتيجة هذا الطلب المتزايد ، فإن الأجور في الواقع  
لا بد وأن ترتفع بعض الشيء ، ويعاد تشغيل العمال العاطلين ، ولكن إلى متى ؟  
إن فائض السكان في إنجلترا ، وخاصة في أيرلندا ، لكاف لإمداد الصناعة  
الانجليزية بكل ما تحتاجه من عمال حتى إن قضاغف عددهم ، وتوازن في سنوات  
قليلة ، تلك الميزة المحدودة لالغاء دقوانين القمح ، ، وبلى ذلك بالضرورة أزمة  
جديدة ، ونعود بالضرورة إلى النمطة التي بدأنا منها ، بينما يكون المحرك الاصلى  
للصناعة قد تسبب في تلك الائتاء في زيادة عدد السكان . كل هذا يعرفه  
البروليتاريون جيداً ، وهم قد قالوه لأصحاب المصانع ويجاباً لوجه ، إلا أن أصحاب  
المصانع لا يرون أمامهم رغم ذلك ، إلا الميزة القورية التي تعود عليهم بها دقوانين  
القمح ، . إنهم لاضيق أفقاً ، من أن يروا ذلك ، حتى من أجل أنفسهم ،  
إذ لا يمكن أن تنشأ ميزه من إتخاذ هذا الاجراء ، حيث أن منافستهم لبعضهم



البعض سرعان ما تجبر ربح الفرد على العوده إلى مستواه القديم ، وبالتالي يستمر صراخهم في العمال ، بأن ما يصبه أعضاء حزب « الأحرار الأثرياء » من مئات وآلاف الجنيهات في خزانة « العصبة المعادية لقانون القمح » ، إنما هو من أجل الملايين الجائعة ، بينما يعرف الجميع أنهم يرسلون الجبن بعد الزيد فقط ، وأنهم يعتمدون على تحصيل كل ذلك مرة أخرى ، في السنوات العشر الأولى بعد إلغاء «قوانين القمح» . إلا أن العمال لم يعودوا يخذعون بواسطة البورجوازية ، خاصة منذ عصيان عام ١٨٤٢ . إنهم يطلبون من كل من يقدم نفسه كمحب لما يعود عليهم بالخير ، بأن يعلن أنه في جانب « ميثاق الشعب » كدليل على صدق معتقداته ، وهم بفعل ذلك ، إنما يحتجون ضد كل عون خارجي ، حيث أن « الميثاق » إنما هو طلب للقوة حتى يعاونوا هم أنفسهم . وكل من يرفض أن يعلن عن نفسه هكذا ، يعلنونه عدواً لهم ، وهم محتين تماماً في عملهم هذا ، سواء كان هذا الشخص عدو صريح أو صديق زائف . إن « العصبة المعادية لقانون القمح » قد استخدمت ، بالإضافة إلى ذلك ، أشد الخدع والافتراءات دناءة لكسب تأييد العمال . لقد حاولت أن تثبت لهم ، أن السعر النقدي للأجر ، يتناسب تناسباً عكسياً مع سعر القمح ، إن الأجور تكون عالية عندما تكون الحبوب رخيصة ، والعكس صحيح ، إنه زعم تظاهرت بإثباته بأشد الحجج سخفاً ، وهو في حد ذاته أمر أشد سخفاً من أي أمر آخر صدر عن فم « مشغل بالإقتصاد » . وعندما فشل هذا في تحقيق الغرض ، وعد العمال بأقصى نعم يمكن لزوم الطلب المتزايد في سوق العمل ، وتمادى رجال بالفعل إلى حد حمل نموذجين من أرغفة الخبز عبر الشوارع ، كتب على أكبرهما « رغيف الثماني بنسات الأمريكي » ، والأجور أربع شلنات في اليوم ، ، وعلى أصغرهما « رغيف الثماني بنسات الإنجليزي » ، الأجور شلنان في اليوم . إلا أن العمال لم يضلوا . إنهم يعرفون سادتهم ورؤسائهم حتى المعرفة .

إلا أنه يجب وضع خبرة البورجوازية في الاعتبار ، حتى يمكن قياس ديف هذه الوعود قياساً صحيحاً . لقد رأينا من خلال تقريرنا كيف تستغل البورجوازية العمال بكل طريقة يمكن للعقل أن يتصورها ، من أجل منفعتهم الخاصة . ورأينا ، حتى من قبل ذاك ، على أي حال ، كيف يسيء البورجوازي



الفرد معاملة البروليتارى لحسابه الخاص . دعونا نرجع الآن إلى الطريقة التي  
 تتصرف بها البورجوازية كحزب ، كسلطة الدولة تجاه البروليتاريا . من الواضح  
 غاية الوضوح أن المقصود من كل التشريعات إنما هو حماية هؤلاء الذين يحوزون  
 الملكية ضد هؤلاء الذين لا يحوزون . إن القوانين ضرورية فقط ، لأن هنالك  
 أشخاص في الوجود لا يمتلكون شيئاً ، ورغم أن هذه الضرورة معبر عنها مباشرة  
 في « قوانين قليلة » فقط ، مثل تلك القوانين ضد المتشردين والصعاليك ، والتي  
 تعتبر البروليتاريا فيها مهددة الحقوق بالمثل ، إلا أن كراهية البروليتاريا هي  
 بالأساس كيد أساس القانون ، حتى أن القضاة وخاصة قضاة الصلح ، الذين هم أنفسهم  
 بورجوازيون ، وهم الذين غالباً ما يحتك بهم البروليتارى ، يجدون هذا المعنى في  
 القوانين دون حاجة إلى مزيد من الحثثيات . وأن حدث واستقدم أو حتى  
 استدعى رجل ثرى للظهور أمام المحكمة ، فإن القاضى يعتذر لإضطراره لفرض  
 مثل ذلك الإزعاج الشديد عليه ، وهو يتناول المسألة بطريقة ودودة قدر الإمكان ،  
 وأن إضطراراً لدانة المتهم ، فإنه يفعل ذلك وهو في غاية الأسف . . . الخ الخ ،  
 ونهاية كل ذلك غرامة هزيلة ، يلقبها البورجوازي بازدراء فوق المنضدة  
 ثم ينصرف . ولكن إن وقع بئس فقير في مثل ذلك الوضع ، كأن يتورط في  
 الظهور أمام « قاضى الصلح » ، فإنه دائماً على وجه التقريب — ما يقضى الليلة  
 في المخفر مع حشد من أقرانه — إنه يعتبر مذنباً منذ البداية ، إن دفاعه ينهض  
 بازدراء جانباً « أوه ! إنما نعرف السبب » ، وتوقع عليه غرامة يعجز عن دفعها  
 ويصبح عليه أن يحمل بقيمتها على الآلة الدوارة لتعذيب المذنبين عدة شهور .  
 وإن لم يكن مستطاعاً إثبات شيء ما ضده ، فإنه يرسل إلى الآلة الدوارة لتعذيب  
 المذنبين ، ولا شيء دون ذلك ، باعتباره محتالاً ومتشرداً . إن تعصب « قضاء  
 الصلح » وخاصة في الريف ، أمر يفوق كل وصف . إن الوضع السائد اليوم ،  
 وبصورة كبيرة ، هو نشر كل القضايا ، غير الفاضحة إلى حد كبير ، عن طريق  
 الصحف دون تعقيب . ولا شيء آخر غير ذلك يمكن توقعه . إن هؤلاء  
 الأوغاد لا يفعلون ، من ناحية ، شيئاً غير تأويل القانون طبقاً لمرام المزارعين ،  
 وهم أنفسهم ، من ناحية أخرى ، بورجوازيون ، يرون أساس النظام الحقيقى  
 كله ، إنما هو في مصالح طبقتهم . كما أن سلوك الشرطة ، يماثل سلوك « قضاء  
 الصلح » . ربما يفعل البورجوازي ما يشاء ، ويظل رجل الشرطة مهذباً عل

الدوام معه ، متشبيهاً بالقانون في دقة ، إلا أن البروليتاري يعامل بغلظة ووحشية ، إن فقره يلقي عليه شبهة ارتكاب كل أنواع الجرائم ، كما يعزله عن العدالة الشرعية في مواجهة أى نزوة من نزوات المختصين بالقانون ، ومن ثم ، فإن أشكال الحماية القانونية غير قائمة بالنسبة له ، إن الشرطة تشق طريقها عنوة إلى داخل منزله دون أى مرسوم ، تقبض عليه وتسببه . ولا يتضح مدى ضآلة وجود الجانب القانوني بالنسبة للعامل ، وكيف عليه أن يتحمل عادة كل أثقال القانون دون أن يتمتع بمزاياه ، إلا عندما يكون هنالك إتحاد للعمال قبل إتحاد التعدين ، ويكون هنالك رجل مثل « روبرتس » في خدمة هذا الإتحاد .

إن الطبقة القابضة على الملكية ، ما زالت حتى ساعتنا الراهنة ، تناضل ضد المشاعر الأفضل التي توجد عند هؤلاء الذين لم يعفوا بعد ضحية للانانية ، وتسعى لاستعباد البروليتاريا أكثر فأكثر . إن اليد توضع على قطعة بعد قطعة من الأرض المشاع ، ثم تبدأ زراعة تلك الأرض ، إنها عملية تؤدي إلى تقدم الزراعة عامة ، إلا أن البروليتاريا تضار من ذلك بصورة كبيرة ، إذ كان في وسع الفئراء أن يرعوا حماراً أو خنزيراً أو أوزاً ، حيثما توجد أرض ما تزال على المشاع ، كما كان هنالك مكان للأطفال والشباب ، حيث يمكنهم أن يعيشوا ويلعبوا في الهواء الطلق ، إلا أن هذا قد انتهى بالتدريج . لقد قلت إيرادات العامل ، وأخذ الشبان في الذهاب إلى حوانيت البيرة ، بعد أن حرموا من ملاعبهم . إن البرلمان يوافق في كل دورة من دوراته ، على عدد من القرارات الخاصة بتسوير الأرض وزراعتها . ولقد حدث خلال دورة ١٨٤٤ عندما قررت الحكومة أن تجبر كل محتكرى السكك الحديدية ، على جعل السفر للعمال ممكناً ، وذلك بتناسب تكاليفه مع دخولهم ، بواقع بنس عن كل ميل ، واقترحت الحكومة لذلك تسدير قطار يومى للدرجة الثالثة فوق كل سكة من السكك الحديدية ، حدث خلال تلك الدورة أن اقترح « الأب الموقر » ، « أسقف لندن » إستثناء يوم الأحد من هذه القاعدة ، في حين أن يوم الأحد هو اليوم الوحيد الذى يستطيع فيه العمال الذين يعملوا ، أن يسافروا ، وبذا يترك السفر مفتوحاً أمام الأثرياء ، مغلقاً في وجه الفقراء . إلا أن هذا الإقتراح قد أسقط ، على أى حال ، حيث كان سافراً ومباشراً إلى حد لا يمكنه من المرور في البرلمان . ليس لدى متسع لسرد الهجمات المستترة العديدة ضد البروليتاريا ، حتى تلك الهجمات الخاصة

بدورة واحدة . إن عرض واحدة منها وقعت في دورة ١٨٤٤ ، لابد وأن يكون كافياً . إن عضواً حاملاً من أعضاء البرلمان ، شخصاً ما يدعى « مستر ميلز » ، قد اقترح لائحة بدت مقبولة نسبياً ، تنظم العلاقة بين المالك واللاجير . واهتمت الحكومة بهذه اللائحة التي أحييت إلى لجنة . في تلك الاثناء نشب الإضراب بين عمال التعدين في الشمال . وقام « روبرتس » بمروره الظافر عبر إنجلترا ، بصحبة عماله الذين أطلق سراحهم . واكتشف عندما كتبت اللجنة تقريرها عن اللائحة ، أن شروطا معينة شديدة الظلم قد دست فيها ، وخاصة أحد هذه الشروط ، والذي ينعم على المستخدم بسلطة إستدعاء أى عامل ، يكون قد تعاقد شفاهة أو تحريراً على القيام بأى عمل كان ، أمام « قاضى الصلح » ، في حالة رفضه العمل أو في حالة سلوكه أى سلوك آخر سىء ، وأن يحكم عليه بالسجن شهرين أشغال شاقة ، بناء على قيام المستخدم بحلف اليمين ، أى بناء على قيام الشاكي بحلف اليمين . ولقد أثارت هذه اللائحة ثائرة العمال إلى أقصى درجاتها ، زد على ذلك أن « لائحة العشر ساعات » كانت تعرض في ذات الوقت على البرلمان ، وكانت باعثاً على الجهر بحالة من الهياج الشديد . لقد عقدت مئات الاجتماعات ، وأرسلت مئات العرائض التي كتبها العمال إلى لندن ، إلى « توماس دنكومب » ، ممثل مصالح البروليتاريا . كان هذا الرجل ، بإستثناء « فرانك » ، ممثل « إنجلترا الشابة » ، هو المعارض الوحيد للنشط ضد اللائحة . إلا أن الراديكاليين الآخرين ، ما أن رأوا الشعب يجهر بالعداء ضد اللائحة ، حتى بدأوا في الزحف إلى الأمام واحداً بعد الآخر ، كلا يأخذ مكانه إلى جانب « دوكومب » ، وحيث أن « البورجوازية الليبرالية » لم تكن تمتلك الشجاعة اللازمة للدفاع عن اللائحة في مواجهة الاضطراب السائد بين العمال ، فإنها قد فشلت فشلاً مشيناً .

في تلك الاثناء ، كان قانون « مالتوس للسكان » و « قانون الفقراء الجديد » الذي صيغ بناء عليه ، هما ابرز إعلان لحرب البورجوازية ضد البروليتاريا . لقد أشرنا مرات عديدة إلى « نظرية مالتوس » ، ويمكننا إجمال نتائجها النهائية في الكلمات المعدودة التالية ؛ إن الأرض مسكونة دائماً بعدد من السكان أكثر مما يلزم ، لذا لابد وأن يسود الفقر والشقاء والضيق والفجور ، ذلك هو القضاء والقدر الأبدى للجنس البشرى ، قدره في أن يوجد في أعداد كبيرة للغاية ، ومن

ثم في طبقات متباعدة ، بعضها ثرى متعلم وعلى خلق ، والبعض الآخر فقير تقرّيباً ، مكرب جاهل وبلا خلق . ومن ثم يلى ذلك في التطبيق ، أن الصدقات وضرائب الفقراء — حتى تتكلم كما يجب — إنما هي هراء ، وقد استخلص « مالتوس » نفسه هذه النتيجة ، إذ أنها تفيد فقط في المحافظة على الزيادة في فائض السكان وإنعاشه ، هذا الفائض تسحق منافسته أجور الذين يعملون ، وأن تشغيل الفقراء عن طريق « الأوصياء على قانون الفقراء » ، إنما هو أمر غير مرغوب فيه بالمثل ، حيث أن كمية محدودة من منتجات العمل يمكن إستهلاكها ، كما أن كل عامل عاطل يعطى عملاً بهذه الطريقة ، يدفع بعامل آخر مازال يعمل حتى الآن ، إلى « طالة إجبارية » ، ولذا فإن المشروعات الخاصة تعاني من تكلفة الصناعة الناتجة عن « قانون الفقراء » ، أى أن المشكلة برمتها في كلمات أخرى ، هي ليست في كيفية إعالة فائض السكان ، ولكن في كيفية كبجه إلى أبعد مدى ممكن . إن « مالتوس » يعلن في إنجليزية واضحة ، أن حق الحياة — وهو حق زعم فيما سبق أنه من صالح كل امرئ في العالم — إنما هو لغو وهراء . إنه يقتبس كلمات أحد الشعراء الذى يقول ، أن الفقير يأتى إلى ولية « الطبيعة » فلا يجد بساطاً ممدوداً من أجله ، ويضيف أن الطبيعة « تأمره بأن يغرب عنها » ، لأنه لم يسأل المجتمع قبل مولده ، إن كان هو مرغوباً فيه أم لا ، تلك النظرية الآن ، هي النظرية المفضلة عند كل بورجوازي إنجليزي صادق مع نفسه ، وهذا أمر طبيعى للغاية ، حيث أنها تقدم لهم أشد الأعذار تضليلاً ، كما أن لها بالإضافة إلى ذلك ، نصيب وافر من الصحة في ظل الظروف القائمة . إذن ، لو كانت المشكلة ، ألا يجعل « فائض السكان » هذا مفيداً ، ألا يحول إلى سكان نافعين ، أن يترك فقط للجوع حتى الموت بأقل طريقة مشيرة للإعتراض ، وأن يمنع من أن يكون لديه أطفال عديدين للغاية ، — كانت هذه المشكلة بالتأكيد ، مشكلة بسيطة للغاية ، شريطه أن يشعر فائض السكان هذا ، بأنه زائد عن الحاجة ، وأن عليه تحمل الموت جوعاً ، في وداعة . لكن ، كيفما كان الأمر ، فليس هنالك من أمل مباشر ، في نجاح البورجوازية الرحيمة ، في إدخال هذه النزعة بين العمال ، رغم ما تبدله من جهود عنيفة . إن العمال مقتنعون بأنهم ، بأيديهم المجتهدة ، إنما هم الشيء اللازم والضرورى ، وأن الرأسماليين الأثرياء ، والذين لا يفعلون شيئاً ، إنما هم فائض السكان .

وحيث أن الأثرياء ، على أى حال ، هم الذين يقبضون على كل السلطة ، فإنه من المحتم على البروليتاريين أن يدعنوا ، وإن هم لم يقرروا بذلك عن طيب خاطر ، فإن القانون سيقوم بإظهار أنهم شيء زائد عن اللازم بالفعل . لقد تم هذا عن طريق « قانون الفقراء الجديد » . إن « قانون الفقراء الجديد » قد استند إلى لائحة ١٦٠١ ( الثالث والأربعين « لاليزايدث » ) ، والتي إنطلقت — بحسن نية — عن تصور بأن من واجب الأبرشية أن تنهيا لأعالة الفقراء . إن كل من لا عمل له يتلقى معونة ، واعتبر الفقير أن الأبرشية كفيلة بحمايته من المجاعة . لقد طالب بمعونته الأسبوعية حتى له ، وليس كمنة ، وغدا هذا في النهاية أكثر بكثير مما تحتمله البورجوازية . وفي عام ١٨٣٣ ، عندما وصلت البورجوازية بالضبط إلى السلطة عن طريق « لائحة الإصلاح » . وعندما كان العوز في المناطق الريفية قد بلغ بالضبط قمة تطوره ، بدأت البورجوازية في إصلاح « قانون الفقراء » طبقاً لوجهة نظرها . وعينت لجنة لدراسة « قانون الفقراء » ، فكتشفت عن العديد من أشكال إساءة استخدام تلك القوانين . لقد اكتشف أن كل الطبقة العاملة في الريف في حالة عوز ، وأنها تعتمد بصورة أو أخرى ، على الضرائب التي يتسليون منها المعونة عندما تنخفض الأجور ، لقد وجد أن هذا النظام الذي يعال به العاطلون ، ويخفف به عن سيء الأجور ، ووالدى الأسرة الكبيرة ، وآباء الأطفال غير الشرعيين الذين يلزم دفع نفقة لهم ، وجد أن الفقراء عامة ، قد اعترف به كأمر يحتاج حماية ، وجد أن هذا النظام كان يدمر الأمة . وجد أنه —

« قيد على الصناعة ، مكافأة عن زيجة مغامرة ، حافز على تزايد السكان ووسيلة لموازنة تأثير تزايد السكان على الأجور ، وجد أنه إحتياط قومي لتشيط الأمين والمجتهد ، لحماية الكسول والفاقد والمغامر ، وأنه قصد به تحطيم روابط الحياة العائلية ، وتعويق تراكم رأس المال بشكل منسق ، ويعثرة ذلك الذي تراكم بالفعل ، وتحطيم دافعى الضرائب . يضاف إلى ذلك ، تشجيعه إنجاب الأطفال غير الشرعيين ، وذلك من أجل الحصول على زاد من الغذاء » .

( كلمات تقرير مندوبى « قانون الفقراء » ) \*

\* إقتباسات من بلاغ تم تسلمه من « مندوبى لجنة قانون الفقراء » ، نشرته السلطة . لندن ، عام ١٨٣٣ .



إن هذا الوصف لتأثير « قانون الفقراء القديم » لصحيح تمام الصحة ، إن المعونة تحتضن الكسل ، وتزيد من « فائض السكان » . من الواضح تمام الوضوح أن الفقير مجبر في ظل الظروف الراهنة ، على أن يكون أنانيا . وعندما يصبح في وسعه أن يختار ، فإنه سيفضل ألا يفعل شيئاً عن أن يعمل ، طالما سيحيا نفس الحياة في كلتا الحالتين . لكن ماذا ينتج عن ذلك ؟ إن ما ينتج عن ذلك ، هو أن أوضاعنا الاجتماعية الراهنة ستكون عديمة الجدوى ، وليس كما ينتهى مندوبو اللجنة المالتوسيين ، إلى أن الفقر جريمة ، وإلى أنه ما دام كذلك ، فيجب أن يبتلى بالعقوبات البشعة ، التي ربما تكون نذيراً للآخرين .

إلا أن هؤلاء المالتوسيين العقلاء ، كانوا مقتنعين تمام الإقناع بصدق نظرتهم ، حتى أنهم لم يترددوا ولو للحظة واحدة ، في إلقاء الفقراء في السرير « البروكروستياني » \* لمفاهيمهم الاقتصادية ، ومعاملتهم بأشد صور الوحشية إثارة للإشمئزاز . أن إقناعهم « بمالتوس » والمشايعين للمنافسة الحرة ، التي ترى أنه من الأفضل أن ندع كل أمرى ليعتنى بذاته ، ليجعلهم يفضلون نحو « قوانين الفقراء » محو كلياً . إلا أنهم على أى حال ، لا يملكون الشجاعة أو السطوة لفعل هذا ، ولذا فإنهم قد اقترحوا « قانوناً للفقراء » يقوم قدر المستطاع على مذهب « مالتوس » ، ومع ذلك ، فإن هذا القانون أشد همجية من همجية « دعه يعمل » ، حيث يتدخل بنشاط ، في الحالات التي يكون فيها هذا الأخير مستكيناً . لقد رأينا كيف وصف « مالتوس » الفقر ، أو على الأصح الحاجة إلى العمل كجريمة ، تحت عنوان « الرائد عن الزوم » ، وأوصى أن يعالج بالتأديب جوعاً حتى الموت . لم يمكن أعضاء اللجنة همجين إلى هذا الحد ، فلموت الناتج عن المجاعة مباشرة ، كان شيئاً رهيباً للغاية حتى بالنسبة لأعضاء لجنة « قانون الفقراء » ، أنهم يقولون : « حسناً ، لقد وهبناكم أيها الفقراء حق الوجود ، حق الوجود فقط ، لكنكم ، لم تحصلوا على حق التكاثر ، ولا على حق الوجود كما يليق بالبشر ، انتم

---

\* المقصود هنا ، هو أنهم يحجمون الفقراء طبقاً لمفاهيمهم ، و « بروكروستياني » هذا كان قاطع طريق ، يضع ضحاياه في سريريه ، ويقطع ما طال من أطرافهم ، أو يشد ما قصر ، حتى يناسبوا سريريه ( المترجم ) .



وباء ، وإن لم نستطع التخلص منكم كما نتخلص من الأوبئة الأخرى فإنكم ستشعرون على الأقل بأنكم وباء ، كما يجب على الأقل ، أن تمنعوا من تقديم « فائض » آخر إلى العالم ، إن ذلك سيحدث . إما بشكل مباشر وإما عن طريق ترغيب الآخرين في الكسل والبطالة . ستعيشون ، ولكن عيشوا كإنذار مخيف لكل هؤلاء الذين يمكن أن تجول بخاطرهم رغبات في أن يصيروا فائضاً .

وطبقاً لذلك ، قدموا « قانون الفقراء الجديد » ، والذي وافق عليه البرلمان عام ١٨٣٤ ، وما زال ساري المفعول حتى يومنا هذا . لقد ألغيت كل معونة نقدية أو في صورة مؤن . إن المعونة الوحيدة التي سمح بها ، هي الإدخال في دور تشغيل الفقراء ، والتي تم تشييدها في الحال . ووضعت القواعد المنظمة لدور تشغيل الفقراء هذه ، أو كما أطلق الناس عليها « باستيلات » قانون الفقراء ، بصورة تفزع كل امرئ لديه أقل من أمل في الحياة ، دون الحاجة إلى هذا الشكل من الصدقة العامة ، ولتؤكد أن المعونة ستطبق في أشد الحالات ضرورة ، وبعد فشل كل جهد آخر . لقد أقيمت دور تشغيل الفقراء ، كإشباع أمان للإقامة ، يمكن أن يبتكرها الذكاء « المالتوسي » الرائق . إن الطعام أردأ من طعام أسوأ العمال أجراً أثناء إشتغاله ، والعمل أشد قسوة ، وإلا فضل العمال دار تشغيل الفقراء عن وجودهم التعس خارجها . إن تلك الدور نادراً ما تقدم اللحم ، وخاصة اللحم الطازج ، إنها تقدم البطاطس أساساً ، كما تقدم أسوأ ما يمكن من الخبز وحساء الشوفاء ، وقليل من البيرة أو لا بيرة . إن طعام السجناء المجرمين كعادة أفضل من طعام تلك الدور ، حتى أن المعوزين غالباً ما يرتكبون جنحة ما حتى يزج بهم في السجن . حيث أن دار التشغيل سجن أيضاً ، إذ أن ذلك الذي لا ينهي ماكلف به من عمل ، لا ينال شيئاً يأكله ، وهذا الذي يود الخروج ، لا بد وأن يطلب إذناً ، وهو إذن ربما يمنح له أو لا يمنح ، وذلك طبقاً لسلوكه أو هوى المفتش ، الدخان ممنوع وكذا إستلام العطايا من الأقارب والأصدقاء من خارج الدار ، إن المعوزين يرتدون بزة خاصة بدار تشغيل الفقراء ، وهم يسلمون —

---

\* نسبة إلى سجن الباستيل ( المترجم ) .

عاجزين ودون أن يمنحوا ما يعوضهم — إلى مزاج المفتش الشاذ . إنهم يكلفون بأعمال لا جدوى منها على وجه التقريب ، حتى لا ينافس عملهم تلك المشروعات التي في الخارج ، إن الرجال يحطمون الأحجار ، والقدر المطلوب منهم ، هو ذلك « القدر الذي يستطيع رجل قوى أن يجزه بالجهد في يوم » ، وتقوم النساء والصبيات والمسنون بجمع نسالة حبال القنب ، التي لا أعرف لأي غرض تافه تجمع . وتفرق العائلات لمنع « الفائص » من التكاثر ، ولمنع الوالدين « فاسدى الأخلاق » من التأثير على أطفالهم ، إن الزوج يوضع في جناح ، والزوجة في جناح آخر ، والأطفال في جناح ثالث ، ولا يسمح لهم برؤية بعضهم البعض إلا في أوقات محددة وعلى فترات طويلة ، وإلا عندما يكونوا ، في رأى المسؤولين ، قد سلكوا سلوكاً طيباً . كما لا يسمح للنزلاء بالزيارة إلا بموافقة المسؤولين وفي حجرات الاستقبال ، ولا يتم إتصالهم عامة بالعالم الخارجى ، إلا بعد إذن وتحت إشراف ، وذلك لفصل العالم الخارجى عن دنس العوز الموجود داخل تلك الباستيلات .

ومع هذا ، فالمفروض رغم كل ذلك ، أن يكون الطعام صحياً والمعاملة إنسانية . إلا أن قصد القانون صريح للغاية بالنسبة لهذا التكليف والكيفية التي يتفد بها . إن « مندوبى لجنة قانون الفقراء » وكل البورجوازية الإنجليزية يخدعون أنفسهم إن هم صدقوا أنه في الإمكان تنفيذ هذا القانون دون هذه النتائج . إن المعاملة التي يشير بها الخطاب المصاحب للقانون ، لتتناقض تنافض مباشراً مع روحه . إذ طالما أن القانون في جوهره ، ينادى بأن الفقراء مجرمون ، وأن دور تشغيل الفقراء سجون ، وأن نزلاءها إنما هم خارج حظيرة القانون ، خارج حظيرة الإنسانية ، عناصر مثيرة للإشمئزاز والقرف ، فإن كل الأوامر المناقضة لذلك تصبح أموراً لا جدوى منها . إن روح القانون ، وليس الخطاب المصاحب له ، هي التي تتبع في التطبيق عند معاملة الفقراء ، كما هو موضح في الأمثلة القليلة التالية :

« عوقب صبي في الخامسة من عمره ، في دار تشغيل الفقراء في «جرين ویش» في صيف عام ١٨٤٣ ، بالحبس في حجرة الموتى ، حيث كان عليه أن ينام على أغشية التوابيت . وفرضت نفس العقوبة على فتاة صغيرة ، في دار تشغيل الفقراء

في « هيرن » لأنها بللت السرير ليلاً ، ويبدو أن هذا الأسلوب من العقاب هو الأسلوب المفضل . إن دار تشغيل الفقراء تلك ، والتي تقع في واحدة من أجمل مناطق « كنت » لدار غريبة ، إلى حد أن نوافذها لا تطل إلا على الفناء فقط ، ماعدا نافذتين تم فتحهما منذ عهد قريب ، فأمدنا النزلاء بلمحة على العالم الخارجي .

إن الكاتب الذي يروي هذه الوقائع في « الأيلوميناتد ماجازين » ، ينهى وصفه بالكلمات التالية « إن كان الله يعاقب الرجال عن جرائمهم ، كما يعاقب الإنسان الإنسان لفقره ، إذن فالويل لبني آدم » .

مات في نوفمبر ١٨٤٣ رجل من « ليسستر » . كان هذا الرجل قد طرد من دار تشغيل الفقراء في « كوفنتري » ، قبل ذلك بيومين . إن تفاصيل معاملة الفقراء في هذه المؤسسة تثير الاشمئزاز . لقد كان الرجل « جورج روبسون » مصاباً بجرح في كتفه ، وقد أهمل علاج هذا الجرح إهمالاً تاماً . كان يعمل على المضخة مستخدماً ذراعه السليمة ، وكان يعطى له طعام دار تشغيل الفقراء المعتاد فقط ، وكان هو عاجز تمام العجز عن هضمه بسبب جرحه غير الملتئم وضعفه العام ، مما جعله بالضرورة يزداد ضعفاً ، وكان يعامل بوحشية أكثر كلما اشتكى أكثر .

وعندما حاولت زوجته أن تحضر له نصيبها من قطرات البيرة ، وبخت وأجبرت على أن تشربها بنفسها في حضور واحدة من السجانات . لقد أصابه المرض ، إلا أنه لم يتلق معاملة أفضل . وفي النهاية ، وبناء على طلبه ، طرد من الدار تصحبه زوجته بعد أن أهدن وحتر أشد تحقير . ومات في « ليسستر » بعد ذلك بيومين ، نتيجة الجرح الذي أهمل ، والطعام الذي أعطى له ، والذي كان عسير الهضم بالنسبة لإمرئ . تلك حالته ، كما شهد بذلك الطبيب الجراح الذي حضر التحقيق في سبب الوفاة . وعندما طرد سلبت له خطايات تحوى نقوداً ، وكانت تلك الخطايات قد ظلت على حالها ستة أسابيع ، ثم فتحها أحد المفتشين طبعاً لواحد من قواعد المؤسسة ! إن مثل تلك الوقائع افاضحة تحدث في « بريمنجهام » أيضاً ، حتى أنه أرسل أخيراً في عام ١٨٤٣ ، بموظف رسمي لتحقيق الحالة هناك ، فوجد أن أربعاً من المتشردين قد حبسوا عرالياً في حجرة مظلمة تحت بئر السلم ، لمدة تتراوح من ثمانية إلى عشرة أيام . كانوا يحرمون من الطعام ، في غالب الأحوال ، حتى الظهيرة ، وقد حدث هنا في ظل أنسي فصول استة ، كما وجد أن صديقاً صغيراً قد

مر بكل درجات العقاب المعروفة في المؤسسة ، فقد حبس أولاً في حجرة الكراكيب الرطبة المظلمة الضيقة ، ثم حبس في جحر الكلاب مرتان ، كانت الثانية منهما لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالى ، ثم حبس نفس المدة الزمنية في جحر قديم للكلاب ، وكان هذا الجحر أسوأ من الجحر الآخر ، ثم حبس في حجرة المتشردين ، وهي جحر قذر كريه الرائحة ، به دكك خشبية للنوم ، حيث وجد الموظف الرسمى ، أثناء تفتيشه ، صبيين آخرين يرتعدان من البرد وهما في أسما بالية ، وكان عليهما أن يقضيا هناك ثلاثة أيام . كان يحبس في جحر الكلاب هذا في غالب الأحوال ، سبعة أفراد ، وفي حجرة المتشردين عشرون رجلاً ، مكديسين معاً . كانت النسوة أيضاً ، توضع في جحر الكلاب ، لأنهن يرفضن الذهاب إلى الكنيسة ، ولقد حبست إحدى النسوة في حجرة المتشردين أربعة أيام ، والله يعلم في أية صحبة كانت ، حدث ذلك بينما كانت المرأة مريضة وتتعاطى دواء آكام وضعت امرأة أخرى في قسم المجانين لتأديبها ، رغم أنها كانت عاقلة تمام العقل . ولقد كشف تحقيق مماثل ، أجرى في دار تشغيل « باكتون » في « سوفولك » ، في يناير من عام ١٨٤٤ ، عن أن امرأة ضعيفة العقل قد أستخدمت كممرضة ، وبالتالي كان عليها أن ترعى ، بينما كان المصابون الذين يعانون ، والذين يتعضون الليل في غالب الأحوال قلقين ، أو الذين يحاولون القيام ، كانوا يربطون بقوة بحبال تمرر من فوق الأغطية وتحت أسرر ، حتى توفر على الممرضات مشقة السهر ليلاً . ولقد وجد أحد المرضى ميتاً ، وهو مقيد على تلك الحال ، ومات في دار « سانت بانكراس » لتشغيل الفقراء في لندن ( حيث تصنع القمصان الرخيصة كما ذكرنا آنفاً ) أحد المصابين بالصرع مختقاً ، عندما أصابته أزمة وهو في السرير ، ولم يخف أحد له جدته . وينام في السرير الواحد ، في نفس تلك الدار ، من أربعة إلى ستة صبية ، بل وثمانية في بعض الأحيان . وفي دار « شورديتش » لتشغيل الفقراء ، وضع رجل مع آخر ، مصاب بالحمى ومريض للغاية ، في سرير واحد ترتع فيه الحشرات . وحبست امرأة في دار « بثنال جرين » لتشغيل الفقراء ، وهي في الشهر السادس من حملها ، ومع طفلها البالغ من العمر عامين في حجرة الإستقبال ، من ٢٨ فبراير حتى ٢٠ مارس ، دون السماح لها بدخول دار التشغيل ذاتها ، ودون أن يكون بالحجرة أى أثر لسرير أو وسائل إشباع أشد الضرورات الطبيعية . ولقد توصل زوجها ، والذي كان هو نفسه قد أحضر إلى دار التشغيل ، لإطلاق

سراح زوجته من هذا السجن ، فسين هو أيضاً أربع وعشرين ساعة على الحبس والماء ، جزاء له على وقاحته . وفي دار « سلو » لتشغيل الفقراء قرب « وندسور » كان يرقد رجل يعاني سكرات الموت في سبتمبر ١٨٤٤ . وسافرت زوجته إليه ، فوصلت في منتصف الليل ، وأسرعت إلى دار التشغيل فرفض السماح لها بالدخول . لم يسمح لها برؤية زوجها إلا في صباح اليوم التالي ، و فقط في حضور سجانة ، وكانت السجانة تفرض وجودها على الزوجة في كل زيارة لاحتمة ، طاردة إياها بعد مرور نصف ساعة على الزيارة . وفي دار تشغيل الفقراء في « ميدلتون » في « لانكشاير » ، كان ينام اثنتي عشر ، وفي بعض الأحيان ثمانية عشر ، معوزاً من كلا الجنسين في غرفة واحدة . إن هذه المؤسسة ليست خاضعة لقانون الفقراء الجديد ، لكنها تدار طبيماً لللائحة قديمة خاصة ( لائحة جيلبرت ) ، ولقد أقام المفتش في هذه الدار مصنفاً للبيرة لحسابه الخاص . وأحضر من « ستوك بورت » ، في ٣١ يوليو ١٨٤٤ ، رجل في الثانية والسبعين من عمره أمام قاضي الصلح ، لرفضه تكسير الأحجار ، وإصراره على ذلك ، بسبب كبر سنه وركبته المتصلبة ، لم يكن لائقاً لهذا العمل . وعيلاً عرض القيام بأي عمل يناسب قدرته الجسدية ، لقد حكم عليه بالعمل أسبوعين على آلة الدوارة لتعذيب المذنبين . ووجد موظف رسمي يقوم بالتفتيش في دار تشغيل الفقراء في « باسفورد » أن الملامات لم يتم تخييرها منذ ثلاثة عشر أسبوعاً ، والقمصان منذ أربعة أسابيع ، والجوارب منذ عشرة شهور ، حتى أنه لم يكن هنالك غير ثلاثة صبية من خمسة وأربعين لديهم جوارب ، وكانت كل قمصانهم مهلهلة ، والسرر مكتظة بالحشرات ، وأدوات المائدة تغسل في دلو قدر المياه . وأصاب بواب في دار تشغيل للفقراء في غرب « لندن » ، أربع فتيات بالزهرى ولم يلמד ، واحة جز آخر فتاة طرشاء بكاء في سريره أربعة أيام وليالي ، وما زال مبهتياً عليه .

وفي الموت كما في الحياة ، يلقي بالفقراء إلى الأرض كواش مصابة . إن أرض « سان بريدس » في لندن ، لدفن المعوزين ، هي أرض غرق ، تستخدم كمقبرة منذ أيام « تشارلس الثاني » ، وهي مليئة بأكوام العظام ، أن المعوزين ، يلقي بهم كل يوم أربعاء في حفرة يبلغ عمقها أربعة عشر قدماً ، عليها قسيس يثرثر باللائحية بأنصى سرعة ، وتغطي الحفرة بغطاء مفكك ، حتى تفتح في الأربعاء القادم ، وتملأ بالجنث طالما في الإمكان حشر واحدة أخرى فيها ، ولذا يلوث العفن المتولد كل



الجوار . وتقع مدافن المعوزين في « مانشستر » أمام « المدينة القديمة » على نهر « الايرك » ، وتلك هي أيضاً مكان وعبر موحش ، شقت سكة حديدية عبره منذ عامين تقريباً . ما مدى صراخ البورجوازية ورجال الدين على هذا التدنيس ، إن كانت تلك المقبرة ، مقبرة محترمة ! إلا أنها كانت مدافن المعوزين ، مكان راحة راحة المنبوذين والفائض ، ولذا لا يشغل أحد نفسه بها . إن أحداً لم يفكر ولو لبرهة ، في نقل الأجساد التي تعفنت جزئياً إلى الجانب الآخر من المقابر ، كانت تكس حيث هي ، وكان يدفع بالأكوام منها إلى قبور جديدة ، حتى أن المياه كانت تنشع من الأراضي الموحلة ، حبل بالمواد العفنة ، وتتلأ الجوار بأشد الغازات خطراً وإثارة للإشمزاز . إننى لأستطيع أن أصف الوحشية المتميزة التي صاحبت ذلك الأمر بتفاصيل أكثر من تلك .

هل يمكن أن يندهش أى امرئ ، من أن الفقراء يعتذرون عن قبول المعونة العامة في ظل تلك الظروف ؟ من أنهم يموتون جوعاً ولا يدخلون هذه المستشفيات ؟ من أن لدى تقارير حالات أفراد ماتوا جوعاً بالفعل ، إذ عندما رفض الأوصياء أعلامهم معونة وهم خارج دور التشغيل ، عادوا إلى منازلهم المتعسة ، وماتوا جوعاً ، بدلاً من أن يدخلوا هذا الجحيم . إلى هذا الحد حقق مندوبو لجنة قانون الفقراء غرضهم . وفي نفس الوقت ، فإن دور تشغيل الفقراء قد كثفت على أى حال ، أكثر من أى إجراء آخر اتخذته الحزب الحاكم ، كراهية الطبقة العاملة للقباضين على الملكية ، والذين هم بشكل عام ، معجبون أشد الإعجاب بـ « بقانون الفقراء الجديد » .

لا يوجد من « نيوكاسل » إلى « دوفر » إلا صوت واحد بين العمال . هو صوت الكراهية ضد القانون الجديد . لقد قننت البورجوازية في هذا القانون ، مفهومها عن واجباتها قبل البروليتاريا بوضوح تام ، حتى أن أغبي الأغبياء قد عرف قدر هذا القانون حق المعرفة . إن هذا المفهوم ، والذي يحدد أن الطبقة التي لا تملك إنما توجد فقط بغرض إستغلالها ، وأن عليها أن تموت جوعاً عندما يصبح القابضين على الملكية في غير حاجة لإستخدامها ، هذا المفهوم لم يقن من قبل بمثله هذه الصراحة والجسارة . ومع ذلك ، فإن ذلك لقانون نفسه ، هو الذي عاون إلى حد بعيد ، في زيادة سرعة الحركة العمالية ، وخاعة في نشر الميثاق .



وحيث أنه ينفذ في الريف على أوسع نطاق ، فإنه ييسر بذلك تطور الحركة البروليتارية الناشئة في المناطق الزراعية .

دعني أضيف قانوناً مماثلاً ، يسرى مفعوله في إيرلنده منذ عام ١٨٣٨ ، إنه يقدم مأوى لثمانين ألف معوز . هنا أيضاً ، جعل القانون من نفسه أمراً كريهاً ، وكان من الممكن أن يكون مكروهاً بصورة أكثر كثافة ، لو حظى بوضع مماثل في الأهمية ، ما لوضع القانون في إنجلترا . إلا أنه في بلد يوجد به مليونان ونصف من البروليتاريين ، ما هو الفرق الذي يفعله سوء المعاملة لثمانين ألف منهم ؟ أما في اسكتلندا ، مع إستثناءات محلية ، فلا توجد « قوانين للفقراء » .

إنني آمل بعد هذه الصورة عن « قانون الفقراء الجديد » ونتائجه ، ألا يرى أحد فيما قلته عن البورجوازية الإنجليزية ، أية خشونة أو قسوة زائدة . إن البورجوازية التي تتجسد في هذا الإجراء العام ، باعتبارها القوة الحاكمة ، تتمن نواياها الحقيقية ، وتكشف عن الغرض من تلك المعاملات الأقل شأنًا مع البروليتاريا ، والتي يلقى الموم فيها بوضوح على الأفراد . ان كون هذا الإجراء لم ينبع عن أى قطاع بمفرده من البورجوازية ، وأنه يتمتع بموافقة الطبقة كلها ، أمر تثبته المناقشات البرلمانية لعام ١٨٤٤ . لقد صدق « حزب الأحرار » على « قانون الفقراء الجديد » ، ويدافع عنه « حزب المحافظين » ، وعلى رأسه رئيس وزرائه ، الذي لم يغير في «لائحة إصلاح قانون الفقراء» لعام ١٨٤٤ ، إلا بعض الصغائر لتأفقه . إن أغلبية من «الأحرار» قد دعمت اللائحة ، وأغلبية من المحافظين قد وافقت عليها ، وقد أعطى « اللوردات النبلاء » موافقتهم في كل مرة . وبذلك يتم صراحة إبعاد البروليتاريا عن الدولة والمجتمع ، وبذلك ينادى علناً بأن البروليتاريين ليسوا بشراً ، ولا يستحقون أن يعاملوا كما يعامل البشر . دعونا نترك البروليتاري\* الإمبراطورية لبريطانية أن يظفروا من جديد ، بحقوقهم الإنسانية \* .

---

\* منعا لسوء الفهم والاعتراضات المترتبة عليه ، كان على أن رأى الحديث عن البورجوازية كطبقة ، وأن كل تلك الحقائق المنسوبة إلى الأفراد ، إنما تخدم فقط كدليل على طريقة تفكير وعمل « الطبقة » . ثم فإني لم أدخل في الفروق بين الأقسام المختلفة ، في جزئيات وأحزاب الطبقة ، والتي لها دلالة تاريخية ونظرية فقط . وفي وسعني لفس السبب =

ذلك هو حال الطبقة العاملة الإنجليزية كما عرفتها خلال واحد وعشرين شهراً، عن طريق الرؤية، من خلال التقارير الرسمية، وتقارير أخرى موثوق بها. إننى عندما أسمى هذه الحالة، بالحالة التى لا يمكن إحتمالها البتة، كما فعلت كثيراً فى الصنجات السابقة، فإننى لست الوحيد الذى يفعل ذلك. لقد أعلن «جاسكال» مبكراً عام ١٨٢٣، أنه قد يأس من مخرج سلمى، وأن ثورة تلى ذلك أمر ممكن الحدوث. وفسر «كارليل» عام ١٨٢٣، «الميثاقية» والنشاط الثورى للعمال، على أساس أنه أمور ناشئة عن الشقاء الذى يعيش العمال فيه، وأن الذى أدهشه فقط، هو جلوسهم هكذا ساكنين ثمانى سنوات طوال إلى «وليمة البراسكة» (٢٤)، تلك التى أنحفقتهم بها البورجوازية الليبرالية بوعود فارغة. وأعلن، عام ١٨٤٤، أن مهمة تنظيم العمل يجب أن تبدأ عل الفور.

== أن أذكر ولكن بشكل عرضي، العدد العليل من البورجوازيين الذين ظهروا كاستثناءات شريفة. هؤلاء، من ناحية، هم «الراديكاليين» البارزين، والذين هم فى الغالب «ميثاقين»، مثال بعض أعضاء «مجلس العموم» القليلين، أصحاب المصانع «هيندلى» عن (أشتون) و (فييلدت) عن (تودموردوت) (لافكشاير)، ومن ناحية أخرى (أعضاء حزب المحافظين) الإنسانيين، والذين نظموا أنفسهم منذ عهد قريب «كإنجلترا الشابة»، ومن بينهم «أعضاء البرلمان» «ديزرائيل»، «بورت ويك»، «فيراند» و «لورد جون ما نرز» . . . الخ. إن «لورد أشلى» أيضاً يتعاطف معهم. إن أمل «إنجلترا الشابة» هو إرجاع «إنجلترا المرحية» بساتها المتألفة وإقطاعها الرومانسى. إن هذه المسألة بالتأ كيد أمر مضحك ولا يمكن تحقيقه، لأنه قدح فى كل التطور التاريخى إلا أن النية الطيبة والشجاعة، فى مقاومة الأوضاع القائمة والإجفاف السائد، وإدراك داءة حالنا الراهنه، لأمر يستحق شيئاً ما، على أى حال. ويقف على حدة تماماً «توماس كارليل». ذلك الرجل الانجليزى نصف لألمانى، الذى هو أصلاً من «حزب المحافظين»، والذى يذهب أبعد من كل هؤلاء الذين ذكروا من قبل. لقد سبر غور الموضوع الاجتماعى بطريقة أكثر عمقا من أى بورجوازي انجليزى آخر [آمل] «كارليل» الذى وجد الطريق الصحيح، أن يكون قادراً على اتباعه. وله منى ومن عديد من الألمان الآخرين أطيب الأمنيات (مخدوفة من النسخة الانجليزية المصرح بها) [الا أن ثورة فبراير صيرته رجوعاً تماماً ان سخطه العادل ضد «المعادين»، قد تحول الى عدااء غاضب يتألف من مد التاريخ الذى ألقى به الى الشاطئ (أضيفت الى النسخة الألمانية عام ١٨٩٢)]

« إن ظلت أوروبا ، أو إنجلترا على الأقل ، مسكونة أبداً طويلاً . »

وتقول « التايمس » ، « أول جريدة في أوروبا » في يونيو ١٨٤٤ :

« الحرب للقصور ، السلام للأكواخ ، تلك معركة ، صرخة رعب يمكن أن تدوى في كل مكان من بلدنا . فليحذر الأثرياء ! » .

\* \* \*

دعونا في تلك الأثناء ، نستعرض فرص البورجوازية . إن إمكانية نجاح الصناعة الأجنبية وخاصة الأمريكية أمام المنافسة الإنجليزية ، حتى بعد إلغاء قوانين التمتع ، أمر لا بد منه ، خلال سنوات قليلة في أسوأ الأحوال . إن الصناعة الألمانية تبذل الآن جهوداً ضخمة ، وتلك الأمريكية قد تطورت بخطى عملاقة . إن أمريكا بمواردها التي لا تنضب ، وحقول فخمة وحديد ما التي لم تسمح بعد ، وثروتها من الطاقة المائية التي لا مثيل لها ، وأنهارها الصالحة للملاحة ، وهي على وجه الخصوص ، بسكانها النشطين ذوي اعزم إن قورنوا بما عليه الإنجليز من لكاعة وفتور — قد خلقت في أقل من عشرة أعوام ، صناعة تنافس إنجلترا بالفعل في السلع القطنية السميكة ، وهي قد أخرجت الإنجليز من أسواق أمريكا الشمالية والجنوبية ، وأصبح لها أسواقها في الصين جنوباً إلى جنب مع إنجلترا . وإن كان هنالك بلد مهياً للإمساك باحتكار للصناعة ، فإن ذلك البلد هو أمريكا . وإن حدث وقهرت الصناعة الإنجليزية نتيجة ذلك — وهو أمر لا مفر منه في غضون العشرين سنة القادمة ، إن استمرت الأوضاع الحالية دون تغيير — فإن غالبية البروليتاريا لا بد وأن تصبح فائضاً إلى الأبد ، ولن يكون أمامها من إختيار سوى الموت جوعاً أو التمرد . عمل تفكر البورجوازية الإنجليزية في هذا الأمر المحتمل ؟ العكس صحيح ، إذ أن إقتصادها المفضل « ماك كولك » ، يدرس طلابه ، أن بلداً شاباً مثل أمريكا ، وهي بلد غير مسكونة كما يجب ، لا يمكنها أن تدير صناعة ناجحة ، أو تحلم بمنافسة بلد صناعي قديم مثل إنجلترا . وأنه كان جنونا من الأمريكيين أن يقوموا بتلك المحاولة ، لأنها لن تعود عليهم إلا بالخسارة ، وأنه من الأفضل كثيراً لهم ، أن يثابروا على

زراعتهم ، وعندما يكونون قد وضعوا بلدهم كله تحت المحراث ، فربما يأتي حينئذ وقت يستطيعون فيه إدارة صناعة مربحة . هذا ما يقوله الإقتصادي الحكيم ، والبورجوازية كلها تمجده ، بينما يضع الأمريكيون أيديهم على سوق بعد الآخر ، وفي الوقت الذي قام فيه مضارب أمريكي جسور ، بإرسال شحنة من السلع القطنية الأمريكية إلى إنجلترا ، حيث بيعت كوارادات مصدرة .

ولكن إلى ما يقود الزعم بأن إنجلترا قد احتفظت باحتكارها للصناعات ، وبأن مصانعها تتضاعف بصورة أبدية ؟ إن ذلك الزعم يقود إلى استمرار الأزمات التجارية ، ونموها بصورة أكثر عنفاً ، وأكثر بشاعة ، مع إتساع الصناعة وتضاعف البروليتاريا . إن البروليتاريا سوف تزداد بنسبة مطردة ، نتيجة الدمار المتصاعد للطبقة الوسطى الدنيا ، وللخطوات العملاقة التي يركز بها رأس المال نفسه في أيدي القلة ، وسوف تشمل البروليتاريا كل الأمة باستثناء عدد قليل من المليونيرات ، إلا أنه سوف تأتي مرحلة في هذا التطور ، تدرك فيها البروليتاريا مدى سهولة الإطاحة بالسلطة القائمة ، وحينئذ سوف تلي هذا الإدراك ثورة .

إلا أنه من غير المتوقع ، على أي حال ، احتمال قيام أي واحد من تلك الأوضاع المفترضة . إن الأزمات التجارية ، وهي أعظم مركبات كل تطور مستقل للبروليتاريا ، ستقصر في الغالب أمد العملية ، إنها تفعل فعلها في توافق مع المنافسة الأجنبية ، والدمار المستحكم للطبقة الوسطى الدنيا . إنني أعتقد أن الشعب لن يحتمل أكثر من أزمة واحدة أخرى . إن الأزمة التي ستقع في عام ١٨٤٦ أو عام ١٨٤٧ ، ستجلب معها في الغالب ، إلغاء «قوانين القمح» \* وفرض «الميثاق» . إن أي حركات ثورية يمكن أن تنجم عن الميثاق إنما هي أمر يمكن إدراكه . ولكن ، عندما يحين زمن الأزمة التالية ، والتي يجب أن تنشب عام ١٨٥٢ أو عام ١٨٥٣ قياساً على الأزمات التي سبقتها ، ما لم تعطل ، ربما بإلغاء «قوانين القمح» ، أو تعجل بتأثير مؤثرات أخرى كالمنافسة الأجنبية — فإن

---

\* وقد فعلت ذلك بالفعل .

الشعب الإنجليزى سيكون قد عانى ما يكفى من نهب الرأسماليين له ، وتركه للموت جوعاً حين يصبح الرأسماليون فى غير حاجة لخدماته . إن البرجوازية الإنجليزية إن لم تتوقف حتى ذلك الحين لتفكر — وتشير كل الدلائل إلى أنها لن تفعل ذلك بالتأكيد — فإن ثورة لا يمكن مقارنتها بأى ثورة حدثت من قبل ، سوف تلى ذلك . إن البروليتاريين وقد دفع بهم إلى اليأس ، سوف يسكون بالمشعل الذى بشرهم به « ستيفنس » ، وسيحل انتقام الشعب فى غضب شديد . لن يكون هياج ١٧٩٣ بقادر على إعطاء فكرة حقيقية عن هذا الانتقام . إن حرب الفقراء ضد الأغنياء ستكون أشد حرب دموية قامت على طول المدى ، حتى أن ائتلاف جزء من البرجوازية مع البروليتاريا ، وحتى إصلاح البرجوازية بشكل عام ، لن يكون مجدياً . وإلى جانب ذلك ، فإن تغيير لب البرجوازية ، يمكن أن يضى فقط ، إلى الحد الذى يماثل بالضبط فتور الوسط المحيط ، إن أشد الائتلافات تصميمياً بين البرجوازية والعمال ، سيشكل فقط « جيروند » جديد ، يموت خلال مجرى التطور الهائل . إن إيداء طبقة كاملة أمر لا يمكن أن يوضع جانباً كمعطف قديم ، على أقل تقدير بالنسبة لهؤلاء البرجوازيين المتمكنين ، ضيق الأفق ، الأنانيين . تلك هى كل الاستنتاجات التى يمكن استخلاصها بأكبر قدر من اليقين ، إنها نتائج ، مقدماتها حقائق لا يمكن نكرانها ، جزئياً من التطور التاريخى ، وجزئياً من الحقائق الفطرية فى الطبيعة الإنسانية . إن إمكانية التنبؤ فى إنجلترا ، حيث كل العناصر المكونة للمجتمع محددة بشكل واضح ، ومنفصلة بشكل حاد ، أسهل من إمكانية التنبؤ فى أى مكان . لا بد للثورة أن تجيء ، إن الوقت بالفعل قد تأخر تماماً للسعى إلى حل سلمى إلا أنه يمكن للثورة أن تكون أكثر ليناً مما تم التنبؤ به فى الصفحات السابقة . إن هذا يتوقف على أى حال ، على تطور البرجوازية أكثر مما يتوقف على البرجوازية . إنها مسألة نسبية ، فبقدر ما تستوعب البروليتاريا المبادئ الاشتراكية والشيوعية ، بقدر ما تقلل الثورة من سفك الدماء والانتقام الوحشية . إن الشيوعية تقف فى الأساس ، فوق الشق الذى بين البرجوازية والبروليتاريا ، إنها تدرك فقط دلالاته التاريخية بالنسبة للحاضر ، لكنها لا تسلم بما يبرر به من أجل المستقبل : إنها ترغب ، فى الحقيقة ، فى اجتياز تلك الهوة ، من التخلص من

كل العداوات الطبقيّة ، ومن ثم فإنها تدرك كما ثبتت سخط البروليتاريا نحو مضطهدها كضرورة ، طالما ظل الصراع قائماً ، كأهم مرتكز لحركة عمالية في بدايتها ، إلا أنها تتجاوز هذا السخط ، لأن الشيوعية هي قضية إنسانية وليست قضية العمال وحدهم . يضاف إلى ذلك ، أن أى شيوعى لا يرغب في الانتقام لنفسه من الأفراد ، أو يؤمن بشكل عام ، أن في مكنة البورجوازي الفرد أن يفعل خلافاً هو فاعل بالفعل ، في ظل الظروف القائمة . إن الاشتراكية الإنجليزية أى الشيوعية ، تركز مباشرة على عدم مسؤولية الفرد . وبالتالي ، فإنه كلما استوعب العمال الإنجليز الأفكار الشيوعية كلما بدت مرارتهم الحالية تزيد مما يجب . إذ لو استمرت تلك المראה على عنفها الراهن فهي لن تنجز شيئاً . كما يفقد فعلهم المعادى للبورجوازية عنفه الوحشى بصورة أكثر . وفي الحقيقة ، لو كان في الإمكان جعل البروليتاريا كلها شيوعية قبل أن تنشب الحرب ، فإن النهاية ستكون سلمية للغاية ، إلا أن ذلك لم يعد ممكناً ، فقد فات الوقت . إننى أعتقد ، أنه خلال ذلك ، قبل نشوب الحرب المكشوفة المعلنه للفقراء ضد الأغنياء ، سيتوفر بين البروليتاريا إدراك ذكى كاف للمسألة الإجتماعية ، يمكن الحزب الشيوعى ، وبمساعدة الأحداث ، من هزيمة العنصر الوحشى للثورة ، وأن يمنع حدوث « ثيرميدور تاسع » . إن الخبرة التى عانها الفرنسيون لن تكون عبثاً على أى حال ، كما يضاف إلى ذلك أن غالبية قادة « الميثاقين » هم شيوعيون بالفعل . وحيث أن الشيوعية ، تنقف فوق النزاع بين البورجوازية والبروليتاريا ، فإنه سيكون من الأيسر على العناصر البورجوازية الافضل ( والى هى على أى حال قليلة بصورة محزنة ، وفي الإمكان القيام بالبحث عن مجتدين ، وسط الجيل الصاعد فقط ) ان تألف معها ، عن أن تألف مع الميثاقية البروليتارية الخالصة .

إن كانت تلك النتائج لم ترسخ ، خلال العمل الحالى ، بصورة كافية ، فربما تكون هنالك فرصاً أخرى ، لإثبات أنها نتائج ضرورية للتطور التاريخى للإنجلترا . إلا أننى أزعّم ، أن هذه الحرب ، حرب الفقراء ضد الأغنياء ، التى تجرى حالياً بالقلماعى وبشكل غير مباشر ، سوف تصبح حرباً مباشرة وعامة . إن الوقت متأخر للغاية بالنسبة لحل سلمى . إن الطبقات تتسم بصورة



حادثة أكثر فأكثر ، إن روح المقاومة تتخلل العمال ، والمرارة تتكاثف ،  
إن مناوشات حرب العصابات قد تركزت في المعارك الأكثر أهمية ، وعمما  
قريب ، سيكون باءث طفيف على تحريك الإنهيار التاجي . وحينئذ ، سوف  
تندوى حقاً صرخة الحرب عبر الأرض : « الحرب على القصور ، السلم  
على الكواخ » — إلا أن الوقت حينذاك ، سيكون قد فلت على الأغنياء ،  
ليحذروا .





## ملحوظات

١ — كتب « انجلز » هذا الكتاب في « بارمن » ، في المدة ما بين سبتمبر ١٨٤٤ ومارس ١٨٤٥ . لقد درس « انجلز » حال البروليتاريا الإنجليزية عندما عاش في إنجلترا من نوفمبر ١٨٤٢ إلى أغسطس ١٨٤٤ . كان ينوي في بادئ الأمر أن يتناول هذا الموضوع في فصل واحد ، في عمل عن التاريخ الاجتماعي لإنجلترا ، والذي كان بصدد كتابته ، وعلى أي حال ، فإن إدراك الدور الخاص للبروليتاريا في المجتمع البورجوازي ، إقتضى من « أنجلز » أن يكتب كتاباً منفصلاً ، يتقصى حال الطبقة العاملة في إنجلترا .

لقد نشر الكتاب أول ما نشر في « ليبزيج » عام ١٨٤٥ ، وظهرت الطبعة الألمانية الثانية عام ١٨٩٢ . وفي تلك الأثناء ، رخص رسمياً بنشر طبعتين مترجمتين إلى الإنجليزية ، واحدة منهما في نيويورك عام ١٨٨٧ ، والأخرى في لندن عام ١٨٩٢ . ولقد كانت كلا الطبعتين الأمريكيتين والإنجليزية معنونة بـ « حال الطبقة العاملة في إنجلترا » ، في عام ١٨٤٤ . ولم يدخل انجلز أي تغييرات جوهرية على النص الأصلي عندما كان يعد طبعات جديدة من كتابه ، إلا أنه رأى ، أنه من الضروري الإشارة في ملحقات الطبعة الأمريكية ( ١٨٨٧ ) ، والذي يكاد يكون متضمناً بالكامل في مقدمات الطبعات الإنجليزية والألمانية لعام ١٧٩٢ ، إلى أن « حال الطبقة العاملة في إنجلترا » لا يمكن إعتباره عملاً ماركسياً ناضجاً . كتب يقول « إن هذا الكتاب يظهر في كل موضع ، إنحدار « الاشتراكية الحديثة » ،

---

\* دار التقدم ، ١٩٧٣

\* ترجمه الى الإنجليزية ناشر وا التقدم ، ١٩٧٣ .

من واحد من أسلافها ، من الفلسفة الألمانية . ومن هنا وضع ثقل كبير على  
الرأى الخاص بأن الشيوعية ليست مجرد عقيدة حزب الطبقة العاملة ، ولكنها  
نظرية تحيط بتحرير المجتمع ، بوجه عام ، من أوضاعه الخرجة الحالية ، بما في  
ذلك الطبقة الرأسمالية ، إن هذا الأمر صحيح فقط من الناحية النظرية ، إلا أنه  
باطل تمام البطلان ، بل وأحياناً أسوأ من ذلك ، في التطبيق . إذ طالما أن  
الطبقات الثرية لا تشعر ، ليس فقط ، بالحاجة إلى أى تحرر ، بل إنها تعارض  
بأنشط ، تحرير الطبقة العاملة لنفسها ، فإن الثورة الاجتماعية لا بد وأن تعد  
وأن تحارب بواسطة الطبقة العاملة وحدها . ويمضى « إنجلز » مفسراً لماذا ثبت  
خطأ نبوءته في عام ١٨٤٥ ، عن ثورة إجتماعية وشيكة . إنه يشهد سبب انحطاط  
« الميثاقية » بعد عام ١٨٤٨ ، والانتصار المؤقت للإنتهازية في حركة الطبقة العاملة  
الإنجليزية في الاحتكار الصناعى البريطانى فى السوق العالمى ، ويقول فى ثقة  
« ستكون هنالك اشتراكية مرة أخرى فى إنجلترا » ، بمجرد أن تفقد إنجلترا  
وضعها الاحتكارى .

٢ — إن المناشدة التى وجهها إنجلز « إلى الطبقة العاملة فى بريطانيا العظمى »  
كتبت بالإنجليزية ، حيث أنه كان ينتوى نشرها ككتيب منفصل ، وإرسالها إلى  
بعض قادة الأحزاب السياسية الإنجليزية ، رجال الأدب وأعضاء البرلمان . وقد  
تضمنت الطبعة الألمانية لكتاب « حال الطبقة العاملة فى إنجلترا » ( ١٨٤٥  
و ١٨٩٢ ) النص الأصيل الإنجليزى للمناشدة ، إلا أنها لم تكن متضمنة فى الطبعة  
الأمريكية ( ١٨٨٧ ) والطبعة الإنجليزية ( ١٨٩٢ ) .

٣ — إشارة إلى هبة نساغى « سيليزيا » من ٤ — ٦ يونيو عام ١٩٤٤ .  
وهى أول معركة طبقية بين البورجوازية والبروليتاريا فى ألمانيا ، وإلى  
الاضطرابات التى نشبت بين عمال بوهيميا ، مشتملة النساغين فى ضواحي «براج»  
فى صيف ١٨٤٤ .

٤ — نشر تقرير « الستون » أول ما نشر فى « ويكلى ديسباتش » ، جريدة  
البورجوازية الراديكالية ، ثم أعيد طبعه فى ١٠ أغسطس عام ١٨٤٤ ، فى العدد  
رقم ٣٣٨ فى « نورث ستار » ، جريدة « الميثاقين » .

٥ — نشر تقرير اللجنة ، التي عينها اجتماع موالخني « هودر سفيلد » ، من ١٩ يوليو عام ١٨٤٤ ، من أجل مسح المدينة في ١٠ أغسطس عام ١٨٤٤ في العدد رقم ٣٥٢ من « النورثن ستار »

٦ — « كيرسال مور » — تل قرب « مانشستر » حيث كان العمال يعتمدون اجتماعاتهم عادة . ويطلق « انجلز » على هذا التل اسم الجبل المقدس ، قياساً على « الجبل المقدس » في روما القديمة ، والذي انسحب إليه العوام عام ٤٩٤ قبل الميلاد ، بعد ثورتهم ضد النبلاء ، كما تقول بذلك القصة المروية عن القدماء .

٧ — إن الرسوم المنسوخة في هذا الكتاب وكذا النصوص المناسبة مأخوذة عن الطبعة الألمانية لهذا الكتاب .

٨ — إن تقرير الميجل « د. شامبنيس » ، عن حال العاملين في مرفأ لندن ، قد نشر أول ما نشر في الـ « ويكلي ديسباتش » ، ثم أعيد طبعه في ٤ مايو ١٨٤٤ في العدد ٣٣٨ من الـ « نورثن ستار » .

٩ — نشرت مقالة دكتور « كوين » ، « إحصائيات ضرورية عن « جلاسجو » » تبين حال السكان الصحية ، في أكتوبر ١٨٤٠ في « جريدة جمعية الإحصاء بلندن » .

١٠ — تبني البرلمان البريطاني ، « لائحة مباني العاصمة » ، في عام ١٨٤٤ .

١١ — « قوانين القمح » هي التي أدخلت تعريفة عالية على الحبوب ، بغرض تقييد أو حظر واردات الحبوب ، وقد أقرها البرلمان البريطاني لصالح كبار ملاك الأراضي ، وقد انتهى الصراع بين البورجوازية الصناعية وأصحاب الأراضي الإرسطراطية ، حول قوانين القمح بإلغائها عام ١٨٤٦ . إن هذا الإجراء ، والهبوط الناتج عنه ، في أسعار الحبوب ، قد أدى إلى تخفيض معين في تكاليف الحياة ، وفي النهاية ، إلى تخفيض الأجور ، وزيادة أرباح البورجوازية . إن إلغاء قوانين القمح قد وجهت اللمة إلى أصحاب الأراضي الإرسطراطيين ، وعجلت بتطور الرأسمالية في إنجلترا .

١٢ — إن « قانون ١٨٠٢ » قد قيد ساعات العمل للصديّة الأحداث إلى ١٢ ساعة ، ومنع تشغيلهم ليلاً ، وعلى أي حال ، فإن تطبيقه قد قصر على الصناعات القطنية والصوفية فقط . ولم يوفر رقابة عن طريق معاينة المصنّع . وما حدث في الواقع ، هو أن أصحاب المصانع لم يكثرثوا بهذا القانون .

١٣ — منع « قانون ١٨١٩ » كل تشغيل للأطفال دون سن التاسعة ، في مصانع غزل القطن ونسجه ، كما منع التشغيل الليلي للصديّة وحديث السن دون السادسة عشر . لقد تقرر أن يكون يوم عملهم ، هو إثنتى عشر ساعة ، لا تحتسب فيها فترات إستراحة لتناول الوجبات ، حيث كان أصحاب المصانع أنفسهم هم الذين ينظمون هذه الفترات ، وبذا إستطال يوم العمل من الناحية الفعلية إلى أربعة عشر ساعة وأكثر .

ولقد قرر « قانون ١٨٢٥ » أن فترات الإستراحة الخاصة بالوجبات يجب ألا تزيد في إجمالها عن ساعة ونصف ، وبذا يجب ألا يزيد يوم العمل عن ثلاثة عشر ساعة ونصف . إلا أن هذا القانون أيضاً ، مثله في ذلك مثل قانون ١٨١٩ ، لم يوفر عملية الرقابة على المصنّع ، كما لم يراء ، أصحاب المصانع .

١٤ — « نشرات الأسطول » كتيبات أسبوعية كتبها « أوستلر » — الذي كان محبوساً في « سجن الأسطول » بسبب ما عليه من ديون — في صورة رسائل وقد ظهرت تلك النشرات فيما بين عام ١٨٤١ و ١٨٤٤ .

١٥ — الـ « نورثن ستار » — جريدة بريطانية أسبوعية ، وهى الجريدة المركزية « للميثاقين » . صدرت أول ما صدرت في « ليدز » من عام ١٨٢٧ إلى عام ١٨٥٢ ، وصدرت في « لندن » عام ١٨٤٤ . كان مؤسسها ورئيس تحريرها هو « فيرجس أوكونور » . كما رأس تحريرها أيضاً « جورج هارنى » في الأربعينيات . وقد راسل « انجلز » هذه الجريدة من سبتمبر ١٨٤٥ إلى مارس ١٨٤٨ .

١٦ — إن ترجمة « انجلز » الألمانية لهذا الشعر متضمنة في الطبعة الألمانية



في هذا الكتاب . أن النص الإنجليزي الحالي مأخوذ من الـ « نورثن ستار »  
الصادرة في ١١ فبراير عام ١٨٤٣ .

١٧ — تقول أسطورة « السناتور الروماني مينينيوس أجريبا » ، أنه أغرى  
العوام المتمردين عام ٤٩٤ قبل الميلاد بالإستسلام ، وذلك بأن قص عليهم حكاية  
تمرد أجزاء من الجسم البشري على المعدة .

١٨ — الإشارة هنا إلى الصدمات التي وقعت بين « الميثاقين » والشرطة ،  
والتي دبرتها العناصر الاستفزازية في « شيفيلد » ، « براد فورد » ومدن أخرى ،  
ولقد نتج عن تلك الصدمات عمليات قبض عديدة على قادة الحركة وأعضائها .

١٩ — معاهد الميكانيكا — مدارس ليلية يدرس فيها العمال موضوعات  
معيّنة عن المهارات الفنية والعلوم الأدبية . ولقد ظهرت تلك المدارس أول  
ما ظهرت في عام ١٨٢٣ في جلاسجو ، وفي عام ١٨٢٤ في لندن . وفي أوائل  
الأربعينيات كان هنالك أكثر من مائتي مدرسة من هذه المدارس ، أساساً في مدن  
« لانكشاير » و « يوركشاير » الصناعيتين . ولقد استخدمت البورجوازية هذه  
المدارس في تدريب العمال الصناعيين المهرة التي تحتاج إليهم ، وبالتالي في التأثير  
عليهم .

٢٠ — وافق البرلمان في ١٠ أغسطس عام ١٨٤٢ على القانون الخاص  
بإلغاء تشغيل النساء والصبية الذين تقل أعمارهم عن عشر سنوات ، في العمل تحت  
الأرض .

٢١ — فرضت الحكومة الإنجليزية الاتحاد الانجلو — أيرلندي على أيرلندا  
بعد قمع هبة الأيرلنديين عام ١٧٩٨ . وبما الاتحاد الذي غدا معمولاً به منذ  
١١ يناير ١٨٠١ ، آخر بقايا الحكم الذاتي في أيرلنده ، وألغى البرلمان الأيرلندي .  
إن شعار إلغاء الاتحاد كان أكثر الشعارات شعبية في أيرلنده منذ العشرينيات .  
ولقد تأسست « جماعة الداعين لفسخ الاتحاد » عام ١٨٤٠ .

٢٢ — يشير « أنجلز » إلى مقالته ، « وضع إنجلترا . الماضي والحاضر بقلم » توماس كارليل . ( أنظر أعمال ماركس / أنجلز الجزء الأول صفحة ٥٢٥ — ٥٤٩ ) .

٢٣ — دعه يعمل ، دعه يمر ، شعار الداعين إلى « حرية التجارة » ، أى الاقتصاديين البورجوازيين المدافعين عن حرية التجارة وعدم تدخل الدولة في العلاقات الاقتصادية .

٢٤ — تلميح إلى القصة الواردة في « ليالى العرب » ، والتي تتحدث عن شحاذ كان يستهزأ به بتقديم العديد من الأطباق الفارغة له .

## محتويات\*

صفحة

- إلى الطبقات العاملة في بريطانيا العظمى . . . . . ٥
- تقديم للطبعة الألمانية الأولى . . . . . ٩
- مقدمة . . . . . ١٣
- حال العمال قبل الثورة الصناعية (١٢) دولاب الغزل (١٦) ظهور البروليتاريا الصناعية والزراعية (١٧) آلة الغزل - آلة غزل القطن - المنساج الآلى - الآلة البخارية (١٨) إنتصار العمل الآلى على العمل اليدوى (١٨) تطور القوة الصناعية (١٩) صناعة القطن (١٩) صناعة الجوارب (٢٠) صناعة المخزومات (٢٠) الصباغة - لتبييض - الطباعة (٢١) صناعة الصوف (٢١) صناعة الكتان (٢٢) صناعة الحرير (٢٣) إنتاج وصناعة الحديد (٢٤) استخراج الفحم (٢٥) صناعة الفخاريات (٢٥) الزراعة (٢٥) الطرق، القنوات، السكك الحديدية، القوارب البخارية (٢٦) ملخص (٢٨) ظهور البروليتاريا كعامل له أهمية قومية (٢٨) وجهة نظر الطبقة الوسطى عن العمال (٣٠)
- البروليتاريا الصناعية . . . . . ٣٣
- تصنيف البروليتاريا (٣٣) تركيز الملكية (٣٤) أذرع الصناعة الحديثة (٣٤) تركيز السكان (٣٤)
- المدن الكبرى . . . . . ٣٧
- الانطباع الذى تركه لندن (٣٧) الحرب الاجتماعية وعملية النهب العامة (٣٩) نصيب الفقراء (٣٩) وصف عام للأحياء المكتظة القدرة (٤٠) فى لندن، سانت جيلز والنواحي المجاورة (٤١) هوايت شابيل

(\*) ان فهرس المحتويات الموجود هنا ، انما يرجع الى ذلك الذى أعده انجلز للطبعة الألمانية الأولى « لحال الطبقة العاملة الإنجليزية » صدرت عام ١٨٤٥ . أرقام الصفحات الموجودة بين الأقواس تشير الى صفحات الكتاب الحالى .

(٤٣) داخل مأوى العمال (٤٤) الذين بلا مأوى في الحدائق (٤٦) المأوى  
الليلية (٤٦) دبلن (٤٨) إدينبورج (٥٠) ليفربول (٥٢) المدن الصناعية:  
توتنجهام ، بيرمينجهام ، جلاسجو ، ليدز ، برادفورد ، هودرسفيلد  
(٥٣) لانكشاير : وصف عام (٥٥) بولتون (٦٠) ستوكيورت (٦٠)  
آشتون- تحت - المين (٦١) ستالبيريدج (٦١) وصف تفصيلي لما نشستر:  
الأسلوب العام لبنائها (٦٢) المدينة القديمة (٦٥) المدينة الجديدة (٧٠)  
نمط تشييد الأحياء العمالية (٧٣) الأزقة والشوارع الجانبية (٧٣)  
أنكوتس (٧٥) أيرلندا الصغرى (٧٨) هولم (٨٠) سالفورد (٨١)  
ملخص (٨٢) المنازل المفروشة (٨٤) تكديس السكان الزائد عن الحد  
(٨٥) السكنى في الأقبية (٨٦) ملابس العمال (٨٧) الطعام (٨٨) اللحوم  
الفاسدة (٨٩) غش المؤن (٩٠) الموازين الزائفة ، الخ (٩٢) ختام  
عام (٩٤)

#### ● المنافسة ٩٧ . . . . .

المنافسة بين العمال تقود إلى الحد الأدنى من الأجور ، المنافسة بين  
الذين يقبضون على الملكية تقود إلى حدها الأعلى (١٠٠) إجبار العامل  
عبد البورجرازية ، على بيع نفسه باليوم . وبالساعة (١٠٢) فائض السكان  
(١٠٣) الأزمات التجارية (١٠٤) جيش احتياطي من العمال (١٠٦)  
النصيب العسير لهذا الجيش الاحتياطي خلال أزمة ١٨٤٢ (١١٠)

#### ● الهجرة الأيرلندية ١١٣ . . . . .

الأسباب والأرقام (١١٣) وصف توماس كارليل (١١٤) افتقار النظافة ،  
الفجاجة وإدمان الخمر بين الأيرلنديين (١١٥) تأثير المنافسة الأيرلندية  
والاتصالات الأيرلندية على العمال الانجليز (١١٦)

#### ● النتائج ١١٩ . . . . .

ملاحظات أولية (١١٩) تأثير الظروف السابق وصفها على صحة العمال  
(١٢٠) تأثير المدن الكبرى ، المأوى ، عدم النظافة . . . الخ (١٢١)

الحقائق (١٢٢) السل (١٢٣) التيفوس ، وعلى وجه الخصوص في لندن  
 اسكتلندا وايرلندا (١٢٣) اضطرابات الهضم (١٢٥) نتائج إدمان الخمر  
 (١٢٧) علاجات قائمة على الدجل (١٢٨) دمنعش جودفري ، (١٢٨)  
 الوفيات بين العمال ، وخاصة بين الصبية الصغار (١٣٠) إتهام لبورجوازية  
 بالقتل الاجتماعي (١٣٥) الأثر الناجم عن وضع العمال الخلق والعقلي  
 (١٣٦) غياب الشروط اللازمة للتعليم (١٣٦) قصور المدارس الميالية  
 ومدارس أيام الآحاد (١٣٦) الجهل (١٣٧) أحوال حياة العامل تمنحه  
 نوعاً من التدريب العملي (١٤٠) إهمال التدريب الخلق للعمال (١٤١)  
 القانون هو المعلم الوحيد للتدريب الخلق للعمال (١٤٢) أحوال حياة العامل  
 تغريه بعدم الاكتراث بالقانون والأخلاق (١٤٢) تأثير الفقر و ضمان  
 الوجود المستمر على البروليتاريا (١٤٣) العمل الجبري (١٤٥) تركيز  
 السكان (١٤٦) الهجرة الايرلندية (١٥٠) الفرق بين شخصية العامل  
 والبورجوازي (١٥١) مميزات البروليتاريا على البورجوازي (١٥٢)  
 الجوانب المعاكسة في الصفة البروليتارية (١٥٣) إدمان الخمر (١٥٤)  
 الاختلال الجنسي (١٥٦) إهمال واجبات الأسرة (١٥٧) إغراء النظام  
 الاجتماعي القائم (١٥٧) الجرائم (١٥٨) وصف الحرب الاجتماعية  
 (١٦٠)

## ● فروع من الصناعة مفردة . الأيدي العاملة . . . . . ١٦٣

أثر الآلة (١٦٤) المنساج اليدوي ، النساجون (١٦٥) إحلال الآلة محل  
 عمل الرجال (١٧٠) المرأة العاملة ، تحلل الأسرة (١٧٣) قلب كل العلاقات  
 داخل الأسرة (١٧٤) النتائج الأخلاقية لتشغيل النساء بشكل واسع في  
 المصانع (١٧٧) حق الليلة الأولى (١٧٩) تشغيل الصبية (١٧٩) نظام  
 الصبية تحت التدريب (١٧٩) الإجراءات اللاحقة (١٨٠) الحقائق  
 المرتبطة بتقرير المصنع (١٨١) يوم عمل الطويل (١٨١) العمل الميلي  
 (١٨٢) المقعدون (١٨٢) تشوهات أخرى (١٨٥) طبيعة عمل المصنع  
 (١٨٥) استرخاء كل السكان (١٨٧) أمراض خاصة (١٨٨) شهادة  
 المندوبين (١٨٨) الشيخوخة المبكرة (١٩٠) التأثير الخاص لعمل المصنع

على تركيب جسم الأنثى (١٩١) بعض الفروع الضارة على نحو خاص  
 (١٩٥) الحوادث (١٩٦) فكرة البورجوازية عن نظام المصنع (١٩٩)  
 قوانين المصنع والإثارة من أجل لائحة الساعات العشر (٢٠٣) التأثير  
 المؤدى إلى ضياع الرشد وإفساد الأخلاق لعمل المصنع (٢١٠) العبودية  
 (٢١١) قوانين المصنع (٢١١) نظام أجر العامل صنفاً لا أجراً (٢١٤)  
 نظام الكوخ (٢١٤) مقارنة بين قن ١١٤٥ مع العامل الحر في عام ١٨٤٤  
 (٢١٧)

## ● باقى فروع الصناعة . . . . . ٢٢٣

نساجو الجوارب (٢٢٣) صناعة المخيمات والدانتيل، (٢٢٥) صباغو  
 البفنة (٢٢٨) قاطعو الأقمشة القطنية الوبرية (٢٣٠) نساجو الحرير  
 (٢٢١) السلع المعدنية (٢٣٣) بيرمينجهام (٢٣٤) ستافوردشاير (٢٣٦)  
 شيفيلد ٢٢٩ إنتاج الآلة (٢٤٢) الفخاريات في شمال ستافوردشاير  
 (٢٤٢) صناعة الزجاج (٢٤٤) الحرفيون (٢٤٥) النساء الحائكات  
 وصانعات الملابس (٢٤٦)

## ● الحركات العمالية . . . . . ٢٥١

ملاحظات أولية (٢٥١) الجرائم (٢٥٣) الترددات ضد الآلة (٢٥٣)  
 الإتحادات، الإضرابات (٢٥٥) بواعث الإتحادات والإضرابات (٢٥٥)  
 التجاوزات المرتبطة بها (٢٥٧) السمة العامة للنضال الذى تشنه  
 البروليتاريا الإنجليزية ضد البورجوازية (٢٦٣) المعركة في مانشستر  
 في مايو ١٨٤٣ (٢٦٥) احترام القانون أمر غريب على البروليتاريا  
 (٢٦٧) الميثاقية ٢٦٨ تاريخ الحركة الميثاقية (٢٦٨) الخروج على السلطة  
 في عام ١٨٤٢ (٢٧٠) الفصل القاطع بين الميثاقية البروليتارية والراдикаلية  
 البورجوازية (٢٧٣) الطبيعة الاجتماعية للميثاقية (١٧٥) الاشتراكية  
 (٢٧٥) وجهات نظر العمال (٢٧٨)

## ● البروليتاريا التعدينية . . . . . ٢٨١

عمال مناجم كورنول (٢٨٢) ألستون مور (٢٨٢) مناجم الفحم



والحديد (٢٨٤) عمل الرجال البالغين ، النساء والصبية (٢٨٤) علل  
 خاصة (٢٨٥) العمل في المداخل او اعطى للمناجم (٢٨٨) الحوادث ،  
 الانفجارات ، الخ (٢٨٩) التعليم الذمى (٢٩٠) الاخلاق (٢٩١)  
 القوانين المتعلقة بصناعة التعدين (٢٩٢) الاستغلال المنظم لعمال مناجم  
 الفحم (٢٩٢) بداية الحركة العمالية (٢٩٣) إتحاد عمال مناجم الفحم  
 (١٩٤) الحملة الكبرى لعام ١٨٤٤ في شمال إنجلترا (١٩٤) روبرتس  
 والحملة ضد قضاة الصلح ونظام دفع أجر العامل صنفاً لا نقداً (٢٩٥)  
 نتائج النضال (٢٩٦)

### ● البروليتاريا الزراعية . . . . . ٣٠١

مسح تاريخي (٣٠١) الفاقة في الريف (٣٠٢) حال عمال الأجر (٣٠٣)  
 الحرائق العمدة ٣٠٧، عدم الاكتراث بقوانين الفحم (٣٠٩) الحالة  
 الدينية للعمال الزراعيين (٣١٠) ويلز : المستأجرين الصغار (٣١١)  
 اضطرابات « ربيكا » (٣١٢) أيرلندا : تجزئة الأرض (٣١٢) إفقار  
 الأمة الأيرلندية (٣١٣) الجرائم (٣١٦) الإثارة من أجل فسخ إتحاد  
 أيرلندا مع إنجلترا (٣١٦)

### ● موقف البورجوازية من البروليتاريا . . . . . ٣١٩

فساد آداب البورجوازية الإنجليزية (٣١٩) جشعها (٣١٩) الاقتصاد  
 السياسى والمنافسة الحرة (٣٢٠) التظاهر بالإحسان رياء (٣٢١) نفاق  
 الاقتصاد السياسى والسياسة فى مسألة قوانين التمتع (٣٢٢) التشريع  
 البورجوازي والعدالة (٣٠٤) البورجوازية فى البرلمان (٣٢٦) لائحة  
 تنظيم علاقة السيد بالخدام (٣٢٧) نظرية مالتس (٣٢٧) قانون الفقر  
 القديم (٣٢٨) قانون الفقر الجديد (٣١٩) أمثلة عن المعاملة الوحشية  
 للمعقرات فى دور تشنيل الفقراء (٢٣١) فرص البورجوازية الإنجليزية  
 (١٢٩)

### ● ملاحظات . . . . . ٢٤٥

رقم الايداع ٤٠٥٨ / ١٩٨٠

مطبعة عابدين  
٩ شت المقادس ٩٠٢٧٧٤



## هذا الكتاب

كتب انجلز هذا الكتاب في الفترة ما بين سبتمبر ١٨٤٤ ومارس ١٨٤٥ .  
لقد درس انجلز حال الطبقة العاملة الانجليزية عندما كان يعيش في انجلترا من  
نوفمبر ١٨٤٢ إلى أغسطس ١٨٤٤ . كان ينوى في البداية أن يتناول هذا الموضوع  
في فصل واحد ضمن كتاب عن التاريخ الاجتماعي لانجلترا . إلا أن الدور الخاص  
للطبقة العاملة في المجتمع البورجوازي جعل لازماً على انجلز أن يكتب هذا  
الموضوع في كتاب منفصل .

ويرى انجلز أن هذا العمل لا يمكن النظر إليه كعمل ماركسي ناضج . إنه ، من  
وجهة نظره ، يظهر في كل نواحيه آثار إنحدار الاشتراكية الحديثة من الفلسفة  
الألمانية التي هي واحدة من أسلافها .

ويشرح انجلز لماذا أخطأت نبوءته عن الثورة الاجتماعية في انجلترا . إنه  
يرى أسباب إنحدار الميثاقية بعد عام ١٨٤٨ والانتصار المؤقت للانتهازية في  
صفوف حركة الطبقة العاملة . ويعود فيؤكد انتصار الاشتراكية في انجلترا  
عندما تفقد انجلترا وضعها الاحتكاري .

إن كتاب حال الطبقة العاملة في انجلترا يجسد المنهج العلمي في تقصي الواقع  
ودراسة مشاكله وقضاياه . كما أنه يقدم منهجاً شجاعاً مسؤولاً في مواجهة الخطأ  
وإرجاعه إلى مسبباته .

إن هذا الكتاب يشكل ضرورة قصوى لكل باحث اجتماعي يستهدف  
الحقيقة . إنه يقدم الواقع كما هو حقاً ، دون فرض أطر خاصة عليه . إنه يقول  
في بساطة وأمانة ، إن اردنا أن نحل قضايا الواقع ، فعلينا أن نفهمها أولاً ، وكى  
نفهمها جيداً ، علينا أن نعيش فيها ونعيش أصحابها .